مجلة

علوم الإنسان والمجتمع

مجلة دولية محكمة تصدرها كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة بسكرة الجزائر

العدد: 09

جمادى الأول 1435هـ/ مارس 2014م

I.S.S.N :2253-0347

رقم الإيداع القانوني: 1695-2012

أنجز بمطبعة جامعة محمد خيضر بسكرة

ص.ب 145 ق.ر بسكرة 07000 الجزائر

مجلة

علوم الإنسان والمجتمع

جامعة بسكرة الجزائر

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

العدد **09**: **جمادى الأول** 1435**هـ/ مارس** 2014**م**

المراسلات

توجه جميع المراسلات باسم رئيس التحرير أ.د عبد الرحمان برقوق إلى :
ص.ب 145 **ق.ر.بسكرة** 07000 **الجزائر**

الهاتف/ الفاكس: 0021333501260

البريدالالكتروني: revue.fshs@univ-biskra.dz

مجلة علوم الإنسان والمجتمع

جامعة بسكرة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قواعد النشر:

- تنشر مجلة "**علوم الإنسان والمجتمع**" الأبحاث والدراسات العلمية والفكرية في تخصصات العلوم الإنسانية والاجتماعية باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية وفقا للشروط التالية:
- تقدم المقالات مطبوعة على الورق في نسختين وفي حدود 15 صفحة بصفحات المجلة، مصحوبة بقرص مضغوط وفق برنامج « Microsoft Word » بالنسقين العادي و RTF.
- تتضمن الورقة الأولى العنوان الكامل للمقال، اسم الباحث ورتبته العلمية المؤسسة التابع لها(قسم، كلية وجامعة)، الهاتف والفاكس، العنوان الالكتروني وملخصين للموضوع في حدود مأتي كلمة أو ثمانية سطور أحدهما بلغة المقال والثاني بإحدى اللغتين الأخريين على أن يكون أحد الملخصين باللغة العربية .
- تكتب المادة العلمية العربية بخط من نوع Simlified Arabic مقاسه 12 بمسافة 21 نقطة بين الأسطر، العنوان الرئيسي Simplified Arabic 14 Gras، العناوين الفرعية Simplified Arabic

12Gras، أما الفرنسية أوالانكليزية فتقدم بخط من نوع Times New Roman مقاسه 12.

- هوامش الصفحة تكون كما يلي: أعلى 02، أسفل 02، يمين 02، يسار 02، رأس الورقة 1.5، أسفل الورقة 1.25، حجم الورقة مخصص(x1623,5).
- تضبط الجداول والأشكال مرقمة ومعنونة وفقا لهوامش الصفحة الآنفة الذكر، و يستحسن أن تعد بالطريقة الآلية أي بالبرامج المخصصة لها.
- يرقم التهميش والإحالات بطريقة آلية« Note de fin » على أن تعرض في نهاية المقال بالترتيب التالي: المؤلف: عنوان الكتاب أو المقال، عنوان المجلة أو الملتقى، الناشر، البلد، السنة، الطبعة والصفحة.
- المقالات المرسلة إلى المجلة لا ترجع إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
- المقالات المنشورة في هذه المجلة لا تعبر إلا عن آراء أصحابها.
- يحق لهيئة تحريرالمجلة إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة متى لزم الأمر دون المساس بالموضوع.
- كل مقال لا تتوفر فيه هذه الشروط لا ينشر مهما كانت قيمته العلمية.
- يرسل المقال في قرص مرن مرفقا بنسختين مطبوعتين إلى عنوان الجامعة و البريد الإلكتروني على:

revue.fshs@univ-biskra.dz

المادة التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها

مجلة علوم الإنسان والمجتمع

مجلة تعنى بالدراسات الاجتماعية والنفسية و الاعلامية والتاريخية

باللغة العربية واللغات الأجنبية

الرئيس الشرفي للمجلة

أ.د بلقاسم سلاطنية مدير جامعة بسكرة

رئيس التحرير

أ.د عبد الرحمان برقوق: عميد كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

هيئة التحرير

أ.د عبد العالي دبلة

أ.د علـــــي آجقو

أ.د نور الدين زمام

إعداد وإخراج

د. عبيدة صبطي

الهيئة العلمية

أ.د سلاطنية بلقاسم، جامعة بسكرة ، الجزائر	أ.د علي آجقو، جامعة بسكرة ، الجزائر
أ.د زمام نور الدين، جامعة بسكرة، الجزائر	أ.د عبد العالي دبلة، جامعة بسكرة ، الجزائر
أ.د نصر الدين جابر، جامعة بسكرة ، الجزائر	أ.د الطاهر إبراهيمي، جامعة بسكرة ، الجزائر
أ.د حسان الجيلاني، جامعة بسكرة ، الجزائر	أ.د عبد العزيز علي الخزاعي، جامعة الأردن
أ.د ديدييي لوساوت، جامعة باريس 8 ، فرنسا	أ.د عبد الخالق يوسف الختاتنة، جامعة الأردن
أ.د السعيد فكرة، جامعة باتنة ، الجزائر	أ.د خليل معن العمر، جامعة سيدني، استراليا
أ.د دحو فغرور، جامعة وهران ، الجزائر	أ.د عيسى قادري، جامعة باريس 8، فرنسا
أ.د ميلود سفاري، جامعة سطيف ، الجزائر	أ.د علي قوادرية، جامعة سكيكدة ، الجزائر
أ.د مـــــراد بوطبـــة ، جامعة أم البواقي	أ.د عبد العزيز العايش، جامعة خنشلة، الجزائر
أ.د رشيد حمدوش، جامعة الجزائر 2، الجزائر	د/أشرف صالح محمد سيد، جامعة ابن رشد، هولندا
أ.د الهاشمي مقراني، جامعة الجزائر 2 ، الجزائر	د/ صالح محمد حُميد، جامعة الصنعاء، اليمن.
أ..د ابراهيم بلعادي، جامعة قالمة ، الجزائر	د/علا عبد المنعم مصلحي الزيات، جامعة المنوفية، مصر.

المحتويات

الافتتاحية		11
الدراسات التاريخية		
01	الكنيسة في مملكة بيت المقدس عصر الحروب الصليبية الدور والواجبات (1099 – 1187) أ.د/ فتحي عبد العزيز محمد، جامعة الباحة، السعودية د/ أشرف صالح محمد سيد، جامعة ابن رشد – هولندا	15
02	كتب النوازل بين الاستعمال الفقهي والتوظيف التاريخي - المعيار المعرب للونشريسي أنموذجا- الباحث: مسعود كربوع، جامعة باتنة، الجزائر	49
	الدراسات الاجتماعية	
03	الإعلام والتحول الديمقراطي أ.د/ مصطفى عوفي، د/ الطيب بلوصيف، جامعة باتنة، جامعة سطيف2، الجزائر.	81
04	دور الثقافة التنظيمية في الاتجاه نحو التغيير التنظيمي أ.د/ نور الدين تاوريريت، أ/نسيمة بومعراف، جامعة بسكرة، الجزائر.	103
05	دور التوترات الاجتماعية في تفشي الممارسات السحرية و الشعوذية	125

	في المجتمع التونسي، دراسة سوسيولوجية ميدانية. د/ سعيد الحسين عبدولي، جامعة تونس.	
06	تجربة استصلاح الأراضي الصحراوية في أبعادها السوسيو- اقتصادية د/ رشيد زوزو، جامعة بسكرة، الجزائر.	159
07	التطوير الحضري والتنمية المستدامة في الجزائر (نحو رؤية واقعية لحاجات الحاضر و متطلبات المستقبل) د/سعاد عباس، الباحثة: صبرينة معاوية، جامعة الجزائر 2، جامعة بسكرة، الجزائر.	183
08	التثاقف: الاستراتيجيات والآثار أ/ لحسن العقون، جامعة بسكرة، الجزائر.	201
09	الاتصال الأسري في ظل التكنولوجيا الباحثة: زينب مرغاد، جامعة خنشلة، الجزائر.	229
10	البيئة كمجال تعليمي في المدرسة الابتدائية بالجزائر الباحثة: مازيا عيساوي، جامعة بسكرة، الجزائر.	257
	الدراسات النفسية و التربوية	
11	اختبار فعالية برنامج انتقائي متعدد الأبعاد-نموذج أرنولد لازاروس- لعلاج الاكتئاب لدى المراهقة المتمدرسة (دراسة حالة) أ.د/ نور الدين جبالي، أ/وردة يحياوي، جامعة باتنة، جامعة	279

	بسكرة، الجزائر.	
12	دور الانحرافات الجنسية في ظهور سلوك العود للجريمة لدى المرأة - دراسة سيكودينامية لحالات بمدينة بسكرة أ.د/ نصر الدين جابر ، الباحثة: زرورة عبيد، جامعة بسكرة، الجزائر.	301
13	التعليم الابداعي ....اليابان نموذجا د/ انتصار الكرد ، جامعة البليدة 2، الجزائر.	321
14	الإرشاد الأسري للأطفال ذوي الإعاقة العقلية أ/ حسينة طاع الله، جامعة بسكرة، الجزائر.	335
	الدراسات باللغة الأجنبية	
15	**Représentations des langues en présence chez les enseignants , algériens : « contact » ou « conflit » ?** **Zineb Moustiri, Université Biskra .**	**3**
16	**Pour une étude titrologique de « À quoi rêvent les loups » de Yasmina,** **Aziza Benzid , Université Biskra .**	**25**

الافتتاحية

تدخل مجلة علوم الإنسان والمجتمع التي تصدرها كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة محمد خيضر بسكرة، في عامها الثالث، إذ فتحت صفحاتها ونشرت مجموعة من الأبحاث المتنوعة وذات الطابع التاريخي والسياسي والاجتماعي والنفسي...الخ، وهذا يعني أن التحدي الذي تم رفعه سنة 2012 والمتمثل في ضمان إنتاج منتظم للمجلة، قد تم تجسيده فعليا بحمد الله.

هذا وقد تم نشر العدد التاسع من **مجلة علوم الإنسان والمجتمع** تزامنا مع احتفالات الجزائر **بعيد النصر** الذي يؤرّخ للاتفاق على وقف إطلاق النار بين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية و حكومة الاحتلال الفرنسي بتاريخ 19 مارس 1962م بعد مفاوضات بين الطرفين عرفت باتفاقيات إيفيان.

و لقد ضحى رجال ونساء وشيوخ وأطفال بأرواحهم من أجل استرجاع الجزائر حريتها وسيادتها واستقلالها فبفضل التضحيات التي قدمها هؤلاء الأبطال استرجعت الجزائر حريتها المغتصبة.

و لا يفوتنا في الأخير، أن نشير إلى تعاوننا مع **شركة المنهل التكنولوجية**، حيث تم توقيع اتفاقية نشر إلكترونية مع الشركة، وما لها من أثر في نشر العلم والمعرفة، والمساهمة في تسهيل عملية البحث العلمي للطلبة والباحثين من مواكبة المستجدات العلمية، وزيادة قدراتهم البحثية بنشر أعداد **مجلة علوم الإنسان والمجتمع** والاستفادة منها من قِبل الباحثين في جميع دول العالم.

رئيس التحرير

البروفيسور: عبد الرحمان برقوق

الدراسات التاريخية

الكنيسة في مملكة بيت المقدس عصر الحروب الصليبية

الدور والواجبات (1099 – 1187)

الأستاذ الدكتور : فتحي عبد العزيز محمد، جامعة الباحة، السعودية

الدكتور: أشرف صالح محمد سيد، جامعة ابن رشد – هولندا

الملخص:

موضوع هذه الدراسة هو واجبات الكنيسة في مملكة بيت المقدس اللاتينية منذ قيام المملكة 1099 وحتى استرداد بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي 1187. وذلك للتعرف على دور الكنيسة وطبيعته، وأهدافه، حتى يمكن تقدير حجمه، ومعرفة أثره. مع تناول التواجد الكنسي اللاتيني في الأرض المقدسة، حيث أن الفترة التي يعرض لها البحث تمثل المرحلة الهامة في تاريخ الكنيسة اللاتينية فقد كانت مرحلة خصبة تعددت فيها أعمال وأنشطة وعلاقات الكنيسة.

Abstract:

The subject of thisstudy isthe role of the Church in Latin kingdom of Jerusalem, since the establishment of the Kingdom 1099, and even recover Jerusalem by Saladin 1187.To identify the role of the Church, it's objectives, impact, and achievements that has had a direct impact on the future of the crusading movement.In addition to showcasing ecclesiastical Latin presence in the Holy Land,where period of the study represents an important stage in the history of the Latin Church. It was a fertile phase; there was many Works, activities and relations of the church.

مقدّمة:

قبل قدوم الصليبيين إلى منطقة فلسطين وتأسيس مملكة بيت المقدس لم يكن هناك أي وجود للشعائر الدينية اللاتينية على أرض تلك المنطقة، فيما عدا مستشفى القديس يوحنا في القدس التي كانت تقدم خدماتها للحجاج اللاتين.ومع مقدم الصليبيين إلى المدينة المقدسة، وقيام حكمهم فيها، واتساع رقعة الأرض التي سيطروا عليها بدأت الكنيسة اللاتينية تأخذ شكلها تدريجيًا فوق الأرض المقدسة.

وتأتي أهمية هذا البحث من ندرة الكتابات العربية المتخصصة التي تناولت موضوع التواجد الكنسي اللاتيني في الأرض المقدسة، فالفترة التي يعرض لها البحث تعددت فيها أعمال، وأنشطة، وعلاقات الكنيسة، مما يجعلها مرحلة هامة في تاريخ الكنيسة اللاتينية.

وفي سبيل إنجاز هذا البحث تم اتباع المنهج العلمي التاريخي لدراسة دور الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس والتعرف عليه، وعلى طبيعته وأهدافه، حتى يمكن تقدير حجمه ومعرفة أثره، وما حققه من نتائج كان لها أثرها المباشر على مستقبل الحركة الصليبية. وعلى هذا تناول البحث شكل وتنظيم ومنشآت الكنيسة، وثرواتها، ثم واجبها في الحرب، بالإضافة إلى واجباتها الرعوية الأخرى (أعمال الحج ورعاية الحجاج، الأعياد، العماد، الإصلاحات الكنسية)، وذلك من خلال خمس عناصر رئيسة هي:

- تنظيم الكنيسة في بيت المقدس.
- المنشآت الكنسية.
- ثروات الكنيسة ومصادر الدخل.
- دور الكنيسة في الحرب.
- الواجبات الرعوية.

1. تنظيم الكنيسة في بيت المقدس

لقد بدأ تنظيم الكنيسة مع بداية اختيار البطريرك، وكان ذلك العمل منطقيًا، فقد كانت بطريركية بيت المقدس خالية من بطريركها الأرثوذكسي الذي ترك المدينة قبل قليل من قدوم الصليبيين، كذلك فإن اللاتين كانوا الغالبية المسيطرة على المدينة المقدسة حينذاك[1] وتزامن تنظيم الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس مع فتوحات وتوسعات الملوك،كما كان للعلاقة بين البطريرك والملك أثرها الواضح في شكل التنظيم.

لقد حصلدايبرت من جودفريالبوايوني، أول حاكم للقدس على ربع مدينة يافا، ووعد بإعطائه يافا والقدس معًا في حالة اتساع المملكة أو موته دونما وريث شرعي [2]، بينما لم يتمكن من الحصول على مكسب ذي بال لصالح الكنيسة في عهد بلدوين الأول بسبب الخلاف الذي شجر بينهما.ولم يتغير الوضع في بطريركية ايفرمار (1102-1108م) الذي كان يفتقر إلى القدرات التي يتحتم أن يتمتع بها رجل في مثل منصبة.

ولقد كان خليفته جبلين (1108-1112م) قادرًا على ممارسة دوره في تنظيم الكنيسة اللاتينية دونما معارضة من أي جانب لفوزه برضاء كل الأطراف سواء الملك أو رجال الدين.

اعتلى جبلين عرش البطريركية سنة 1108م، ولم يكن يتبع بيت المقدس سوي أسقفيتين، أقيمت الأولى في الرملة أثناء تقدم الصليبيين صوب بيت المقدس سنة 1099م [3]، وأقيمت الثانية في قيسارية عند استيلاء بلدوين الأول عليها سنة 1101م، وقام برسم أسقف لاتيني بها في نفس العام. ودفع ذلك العمل مؤرخًا مثل ريتشارد إلى القول بأن تنظيم الكنيسة كان عملاًارتجاليًا [4] وكان على جبلين أن يعمل من أجل تنظيم الكنيسة بصورة منطقية، وقد كان اهتمامه الأول توفير الخدمة الكنسية التي تتناسب وقدسية بعض الأماكن، مثل بيت لحم التي قام برفعها إلى أسقفية رغم تعارض ذلك مع النظام الكنسي الأرثوذكسي السابق. وتكرر ذلك الأمر أكثر من مرة في مملكة بيت المقدس.

وكان هناك أكثر من سبب لمثل ذلك العمل بالنسبة لبيت لحم، لقد حظيت كنيسة المهد بقدسية خاصة، وتم بها تتويج بلدوين الأول ملكا، كما أن بلدوين الأول أراد رفعها إلى أسقفية وقام ببعض الإجراءات في هذا الشأن رغم أنها تتبع عسقلان حسب التنظيم الكنسي الأرثوذكسي وأرسل إلى البابا حول الأمر.

وكان جبلين على علم برغبة بلدوين قبل قدومه إلى القدس، فقد عهد إليه البابا باسكال الثاني ببحث الموضوع. وبقرار من البطريرك وموافقة من الملك ورجال الدين تم تنصيب اشيتنوس Aschetinus كأول أسقف لاتيني لبيت لحم على أن تتبعه عسقلان التي لم يستول الصليبيون عليها قبل سنة 1153م.

كذلك قام جبلين بتنصيب أسقف لاتيني لكنيسة الناصرة والتي بها الأماكن المقدسة وكنيسة البشارة، ولم يكن هناك تعارض بين ما قام به جبلين والنظام الأرثوذكسي القديم، فقد كان للمدينة أسقف يتبع البطريرك مباشرة غير أن المعارضة جاءت من قبل مقدم جبل طابور اللاتيني. الذي كان يزعم لنفسه مكانة أسقفية نتيجة حصوله على اختصاصات أسقف من قبل البابا باسكال الثاني سنة 1107م [5] وتسلم أول أسقف لاتيني للناصرة مهام منصبة كما تبين الوثائق سنة 1109م، وامتد نفوذه على كل الجليل [6] .

ويمكن تفسير اهتمام جبلين ببيت لحم والناصرة في ضوء إحساس الصليبيين بأهمية أن تكون مثل تلك الأماكن التي تحوي الأضرحة الكبيرة للمسيحية ضمن الهيئة الكنسية، وألا تكون مهملة الشأن.

ولقد أراد جبلين نشر النظام الأوغسطيني، وإقامة أساقفة لاتين في المدن الساحلية التابعة للمملكة، وكانت مدينة عكا بيد الصليبيين منذ سنة 1104م، ورغم أهميتها فإنها لم ترق إلى أسقفية. وقد قام بلدوين الأول في سنة 1110م بالاستيلاء على مدينتي بيروت وصيدا، وتمثل المدينتان جزءًا من إقليم صور الذي يتبع بطريركية أنطاكية حسب النظام الأرثوذكسي القديم، غير أن جبلين، وبتأييد من الملك بلدوين، أراد ضم الميناءين إلى نفوذه الكنسي. ويرجع موقف بلدوين إلى

رغبته في أن تكون المناطق التابعة لسيطرته تابعة لبطريركيته، وكان مبرر جبلين في ضم المدينتين هو أن خمسة قرون من التواجد الإسلامي كفيلة بإحداث فوضي في التقسيم الكنسي القديم [7].

وقد أخذت البابوية جانب بيت المقدس في البداية، حيث قرر البابا باسكال الثاني ضرورة ضم كل ما يفتحه بلدوين الأول إلى بطريركية القدس. وكان لاحتجاج بطريرك أنطاكية الشديد وإعرابه عن خشيته من ضياع بيروت وكل إقليم صور من عرشه إن تراجعت البابوية عن قرارها [8]. ولدينا مجموعة الرسائل المتبادلة بين البابوية وبطريركيتي بيت المقدس وإنطاكية في هذا الشأن. وتعكس تمسك كل طرف في مواجهة الأخر بمد نفوذه على إقليم صور.

ولقد كان إقليم صور جديرًا بأن يثير ذلك النزاع، فهو (أي إقليم صور) "مطرانية كل فينقيا والتي تحتل دومًا المرتبة الأولى بين أقاليم سوريا، إما بسبب غناه المبارك الوصف أو كثرة سكانه [9]. ولقد ظلت المشكلة حول إقليم صور معلقة حتى بعد وفاة جبلين، بيد أن ذلك لا ينتقص من دوره شيئًا، فإن ماقام به كان له أثره فيما بعد حول التنظيم الكنسي في الإقليم.

لم يحدث تقدم كبير في أمر التنظيم الكنسي خلال بطريركية أرنولف (11121118م)، وذلك رغم أنه كان على وفاق مع الملك بلدوين الأول، وقد أمكن لأرنولف بمساندة بلدوين الأول فرض النظام الأوغسطيني على الرهبان الكنسيين بالضريح المقدس [10].

ولقد تمت في عهد جرموند (11181128م) قليل من الإجراءات بشأن التنظيم الكنسي. وظل تنظيم الكنيسة في عهده دون اكتمال. غير أنه استطاع فرض النظام الأوغسطيني في الخليل بعد اكتشاف رفات كل من إبراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام تحت أسوار كنيستها سنة 1119 [11].

وكان لتقاعس جرموند عن أداء واجباته الدينية أثره في عدم اكتمال النظام الكنسي. فقد وعد برئاسة حفل نقل رفات الأنبياء الثلاثة إلى داخل الكنيسة، ورغم ذلك لم يفعل شيئًا [12].

واستمر النزاع حول صور في عهد جرموند، وبرغم أن المدينة كانت لا تزال بحوزة المسلمين فإنه قام بتعيين أودو ODO في سنة 1122م رئيس أساقفة لها. ويمكن أن يفسر ذلك المسلك من جانبه بأنه محاولة لتأكيد نفوذه على الإقليم، إلا أن أودو مات قبل الاستيلاء على المدينة. ولم يقم جرموند بتعيين غيره إلا حوالي سنة 1127م، فقد كرس وليم الذي كان مقدمًا بالضريح لذلك النصب، وكان النصر حليف جرموند بقبول البابوية تبعية صور لبطريركية بيت المقدس [13].

ورقيت في عهد جرموند أسقفية الناصرة إلى رئاسة أسقفية وصارت مطرانية الخليل وتم ذلك في نهاية عهده أي سنة 1128م [14].وحدث قليل من التطور في تنظيم الكنيسة في بداية بطريركية ستيفن الشارتري (1128-1130م)، فقد أمكن له إنشاء أسقفية في سبسطية رغم قلة عدد سكانها وذلك لأن بها مدفن القديس يوحنا المعمدان. وقد كانت تلك الأسقفية تابعة لرئاسة أساقفة قيسارية وأنشئت حوالي سنة 1129م.

ويبدو أن ذلك تم نتيجة التعاون الذي كان بين البطريرك ستفن والملك بلدوين، إلا أن التعاون بينها كان قصير الأجل فقد دب الخلاف بينهما سريعًا مما كان له أثره على مواصلة مسيرة التنظيم الكنسي.وفي بطريركية وليم الأول (1130-1145م) نجد تنظيما لأوضاع الأسقفيات والمدن الساحلية ففي سنة 1133م أقيم الأسقف بلدوين بكنيسة بيروت وتم تكريس أسقف لاتيني لصيدا، واستقبلت عكا أول أسقف لاتيني لها في سنة 1135م رغم استيلاء الصليبيين عليها منذ سنة 1104م [15].

ويمكن القول؛ أن التنظيم الكنسي اللاتيني كان عملاً بطيئًا وارتبط إلى حد كبير بفتوحات المملكة وتوسعاتها، لقد كان التنظيم في الأساس عملاً سياسيًا أكثر منه احتياجًا رعويًا.وبالفعل فإن التنظيم لم يستقر ويتحدد شكله النهائي إلا قبل عقد تقريبًا من سقوط المملكة على يد صلاح الدين الأيوبي سنة 1187م. ولقد كانت بتراء ثالث الكنائس المطرانية التابعة للقدس في النظام الأرثوذكسي القديم، وقام أمالريك Amalric بطريرك بيت المقدس بتعيين جويركوسGuerricus أحد رهبان معبد الرب أول أسقف لبتراء بينما تم تعيين رينالد ابن أخت البطريرك فوشيه بطريرك بيت المقدس أسقفًا للخليل [16].

لقد اتخذ التنظيم شكله النهائي من خلال أربع مناطق كنسية على قمتهم بطريركية القدس ويتبعها رئاسات أسقفية الناصرة، صور، بتراء، بالإضافة إلى أسقفيات تتبع البطريرك مباشرة هي أسقفية (اللد والرملة)، أسقفية بيت لحم وأسقفية الخليل.وقد دعم ذلك الهيكل الكنسي انتشار العديد من الأبرشيات ذات الشعائر اللاتينية على مدى مناطق المملكة. ومن خلال تلك الأبرشيات أمكن للكنيسة ممارسة واجباتها الرعوية المختلفة. غير أن السواد الأعظم من الجماهير الصليبية قد عاش داخل أسوار المدن أو القلاع [17].

وبعكس الأسقفيات لم تكن هناك أهمية كبري للحدود الرسمية بين الأبرشيات. وقد انتشرت تلك الأبرشيات في المدن والمناطق الريفية. وكان لحجم المدينة وعدد سكانها أثره في مكانة الأبرشية وأهميتها، وبصورة عامة كانت أبرشيات المناطق الريفية أقل شأنًا من أبرشيات المدن، ويرجع ذلك إلى أن المناطق الريفية كانت قليلة السكان، وتشمل إلى جانب اللاتين مسلمين ومسيحيين شرقيين.

وكان لتلك الأبرشيات دورها في خدمة اللاتين وفقًا للشعائر اللاتينية، وتجدر الإشارة إلى أنها لم تكن أماكن للعبادة فقط وإنما عملت على تقديم كافة الخدمات التي احتاجها المسيحي اللاتيني في نواحي عدة من حياته كالعماد والزواج

وغيره [18].لقد كانت الكنائس الكبيرة والكاتدرائيات في المدن والأبرشيات في البلدات الصغيرة والقرى صورة لنظام كنسي لاتيني غربي فوق أرض الشرق.

2. المنشآت الكنسية

ورافق التنظيم الكنسي في مراحله المختلفة اهتمامًا كبيرًا بتشييد الكنائس أو إعادة بناء وترميم القائم منها من قبل. ولم يكن مستغربًا أن يلجأ الصليبيون إلى تشييد الكنائس بالأرض المقدسة رغم وجود العديد منها، ويرجع ذلك إلى ما كان يجتاح أوربا في تلك الفترة من حماسة دينية جارفة، وقد انتقلت تلك الحماسة مع الصليبيين، كذلك فإنه لسبب أو لآخر تعرضت بعض الكنائس للتهدم [19].

وكان طبيعيًا أن يتجه اهتمام الفرنجة الأكبر نحو كنيسة الضريح المقدس لأنها أكبر وأهم الكنائس بالمدينة المقدسة. وقد وجد الصليبيون الجانب الشرقي من كنيسة الضريح المقدس عند مقدمهم مهدمًا، فقاموا بإعادة بنائها، وصارت في الحال كاتدرائية للبطريرك اللاتيني وألحق بها جماعة الرهبان الكنسيين. ويذكر وليم الصوري أن اللاتين قاموا بتوسيع الكنيسة الأصلية [20].

لقد قاموا بإضافات وأيضًا ببعض أعمال الترميم مثل إنشاء جناح ملحق بالقاعة الرئيسية المستديرة Routundaومنحه للجوقة. وتمت تلك الإضافات على الطراز الروماني الغربي. وانتهي العمل الذي استمر خمسين عامًا في يوم الخامس عشر من يونيهسنة 1149م في الذكرى الخمسين لغزو المدينة المقدسة [21].

ويعطينا يوحنا وورزبرج صورة للمبني بعد اكتماله بعدد من السنوات وكيفية الزيارة والخدمة القائمة على حراسته فيذكر أنه مبني دائري الشكل زخرف بالفسيفساء وفي مدخله الشرقي توجد غرفة انتظار، بها بابان من خلال أحدهما يمكن للأشخاص الدخول إلى الضريح، ومن الآخر يخرجون.

كما توجد بتلك الغرفة جماعة حراس الضريح ويوجد بها أيضًا باب ثالث صغير يقود إلى الجوقة. وخارج المبني أي على قمة الضريح، يوجد مذبح بنيت فوقه مظلة مربعة ذات ثلاث حوائط من حديد مشغول في تكوين جميل. ويعرف بمذبح

الضريح المقدس [22]. ويذكر بنفيستي أن الخطوط العامة للكنيسة لا تزال باقية إلى اليوم [23].

وقد لجأ الفرنجة إلى تحويل المساجد إلى كنائس في أكثر من مدينة مع ما في ذلك من دلالة تعصب واضحة. ففي مدينة القدس قاموا بتحويل مسجد قبة الصخرة إلى كنيسة وبنوا شمالها ديرًا وأطلقوا عليها معبد الرب Templum Domini، ولجأ الصليبيون إلى تغيير معالم الجامع.

ولدينا وصف ثيودريك للهيكل، فيذكر أن الهيكل نفسه كان على شكل مثمن في جزئه الجنوبي، وقد زخرف ذلك الجزء حتى منتصف الهيكل برخام فخيم، ومن المنتصف إلى الكنار زخرف بأعمال الفسيفساء، وفي داخل ذلك الكنار وحول الهيكل بأكمله باتجاه من الشرق إلى الغرب مع مسار الشمس كتبت نقوش أولها: "السلام يكون لذلك البيت إلى الأبد، من الآب الخالد"، وعلى الجانب الثاني "مقدس هيكل الرب" ويمضي ثيودريك في ذكر باقي النقوش حتى الجانب الثامن وفيه كتبت "بيت الرب بُني جيدًا على صخرة ثابتة".

وقام الفرنجة بإقامة عدد من المذابح، ويبدو أن الهيكل استخدم في بعض الواجبات الرعوية مثل العماد. فقد أقاموا به أيضًا أماكن للتعميد في الفناء[24]، وقد اعتلى قبة الجامع صليب ضخم، بيد أن تلك الإضافات أزيلت بأمر السلطان صلاح الدين الأيوبي عند دخول المسلمين القدس [25]. وأنشئت في القدس أيضًا كنائس عديدة منها كنيسة القديسة مريم اللاتينية سنة 1103م، والقديسة مريم العظيمة سنة 1140م، وفي نفس العام أنشئت كنيسة القديسة آن بمساعدة العائلة الملكية وكانت ايفيت Ivetteابنة بلدوين الثاني وأخت الملكة مليسند Melisende راهبة من راهبات دير القديسة آن حتى سنة 1144م [26].

وكانت حركة التشييد قائمة على قدم وساق خارج القدس، وفي المدن الأخرى التابعة للمملكة، ففي مدينة بيت لحم قام الصليبيون ببناء دير يعمل وفق النظام الأوغسطيني ورفعت كنيسة بيت لحم إلى كاتدرائية. وكان طبيعيًا أن تمتد

إليها يد التجميل والزخرفة بتصميمات من الفسيفساء لا تزال تجمل الحوائط المحيطة بصحن الكنيسة وجناحها1160م [27].

وقد تأثروا في أعمالهم بالفن البيزنطي، وكان ذلك في سنة 1160م [28].ومن الواضح؛ أن سياسة الصليبيين تواصلت في مجال تحويل المساجد، ففي الخليل مدينة الأنبياء، والتي استولى عليها الصليبيون بعد قليل من استيلائهم على القدس تم تحويل الجامع الإبراهيمي إلى كنيسة [29].

كذلك كان الوضع في مدينة نابلس، فبالإضافة إلى الكنائس العديدة التي أقامها الاسبتارية تحول جامع النصر إلى كنيسة تتبع الضريح المقدس. ومن بين الكنائس التي شُيدت هناك كنيسة الآلام والقيام The Passiom and Resurrection وقد بُنيت في سنة 1168م، حيث قام رهبان الضريح المقدس ببنائها بموافقة الملك عموري. كما قام الفرنجة بإعادة الحياة إلى الكنيسة البيزنطية القديمة، وأضافوا إليها بعض التجديدات [30].

وفي الناصرة أعاد الصليبيون بناء كنيسة البشارة، وذلك في حوالي الوقت الذي رقيت فيه إلى رئاسة أسقفية أي سنة 1128م، ويبدو أن ذلك التجديد محاولة لجعل الكنيسة على المستوي اللائق بمكانتها التاريخية والتنظيمية. كذلك أعاد الصليبيون بناء كنيسة اللد، وكانت قد تهدمت، وأضافوا إليها ديرًا [31].

لقد انتشرت الكنائس في كل أنحاء المملكة، وأعيد الحياة إلى كثير من المتبقي منها، وعلى الرغم من عدم وجود كنيستين متشابهتين ضمن ما استحدثه الصليبيون من كنائس، إلا أنه توجد بين تلك الكنائس ملامح مشتركة.شيدت الكنائس الصليبية من الداخل على النمط الملكي البازيلكي Basillican وفيه صحن الكنيسة الرئيس محاطًا من جانبه بجناح كنسي. ويستثني من ذلك كنيسة الضريح المقدس وكنيسة بيت لحم، رغم أن الأخيرة كانت على الطراز البازيلكي فقد كان بها جناحين على جانبي صحن الكنيسة [32].

وكانت الكاتدرائيات أكثر حظًا في مقاومة الزمن والبقاء إلى اليوم وذلك لصلابتها وقوة بنائها، بينما تعرضت الكنائس والأبرشيات الصغيرة للاندثار. ويعطينا Smail قائمة تحوي مصير تلك الكاتدرائيات التي أمكن لها البقاء ويذكر جبيل والضريح المقدس ضمن تلك الكنائس [33].

وكان لاهتمام الفرنجة بأعمال الزخرفة والتصوير أثره الواضح على الكناس التي شادوها، لقد رسموا اللوحات الجصية والفسيفساء ووضعوا بالكنائس تماثيل بالحجم الطبيعي للمسيح والقديسين، كما نقشوا كتابات من الإنجيل، وبدا واضحًا تأثر الفرنجة بالفن البيزنطي، وربما قاموا بالاستعانة بالفنانين البيزنطيين [34].

3. ثروات الكنيسة ومصادر الدخل

وكان طبيعيًا أن يكون وراء ذلك التنظيم الكنسي الكبير وحركة الإنشاء والتجديد والترميم في أنحاء المملكة اللاتينية مصادر تمويل كافية، لقد كان ضروريًا بالفعل وجود أكثر من مصدر لتوفير المال اللازم.وبدايةً نجد أحد الحلول لتلك المشكلة متمثلاً في حقوق السيادة النسبية على المناطق التابعة للأسقفية، كما حدث في منطقة أسقفية اللد، حيث تم تعيين الأسقف روبرت الرويني Robert of Rouen أسقفا لها سنة 1099م، ومنحه مدينتي اللد والرملة والمناطق المحيطة بهما [35].

وكان المصدر الثاني المتاح للتمويل هو تحويل الأوقاف الأرثوذكسية للأسقفيات اللاتينية التي أقيمت محلها. غير أن ذلك الإجراء كان صعب التنفيذ، فقد كان من الضروري معرفة وتحديد تلك الأوقاف. ففي مدينة القدس لم يكن الأمر هينًا فقد رحل البطريرك الأرثوذكسي قبل ثمانية أعوام في صحبة رهبانه، وذلك قبل استيلاء الصليبيين على المدينة. وكان الأمر أكثر صعوبة في الأسقفيات التي استحدثها اللاتين فلم يكن لها أوقافًا. وفي مثل تلك الأحوال فإن أمراء الفرنجة كانوا مضطرين لمنحها أوقافًا جديدة وبيت لحم مثال لتلك الأسقفيات، فقد منحها الملك بلدوين الأول أوقافًا في الجوار وفي مدينة عكا ومنطقة عسقلان [36].

وكانت الهبات التي تتلقاها الكنائس أفضل مصادر توفير المال، ولأن بعض الكنائس والأديرة كان لها نصيب كبير من الشهرة، فإن نصيبها كان أكثر من الباقيات. وفي هذا الشأن كانت كنيسة الضريح المقدس أهم وأغنى الكنائس فقد حصلت على أراض داخل المملكة، وفي الأمارات الصليبية الأخرى،وأكثر من ذلك في كل أنحاء أوربا الغربية [37].

وإذا كانت بيت لحم والضريح المقدس قد فازا بنصيب الأسد في مجال الهبات، فإن كاتدرائيات أخرى لم تكن تملك أكثر من حدود أسقفيتها. فقد كانت الناصرة – وهي من الأماكن الهامة – لا تمتلك سوى ضياعًا قليلة شرق الجليل، وكان الموقف مشابها في الكاتدرائيات الأخرى ففيما عدا المقاطعة التي تتبع أسقفيتها لم تكن تملك شيئًا كثيرًا [38].

فقد حازت كنيسة صؤر أملاكا هناك، وكانت باقي الكنائس تمتلك الضياع بصفة هبات خارج الكنيسة. لقد كان عزاء الكنيسة اللاتينية في مملكة بيت المقدس عن ضياع القدس تلك الهبات التي كانت لها في عكا والأراضي الجديدة في قبرس وحتى بولندا.

ومهما يكن من أمر؛فإن الهبات بصفة عامة كانت كثيرة، وتشمل بالإضافة وإلي الأرض أشياء أخري مثل الزيوت والخمور مثل الزيوت والخمور والمصابيح والقناديل، بالإضافة إلى الممتلكات الشخصية وكان يوصي بها بعد الموت لبعض الكنائس في مقابل الصلوات والدعوات للراحل أو للمانح نفسه [39].

وكانت هبات الحجاج في مواسم الحج واحدة من دلائل التقوى، ومصدرًا من دخل الكنيسة، بل أنها كانت مصدرًا من مصادر دخل المملكة ذاتها، ففي كل عام يقدم الحجاج من الغرب والشرق للمشاركة في الأعياد والاحتفالات الدينية ويمضون الصيف في الأراضي المقدسة، ولقد كان للضرائب التي يدفعونها والمال الذي ينفقونه أثره على اقتصاد المملكة وماليتها [40].

وإذا كانت الصلوات والدعوات أو التقوى دوافع وراء المنح والهبات، فإننا نجد بعض المفاسد في مسلك البعض من رجال الكنيسة تجاه تلك المنح والهبات. فقد كان المفروض كما هو متفق عليه أن يتم تقسيم دخل كل الكنيسة بين الأسقف وأعضاء الكنيسة إلا أنه حدثت بعض التجاوزات في ذلك الصدد، ففي خريف سنة 1101م تلقي البطريرك دايمبرت هدية من روجر أمير أبوليا مقدارها ألف بيزنت على أن تقسم ثلاثة أقسام جزء للقبر المقدس، وجزء للمستشفي والثالث للملك للمساهمة في إعداد الجيش، غير أن دايمبرت احتفظ لنفسه بالمال كله مع ما في ذلك من غبن لحقوق من نص عليهما المانح [41].

وقد جلب ذلك المسلك السيئ على أصحابه كراهية العامة من أبناء المملكة، فقد كان أرنولف أقل شعبية نتيجة لاهتمامه بأمور عائلته واستخدامه لثروة الكنيسة في ذلك الشأن. فقد رتب زواج ابنة أخته أيماEmma من لورد قيسارية وصيدا يوستاكجارنير، ومنحها أريحا دوطة لها، وكانت تتبع كنيسة القدس [42].

وتذكر أحد الحوليات الكثير من المفاسد الكنسية الناجمة عن استغلال المنح والهبات استغلالاًسيئًا، فتعطينا صورة لحياة فاضحة مليئة بالسكر والمفاسد والانحلال والأعمال المخزية [43].

ولقد كان للكنيسة بالإضافة إلى ماسبق من مصادر للدخل، مصدر أخير وهو العشور. وكانت العشور ضريبة كنسية تفرض على كل مصادر الدخل، ويعني ذلك أنها كانت مفروضة على التجارة والصناعة وكل عوائد الأنشطة المختلفة. وكان المصدر الرئيس والدائم للعشور هو الإنتاج الزراعي، وكان مالك الأرض مسئول عن دفعها، كما أنها مقررة على المسيحيين اللاتين، وقد أعفي منها المسيحيين الشرقيين لأن مثل تلك الضريبة لم تكن معروفة في الشرق [44].

ولقد واجهت الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس بعض المشاكل والصعوبات بشأن تلك الضريبة، أول تلك المشاكل أن الأسقف لا يتلقى عشورًا عن الأراضي التي تملكها كنيسته وتقع في منطقة غير أسقفيته، فعندما

وافقت الملكة ميلسند على أن تتم مبادلة أملاك البطريرك ورهبان الضريح المقدس والتي توجد في منطقة كفر تقوع Thecua بتلك التي في بيثانيBethany فإنهم اضطروا لدفع العشور عن أرض بيثاني للأسقف في بيت لحم، في الوقت الذي لم يتلقوا عشورًا من كفر تقوع [45].

وقد سمحت الكنيسة لبعض الجماعات الدينية ببعض الإعفاءات المحدودة من أداء ضريبة العشور في منطقة القدس. وفعل برنارد أسقف الناصرة نفس الشيء فقام بإعطاءالأسبتاريةامتياز مشابه في أسقفيته سنة1125 م. كما تم إعفاء بعض الأديرة من تلك الضرائب إعفاءً محدودًا [46].

وعلي الرغم من أهمية العشور في تدعيم الهيكل الكنسي اللاتيني، إلا أن الكنيسة رغبة منها في تدعيم الجماعات الدينية لتأخذ دورها على أرض المملكة تساهلت إلى حد ما بمنح الإعفاءات المحدودة، وخير دليل على ذلك أنه في حالة قيام أي جماعة دينية بإنشاء كنيسة على أرضها وبتكلفة منها فإنه تثار مشكلة العشور، وهل تدفع للأسقف أم للكنيسة الجديدة، وغالبًا ما تترك لكنيسة الجماعة الدينية.

كما حظيت الكنيسة في مملكة بيت المقدس، وهي أغنى مالك للأراضي في الأرض المقدسة، بإعفاء من كل ماهو مقرر على الأموال والرسوم [47].

4. دور الكنيسة في الحرب

ورغم تلك الامتيازات التي حصلت عليها الكنيسة، فإن ذلك لا يعني أن ممتلكاتها كانت معفاة تمامًا من الالتزامات تجاه الدولة، خاصةً وأن المملكة كانت تواجه أعداء يحيطون بها من كل جانب وخاضت حروبًا كثيرة. ويذكر براور أن مستندًا كُتب في الربع الأخير من القرن الثاني عشر تضمن قائمة من المستعدين للعمل كقوة تكرسها الكنيسة للتاج [48].

وشاركت الكنيسة فعلاً في حروب المملكة، وكان ذلك بتوفير خدمة احتياطية طارئة بحجم معقول من الجند الرجالة لا خدمات الفرسان نظرًا لارتفاع تكلفة الفارس. ولقد التزم البطريرك والرهبان الكنسيين بكنيسة القيامة بتقديم

خمسمائة جندي، بينما التزم أسقف بيت لحم بتقديم مائتي جندي، كذلك التزم رئيس أساقفة صور بتقديم مائة وخمسين جندي، بالإضافة إلى ما تقدمه بعض الأديرة مثل دير القديسة ماري يوشيفاط ودير جبل صهيون [49].

وعلى الرغم من تكلفة الفارس الباهظة؛ فإن ذلك لم يمنع بعض الكنائس في المملكة من تقديم تلك الخدمة، فقد قامت بذلك كنيستا "اللد والرملة" والناصرة. ففي أسقفية اللد –الرملة كانت الكنيسة ملزمة بتقديم عشرة فرسان لإمرة التاج، وكانت أسقفية الناصرة ملزمة بتقديم ستة فرسان للملك ويرجع ذلك إلى ما حصلت عليه هاتان الأسقفيتان من ميزات خاصة، فقد حصلت كل منهما – كما سبق القول – على إقطاع [50].

غير أن المشاركة الكنسية في حروب المملكة لم تتوقف عند هذا الحد، لقد ساهم البطاركة أنفسهم وبصورة فعالة في حروب المملكة، وشاركوا في أعمال الحصار والمعسكرات، وأظهر بعضهم قدرات في ميدان القتال، بينما كان لمشاركة البعض منهم أثرها في رفع روح القتال لدي المحاربين.

ويخبرنا المؤرخ المجهول حول دور البطريرك في الإعداد للحرب وتجهيز الجند وتهيئتهم للقتال قبل معركة عسقلان، والتي جرت في الثاني عشر من أغسطس سنة 1099م فيقول "عندما حل المساء، نادي البطريرك في الجميع مطالبًا بضرورة الاستعداد في الصباح الباكر للمعركة، كذلك قام بإصدار قرار بالحرمان ضد كل من يفكر في الاستيلاء على شيء من الغنائم قبل انتهاء المعركة [51].

وشارك رجال الدين في اجتماعات الحرب لمناقشة أمور القتال بل والمشاركة في القتال ذاته، يروي لنا شاهد عيان أحد تلك الاجتماعات "لقد عقد البطريرك والأساقفة وباقي الزعماء اجتماعًا عند النهر في ناحية عسقلان، وهناك استولوا على عدد من الحيوانات والثيران والجمال والماشية وغنائم أخرى".

لقد قامت الكنيسة منذ نشأتها في المملكة المقدسة بدورها في ميدان القتال برعاية المحاربين، إلا أنه خلال بطريركية دايمبرت حدثت بعض التجاوزات. فقد

ألح الملك بلدوين الأول عليه في طلب منحة من هبات المؤمنين لتمويل الفرسان وجمع فرق جديدة في حربه ضد الجيش المصري (يوليه 1101م)، ورغم حاجة بلدوين الأول للمال فإن البطريرك سمح له بمائتي مارك من الفضة فقط، وأقسم أن ذلك كل ما تحويه خزانة الكنيسة[52].

ويبدو أن ذلك القسم كان باطلاً، فقد كشف خدم دايمبرت بعد رحيله إلى أنطاكية عن مخبأ الكنز الذي كان يحتوي على عشرين ألف بيزنت من الذهب. ولقد قام الملك بتقسيم ذلك المبلغ بين جنده وزاد لهم في الحد، فقد كان يعد لهجوم جديد على الفاطميين[53].

وتجدر الإشارة إلى؛أن ذلك البطريرك والذي لم يساند بلدوين الأول إلى الحد الذي كان بإمكانه القيام به، فعل ذلك نتيجة ما بينه وبين بلدوين من خلاف. والغريب أن نجده يشارك أمير أنطاكية وبطريرطها برنارد الفالنسي، ورئيس أساقفة الرها بندكت في معركة حران سنة 1104[54]، ويرجع ذلك إلى العلاقة القوية التي كانت تربطه بأمير أنطاكية وإيوائه له بها عندما خرج من القدس.

وحرص البطاركة على إثارة حمية المقاتلين، ويتم ذلك من خلال لقاء بين البطريرك والجنود. وفي اللقاء يمضي البطريرك بين صفوف الجند حاملاً الصليب المقدس ليحمي المقاتلين الذين على وشك الذهاب إلى الميدان، ولدينا صورة لما قام به البطريرك ايفرمار قبل بدء معركة لبلدوين مع الجيش المصري: فقد لبس البطريرك عباءته وأخذ بيديه الصليب الذي كان يحمل دومًا في مثل تلك المناسبات بعد كلمة ذكر فيها الجند بأعمال المسيح، طالبهم أن يقاتلوا بشراسة من أجل أسمه، ثم اندفع الجند إلى ميدان القتال بحماسة.

وكان البطاركة يمضون على رأس المقاتلين إلى ساحات القتال، فلقد شارك البطريرك جبلين – رغم كبر سنه – في حملة ضد مودود أتابك الموصل، وذلك أثناء رحلة طويلة مع فرقة ملكية سنة 1110م، وكان يحمل الصليب في مقدمة الجموع[55].

وكان البطريرك جرموند أكثر مقدرة وخبرة في ميدان القتال، ولم يكن يتوقع من رجل الدين أن يضطلع بمهام مثل التي اضطلع بها جرموند، وأبرز من خلالها مواهب عسكرية ذات شأن. فقد شارك جرموند مع الملك في حملة ضد مدينة دمشق في بداية عهده(56).

وكان لما قام به جرموند في "صور" أثره في اتساع رقعة المملكة اللاتينية فقد رتب البطريرك والنبلاء بالمملكة مع البنادقة الذهاب إلى صور وحصارها. وبالفعل قام البطريرك ومعه كل أتباعه بحصار صور في السادس عشر من فبراير سنة 1124م، وكان الملك بلدوين الثاني في الأسر في ذلك الوقت.

وقد طال حصار صور، ويذكر ابن ميسر أن الفرنج ملكوا صور بعد محاصرتها مدة، وتقاصر المأمون عن نجدتهم فأغاثهم ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق، ووصل إلى بانياس وراسل الإفرنج فوقع الاتفاق على أن يتسلموها بالأمان(57).

وتعددت مساهمات جرموند الحربية، فقام بحصار لحصن كان بحوزة جماعة من قطاع الطرق في منطقة صيدا، يسمي بلتسامBelthasem ولكنها كانت المساهمة الأخيرة، فقد "تعرض لعدوى مميتة، وأصيب بأمراض خطيرة(58).

كذلك فقد شارك وليم بطريرك بيت المقدس في حصار بانياس، ويبدو أنه كان حريصًا على ممارسة واجباته الرعوية أثناء القتال فقد "ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يتلون فيها يتولي خدمتها شيخ شماس منهم، وقد فرش أرضها بالحلفاء والحشيش(59).

ويبدو أن البطاركة كانوا مضطرين إلى حمل الصليب المقدس لما له من أهمية كذخيرة مقدسة في الحرب. ولميكن مسموحًا لأحد من صغار رجال الدين بانجاز مثل تلك المهمة، وفي حالة غياب البطريرك يمكن لأي أسقف أن يؤدي ذلك العمل، مثلما فعل إيفرمار، وكان في ذلك الوقت رئيس أساقفة قيسارية فنجده يسعي لرفع روح القتال بحمل – ما يعتقد – أنه الصليب الحقيقي أثناء معركة تل دانيت Tell Danithفي سنة 1119م(60).

وتجدر الإشارة هنا إلى؛أن هناك مَن لم يشارك من البطاركة في حمل الصليب، فلم يقم كل من أمالريك أو هرقل بتلك المهمة[61].ولقد شارك بعض رجال الدين في أعمال القتال الفعلي، ورغم ما يثيره هاملتون في هذا الصدد من جدل حول قوانين الكنيسة في الغرب والتي تمنع الرهبان والأساقفة والقسس من سفك الدماء. فإننا نجد أساقفة يقومون بأعمال قتالية ويصاحبون الجيوش في وقت لم يكونوا مضطرين فيه لذلك، مثلما فعل بلدوين أسقف قيسارية. وجيرارد مقدم طابور وذلك في معركة الرملة سنة 1101م[62].

لقد اهتم رجال الدين على كافة المستويات بحروب المملكة، ويعكس ذلك الاهتمام من جانب الكنيسة بناحية من نواحي الحياة لأبناء المملكة اللاتينية صورة خاصةً لواحد من أهم أدوار الكنيسة اللاتينية في المملكة، ولم تنس الكنيسة أن الصليبية فعلة كنسية.

5. الواجبات الرعوية

ومع اهتمام الكنيسة الكبير بالجانب الحربي فإنها لم تهمل واجباتها الروحية التي هي صميم عملها. ولقد كانت الكنائس بالإضافة إلى أعمال العبادة تؤدي واجبها نحو الحجاج. وكانت كنائس المملكة مزارات هامة في مواسم الحج، وتسعي إعداد كبيرة من الحجاج القادمين من كل أنحاء الغرب الأوربي لزيارتها والصلاة بها، خاصةً وأنها المناطق التي شهدت حياة وآلام السيد المسيح. وكان للإيمان والتقوى المنتشران في غرب أوربا في ذلك الوقت أثرهما في زيادة عدد الحجاج القادمين إلى بيت المقدس.

غير أن تلك الظاهرة لم تكن قاصرة على أبناء الغرب الأوربي، فقد شهدت المملكة جماعات الحجاج الشرقيين، وقد سجلت كتاباتهم تجاربهم في الحج والأماكن المقدسة التي زاروها، ولدينا رحلة الأسقف دانييل Daniel، أحد الحجاج الروس الذين زاروا الأرض المقدسة فيما بين سنة107 – 110م، وقد ذكر المزارات المقدسة التي رآها والشخصيات الهامة التي قابلها في العقد الأول من تأسيس المملكة.

واهتمت المملكة من جانبها بتوفير الأمان للحجاج، وباركت الكنيسة ذلك الموقف. فقد كان الطريق الرئيس من ميناء يافا إلى بيت المقدس عبر سهل الرملة محفوف بالمخاطر، لذلك نظم الداوية قوافل مسلحة لحماية الحجاج[63].

ويبدو أن الاهتمام بأمن الحجاج كان شغل الكنيسة الشاغل، ففي أعلى مستويات التنظيم الكنسي نجد البطريرك يشارك هو ومواطني بيت المقدس بالكامل في بناء حصن منيع لتأمين سلامة الحجاج المارين بمنطقة اللد، وذلك في منطقة بيت نوبا[64].

صار الحجاج حقيقة قائمة في حياة المملكة اللاتينية، فمع كل ربيع يقدم إلى المملكة أولئك الذين ينوون الاحتفال بالصوم الكبير في الأماكن المقدسة، وقضاء الصيف هناك.وقد يرجع اهتمام المملكة على وجه العموم بأمن الحجاج وتدبير احتياجاتهم إلى أسباب منها تأمين حركة الحج المتزايدة كل عام، وما تمثله أموال الحجاج التي ينفقونها والضرائب المفروضة عليهم من عنصر هام من عناصر اقتصاد المملكة[65].

واهتم الصليبيون بتوفير كل ما يحتاجه الحجاج، خاصةً وأن من بينهم فقراء كثيرين ربما أنفقوا ما معهم خلال رحلتهم، وكان على الكنيسة أن تقف إلى جانبهم، لذلك فإنه بناء على طلب البطريرك قام بلدوين الثاني برفع الضريبة التي كانت تؤخذ منهم، وكان يعاني منها الفقراء من الحجاج على أبواب القدس[66].

كما عملت المملكة على توفير الخدمات العلاجية للحجاج وذلك من خلال المستشفيات، ولا يعني مصطلح مستشفي في العصور الوسطي دائمًا مكانًا يتلقي المرضي فيه العلاج الطبي، غير أنه وجدت تحت هذه التسمية في المملكة ما لا يقل عن أربعة أنواع من المؤسسات العلاجية المختلفة، مشفى لعلاج المبرصين، وبيوتات للفقراء من المرضي أو المصابين المعدمين، ودور ضيافة للعجزة من الحجاج، وأبناء السبيل.

كما وجدت في القدس عدة مستشفيات ومستوصفات [67]، وكان لمستشفي القديس يوحنا Hospital of St. John الدور الأكبر في العناية بالحجاج عامة والفقراء منهم بصفة خاصة، وكما سبقت الإشارة كانت تلك المستشفي تعمل قبل قدوم الصليبيين حيث كانت تقدم نفس الخدمات في المدينة المقدسة للحجاج اللاتين، بيد أنه وفي حماية ملوك بيت المقدس نمت تلك المستشفي وتعددت خدماتها، وتفرعت منها مستشفيات أخرى في أنحاء المملكة [68].

وقد ظل المستشفي الرئيسي في القدس صاحب الدور الأكبر في ميدان خدمة الحجاج، وذكر أحد الحجاج ذلك الدور بقوله: "كان يتجمع في المستشفي الملحقة بكنيسة القديس يوحنا المعمدان وفي حجراتها المتعددة عدد كبير من المرضي، رجال ونساء، وأيضًا ناقهين يتماثلون للشفاء ... وعلمت أن عددهم يبلغ حوالى الألفين" [69].

ولا يعني ذلك أن مستشفي القديس يوحنا الوحيدة في ذلك المضمار، فقد قامت إلى جانبها مستشفيات أخرى،أسسها أفراد من ذوي التقوى، أو جماعات دينية مثل المستشفي الملحق بدير ماري يوشفاط، ومستشفي خدمة الحجاج في ميناء عكا[70]، كذلك فقد قام رهبان الضريح المقدس بإنشاءمستشفي لخدمة الحجاج بجوار الضريح وذلك بعد سنة 1099.

وكانت تلك العناية بالحجاج من جانب الدولة والكنيسة من عوامل جذب الحجاج وزيادة إعدادهم، إلا أن مشاركة الحجاج ومتابعتهم للاحتفالات الدينية أو الرسمية يعد عامل آخر لجذب الحجاج إلى مملكة بيت المقدس. فقد كان لتلك الاحتفالات وقع خاص في نفوسهم، بالإضافة إلى أن إجراءات الاحتفالات كانت تتم في أماكنها الطبيعية، وكما وردت في القصص الإنجيلية[71].

وقد تعددت الاحتفالات والأعياد الدينية في المملكة، ويرجع ذلك إلى ماتحفل به المدينة المقدسة من ذكريات ومناسبات دينية خاصة بها، بيد أن أهم تلك الأعياد كان عيد الخامس عشر من يوليه، ففيه تحتفل المملكة بمناسبتين هامتين من

تاريخها، الأولى ذكرى الاستيلاء على المدينة المقدسة، والثانية إعادة تجديد كنيسة الضريح المقدس وتكريسها للخدمة، ولم يتم ذلك الاحتفال واعتباره عيدًا من أعياد المملكة إلا بعد خمسين عامًا من تواجد الصليبيين بالأراضي المقدسة.

وكانت وقائع ذلك الاحتفال تجري في أماكنها الطبيعية، ويبدأ بموكب مهيب يتقدمه البطريرك، ومع الصباح الباكر يعبر الموكب من كنيسة الضريح المقدس إلى معبد الرب ويتوقف الموكب عند المدخل الجنوبي للصلاة والترتيل، وبعد ذلك يشق طريقه إلى المكان الذي سقط فيه قتلىالفرنجة.

ويقع ذلك المكان عند الجزء الشمالي من أسوار المدينة في الزاوية الشمالية الشرقية حيث يوجد صليب يحدد الموقع الذي اخترق منه أتباع جودفري المدينة المقدسة. وفي ذلك الموقع يقام قداس يرأسه البطريرك ويشهده رجال الدين والعامة، وتقام صلوات الشكر احتفالاً بتلك الذكرى [72].

ويقدم لنا يوحنا قس ورزبورج جانبًا من ذلك الاحتفال، وصورة لشكله ومراحله وسجلاً للصلاة والتراتيل المقامة في تلك المناسبة [73].وكان للأعياد الدينية ذات الطقوس الخاصة وقع كبير في نفوس المحتفلين من الحجاج أو المقيمين بالمملكة، وفيما عدا عيد الميلاد الذي كان طبيعيا أن يقام في كنيسة المهد ببيت لحم، فإن كل الاحتفالات كانت تبدأ من كنيسة الضريح المقدس وتنتهي في موقع الأحداث التي تمت فيها مناسبة تلك الأعياد [74].

وكان البطريرك يرأس كل الاحتفالات بنفسه، ولعل مرجع ذلك إلى عدم وجود كرادلة يفوض لهم الأمر[75].ولقد كانت تلك الاحتفالات تتعرض لما يعكر صفوها، فتقع خلالها بعض المنازعات والمشاجرات، كما أن المحتفلين أنفسهم لم يكونوا دومًا متوافقين فيما يقومون به من مظاهر الاحتفال، ولدينا صورة لمثل تلك الأعمال والتي قام بها الاسبتارية بهدف تعكير صفو مثل تلك الاحتفالات، ففي سنة 1155م، وأثناء أداء البطريرك لبعض الشعائر الدينية قام فرسان الهيئة برمي السهام عليه. كما قاموا بدق أجراسهم حتى لايسمع صوت البطريرك فولشر داخل كنيسة القيامة ببيت المقدس[76].

ومهما يكن من أمر؛فإن الأعياد الدينية كان لها بهجتها، رغم كل المنغصات، ومن بين تلك الأعياد "عيد أربعاء الرماد"، ويقع ذلك العيد في أول أيام الصوم الكبير وفيه يترأس البطريرك الاحتفال، وكان الاحتفال يبدأ بمقابلة البطريرك لرهبان الضريح المقدس والأخوة العلمانيين في قاعة الكنيسة، ومع الظهر تدق الأجراس الضخمة داعية الناس إلى قداس في الكنيسة المقامة في موقع الجمجمة Calvary، وينتقل الجميع إلى الضريح المقدس ليلقي البطريرك عظته، وبعد تلقي البركات فإنه يقوم بنثر الرماد فوق رؤوس المجتمعين[77].

وقد احتفل الفرنجة كذلك بعيد العذراء المباركة وتجسد الرب في الهيكل، وكان ذلك الاحتفال يتم في موكب بسيط يبدأ من الضريح المقدس وينتهي في هيكل الرب، وقد حمل المحتفلون القناديل[78].وكان عيد "أحد السعف" من بين الأعياد الهامة التي يمكن لكل رجال الكنيسة في بيت المقدس المشاركة فيها، لما تتطلبه طقوس ذلك العيد من مساهمة الكنسيين بأكملهم. فقبل أن تشرق الشمس كان رجال الكنيسة والبطريرك ورهبان جبل صهيون وجبل الزيتون ومقدم دير ماريا يوشفاط يذهبون إلى بيثاني، وهي على بعد ميل من القدس، ويأخذون معهم كل الذخائر المقدسة، وكان أقدسها ما اعتقد الفرنجة أنه صليب الصلبوت.

وفي ذات الوقت، فإن سكان المدينة يتجمعون في كنيسة القيامة مع رهبان الضريح. وهناك تتم مباركة سعف النخيل وأغصان الزيتون، ويقود رجال الكنيسة الموكب إلى بوابة يوشفاط، وهناك يقابلون الموكب القادم من بيثاني الذي يتقدمه البطريرك ومعه الصليب المقدس.ويتمثل القوم ما فعله السيد المسيح في ذلك اليوم عندما ترك بيثاني ومضي إلى منطقة بيت فاجه Bet Phage وهي مكان في منتصف الطريق بين بيثاني وجبل الزيتون ثم مضي عبر جبل الزيتون إلى مدينة القدس، ودخل عبر البوابة الذهبية وقد فتح بابها عند اقترابه منها تلقائيًا.

ومع قدوم موكب البطريرك، وحسب رواية يوحنا قس ورزبورج فأنه يتقدم بوقار من البوابة الذهبية تلك البوابة التي أغلقت خلف عيسي عليه السلام بعد مروره بها وتفتح البوابة في مهابة للموكب والعامة كلهم – مواطنين أو أغراب – حيث يلقي

البطريرك عظته الاحتفالية إلى الناس عند أقدام جبل الزيتون، وعقب انتهاء القداس يقفل الباب ثانية لمدة عام، ولا يفتح إلى في يوم تعظيم الصليب المقدس[79].

وإذ حرص الفرنجة على أداء الاحتفالات الدينية ذات الذكري الخاصة في مواقعها، فإن ذلك الأمر ينطبق على عيد أو احتفال غسل الأقدام عشية الجمعة الحزينة، وذلك اقتداء بالسيد المسيح عندما غسل أقدام حواريه. وكان الاحتفال المذكور يتم في دير القديسة ماري بجبل صهيون.

وكان المحتفلون حريصون على تقدمة الفقراء في غسل أقدامهم أولاً، وذلك خشية أن يصابوا بالجذام أو المرض الخبيث في أقدامهم، وفي اعتقادهم أن ذلك يحدث خلال الحفل ذاته. وكما هو مقرر فإن الاحتفال يبدأ بعظة البطريرك، ثم رش الزيت المبارك، ثم تأتي الأحواض والمناشف، وقد حملها الرهبان التابعون للضريح المقدس، ويغسلون رؤوس وأقدام الفقراء، ثم يقبلون أيديهم وتوزع الملابس والأحذية[80].

وكان الاحتفال بالجمعة الكبيرة يتم في كنيسة في الموقع الذي يقال أن السيد المسيح صُلب فيه، ويستغرق ذلك الاحتفال يوم الجمعة بأكمله، ويقوم البطريرك ورجال الدين في ذلك اليوم بإقامة القداس والاحتفال[81].

ويعد عيد النار المقدسة Holy Fire أو الضوء المقدس Holy Light من أعظم وأشهر الاحتفالات، وهو عيد خاص بالمدينة المقدسة فعند اقتراب عيد الفصح يتم ترقب الضوء المقدس كالعادة في كل كنائس القدس، وقد توارث اللاتين ذلك الاحتفال عن اليونانيين، وكان ذلك الاحتفال قائمًا منذ عهد شارلمان، وفيه يتم إضاءة واحد من القناديل بالمدينة المقدسة بضوء إلهي كما يؤكد ذلك من شهد الاحتفال.

وتبدأ الاستعدادات للاحتفال بعد صلاة الغروب ليوم الجمعة العظيمة، ففي ذلك اليوم ينظف الضريح المقدس، وتغسل كل المصابيح الموجودة به، وتملأ بالزيت النقي ودون ماء. ثم توضع الفتائل وتترك غير مضاءة. وفي ذات الوقت يتم تنظيف المصابيح والقناديل في كل كنائس القدس[82]، ويمضي دانييل في وصف

مظاهر الاستعداد للاحتفال، ويذكر أنه التقي بالملك بلدوين الأول، وعرف أنه حاج أرثوذكسي شرقي ورحب به وسمح له بوضع مصباحه في ضريح السيد المسيح [83].

وربما هدف دانييل من سرد تلك الرواية لبيان تسامح اتباع الكنيسة اللاتينية مع المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين.وتزدحم الكنيسة صباح يوم السبت المقدس Holy Saturday بجموع مختلفة من الحجاج والأهلين، ومع الساعة الثالثة للنهار يبدأ البطريرك في إدارة القداس مع الرهبان ويكون القداس باللاتينية، ثم يقوم الأرثوذكس اليونانيون بأداء قداسهم باليونانية، ويمضي الاحتفال على نفس النمط حتى التاسعة من اليوم. ويعني ذلك تأخر وصول الضوء المقدس – فيقوم واحد من اليونانيين حسب رواية فوشيه الشارتري بالصياح بصوت مرتفع حسب العرف القديم Kyrie Eleison وتعني يا إلهنا أنزل الرحمة علينا Lord have Mercy upon us ويردد معه الجميع الهتاف [84].

واستمر ذلك الهتاف وتوارثه اللاتين عندما كانوا يديرون ذلك الاحتفال دون الإغريق. وإن كنا نجد هتافًا أضافه اللاتين "ساعدنا يالله" أو "الضريح المقدس".

ومع أصوات المتضرعين فإن البطريرك والأساقفة ينتظرون تلقي النار المقدسة ومعهم باقي رجال الدين، ومعهم الصليب الذي أدمجوا به قطعة خشبية كبيرة يعتقد أنها من الصليب الحقيقي، وكذلك ذخائر القديسين، ويظل الجميع يترقب أن برسل الله ضوء رحمته إلى القناديل المستعدة لاستقباله، ولا توجد ساعة محددة لظهور النار المقدسة ولا مكان أيضا، فقد تأتي في أي ساعة وأي كنيسة. وعند وصول النار المقدسة جرى العرف أن تقدم إلى هيكل الرب قبل أي إنسان، فيما عدا البطريرك الذي يشعل عنده قنديله[85].

لقد كان ذلك الاحتفال قمة احتفالات المملكة، إلا أنه كانت هناك مناسبات احتفالية أخرى،فهناك خميس الصعود Ascdnsionday ويتم الاحتفال بذلك العيد من خلال موكب يمضي إلى جبل الزيتون بعد الصلاة في كنيسة

الضريح المقدس، ويتوجه الموكب إلى كنيسة مقامة في المكان الذي يُعتقد بأن السيد المسيح صعد منه، وتوجد آثار مطبوعة في المكان لقدمي السيد المسيح [86].

واختص اللاتين أنفسهم باحتفال ديني خاص أطلقوا عليه عيد العثور على الصليب المقدس، وكان يتم الاحتفال به داخل الكنيسة المقامة في الموقع الذي عُثر فيه على الصليب.

لقد كانت الأعياد والاحتفالات الدينية كثيرة ومتعددة. وقامت الكنيسة بواجبها من احتفاليات تتمثل في إنشاد وترتيل وطقوس خاصة بكل عيد. كما حرص البطريرك على رئاسة تلك الاحتفالات بنفسه. ومهما يكن من سبب وراء حرصه، فإن تواجده على رأس المحتفلين بل ومشاركة أمراء ونبلاء المملكة في ذلك يعكس مدى اهتمام رجال الدين بالجانب الروحي في حياة المملكة اللاتينية، وفي منطقة تحوي الكثير من المقدسات المسيحية. ويعكس أيضًا محاولة الكنيسة لربط أبناء المملكة الجديدة بجذورها القديمة، ويفسر ذلك تلك الطقوس التي كانت تتبع، والحرص أن تتم الاحتفالات في أماكنها التي دارت عليها في الماضي وبنفس الخطوات.

ويبدو أن الكنيسة نجحت في ذلك إلى حد بعيد، ودلالة ذلك الإعداد الضخمة المشاركة في الاحتفالات من حجاج أو مواطنين.وإذا كانت الكنيسة قد أدت واجباتها الرعوية المختلفة فإنها حرصت على الانضباط بين أبناء الكنيسة بمختلف رواتبهم الكنسية، وكان للكنيسة محاكمها الخاصة والمستقلة، وكانت تمارس سلطاتها القضائية على كل رجالها، وكذلك على العلمانيين في حالات ما يتصل بالزواج والشرع والوراثة والهرطقة الدينية والانحرافات الجنسية [87].

وقامت الكنيسة بعقد المجامع للنظر في عزل البطاركة – كما سبق القول – مثلما حدث في حالة دايمبرتوايفرمار، غير أنه يلاحظ أن تلك المجامع كان يرأسها مندوب بابوي يتمتع بتفويض من البابا ذاته.غير أن تلك المجامع لم تكن تعقد للمحاسبة والمحاكمة فقط، فقد كانت تعقد بغرض الإصلاح. ففي سنة 1120م تم عقد مجمع في نابلس للإصلاح الأخلاقي، وكانت المملكة تمر في تلك الفترة ومنذ

ما يقرب من ثلاثة أعوام سابقة بظروف عصيبة، فقد تعرضت للهزائم ولبعض الظواهر الطبيعية مثل الزلازل وهجمات الجراد ونقص المؤن الأمر الذي أرجعه رجال الدين إلى غضب الله عليهم وضرورة مصالحته. ويذكر وليم الصوري أن المجمع الذي عقد في نابلس رأي "ضرورة مصالحة الرب بأعمال التقوى ورفع مستوي الأخلاق والتمسك بالنظام، وصدر عن المجتمعين وبرضاء الجميع خمسة وعشرين مادة لها قوة القانون"(88).

خاتمة:

لم تنقطع صلات الغرب بالشرق على مرّ العصور، فقد أمّ الغربيون من أبناء الكنيسة اللاتينية الشرق كسياح وحجاج، وشيّدوا في فلسطين الأديار والمناسك،ولم يشكّل الوجود اللاتيني الغربي سُلطة كنسية مستقلة إلاّ أثناء الحروب الصليبية التي أفرزت مملكة صليبية، وبطريركية لاتينية في فلسطين.وقد قامت الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس بواجباتها الرعوية وغير الرعوية سواء الحرب أو إدارة البلاد في حالة غياب الملك، وما إلى ذلك بشكل لا بأس به، إلا أنه كان باستطاعتها أداء ذلك بصورة أفضل في حالة مايتوافر لها من سلطة حرص ملوك المملكة على أن لا تكون كبيرة، بل عملوا على الحد منها، وعلى أن تبقى الكنيسة خاضعة دومًا لسلطانهم.

❖ هوامش البحث

(1) J.Richard, The Political and Ecclesiastical Organization of the Crusader States, inSetton ed., A History of The Crusades Vol. V., U.S.A.1985.p.235.

(2) William of Tyer, A History of the Deeds Done Beyond the Sea, transl. and annotated by Emily Atwater Babcock and A.C. Krery, Colombia University Press1943., Vol.I, p.403.

(3) Fulcher of Charter, A History of the Expedition to Jerusalem (1095 – 1127), trans., Rita Ryan, ed..- U.S.A: Harold Fink,1969.p.115., Smail, R,C, The Crusaders in Syriaand The Holy Land, Great Brittan 1974.p.123.

(4) Richard., Op.Cit., p.239.

(5) Hamilton, Bernard, The Latin Church in The Crusader States, The Secular Church.- London, 1980.p.60.

(6) Prawer, J, The Latin Kingdom, European Colonialism in The Middle Ages, Israel, 1972.p.164.

(7) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية.- القاهرة: مكتبة الأنجلو، 1975.(ج1، ص325).

(8) Rowe, j.g., The Papacy and Ecclesiastical Province of Tyre, 1100-1180, The John Ryland's Library vol.43, Manchester 1960-61.p.172.

(9) William of Tyre, Op.cit.Vol.II, p.4.

(10) Boase, T.S.R, Kingdoms and Strong Holds of The Crusaders, London1971.p.42.

(11) Prawer, The Latin Kingdom., p.162.

(12) Hamilton, The Latin Church., p.243.

(13) Ibid, p.67., Richard, The Political Ecclesiastical., p.240.

(14) Richard, Op.Cit., p.243.

(15) Prawer, The Latin Kingdom., p.166.

(16) Hamilton, The Latin Church., p.77.

(17) Prawer, Op.Cit., p.167.

(18) Hamilton, Op.Cit., p.87.

(19) Smail, The Crusaders in Syria., p.124.

(20) William Of Tyre, Op.Cit., Vol.I, p.344.

(21) Smail, The Crusaders in Syria., p.130.

(22) John of Wurzburg, Description of the Holy Land (1160-1170 A.D.), Trans. by Aubrey Stewart, In. P.P.T.S., Vol. V., London, 1896. p. 36.

(23) Benvenisti, Moron, The Crusaders in The Holy Land.-Jeruslam, 1970, p.68.

(24) Benvenisti, Op.Cit., p.7o.

(25) العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، (519-597) تحقيق وشرح وتقديم؛ محمد محمود صبيح، القاهرة 1965، ص37.

Smail., Op.Cit., p.131.

(26) Conder, C, R, The Latin Kingdom of Jerusalem.- London, 1897.p. 187, Benvenisti, Op.Cit., p.71.

(27) Benvenisti, Op.Cit., p.160.

(28) Smail, Op.Cit., p.124.

(29) Benvenisti, Op.Cit., p. 161.

(30) Benvenisti, Op.Cit., p. 165.

(31) Daniel, Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in The Holy Land (1106-1107A.D.) Annotated by Sir Wilson, in P.P.T.S., vol. IV, London, (1895).p.71.

(32) Smail, Op.Cit ., p.132.

(33) Smail, Op.Cit., p.136.

(34) Conder, OP.Cit., pp.188-189.

(35) Hamilton, Op.Cit., p.137.

(36) Ibid, pp.138-140.

(37) Conder, Op.Cit., p.199., Smail., Op.Cit., p.131.

(38) Conder, Op.Cit., p.194.

(39) Ibid, p.169.

(40) Smail, Op.Cit., p.125., Prawer, The Latin Kingdom., p.167.

(41) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية/ ترجمة: السيد الباز العريني.- بيروت، 1967. (ج2، ص134).

Grousset, RmHistoire Des Croisades Et du Royaume De Jerusalem, Tom. I, Paris 1943. p.292.

(42) Hamilton, Op.Cit., p.63.

(43) Conder, Op.Cit., p.191.

(44) Hamilton, Op.Cit., p.145.

(45) Hamilton, Op.Cit., p.146.

(46) Ibid., p.147.

(47) ارنست باركر، الحروب الصليبية/ ترجمة: السيد الباز العريني.- القاهرة، 1960. ص81.

(48) Prawer, The Latin Kigdom., p.163.

(49) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص498.

(50) Hamilton, Op.Cit., p.136.

(51) Anonymous, The Deeds of the Franks and Other Piligrims to Jerusalem, ed.by Rosalind Hill, 1962, pp.94-95.

(52) Grousset, Op. Cit., tom I, p.290.

(53) Ibid, p.292.

(54) Fulcher., Op.Cit., p.166., William of Tyre, Op.Cit.Vol.I, p.450.

(55) Hamilton., Op.Cit., p.61.

(56) Hamilton, Op.Cit., p.65.

(57) ابن ميسر: أخبار مصر، ج2، تصحيح هنري ماسيه، ط. المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة 1919، ص64.

(58) William Of Tyre, Op. Cit., Vol.I., 39.

(59)أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتى، مطبعة جامعة برنستون 1930م، ص86.

(60) J. Richard, The Political and Ecclesiastical., p.102.

(61) Hamilton, The Latin Church., p.129.

(62) Hamilton, Op.Cit., p.130.

(63) يوشعبراور، عالم الصليبيين/ ترجمة: قاسم عبده قاسم.- القاهرة، 1980. ص190.

(64) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, p.58.

(65) SmailOp.Cit., , p.125.

(66) Conder, The Latin Kingdom, p.174.

(67) Boas ., Jerusalem in The Crusade Time., p.156.

(68) Richard, Hospitals and hospital., p91.

(69) John of Wurzburg, Op., Cit., p.44.

(70) Hamilton, Op. Cit., p.362.

(71) Prawer, The Latin Kingdom, p.176.

(72) Prawer, Op., Cit., p.176.

(73) John of Wurzburg, Op., Cit., pp.70-71.

(74) Prawer, Op., Cit., p.177.

(75) Hamilton, Op. Cit., p. 128.

(76) نبيلة إبراهيم مقامي: فرق الرهبان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.- الجيزة: جامعة القاهرة، 1987. ص106 (أطروحة ماجستير غير منشورة).

(77) Prawer, Op.Cit., 177.

(78) Ibid, p.178.

(79) John of Wurzburg, Op., Cit., p.19.

(80) Prawer, Op. Cit., p.178.

(81) Theodrich, Op.Cit., p.20.

(82) Daniel Op.Cit., p.74.

(83) Ibid, pp.74 -75.

(84) Fulcher, Op. Cit., p.106.

(85) Theodrich, Theodrich s Description of the Holy Places (circ 1172AD)trans. Aubrey Stewart, In. P.P.T.S., Vol. V., London, 1896.pp.14, 15.

(86) Prawer, Op., Cit., p.181.

(87) باركر الحروب الصليبية، ص80.

(88) William of Tyre, Op.Cit., Vol.I, p.536.

كتب النوازل بين الاستعمال الفقهي والتوظيف التاريخي- المعيار المعرب للونشريسي أنموذجا-

الباحث: مسعود كربوع

جامعة باتنة، الجزائر

الملخص:

إن المخزون المعرفي الذي تختزله كتب النوازل يبرز قدرة الشريعة الإسلامية على مسايرة المتغيرات الزمانية والمكانية، مع ما توفره من دراسة لمختلف المعاملات والأحداث التاريخية، فكتب النوازل تعتبر منجمًا بكرًا يجب الرُجوع إليه والاستفادة منه في جل الأبحاث التاريخية الخاصة بالغرب الإسلامى، ومنه فدراسة الموسوعة النوازلية "المعيار المعرب" لمؤلفه الفقيه أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسى، أحد أعمدة المدرسة المالكية المغاربية، وبأسس علمية يلج بالباحث إلى تجاوز فهم آليات المغرب الإسلامى في العصر الوسيط، وهوما نحن بصدد الإشارة له في موضوعنا هذا.

Abstract:

The stock of knowledge which contain books Nawaazil highlights the ability of Islamic law to keep pace with the temporal and spatial variables, with the availability of a study of the various transactions and historical events. The books Nawaazil are an important source must refer to it and benefit from it in historical research for the West, The study of encyclopedia Alnoazleh "Ma'yaar" authored by Faqih Abu al-Abbas Ahmad bin Yahya Alonharisa, one of the pillars of the Maliki school Maghreb, makes the researcher understands the mechanisms Islamic Maghreb in the Middle Ages, and this subject of the study.

مقدّمة:

إن قراءة متأنية في التاريخ الإسلامي، تكشف عن جملة من الأدوار الطلائعية التي قام بها العلماء المسلمون، لا على مستوى نشر العلم والمعرفة فحسب، بل في كافة المجالات السياسية والاقتصادية و الاجتماعية، أما في المجال المذهبي فإنّهم تركوا بصمات واضحة في مسار التغيرات والانعطافات الحاسمة، التي عرفها المجتمع الإسلامي.

وهذه قاعدة تاريخية تتأكد للباحث كلّما تعمق في دراسة التاريخ المذهبي للأمة الإسلامية، ولعل أول ما يلفت النظر في تتبع منحنى التطور المذهبي بالغرب الإسلامي.[1]

تلك الطفرة التي شهدها المذهب المالكي بهذه المنطقة، والتي تجسّدت في سيادة هذا المذهب في جل مرافق الحياة السياسية والفكرية والاقتصادية، وكذلك الاجتماعية، ورجحان كفته على سائر المذاهب الأخرى، وإذا جاز لنا استعارة أدبيات اللغة المعاصرة، أمكن القول أن الكتابة والتأليف يلعبان في كل المجتمعات- قديما وحديثا- دورا دعائيا لفكرة أو مذهب أو نظام معين، ويعملان على الترويج له، حتى يصبح المُسيطر والمُؤثر في عقلية المجتمع، وهذه القاعدة بعينها تنطبق على الطفرة التي عرفها المذهب المالكي بالمغرب والأندلس.

فقد كرّس علماء هذه المنطقة جهودهم في التأليف والتصنيف، دفاعا عن المذهب المالكي وانتصارا له، وقد توالت حركة التأليف- بمعنى الجمع- بتوالي الأيام وتعاقب الحوادث والأقضية، ولعل الذي شغل الفقهاء عن بيان منهجهم وتنظيم مادة مؤلفاتهم، هو سرعة وتيرة تلاحق الأحداث، فكان لهم في كل يوم وقائع ونوازل، بل وفي كل ساعة ولحظة.

وبما أن الفقه الإسلامي عمدته تنظيم حياة الناس، كان واقعيا في أحكامه يُجاري الوقائع ويُساير المُتغيّرات، ويظل السُّؤال والاستفتاء قائما قيام الحياة، فالنصوص لا متناهية وقضايا الحياة مستمرة مسترسلة، وهو ما يجعل طبيعة الفقه

مهيأة لظهور فقه النوازل، الذي يُعطي مساحة الامتداد التشريعي في الحياة من خلال التكيُّف مع الواقع ومتغيراته، وهذا ما يُفسر نشاط مدرسة فقه النوازل بالغرب الإسلامي، والتي شكلت لنا موروثا فقهيا من خلال كتب النوازل، تنبّه الباحثون إلى أهميته في كتابة التاريخ بمختلف فصوله، حيث يُشكّل مادة مصدرية هامة لتاريخ الغرب الإسلامي.

لقد طغى على السطح خطاب يُهيمن على مجمل الدراسات التاريخية المغربية المُعاصرة، وهو ضرورة إحداث نقلة إيجابية في حقل التاريخ الإسلامي، وذلك بالاعتماد على التيارات الثقافية العالمية المتجددة، والطفرة المنهجية التي ما فتىء يُحققها العالم المعاصر، واستغلال الرّصيد التراثي الإسلامي المشتت بين رفوف الخزانات العربية والأجنبية، من أجل إعادة كتابة التاريخ الإسلامي بنظرة علمية شمولية.

على محك هذه الرُؤية التجديدية، ظهرت أهمية كتب النوازل المغربية والأندلسية، الّتي لا تنتمي من ناحية تصنيف العلوم إلى الحقل التاريخي.[3] غير أنها تتضمن نصوصا تاريخية، وإيماءات غنية وشذرات قيّمة، ناهيك عما يتناثر فيها من وثائق هامة تفتقد إليها الحوليات التاريخية التقليدية، وتغطي فضاءات اجتماعية واقتصادية، وهي المُسماة بالمصادر الدفينة أو المصادر اللاّإرادية [4].

وتُعد المصادر الفقهية خاصة المالكية منها، مصدرا أساسيا للمؤلفات النوازلية التي يستفيد منها الفقيه والمؤرخ على حد سواء، فكما أنّه يُستفاد من النازلة في رسم الحكم الشرعي على مسألة مستجدة، فإنها في الغالب تمدُنا بإيحاءات تاريخية، لا تقل أهمية عن الحكم الشرعي ذاته[5].

أهمية النوازل في كتابة التاريخ:

أشار الدّارسون[6] منذ مدة، إلى أهمية النوازل الفقهية في التعرف على مختلف التفاعلات بين أفراد المجتمع، نظرا لما تثيره من أسئلة تتعلق بتفاعل مختلف مُكّوناته وفعّالياته[7].

وما تتناوله من قضايا تتصل بالحياة الدينية والروحية والعلمية للمجتمعات، وهي مواضيع لا تُتيح المصادر التقليدية إمكانية التطّرق إليها دائما[8]. وتكمُن أهمية الفتاوى كذلك في إمكانية اعتبارها تدوين للتاريخ من قبل المفتي، فيجد المؤرخ بذلك القضية المفتى فيها، جاهزة ومُوثقة بشكل رسمي لا يتطرق إليه الشك من حيث الوقوع أو عدمه، حيث غالبا ما تكون منتهية بختم مؤرخة باليوم والشهر والسنة [9].

فهي بذلك سجّل للأحداث الواقعة عن طريق طرفين، هما السائل والمُجيب، وهذا السرد التاريخي للسؤال والجواب، يُمكّن المؤرخ من حل الإشكال التاريخي للحادثة المطروحة، خاصة وأن القائمين بالفتوى هم علماء بالدرجة الأولى في مجال اختصاصاتهم، مهما اختلفت أساليبهم أو تعقدت اصطلاحاتهم، فإنّهم يكتبون ويُدوّنون علوما لها أثرها الفعّال في حياة الإنسان[10].

إن المخزون المعرفي الذي تختزله كتب النوازل يبرز قدرة الشريعة الإسلامية على مسايرة المتغيرات الزمانية والمكانية، مع ما توفره من دراسة لمختلف المعاملات والأحداث التاريخية[11]. وهذا المستشرق الألماني جوزيف شاخت J.Schacht في دراسته عن تطور القانون الإسلامي، يعتبر كتب النوازل منجما بكرا، يلتزم الرُجوع إليه والاستفادة منه في جل الأبحاث التاريخية الخاصة بالغرب الإسلامي [12].

أمّا الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش،فيرى أنّ كتب الفقه والنوازل ورسائل الحسبة، بما تتضمنه من عقود مختلفة ونصوص ثمينة، تُساهم في ردم بعض الثغرات، فتكشف عن جوانب هامة من الأحداث التاريخية[13].ومنه فلقد عمل فقهاء المغرب والأندلس من خلال تدوين النوازل الفقهية ،على تقديم نصوص تاريخية، لا يجب إغفالها أو التقليل من أهميتها، في أي مشروع يُراد من خلاله معالجة إشكالية تاريخية تخصُّ الغرب الإسلامي ومجتمعاته، فعدم أخذ هذه النصوص بعين الإعتبار، قد يدفع بالباحث إلى مزالق منهجية تُؤدي إلى الوصول إلى خُلاصات غير دقيقة.

لقد حظيت كتب الفتاوي والنوازل في الكتابة التاريخية المعاصرة باهتمام متزايد، لسد بعض الثغرات وإزالة بعض الغموض، الذي بلغته معرفتنا عن تاريخ المجتمع المغاربي خلال العصر الوسيط، من خلال المصادر التاريخية الأخرى، حتى أصبح كل عمل يتجاهل هذا النوع من المصادر، يعتبر عملا غير مستوف حقه[15].

لم يكتف هنا الباحث إبراهيم القادري بوتشيش في الإشارة إلى أهمية كتب النوازل، في دراسة تاريخ الغرب الإسلامي، بل تعدّى ذلك ليجزم أن هناك جُزئيات تاريخية، أهملت تماما في المصادر التاريخية الأخرى[16]، ولم نجد الإشارة لها إلا من خلال كتب النوازل المختلفة، وذلك من خلال دراسته الموسومةّبالنوازل الفقهية وكتب المناقب والعقود العدلية مصادر هامة لدراسة تاريخ الفئات العامة بالغرب الإسلامي(ق5-6هـ/ 12-13م)"، حيث يرى كذلك أنه بالرغم من الطابع الفقهي للنازلة، فإنها تكتسي في ميدان الدراسات التاريخية بعدا هاما، لما تتميز به من عفوية صدورها وبراءة مصدرها، فهي لم تظهر عن سُلطة رسمية، ولم تتلون بلون إيديولوجي أو سياسي[17]، فابتعاد المفتي عن السُلطة الحاكمة، يجعل من النازلة نصا تاريخيا مُحايدا، يفوق أحيانا قيمة النّص التاريخي نفسه، ويُمكّن من إعادة البناء التاريخي بناء منطقيا [18].

ولكن رغم الأهمية التاريخية الواسعة لهذا النوع من المصادر، إلاّ أنّها وُضعت أساسا للفتوى، لا كمادة تاريخية، لذا نجد الفقيه يكتفي بسرد المسألة والإجابة عنها، دون إخبارنا بمدى استجابة السائل أو المجتمع للحكم الصادر تجاهها، وهو الأمر الذي يجعل الباحث يقف أمام عدة إشكاليات، فيما يتعلق بتحويل المادة الفقهية إلى مادة تاريخية طبيعية تخدم الجانب المعرفي للموضوع [19].

ومن العراقيل التي تُواجه المُؤرخ عند محاولة الاعتماد على النوازل الفقهية في كتابة فصول تاريخية لزمان ومكان معينين، غياب اسم المُفتي الذي وجه إليه السُؤال، دون أن يحمل النّص إشارة لتاريخ ومكان السؤال، وهو ما يُصعّب من

عملية تحقيب النازلة، مما يجعل الإفادات التاريخية المستخلصة، غالبا ما تكون غير متزامنة مع الوقائع التي يرى الباحث أنها تُؤرخ لها [20].

غير أن أهم إيجابيات الخطاب الفقهي الذي تفتقر إليه الكثير من المصادر الأخرى، هو أن الباحث والمؤرخ يُسلّم بصدقها، دون أن يعتريه أي شك في الوقائع الّتي تسردها [21]. إنّ الإهتمام بالنوازل الفقهية في الدراسات المعاصرة، توزع بين التحقيق والتوظيف التاريخي، فمُعظم الباحثين والمؤرخين في النوازل ضعاف في التكوين الفقهي، كما أن المُتخصّصين من الفقهاء وأهل الإختصاص الشرعي، يغفلون البعد التاريخي لها [22]. وهذا ما يدفع إلى ظهور جانب منهجي يجمع بين الطرفين، للوصول إلى حقيقة ما تنفرد به المؤلفات النوازلية من حقائق تاريخية.

إن ظهور الإتجاهات الجديدة في كتابة التاريخ، والتي تهتم بدراسة النواحي الإقتصادية والإجتماعية من حياة المجتمعات، دفعت بالدّارسين بشكل عام من مُستشرقين ومغاربة ،إلى البحث عن مصادر ثرية، تُعوّضهم ذلك النقص الظاهر في مصادر الأرشيفات والحوليات، ومن هذا المنطلق بدأ اهتمام بعض الباحثين بالفتاوى والنوازل الفقهية بوصفها مادة غنية بمعطيات الزّمان والمكان، حيث لامراء في أن علم الفقه، الذي تندرج ضمنه هذه المصادر يُشكل أحد أبرز مكونات الحياة العلمية في تاريخ حضارة الغرب الإسلامي، وبالرجوع الى كتب التراجم المغربية والأندلسية، يتضح لنا حجم التراث الفقهي المالكي، الّذي خلّفه علماء المغرب الإسلامي [23].

منه ما أصبح متداولا بفضل المجهود التحقيقي الجبّار الذي بذله ثُلّة من الباحثين في العقود الأخيرة. فمن المتعارف عليه بين المُهتمين بدراسة التاريخ الإقتصادي لمنطقة الغرب الإسلامي، أن قلّة الوثائق والمصادر تعتبر من أولى المشاكل، الّتي تُواجه الباحث في هذه الدراسات، وقد أصبح المؤرخ المُختص في هذا المجال، إن هو أراد تجاوز هذه العقبة وتلبية حاجيات بحثه العلمية، أن يبحث عن مصادر جديدة، ويُنّقب عن وثائق غميسة تسُدّ بعض الثغرات في المادة

التاريخية المُتوفرة، وفي هذا الإطار اتجهت عناية الباحثين إلى ما تحتويه كتب النوازل من معطيات في الدراسات التاريخية الإقتصادية، لتتحول بذلك من مصادر جافة لتصبح ضمن المصادر الدفينة.[24]

- **المعيار المُعرب ومؤلفه**

مثّل الفقيه أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، أحد أعمدة المدرسة المالكية المغاربية، مع مجموع من العلماء الآخرين وذلك خلال القرن 9هـ وبداية القرن 10هـ،ففي هذه الفترة من تاريخ الغرب الإسلامي، عرف مغرب السلطة المرينية أحداثا مختلفة من هجمات صليبية، وصراع داخلي حول السُلطة وانتشار ظاهرة الغش في العملة، وأحداث اجتماعية وسياسية أخرى، دوّن الونشريسي تفاصيلها على شكل مسائل أستفتي فيها.

لقد تلاحمت كثير من الظروف والأسباب في صقل شخصية الفقيه الحافظ أبو العباس الونشريسي، وجعلته يرتقي إلى أعلى المناصب الفقهية آنذاك، حتّى لُقب بالإمام الحافظ، وحافظ المغرب وفقيهها وإمامها، وأشتهر بمجموع فقهي عُرّف" بالمعيار المُعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب"،هذا "المعيار المُعرب" الّذي برزت أهميته عند الفقهاء فتلقوه بالقبول وصار لهم مرجعا، يرجعون إليه فيما تشابه لهم من النوازل الواقعة، وقد كان له تأثير على المدرسة المالكية المغربية بالدرجة الأولى.

أ. التعريف بالونشريسي:

اتفق كل من ترجم[25] للونشريسي أنّ اسمه: أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي، وهذا ما أكده المؤلف نفسه في كتابه "إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام أبي عبد الله الإمام مالك [26]، ولد بجبال ونشريس [27]، الّتي تُعدّ أكثر الكتل الجبلية ارتفاعا في غرب الجزائر، وهو أيضا اسم جبل من سلسلة جبال صغيرة، تُسمّى بني شقرانBeni -chougran [28]. ونشأ بمدينة تلمسان التي اشتهرت كما يقول البكري [29] وابن خلدون [30]، بأنّها دار العلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك، حيث درس على مجموعة من الأعلام

في مقدمتهم شيخ المُفسرّين والنُّحاة العالم المُطلق، أبوعبد الله محمد بن العباس (ت 871هـ) [31]. فعلى حد تعبير الونشريسي "وفي سنة إحدى وسبعين وثمانمائة، توفي في الثامن عشرمن ذي الحجة الحرام، شيخ المفسرين والنحاة العالم على الإطلاق شيخ شيوخنا أبو عبد الله بن العباس" [32].

إنّ المُتوفر من المصادر الّتي ترجمت للونشريسي، لا يُعط تصورا كاملا يمكن من خلاله، تحديد تدرُج حياته منذ بدايتها، فلم يتعرض أحد ممن ترجم له إلى تاريخ ميلاده، إلا أنّهم اتفقوا على أن وفاته كانت عام (914هـ/ 1508م)، وفي "نيل الإبتهاج" والبستان" و"سلوة الأنفاس" ،أنّ الونشريسي مات وعمره ثمانون سنة وبذلك يكون تاريخ ميلاده في حدود (834هـ) [33]. وكل ما يُعرف عن أسرته أن ابنه عبد الواحد [34]. ورث عن أبيه الفقه والفتوى وجُرأته في قول الحق والثّبات على المبدأ [35].أما والد المُؤلف فلا يُعرف عنه شيء عدا ما جاء في المعيار، حيث وصف أحدهم والد الونشريسي بعد موته بأنّه الشيخ الفقيه [36].

وهنا يرى الباحث الصادق بن يحيى الغرياني، من خلال تحقيقه لكتاب إيضاح المسالك "أن هذا- أي الإشارة التي وردت في المعيار- لايكفي للجزم أن والد الونشريسي كان من أهل العلم والفقه، ويترجّح أن يكون هذا نوع من الإطراد، قيل على سبيل التلّطف والتأدب، إذ لو كان والد الونشريسي من أهل العلم والفقه حقا، لما أغفلته كتب التراجم [37].

وعلى الرغم من الغموض الذي إكتنف حياة الونشريسي الأولى، وكذلك حياة أسرته، فإنّه من الواضح أن الونشريسي انتقل مع أسرته من "ونشريس"إلى "تلمسان" في السنين الأولى من عمره، فقد ذكر المقري أنه ولد بونشريس ونشأ وتعلم في تلمسان وإستقر أخيرا بفاس [38]. ومعلوم أن سنّ التعليم عادة يبدأ قبل العاشرة من عمر الطفل،ولما بلغ أحمد الونشريسي أشده وبلغ أربعين سنة، وهو يومئذ قوّال للحق لا تأخذه في الله لومة لائم [39]. فحصلت له كائنة من جهة السلطان في أول محرم عام أربع وسبعين، فانتهبت داره وفرّ إلى مدينة فاس فاستوطنها [40].

ولم تُشر المصادر التي ترجمت للونشريسي سبب محنته مع السُّلطان، وفي تفسير ذلك ذهب أحد الباحثين [41]، إلى اعتبار السبب الحقيقي ،يكمن في الخلافات الداخلية لأسرة بني عبد الواد [42]. التي تحكم تلمسان حينئذ، وتقاتلهم على السُّلطة رغم الأطماع الخارجية والهجمات المرينية والحفصية، وما نتج عنها من زحف للسُّكان من المدن إلى الأرياف، بسبب انتشار الفساد [43]. هذا وإذا أخذنا في حسابنا شخصية الونشريسي، وما عُرّف به من الشّدة في الحق، والصّرامة في دين الله فلا يصعب علينا الجزم، بأنّ سبب غضب عبد الواد عليه هو عدم سكوته عن الفساد العام، الذي تسبّبوا فيه وحلّ بشعبهم وديارهم [44].

أما بالنسبة للحاكم الذي أمر أعوانه بنهب داره، مما اضطره للخروج والهرب من تلمسان، فالمصادر القديمة التي كتبت في حياة الونشريسي أو بعد وفاته مثل جذوة الإقتباس ودوحة الناشر، سكتت فلمتُشر إلى الحاكم الذي وقعت في ظلّه المحنة وحذت حذوها بعض المصادر العربية المعاصرة التي ترجمت للونشريسي،أمّا الدكتور محمد حجي فلقد حدد السُّلطان أبا ثابت الزياني [45]. عند ترجمته للمؤلف في مقدمة كتاب المعيار المُعرب [46].

وتعتبر حادثة الونشريسي مع السلطان الزياني، سببا في فراره بإتجاه "فاس" وجعلها دار إقامته، وكانت شهرته العلمية تسبقه لذا وجد من أهل فاس ترحابا وحفاوة وضيافة وحسن لقاء [47].لقد نشأ الونشريسي بتلمسان حيث درس وتتلمذ على جماعة من أعلامها ،وبانتقال الونشريسي إلى فاس واصل تعليمه، فلقد حضر إلى أبي عبد الله محمد بن عبد الله اليفرني المكناسي [48].

وقد نقل عنه في كتابه المعيار،وتُجمع المصادر التي ترجمت للونشريسي، أنّ حياته كانت حافلة بالفتوى والتدريس والتأليف، وعند وقوفنا عند معظم شيوخ الونشريسي،الذين تم ذكرهم أنفا نجد أنّهم من العلماء والفقهاء التلمسانيين، إذا استثنيا القاضي المكناسي الذي أخذ عند الونشريسي بعد أن رحل إلى فاس، وهذا ما يُبيّن أنه كان عالما وفقيها قبل رحيله إلى فاس، يُسمع لقوله ويُحسب الحساب لرأيه [49].

لم تكن المكانة العلمية والفقهية للونشريسي بشهادة مؤرخين معاصرين فقط، بل تظهر لنا من خلال شهادة اثنين من كبار علماء عصره، وهما محمد بن غازي [50]، وأحمد المنجور [51].حيث يقولابن عسكر الشفشاوني في "دوحة الناشر": "ورأيته- أي الونشريسي- مرّ يوما بالشيخ بن غازي، بجامع القرويين فقال ابن غازي لمن كان حوله من الفقهاء، لو أنّ رجلا حلف بطلاق زوجته، أنّ أبا العباس الونشريسي أحاط بمذهب مالك أُصوله وفُروعه، لكان بارا بيمينه ولا تطلق عليه زوجته،لتبحُرّأبي العباس وكثرة إطلاعه وحفظه واتقانه" [52].

وقال أحمد المنجور في فهرسته"..وكان الونشريسي مشاركا في فنون من العلم حسبما تضمنت ذلك فهرسته، إلاّ انه اكبّ على تدريس الفقه فقط" [53]، وكان فصيح اللسان والقلم،حتّى أنّه كان من يحضر درسه يقول: "لوحضره سيبويه لأخذ النّحومن فيه" [54]. ويُلّقب المقري الونشريسي في كتابيه "نفح الطيب" وأزهار الرياض" كثيرا بالإمام الحافظ، وحافظ الإسلام، وبعالم المغرب وحافظ المغرب [55]. ولشهرة الونشريسي بتدريس الفقه وعلى الأخص "المُدونة" كان كرسي "المُدونة" بفاس يحمل اسمه [56].

ألفّ غير المعيار كُتبا عديدة تتعلق في مجملها بالفقه المالكي، أصوله وفروعه نذكر منها: الأجوبة وتعرف "بالمسائل القلعية" ذكرها ابن مريم في البستان [57]. و"الأسئلة والأجوبة"، وهي أسئلة بعث بها الونشريسي إلى أستاذه عبد الله القوري [58]، بفاس عام 871هـ، وكذلك إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، وتعليق على مختصر ابن الحاجب الفرعي في ثلاثة أسفار، قال ابن مريم في البستان وقفت على بعضه [59]. بالإضافة إلى مؤلفات فقهية أخرى أهمها "المعيار المُعرب" ،الّذي يُعتبر أكبر موسوعة نوازلية عرفها الغرب الإسلامي [60].

ب. كتاب المعيار وأهميته النوازلية:

يعتبر كتاب المعيار المُعرب، لمُؤلفه الونشريسي أضخم جامع لفتاوي أهل الجناح الغربي من العالم الإسلامي، وهو يشتمل إلى جانب غزارته العلمية

والفقهية، وقيمته التاريخية والحضارية، على ذكر الكثير من علماء المذهب وآثارهم، ويُشير المُؤرّخ محمد المنوني إلى الأهمية المصدرية لهذا الكتاب الثمين، الّذي "يختزن مستندات تسد فراغات في تاريخ المغرب الوسيط ،فيحتفظ بأسماء مجموعة من الأعلام المفتيين وغيرهم، ممن لا يُعرف إلاّ من خلال المعيار، ومنه فالمعيار يتضمن النقص الكبير في المصادر الموضوعية لتاريخ المغرب[61] .

ج. التعريف بكتاب المعيار المعرب":

إن المُطلّع على المُدوّنات الفقهية، ومجامع النوازل وكتب الفتاوي ، يجد نفسه أمام بحر زاخر متلاطم الأمواج، خصوصا إذا علمنا أن أغلبها لم يكن مقصودا للتأليف،ومن ثمّ يجد الباحث نفسه أمام موسوعات نوازلية كانت نتاج لحركة التأليف، ومن أهمها كتاب "المعيارالمعرب"، وقد عرّفه مؤلفه في مقدمته بقوله"فهذا كتاب سمّيته بالمعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والمغرب والأندلس،جمعت فيه من أجوبة متأخريهم ومتقديمهم،ما يعسر الوقوف على أكثره في أماكنه..[62].

هذا الكتاب الّذي جمع من خلاله الونشريسي، جُملة من الفتاوى الشرعية لفقهاء مغاربة، تناولت نوازل وقضايا عرضت فيما بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين، وصدرت من الأقطار المغربية الأربعة: الأندلس والمغرب الأقصى والمغرب الأوسط وإفريقية[63]. بالإضافة إلى مؤلفات بعض فقهاء المالكية المشارقة [64]، وقد تمكّن الونشريسي بفضل تكوينه الفقهي، ومعرفته الدقيقة بالمذهب المالكي من الإستفادة الكبرى من مكتبة آل الغرديسي بفاس [65].

لاسيما فيما يتعلق بالنوازل الخاصة بفتاوى أهل فاس والأندلس، أما فتاوى المغربين الأدنى والأوسط، فإعتمد فيها على نوازل البرزلي أبي القاسم بن احمد القيراوني(ت 841هـ)، والدُرر المكنونة في نوازل مازونة ليحيى بن ابي عمران المغيلي(ت 883هـ) [66].

ولم يذكر الونشريسي في المعيار تاريخ بدء كتابته، ولا من المؤرخين القدامى والمعاصرين من أشار إلى ذلك، بإستثناء ماذهب إليه المؤرخ التونسي أحميدة النيفر "..والإستفادة من مكتبة آل الغرديسي بفاس، فاستخرج منها مادة مجلداته الإثني عشر التي شرع فيها سنة 890هـ..."[67].

أمّا الإنتهاء منه فلقد أشار إليه المؤلف نفسه "وكان الفراغ من تقييده مع مزاحمة الأشغال وتغير الأحوال يوم الأحد الثامن والعشرين لشوال عام واحد وتسعمائة عرفنا الله خيره.... [68]. ولكنّه يبدو كما يرى محمد حجي، أنّ الونشريسي لم يطو المعيار طيّا نهائيا في هذا التاريخ، بل ظلّ يتعهده بالزيادة والتنقيح إلى آخر حياته، ومع ذلك بقيت فيه بياضات كثيرة [69].

وكان الغرض من تأليفه منصب على تجميع اكبر مادة علمية في الفتوى، وليس إنتقاء الصحيح والمعتمد من الآراء، ولذلك فهو جامع مغرب كما سمّاه، وهذا ما جعل الكتاب يتعرض لنقد بعض المؤرخين، حيث يرى الحجوري" أن كتاب المعيار المشتمل على فتاوي فقهاء المغرب والأندلس وإفريقية، جمع فأوعى وهو من التآليف ذات الشأن عند فقهاء الوقت، على ما فيه من ضعف بعض الفتاوي" [70].

بينما ذهب النيفر إلى عكس ذلك "لم يقتصر على جمع ألفين ومائة وخمس وثلاثين فتوى، أصدرها رجال فقهاء معاصرون له وآخرون متقدمون عليه، بل عمد إلى تصنيفها والتعليق عنها، والتأصيل اللاّزم أحيانا، هذا إلى جانب ميل أكيد إلى الترجيح والتضعيف والقبول والرّد" [71]، ومنه فهذه الإضافات النوعية أكسبت "المعيار المعرب"،قيمة مرجعية عظمى جعلته معتمدا بعد وفاة الونشريسي لعدة قرون، فقد تحوّل إلى أداة قيمة، يُعوّل عليها الفقهاء المغاربة في نشاطهم العلمي والقضائي [72].

إن دراسة كتاب "المعيار" بأسس علمية، تلج بالباحث إلى تجاوز فهم آليات المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، ليصل إلى تحديد مختلف المظاهر

السائدة، لما يُمثّله الفقهاء من حضور مادي ومعنوي في مختلف المجالات، ويُوفر قسطا كبيرا من التراث التشريعي للمنطقة [73]. ولقد بدأت عملية الإستفادة منه واستخراج دفائنه منذ عصر المؤلف، فأفاد منه التنبكي [74]. في تذييل الديباج ،وعمل أحمد بن سعيد المجليدي [75].

على اختصاره في مجلد واحد، سمّاه "الإعلام بما في المعيار من تاريخ الإسلام"، وقد طُبع المعيار طبعة حجرية بفاس بين سنتي (1314و 1315هـ) في اثني عشر جزءا [76]. وعمل كذلك المؤرخ Emil Amar دراسة لكتاب المعيار بالفرنسية في جزئين نشرت في باريس 1908، اشتملت على دراسة مختصرة للكتاب وترجمة لمؤلفه، أما الطبعة العصرية الحالية للكتاب، فكانت تحت إشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، وبتحقيق لمحمد حجي وجماعة من الباحثين والفقهاء المغاربة، اضطلعت دار الغرب الإسلامي بهذا العمل، الّذي أضيف له جزءا جديدا وضعت فيه فهارس الكتاب [77].

د. منزلة المعيار المُعرب التاريخية:

لا خلاف في أهمية كتب التاريخ، لدراسة الحقب الزمنية لأي قطر من الأقطار، لما تُقدّمه من معلومات مباشرة تتصل بموضوع البحث، ولكن هذه الأهمية لا يمكن أن تحجب دور مجموعة أخرى من الموارد،الّتي يتحتّم على الباحثين اللجوء والإعتماد عليها،لإستكمال المعلومات التي تضيء جانبا أو آخر من جوانب بحوثهم، لاسيما كتب النوازل،الّتي اشتهرت في تاريخ المغرب والأندلس، وقد كتبت فيها رسائل ومجلدات عدة مشهورة، لا يزال أكثرها في عداد المخطوطات [78].

ويعتبر كتاب المعيار المعرب للونشريسي من أهم هذه الكتب النوازلية، التي عرفها الغرب الإسلامي، لماله من أهمية تاريخية، لا تكمن في إحتوائه على نصوص الفقه النظرية فحسب، بل لأنهيُقدم حصيلة خبرة المفتي أو القاضي النظرية، منقولة إلى مواقع العمل في المجتمع، تطبيقا وتنفيذا وبهذا فإن "المعيار المعرب"، يتم النقص الكبير في المصادر الموضوعية لتاريخ المغرب، حيث يرى

الباحث محمد فتحة أن كتاب المعيار، وفرّ للمؤرخين دون قصد منجما غنيا من شأنه أن يفتح آفاق جديدة للبحث، ليسمح بذلك إلى تجاوز مواضيع التاريخ الحديث، الّذي توفره المؤلفات الإخبارية، إلى الإهتمام بدراسة المجتمع بمختلف مكوناته [79].

وهذا ما يعني عملية التركيز أكثر على الإنسان، بدل تتبع منطق الأسطغرافيا التقليدية، الذي يجعل من تسلسل الدُول وتعاقب الملوك محورا للتاريخ [80]، وننتقل الآن لدراسة الأهمية التاريخية للكتاب،من خلال تطرقنا لمسائل مختلفةن أمدّنا بها المعيار وشملت مجالات مختلفة، تعدّت التاريخ السياسي والإقتصادي والإجتماعي، وصولا إلى الحياة الثقافية والحربية بالغرب الإسلامي.

***أهمية الكتاب لدراسة التاريخ السياسي:**

ترّد الإشارة من خلال الكتاب إلى بعض القضايا السّياسية،وذلك ضمن بعض المداخلات الفقهية،حيث يحاول الونشريسي في بعض الأحيان التوسع وإعطاء نبذة عن الحالة الّتي يتحدث عنها، من ذلك مثلا ما فعله عند مناقشة إمكانية قبول خطاب المُدّجنينوقضاتهم الذين كانوا تحت أيّالة النصارى [81]، فيُشير مثلا إلى المُتمرّد عمر بن حفصون [82]، وقضاته الذي كان يُعينّهم في المناطق الخاضعة له، وأن لا تُقبل شهاداتهم ولا خطابهم، ثم يذكر نبذة تاريخية عن ابن حفصون وحركته مستندا إلى ابن القوطية، من خلال النّص التاريخي الذي جاء به في كتابه تاريخ افتتاح الأندلس [83].وكذلك يمكن الإستفادة من بعض الملاحظات، التي وردت في المعيار للتعرف على أحوال عصر الطوائف وبعض الشخصيات المُتميّزة فيه [84].

***أهمية الكتاب لدراسة الحياة الاجتماعية:**

كتاب المعيار معينٌ لا ينضب لدراسة الحياة الاجتماعية في بلاد الغرب الإسلامي، حيث يُمكن للباحث أن يطلع على بعض حقائق المجتمع، من خلال المسائل الإجتماعية الكثيرة التي يزخر بها الكتاب، فهناك معلومات قيّمة أخذت

جزءا هاما من فصول هذا المصدر، منها ما يُبيّن مقدار الصّداق، وما يُطلب على المهر المُؤجّل [85].وأشار كذلك إلى حالة إجتماعية ظهرت بالأندلس، تتمثّل في زواج الأسرى من المسلمين بنصرانيات ،ومسائل خاصة بالمفقودين وزوجاتهم [86].

ونرى من جهة أخرى صورا حية، عن التعامل الإجتماعي في مجتمعات الغرب الإسلامي، من خلال ما نقله صاحب المعيار عن كتاب أحكام السوق لابن عمر [87]. الذي تطرق إلى الملاهي في المجتمع، والقدور المتخذة للخمر وعن صاحب الحمّام، وبكاء أهل الميت، والخروج إلى المقابر وغيرها [88].

*** أهمية الكتاب لدراسة الأوضاع الإقتصادية:**

يطلّع الباحث من خلال نوازل المعيار، على الكثيرمن أصول المعاملات والبيوع، الّتي كانت تجري بالمغرب والأندلس في مختلف العصور، من شروط البيع والعيوب في المادة المباعة،وتوثيق للبيع بحضورإختصاصيّين[89].وعلى كيفية التعامل مع الحوانيت المكتراة وأجورها،لاسيما في أوقات ضعف التجارة وأسباب فسخ عقد الكراء وغيرها [90].

وفي مجال الضرائب، يُمكن الإستفادة من المعلومات الواردة عن العشّارين، الذين كانوا يقفون على أبواب المدن لأخذ المكس عن التجارة [91]. ويتضمن كتاب المعيار كذلك مسائل كثيرة تتعلق بالأرض والمياه والسقي [92]. وكيفية تنظيم الإرواء ومنع تجاوزات البعض للإستئثار به [93].

بالإضافة إلى معلومات قيّمة عن كيفية إستئجار الأراضي الزراعية، وتُشير النصوص أيضا إلى نشاط تجاري ملحوظ بالغرب الإسلامي، يظهر من خلال الوسائل الرئيسية لتنظيم عملية المبادلات التجارية، والمُتعلقة بالنقود والمكاييل والموازين، وهو ما يتّم التركيز عليه من خلال الإهتمام المتزايد بهذه الموسوعة النوازلية في دراسة مختلف المعاملات التجارية.

***أهمية الكتاب لدراسة الأوضاع الثقافية:**

في كتاب المعيار معلومات قيمة عن الحياة التربوية في المغرب الإسلامي، حيث ظلّ الكُتّاب والجامع ومنزل المدرس، موئلا للحياة العلمية في مختلف مراحلها ومستوياتها ،حتى منتصف القرن السادس للهجرة والثاني عشر الميلادي[94]. حيث تُشير الباحثة وداد قاضي في هذا المجال "ولو أنّنا اعتمدنا على نوازل المعيار في تصور نشوء المدرسة، لوجدنا صمتا تاما عن ذكر المدارس حتى القرن السابع للهجرة [95].

وهو ما يُبيّن أنّ كتاب المعيار أشار إلى ذلك بعد القرن الرابع للهجرة،ومن جملة ما أشار اليه كتاب المعيار في هذا الجانب أجور التعليم و"الحذقة" -أي تعلم الصّبي للقرآن وختمه- ومنها ما قاله عبدالملك بن حبيب:"يقضي بالحذقة بالنظر والظاهر، بقدرما يُرى من مال الأب والأسرة، وقُوّة حال الولد من حفظه وتجويده" [96]. وتشير بعض نوازل المعيار كذلك، إلى إهتمام الدولة بالتعليم في العصر الغرناطي، حيث أمر السُّلطان بتخصيص درهمين في اليوم لإمام أحد المساجد لتعليم الأولاد [97].

ومن المظاهر الثقافية التي تشير إليها النوازل ،كثرة المناظرات والمحاورات ومدى تشبث سكان المغرب والأندلس بالمذهب المالكي والثقافة الفقهية المعتمدة، وتشجيع الأمراء والخلفاء على ذلك [98].

*** أهمية الكتاب لدراسة الشؤون الحربية:**

يتطرّق كتاب المعيار إلى بعض المسائل الحربية، الّتي ترد ضمن بعض النوازل، فهي تتضمن معلومات قيمة، تضاف إلى تلك التي تزخر بها كتب التاريخ، فهناك إشارات إلى مناطق الثغور والمرابطة فيها، ومسؤولية القتال والدفاع عنها[99].حيث كانت مسؤولية القتال في غالب الأحوال جماعية، يتحملّها القادرون على حمل السّلاح من أهل المنطقة [100]، ويُمكن أن تقدم لنا نوازل المعيار، معلومات عسكرية عن بعض الأحداث الحربية الّتي جرت في المنطقة، ولم تتطرق

بعض المصادر إلى تفاصيلها التاريخية [101]، وهو ما نلحظه في ما جاء عن الهجوم الذي شنّه خايمي الثاني ملك أراغون [102]، سنة (709هـ/ 1309م) على ألمرية [103]، فقد جاء في المعيار النّص الآتي: "لما نزل البرشلون في ألمرية، ونُصب عليها برج بعودين،أيّد إرتفاعه سور المدينة ست قامات، وقرّبه من سور المدينة ودخل فيه خمسمائة من المدرّعين، فدهش منه المسلمون، فانتدب أهل الشورى وعدّوا ستة نفر من المسلمين، كل واحد منهم بألف ذهب من العين،إن أحرقوه فخرج النفر المذكورون وأطلقوا النار فيه فاحترق بجميع من كان فيه، فسُرّ المسلمون بذلك ورجع النفر السّتة، وقال المُسلمون: الذين وعدناكم به قليل في حقكم، ونحن نُوزع ما وعدناكم على النّاس..."[104].

إن هذه المعلومات الحربية الخاصة بحادثة تاريخية شهدتها الأندلس، لم تردفي أكثر الرّوايات تفصيلا عن الحادث، وهي الّتي رواها ابن القاضي [105].

الخاتمة :

من المعلوم أن السلطة السياسية بالغرب الإسلامي، قد استحكمت بقوة العصبية من جهة، وبأرضية إصلاحية تستمد عناصرها من الإسلام من جهة ثانية، إن الدولة لا تستكمل مشروعيتها إلا في إطار الانتماء إلى الإسلام وتطبيق شرائعه ونظمه.ومن هذا الموقع المتميز داخل الدولة للفئات التي تمثل طاقات دينية، فقد عملت الدولة على تقريبها ورعايتها،بهدف تنظيم العبادات والمعاملات داخل مجتمعات الغرب الاسلامي، وفـق الضوابط الدينيـة التي يعتبر الفقهـاء قيّمين على ممارستها واحترامها.

حيث عرف الغرب الإسلامي علاقة وطيدة بين السلطتين السياسية والدينية، وهو ما أدى إلى ظهور خطة الفتيا، التي أدرجها ابن خلدون ضمن الخطط الدينية الست التي تقوم عليها الدول، حيث نلاحظ توجه عام نحو الطابع الرسمي الوظيفي للخِطة، وتُوِّج ذلك بظهور مفتين على رأس الحواضر وكبريات المدن، بالإضافة إلى مشاركتهم بجانب القضاة في القضاء،ومنه نجد أنّ الفقهاء قد اكتسبوا مع مرور الوقت سلطة فعلية بالغرب الإسلامي، وهذا يرجع إلى الدور الذي اضطلعوا به داخل مجتمعاتهم، في مجالات التعليم والتأطير والشورى، وقد أهلهم ذلك لكي يتبوؤوا مركز الصادرة في مختلف الأمور التي تهم مصالح مجتمعاتهم، وفي تاريخ المغرب من الأمثلة ما يدل على سمو موقعهم، وتكفي الإشارة إلى دور عبد الله بن ياسين وابن تومرت في بناء الدولتين المرابطية والموحدية.

وقد لعبت الفتوى دورا هاما في استكناه المقاصد الشرعية واستعاب مشاكل مجتمعات الغرب الإسلامي والتكيف معها، حيث إرتبطت النوازل الفقهية بهذه الرقعة الإسلامية بفقهاء المالكية، لما يمتاز به عن غيره من المذاهب الأخرى، من تنوع في الأصول التشريعية ، حيث ترك مالك تقديرها للعرف ، وليس غريب أن المغاربة قد وجدوا في هذا الأصل- العرف- مُعينا لهم على حل بعض المسائل التي لم يُطرح لها مثيل، وهذا ما جعل له إمكانية التلاؤم مع الواقع المغربي، وهو

أمر تميّز به فقهاء المالكية بالمنطقة، ويعتبر التأليف النوازلي هو الأسلوب المعتمد عليه من طرف فقهاء المالكية بالغرب الإسلامي لإثراء النشاط الفقهي ، فلقد لعب الفقهاء دورا حيويا في تطور حركة التأليف الفقهي النوازلي بالمنطقة، والتي تعتبر صورة حقيقية عن مدى تطور فقه النوازل بالغرب الإسلامي.

ومنه ما يمكن استخلاصه من هذه الدراسة أن جهود العلماء المغاربة في خدمة الفقه المالكي، والإهتمام بمصادره الأولية، قد أدّت إلى الإنفجار الفقهي في ميدان التأليف الموسوعي، وإقامة الدليل على أن الفكر المغربي كان يتحرك بخطى ثابتة، نحو نشر هذا المذهب والتمكين له، والذي يهمنا في هذا الإنفجار الفقهي هو كثرة التآليف الفقهية في مختلف فروع الفقه المالكي، ومنها كتب الفتاوى أو النوازل، والتي أصبحت بدورها مصدرا رئيسيا لما جاء بعدها من موسوعات فقهية، وأُعتمد عليها كمصادر رئيسية للإفتاء بالغرب الإسلامي، كانت في أغلبها مما إعتمد عليه الونشريسي في تآليف موسوعته النوازلية "المعيار المُعرب".

ومنه فالإطلاع على كتاب "المعيار المعرب" يسمح بالتعرف على مظاهر الحياة الدينية بالمنطقة، ودورها في تأطير المجتمع، حيث نلاحظ أنّ الفقهاء شكلوا في العهد المرابطي دعامة للدولة، وسيطروا على مراكز القرار مع ما وفره لهم ذلك من امتيازات مادية ونفوذ كبير.

❖ **هوامش البحث**:

(1) مصطلح أطلقه الفرنسيون على الجهة الغربية من العالم الإسلامي، إمعانا في الفرقة السياسية والجغرافية للعالم الإسلامي، مشرقا ومغربا في العصور الحديثة، ويشتمل على ست وحدات جغرافية وتاريخية وهي بلاد المغرب الأقصى، والأوسط والأدنى،والأندلس وشبه الجزيرة الأبيرية- صقلية- وبقية جزائر الحوضين الأوسط والغربي من البحر المتوسط- وكذلك الصحراء الكبرى وبلاد إفريقية الاستوائية التي دخلها الإسلام في الغرب والوسط، وغربي وادي النيل. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د ط)، 1947، مج1،ج1، ص:19 ؛ وليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د ط)، (د ت)، ص ص : 13- 47.

(2) مبارك جزاء الحربي: جهود فقهاء المالكية المغاربة في تدوين النوازل الفقهية، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، الكويت،سنة 21،ع64، مارس 2001، ص: 146.

(3) المرجع نفسه، ص: 157.

(4) محمد المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، (د ط)، 1993،ص ص : 128-129.

(5) محمد فتحة: النوازل الفقهية والمجتمع- أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6 إلى 9هـ12-15هـ)، منشورات كلية الآداب، الدار البيضاء، ط1، 1999،ص: 20.

(6) سعد غراب: "كتب الفتاوي وقيمتها الاجتماعية- مثال نوازل البرزلي" حوليات الجامعة التونسية، ع16، 1978؛ وعبد العزيز خلوف" قيمة فقه النوازل التاريخية"، مجلة البحث العلمي،ع29-30، 1979؛ومحمد حسن: "الريف المغربي في كتب النوازل"، الكراسات التونسية (131- 132)، 1985؛ومحمد المختار ولد السعد: "الفتاوي الفقهية والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي الموريتاني"، الكراسات التونسية، ع175، 1996؛ومحمد فتحة:" المرجع نفسه"؛ وأحمد اليوسفي شعيب: "أهمية الفتاوى الفقهية في كشف وقائع التجربة الأندلسية"؛ وشيباني بنبلغيث: أهمية الفتاوي الفقهية الشرعية كمصدر لكتابة تاريخ الحضارة

الإسلامية في العصور الحديثة، مجلة آفاق الثقافة والذات ع12، 1996؛ومحمد بن عبود ومصطفى بنسباع:"جوانب من المجتمع الاندلسي خلال عصري الطوائف والمرابطين من خلال نوازل بن الحاج، مجلة كلية الآداب تطوان، 1994؛وبوبة مجاني: "كتب النوازل والأحكام مصدرا لتاريخه الاجتماعي- العصر الزياني نموذجا مجلة المتغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية جامعة منتوري قسنطينة،2001؛ وعمر أفا: نوازل الكرسيفي مصدرا للكتابة التاريخية؛ورضا الله إبراهيم الالفي: "فتاوى النوازل في القضاء المالكي المغربي"، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، فاس، 1980.

(7) محمد فتحة: النوازل الفقهية والمجتمع ، ص: 19.

(8) عمر بنميرة: قضايا المياه بالمغرب الوسيط من خلال أدب النوازل، ضمن كتاب التاريخ وأدب النوازل، ص: 85.

(9) محمد فتحة: النوازل الفقهية والمجتمع ، ص ص: 20-21.

(10) المرجع نفسه، ص22.

(11) مصطفى الصمدي: فقه النوازل عند المالكية، تاريخا ومنهجا، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 2007، ص: 32.

(12) "علم من أعلام المستشرقين، ولد سنة 1902م، تخرج من جامعتي برتسلا ووليبسك، عمل أستاذا بجامعة فرايبورغ وكلية الآداب بالجامعة المصرية، ومحاضرا بالجامعة الجزائر سنة 1952، تولى مع برونشفيك مجلة الدراسات الإسلامية" . يوسف شاخت: أصول الفقه، ترجمة: إبراهيم خورشيد، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د ط)، 1981، ص: 11-12.

(13) المرجع نفسه، ص: 98.

(14) إبراهيم القادري بوتشيش: إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، دار الطليعة، بيروت، 2002، ص: 77.

(15) إبراهيم القادري بوتشيش: النوازل الفقهية وكتب المناقب وبالعقود العدلية مصادر هامة لدراسة تاريخ الفئات العامة بالغرب الإسلامي، مجلة التاريخ العربي، ع22، 2002، ص: 248.

(16) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(17) إبراهيم القادري بوتشيش: أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي، منشورات عكاظ، الرباط، 1992، ص: 26.

(18) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(19) سناء خطابي: واقع اليهود في المغرب الاوسط من خلال النصوص الفقهية المالكية، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، ع12، 2011، ص: 172.

(20) محمد فتحة: النوازل الفقهية و المجتمع، ص: 20.

(21) سناء خطابي: واقع اليهود في المغرب الاوسط ، ص: 173.

(22) مصطفى الصمدي: فقه النوازل عند المالكية، ص: 30.

(23) Maria Arcas Campoy : Algunas con sideraciones Sobre los Tratdos de jurisprudencia malihi de Andalus » Misce manea de Etudios Arabsy Hebraicos,(1988),pp :13-21.

(24)Mariblle Fierro : « Elderacho màlihi en al Andalus : siglosII/IIII-V/IX ,ALQantara ,r(1991),pp :119-132 .

(25) ترجم له/ أحمد المنجور: فهرسة، تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976، ص ص: 50-55؛وأحمد بن القاضي: درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي، دار التراث، مصر، 1970، ج1، ص ص: 91-92؛ وأحمد بابا السوداني،التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج،تقديم:عبد الحميد عبد الله الهرامة،،منشورات كلية الدعوة،طرابلس،ط1989،1ص ص: 135- 136؛ ابن مريم ،محمد بن محمد أبو عبد الله: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان،المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908ص ص: 53-54؛والمقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،تحقيق: إحسان عباس،دار صادر،بيروت، (دط)، 1988، ج5، ص207 وج6، ص: 278-281؛ الناصري، احمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري،دار الكتاب،الدار البيضاء، (دط)، 1954، ج4، ص: 165؛ الحفناوي،أبو القاسم محمد: تعريف الخلف برجال السلف،مطبعة بيير فرنتانة،الجزائر،(دط)،(دت).، ص

ص: 58-59؛ ؛ الحجوري،محمد بن الحسن: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي،مطبعة النهضة،تونس، (دط)، (دت)،ج4، ص: 99؛ الكتاني عبد الحي: فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم و المشيخات والمسلسلات، تحقيق:احسان عباس،دار الغرب الإسلامي،بيروت، ط2، 1982، ج1، ص ص: 475-476؛ ابن سودة، عبد السلام: دليل مؤرخ المغرب الأقصى،دار الفكر، بيروت، 1997، ج2، ص: 317؛ الزركلي،خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1986، ج1، ص ص: 255- 256.

(26) الونشريسي :ايضاح المسالك الى قواعد الامام ابي عبد الله مالك ، تحقيق : الصادق بن عبد الرحمان الغرياني ، دارابن حزم، بيروت،ط2006،1،ص:9.

(27) ذكر حسين مؤنس أن رينيه باسييه، أشار إلى اسم القرية والجبل ونشريس، أو ونشريس أوورنسيس وأضاف أن لامير يقول إن معنى هذا اللفظ البربري هو ليس هناك أعلى من ذلك « Riende plus haut ».ينظر: أسنى المتاجر في بيان أحكام من اغلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عنه من العقوبات والزواجر للونشريسي، تقديم حسين مؤنس، مجلة المعهد المصري، ع5، ص: 131.

(28) المرجع نفسه، ص: 130.

(29) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، تحقيق: البارون دوسلان، طبعةالحكومة، الجزائر، (دت)،ص:77.

(30) ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد(ت808هـ/ 1405م): تاريخ ابن خلدون،المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر،تحقيق: سهيل زكار،دار الفكر،بيروت، (دط)، 2000 ج7، ص ص: 156- 161.

(31) هو محمد بن العباس العبادي، أبو عبد الله، التلمساني فقيه ونحوي، من كتبه "شرح لامية الأفعال" لابن مالك، توفي بالطاعون سنة 871هـ. ترجم له/ ابن مريم: البستان، ص: 223؛ وابن مخلوف: شجرة النور ، ص: 264؛ والزكلي: الأعلام ، ج: 6، ص: 183.

(32) الونشريسي: وفيات الونشريسي ضمن مجموع ألف سنة من الوفيات، تحيق: محمد حجي، الرباط، (د ط)، 1976، ص: 178.

(33) الونشريسي: إيضاح المسالك، ص: 9.

(34) هو أبو مالك عبد الواحد بن الشيخ أبي العباسي أحمد الونشريسي الفاسي، ولد بعد سنة 880هـ ومات قتيلا في ذي الحجة 955هـ، له شرح الرسالة "وتعليق على البخاري" الفقه علي ابن الغازي وأبيه أبو العباس أحمد بن يحيى. ترجم له/ التنبكي: نيل الإبتهاج، ص: 288؛ والمقري: نفح الطيب، ج7، ص: 406.

(35) الناصري: الإستقصا، ج4، ص: 158؛ والونشريسي: إيضاح المسالك، ص: 10.

(36) الونشريسي: المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس و المغرب،تحقيق:محمد حجي،دار الغرب الإسلامي،بيروت،ط1981،1، ج3، ص: 263.

(37) الونشريسي: إيضاح المسالك، ص: 10.

(38) المقري، أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق إبراهيم الايساري ومصطفى السقا وعبد الحفيظ شبلي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (د ط)، 1942، ج3، ص: 306.

(39) الونشريسي: المعيار المعرب، مقدمة الكتاب، ص:ج

(40) التنبكي: نيل الإبتهاج، ج1-2، ص: 135.

(41) الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، في تحقيقه لكتاب إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام أبي عبد الله مالك، ص ص: 13-14.

(42) يعود الزيانيون في أصلهم ونسبهم إلى قبيلة بني الواد الزيانية البربرية التي توطنت في المغرب الأوسط، وتفرعت زناتة إلى قبائل متعددة منها: مرين، مغراوة، راشد بالإضافة إلى بني عبد الواد التي تكونت من قبائل فرعية وهي: أولو، ورهطف، نصوحة، تورت، القاسم وأُطلق على بني عبدالواد هذا الإسم نسبة لجدهم الذي كان يتعبد في الوادي.ينظر/ ابن خلدون:تاريخ ابن خلدون،ج7،ص:753.

(43) الونشريسي: إيضاح المسالك، ص:14.

(44) المصدر نفسه، ص:14.

(45) هو السلطان الزياني أبو ثابت محمد المتوكل من حكام الدولة الزيانية، امتد حكمه من 866هـإلى 873هـ، عرفت فترة حكمه صراع داخلي وتحرشات خارجية دفعت بالعلماء

إلى معارضتهن مما أدّى إلى محاولته التخلص منهم، وهو السبب في فرار الونشريسي إلى مدينة فاس. ينظر/ ابن خلدون يحي ،أبوزكريا: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد،تحقيق: عبد الحميد حاجيات،المكتبة الوطنية،الجزائر، (دط)، 1980، ص: 273؛ الونشريسي: إيضاح المسلك، ص ص: 15-16.

(46) الونشريسي: المعيار المعرب، مقدمة الكتاب، ص:ج.

(47) الونشريسي: إيضاح المسالك: ص: 13 ؛وابن مريم: البستان: 53.

(48) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله اليفرني المكناسي، الشهر بالقاضي المكناسي، العارف بالأحكام والنوازل، له تآليف كثيرة منها مجالس القضاة والحكام والتنبيه والأعلام، ولد سنة 835هـ توفي سنة 917هـ.ترجم له/ ابن القاضي: درة الحجال ،ج2، ص: 146.

(49) ابن مريم: البستان، ص: 53.

(50) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن غازي المكناسي تولى الفتيا بفاس، والإمامة بجامع القروين، توفي 919هـ، فقيه عالم ورع. ترجم له/ الشفشاوني: المصدرنفسه، ص ص: 45-46؛والتنبكي: نيل الإبتهاج ، ص359؛ والحجوري: الفكر السامي، ج4، ص:100؛ والزركلي: الأعلام، ج2، ص: 232.

(51) هو ابو العباس أحمد بن علي المنجور الفاسي، المحقق الفاضل، ألّف "مراقي المجد في آيات السعد" ولد سنة 926هـوتوفي في ذي القعدة: سنة 995ه.ترجم له/ ابن مخلوف:المرجع نفسه، ص: 287؛والتنبكي: المصدر نفسه، ص ص: 143-146؛ والتنبكي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق: محمد مطيع، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط1، 2000، ج1، ص ص: 139-140.

(52) الشفشاوني: دوحة الناشر ، ص: 47.

(53) أحمد المنجور: فهرسه، تحقيق: محمد حجي، دار المغرب، الرباط، 1976، ص: 50.

(54) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(55) المقري،أحمد بن محمد: أزهار الرياض في أخبار عياض،تحقيق إبراهيم الايساري ومصطفى السقا وعبد الحفيظ شبلي،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة، (دط)، 1942، ج3، ص: 306.

(56) الونشريسي :ايضاح السالك ،ص:15.

(57) ابن مريم: البستان، ص: 54.

(58) هو أبو عبد الله محمد بن قاسم القوري، ولد في أوائل المائة التاسعة بمدينة فاس، أندلسي الأصل شيخ الجماعة بفاس وعالمها ومفتيها، له شرح على المختصر توفي في ذي القعدة سنة 872 ومولده سنة 804هـ .ترجم له/ التنبكي: نيل الابتهاج، ص ص: 548-549،و كفاية المحتاج، ج2، ص ص 184-185.

(59) ابن مريم: البستان ، ص: 15.

(60) محمد حجي: نظرات، ص43.

(61) محمد المنوني: المصادر العربية، ص 128.

(62) الونشريسي: المعيار المعرب، ج1، ص: 1.

(63) إحميدة النيفر: المعيار والهوية والحوار، قراءة في التجربة التاريخية للغرب الإسلامي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، عدد 14، 1996، ص: 67.

(64) محمد حجي: المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، ندوة الإمام مالك، إمام دار الهجرة، بفاس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1980، ص: 130.

(65) التنبكي: نيل الابتهاج، ص: 135.

(66) هو يحيى بن أبي عمران موسى بن عيسى المازوني قاضي مازونة ومفتيها، ألف نوازله المشهورة توفي ثلاثة وثمانين وثمانمائة بتلمسان: فقيه مالكي له" الدور المكنونة في نوازل مازونة". ترجم له/ التنبكي: المصدر نفسه، ص: 637؛والزركلي: الأعلام، ج8، ص115.

(67) إحميدة النيفر: المعيار والهوية والحوار ، ص: 67.

(68) الونشريسي: المعيار المعرب، مقدمة الكتاب، ص: ز.

(69) المصدر نفسه، ص: ح.

(70) الحجوري: الفكر السامي، ص: 99.

(71) إحميدة النيفر: المعيار والهوية والحوار ، ص: 67.

(72) المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(73) محمد المنوني: المصادر العربية، ص: 98.

(74) هو أبو العباس أحمد بابا التنبكي الصنهاجي الفقيه المؤرخ له ما يزيد عن أربعين تأليفا ولد سنة 963هـ وتوفي في شعبان 1024هـ بتمبكتو ألف نيل الابتهاج وغيره. ترجم له/ المقري، أحمد بن محمد: روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1983، ص ص: 303- 313.

(75) هو أبو العباس أحمد بن سعيد المجليدي تولى قضاء مكناسة الزيتون منذ 1088هـ بعد قضاء فاس لمدة 40سنة من أهم مؤلفاته كتاب التسيير في أحكام التسعير، توفي 1094هـ . ترجم له: موسى لقبال في تحقيقه لكتاب التسيير في أحكام التسعير للمجليدي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د ط)، (د ت)، ص ص: 11-28.

(76) محمود علي مكي: أحكام السوق، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، مج4، ع1-2، 1956، ص: 59.

(77) الونشريسي: المعيار المعرب ، مقدمة الكتاب، ص: ح.

(78) عبد العزيز بنعبد الله: معلمة الفقه المالكي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1983، ص: 18.

(79) محمد فتحة: النوازل الفقهية و المجتمع، ص: 11.

(80) المرجع نفسه ،ص:11.

(81) ذنون طه: عبد الواحد: دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، دار المدار الإسلامي، بنغاري، ط1، 2004، ص: 99.

(82) عمر بن حفصون (240- 305هـ/ 855- 919م) أول من تمرد عن على الدولة الأموية في الأندلس أصله من مدينة رندة، سافر إلى المغرب ورجع إلى الأندلس 270هـ وتحصّن شمال غربي مالقا أظهر النصرانية 286هـ. ينظر/ ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص ص: 148-173؛وابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص: 103؛ ومجهول: ذكر بلاد

الأندلس، تحقيق وترجمة: لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1983، ص: 148.

(83) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ص: 90-94.

(84) ذنون طه: دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها ، ص: 99.

(85) الونشريسي: المعيار المعرب ، ج3، ص: 168.

(86) المصدر نفسه، ج3، ص: 338.

(87) يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكتاني، يُكنّي أبا زكريا الأندلسي القيرواني الإمام المبرز كان فقيها حافظا للرأي،كثير كتب الفقه والآثار، سكن سوسة في آخر عمره، له كتاب مشهور وهو أحكام السوق توفي تسع وثمانين ومائتين وهو ابن ست وسبعين سنة. ترجم له/ ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، ج2، ص: 1814؛ والخشني، أبو عبد الله محمد بن حارث: قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، تحقيق عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1994، ص: 297.

(88) الونشريسي:المعيار المعرب ، ج6، ص: 406- 431.

(89) المصدر نفسه، ج6،ص 50.

(90) المصدر نفسه، ج7، ص: 451-452.

(91) المصدر نفسه، ج6، ص: 197.

(92) ذنون طه: دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، ص: 113.

(93) الونشريسي: المعيار المعرب ، ج8، ص 398-407.

(94) ذنون طه: دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها ، ص: 117.

(95) وداد القاضي: نبذة عن المدرسة في المغرب حتى أواخر القرن التاسع هجري، في ضوء كتاب المعيار للونشريسي، مجلة الفكر العربي، بيروت، ع21، 1981، ص: 65.

(96) الونشريسي: المعيار المعرب ، ج8، ص: 239.

(97) المصدر نفسه، ج7، ص: 156.

(98) المصدر نفسه ، ج2، ص:170.

(99) المصدر نفسه، ج10، ص: 382.

(100) ذنون طه: دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها ، ص: 120.

(101) المرجع نفسه، ص ص: 120-121.

(102) مدينة أو قلعة بالأندلس اليها ينسب محمد بن يوسف بن الأحمر الأرجواني، من متأخري سلاطين الأندلس تقع جنوب الأندلس تتصل جبالها بجبال الصوف وجبل طارق وجبال تاكرونة. ينظر/ الزهري أبو عبد الله محمد: كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، (د ط)، (د ت)، ص: 93؛ والشريف الإدريسي: المغرب وأرض السودان ومصر مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في افتراق الآفاق، مطبعة بريل، ليدن، 1863، ص: 201.

(103) تقع على خليج ألمرية يمتد ما بين رأس قابطة بني أسود ورأس سانبيال غربا، ويحد امرية من الغرب الركائز الأخيرة من حيال ألمرية ولقد استدارت الصخور من كل جهة بمدينة ألمرية الساحلية أمر ببنائها أمير المؤمنين الناصر الدين الله عبد الرحمن بن محمد سنة 344هـ.ينظر/ الحميري، أبو عبد الله محمد: صفة جزيرة الأندلس منتخبة كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت، ط2، (دت) ؛ والزهري أبو عبد الله محمد: كتاب الجغرافية، تحقيق: محمد حاج صادق،مكتبة الثقافة الدينية،مصر، (دط)، (دت)، ص: 101.

(104) الونشريسي: المعيار المعرب ، ج7، ص ص: 147-149.

(105) ابن القاضي: دُرة الحجال، ج1، ص: 141.

الدراسات الاجتماعية

الإعلام والتحول الديمقراطي

الأستاذ الدكتور : مصطفى عوفي، جامعة باتنة، الجزائر
الدكتور: الطيب بلوصيف، جامعة سطيف2، الجزائر

الملخص:

تعتبر وسائل الإعلام من المؤسسات الرئيسية في تشكيل الرأي العام الذي يعمل على ترسيخ القيم الديمقراطية من خلال القدرة على خلق قيم ثقافية جعلته يشكل منبرًا أساسيًا فى التسويق للقيم الديمقراطية وحرية التفكير، فهو مؤسسة تسهر على تنوير الرأي العام الذي يعتبر السلطة الحقيقية في المجتمع، وساعد في تعظيم هذه الوظائف وتنويعها التطور الحاصل في تكنولوجيات الاتصال من الوظيفة الكلاسيكية فى نقل الأخبار إلى المساهمة فى نقل المجتمعات من أنظمة تسلطية إلى أنظمة ديمقراطية.

Summary:

The media is one of the key institutions in the formation of public opinion, which works to entrench democratic values through the ability to create cultural values .Media has become a key marketing platform for the values of democracy and freedom of thought, It ensures the Foundation to enlighten public opinion, which is the real power in society. The evolution in the technologies of communication in the classic function of the news to contribute to the transfer of communities from authoritarian regimes to democratic regimes, helped to expand and diversity of the functions of the media.

مقدمة:

يشكل الإعلام أقوى أدوات الاتصال العصرية التي تعين الفرد على معايشة العصر والتفاعل معه، حيث يعمل على شرح القضايا وطرحها على الرأي العام من أجل تهيئته، وبذلك يعد من المصادر الأساسية في نشر الفكر والمعرفة في المجتمع، وهو ما أكده علماء الاجتماع بأنه " لا يمكن حدوث أي تغيير في المجتمع بمعزل عن وسائل الإعلام" نظرا لما تمتاز به هذه الأخيرة من قدرة على اختصار الزمان والمكان، والتمكين للأفراد من الوصول إلى المعلومة في أسرع وقت وبأقل جهد، و تعتبر كذلك من أنجع الوسائط بين مختلف الفئات الاجتماعية داخل المجتمع، لما لها من قدرة على نقل الصراعات واحتوائها في الفترات الحرجة من حالات التصادم إلى الحوار في محاولة لهيكلة الرأي العام وخلق التفاعل الطبيعي بين اهتماماته حول مختلف القضايا والقرارات السياسية.

كما يساهم إلى حد كبير في نشر قيم الديمقراطية من خلال دعم ثقافة الحوار والاندماج في الفضاء السياسي (بين السلطة السياسية وأطياف المجتمع المدني) لتفعيل سياق التحول الديمقراطي في المجتمع حيث تتحدد مهام وسائل الإعلام في هذه المرحلة بطبيعة النظام السياسي أي حجم الحريات المتاحة إلى جانب مجموع القيم الثقافية والسياسية والاجتماعية السائدة في المجتمع، وتشكل بين العملية الإعلامية و العملية السياسية علاقة متينة (تأثير وتأثر) فكل الوظائف التي يؤديها النظام السياسي تتم من خلال عملية الإعلام التي تعتبر عملية ضرورية لكل المؤسسات السياسية والتي تؤثر في مجرى الأحداث و التطورات السياسية في المجتمع ومنه فإن العلاقة جوهرية بين النظام السياسي والنظام الاتصالي لدرجة أنه يصعب تصور أحدهما دون الآخر، وأن أية محاولة لفهم دور وسائل الإعلام في العصر الحديث يجب أن تبدأ بإدراك أن وسائل الإعلام الجماهيرية تمثل جزءاً رئيساً في حياتنا اليومية.

وشكلت هذه العلاقة محور اهتمام العديد من الباحثين بالتركيز على القيمة الإعلامية لإرساء الفعل الديمقراطي خاصة في ظل التطورات الحاصلة التي

فرضها الإعلام الجديد والتي جعلت من اهمية تحديد الوظائف الديمقراطية للإعلام ضرورة ملحة للباحثين الذين انقسموا بين تقديم نظرة بسلبية إلى دور وسائل الإعلام في عملية التحول الديمقراطي، وبين من تبنى نظرة إيجابية وبناءا على ما سبق وفي محاولة للكشف عن الوظائف الديمقراطية للإعلام نطرح الإشكالية التالية:

كيف تساهم وسائل الإعلام في ترسيخ مبادئ الديمقراطية ؟ وما هي الوظائف الديمقراطية للإعلام؟

ترتكز العملية الإعلامية الحديثة في تحديد أولويات أهدافها المختلفة الناتجة عن حجم التدفق الإعلامي على الخبر، هذا الأخير الذي يخضع لجملة من المعايير السياسية التي يحددها المجال السياسي- الاجتماعي الذي تمارس فيه العملية الاتصالية بشكل عام، ذلك أن العلاقة بين السياسة والرأي العام هي علاقة دائرية ذات تأثير متبادل بين الطرفين إلا أنها تختلف من حيث طبيعتها من نظام لآخر وفق المتغيرات التالية: درجة تماسك الجماهير ووعيها – مدى مصداقية المؤسسات الدستورية التي تحمي حرية تدفق المعلومات لتسمح بتشكيل رأي عام مؤثر في السياسة العامة - شكل التوازنات داخل النظام السياسي وتأثيراتها.

وقد أصبحت المعرفة الإعلامية ضرورة ملحة مع التطور السريع الذي طال ثورة الإعلام والاتصال ومن أبرزها :

- **التطورات التكنولوجية**: والمتمثلة في فيما أحرزته من تقدم في مجال تكنولوجيات الاتصال "الإنترنت" التي شكلت وسيطا إعلاميا تنطوي تحته جميع وسائط الاتصال الأخرى المطبوعة والسمعية والمرئية، والتي أعكست بصورة مباشرة على طبيعة العلاقات الي تربط بين منتج الرسالة الإعلامية وموزعها ومتلقيها، والتي تقدم فرصا واسعة للمُستهلك، وهذه الفرص تقتصر على التأثير في تلقي نتاج وسائل الاتصال.

- **التطورات الاقتصادية**: والمتمثلة أساسا في إفرازات العولمة التي تتطلب حركة واسعة في رؤوس الأموال التي تلعب هي الأخرى دورا في التسريع بتدفق المعلومات، التي تقدم خدمة عامة، حيث تبحث الشركات التجارية المُنتجة عن أسواق جديدة، واستقطاب عدد أكبر من الجمهور، وأصبحت المعلومة سلعة اقتصادية بحد ذاتها لها أهمية متنامية مع مرور الوقت وسلطة " تكنولوجية " ذات منظومات معقدة لا تلتزم بالحدود الوطنية للدول،وتطرح حدودا غير مرئية. وبذلك أصبح الإعلام جزءا من البنية الاقتصادية العالمية التي تفرض على الكل أن يعمل وفق الشروط التي يحددها السوق [1].
- **التطورات الاجتماعية**: والتي تعني الزيادة في التشرذم والفردية التي يعيشها المجتمع المعاصر نتيجة للانتشار الواسع لوسائل الإعلام ، مما زاد في المقابل من اهتمام الشركات الإعلامية بإنتاج مواد إعلامية تهتم أساسا بالاحتياجات والمتطلبات المتباينة للمجتمع.
- **التطورات السياسية**: والتي أدت إلى الاعتماد المكثف لوسائل الإعلام لدى القوى السياسية من أجل التحكم الأمثل في المجتمع وموازين القوى داخله.

وتقتضي الضرورة العلمية تحديد وتعريف ابرز المفاهيم والمصطلحات المستخدمة فيها من اجل إزالة الغموض الذي يكتنف استخدامها وتوظيفها في الاتجاه الذي يخدم مقتضيات البحث وإجراءاته والنتائج التي يمكن أن يتمخض عنها:

أ/الإعلام: يعرف عالم الاجتماع Charles Cooley تشارلز كولي الإعلام بكونه "ميكانيزم مكّن للعلاقات البشرية أن تقوم وتتطور، كما مكّن لرموز العقل الإنساني من أن تترابط وتنتقل عبر الزمان والمكان بواسطة وسيلة للإرسال"، يرى ميشال لونات Michel lenet أن الإعلام لايعني عملية الاستعلام أي ما يستنتج

من سلوك الأخر من خلال فكرة أو معنى الذي يحاول الطرف الأخر أن يوصله إليه ليكون في النهاية كاستجابة أو رد فعل لهذه الفكرة ،وإنما يعني القدرة على الإقناع والتأثير في أفكار وسلوك الآخرين، وهو بذلك يركز على فكرة أساسية تتعلق بالنتائج المترتبة عن التأثير المرتبط بعملية الإقناع الضروري للتطور الفردي والجماعي [2].

وسائل الإعلام: هي الوسائل التي تعين الإعلام إطلاع الجمهور بإيصال المعلومات إلى المجتمع وذلك بهدف توعية الناس وتعريفهم وخدمتهم بأمور الحياة، وتسمى وسائط وتنقسم إلى:

- وسائل سمعية "الراديو": هي وسيط إعلامي تعتمد على السماع في إيصال المعلومات التي يرا د إعلام الناس بها وهي أكثر الوسائل شيوعاً في حياة الناس.
- وسائل بصرية "الصحف": هي وسيط إعلامي يرتبط بحاسة البصر في إيصال المعلومات لذلك سميت بهذه التسمية لأنها تعتمد على حاسة البصر كمصدر رئيسي في الإعلام
- وسائل سمعية وبصرية "التلفزيون": وسيط إعلامي يرتبط بحاسة البصر والسمع في إيصال المعلومات لذلك سميت بالوسائل السمعية والبصرية في وقت واحد وهي الأكثر تأثيرا وأبلغها وضوحاً، ومن أكثر الوسائل التي يعتمد عليها الإعلام في نقل مفهومه إلى جمهوره من المشاهدين والمستمعين في آن واحد.

أصبحت وسائل الإعلام ضرورة حياتية حيث تعمل على تماسك البنيان الاجتماعي و توثيق الصلات بين الحاكم والشعب، حيث عن طريقها يتم التعبير عن رغبات الناس وتطلعاتهم، إضافة إلى أنها تقوم وسائل الإعلام بدور أساسي في تعزيز الاتصال الدولي بين الشعوب وما تنقله من قيم مختلفة عبر الحدود.

ب/ التحول الديمقراطي

مفهوم التحول الديمقراطي مصطلح جديد دخل ميدان السياسة في العقدين الأخيرين من القرن العشرين،يعبر عن مرحلة جديدة في مجال الفكر السياسي تنم عن وعي في مجال الممارسة السياسية والسعي للسلطة،والى قطيعة مع أسلوب العنف" الثورة " بتبني الأسلوب السلمي في التغيير الجذري للوضع السياسي،وهي عملية سياسية تتسم بالانتقال التدريجي من نظام إلى آخر أكثر قدرة وملائمة على تحقيق المبادئ الديمقراطية تتجلى فيه سمتان رئيسيتان:

الأولى أن كل تحول ديمقراطي في إطاره الجغرافي والسياسي المحدد الذي لا يمكن بدونه فهم هذا التحول فهما تاما وصحيحا، والثانية التغيير الذي يأتي به هذا التحول يغلب عليه في البداية الطابع السياسي المؤسسي في البداية سرعان ما يتجاوز إطاره الرسمي ليأخذ طابع تغييرات جذرية اجتماعية وثقافية واقتصادية. وتمر عملية التحول الديمقراطي عبر مسارين هما[3].

إصلاح الدولة وضبط سلطتها وتطهيرها من اعتبارات المصالح الشخصية،وإعادة هيكلة المجتمع من أجل فاعلية وموازنة قواه لقوة الدولة.

ويمكن رصد أهم مؤشرات التحول الديمقراطي فيما يلي[4].

- ✓ التداول السلمي على السلطة من خلال نظام تمثيلي ونزاهة الانتخابات في إطار التعددية السياسية والفصل بين السلطات.
- ✓ الحريات العامة في الرأي والتعبير والتنظيم، إلى جانب حرية الصحافة ونظام فعال للاتصال وتبادل المعلومات.
- ✓ المؤسسة السياسية، ومأسسة منظمات المجتمع المدني بمختلف مكوناته وفواعله الأساسية.

ويشير لفظ التحول من الناحية اللغوية إلى التغير والنقل، يقال حوّل الشيء أي غيره من مكانه أو نقله، أو غيّره من حال إلى حال، وعن الشيء يقال تحول عنه لغيره[5].

مع تحقيق تقدم مقارنة بالوضع السابق ،فيكون الوضع الجديد مغايرا له في صفاته وخصائصه،و تقابلها في اللغة الانجليزية Transition، ويقصد بالتحول الديمقراطي على مستوى النظم السياسية المرحلة الانتقالية بين نظام غير ديمقراطي إلى نظام ديمقراطي وفق عملية انتخابية تقوم على أساس التنافس في مناخ يوفر الحريات المدنية والسياسية.

أهمية الإعلام: يشكل الإعلام أبرز مظاهر الحريات السياسية التي تعمل على الكشف عن خبايا النظام، وشرطا ضروريا لأي عملية تحديث سياسي، وتعكس حجم العلاقة بين الدولة والمجتمع من جهة وبين النخبة والجماهير من جهة ثانية، من خلال العلم بالحد الأدنى من المعلومات حول الأحداث والوقائع التي تشهدها الحياة اليومية في المجتمع بالدرجة التي تحقق الصدقية وتقود إلى الترابط بين السلطة والمجتمع[6].

ومنه العمل على ترسيخ الممارسة الديمقراطية التي ترتبط بتعدد الاتجاهات والآراء وبطبيعة العوامل الثقافية والاجتماعية والسياسية المتأصلة في المجتمع التي تضفي عليها مصداقية داخل النظام الاجتماعي من جهة، وفلسفة النظام السياسي الذي تعمل في ظله من جهة ثانية.

وقد شاع استخدام مفهوم إعلام السلطة الذي يعني التوظيف السياسي للإعلام في عملية تشكيل الرأي العام بما يقوم على دعم سياسة النظام واختياراته والتعبئة، وإعلام السلطة يعد كأحد الأدوات الأساسية في صناعة السلطة لذاتها من خلال الدعاية التي تعد من مظاهر انحراف الإعلام عن مهامه الحقيقية.

ويكون الإعلام كقوة مستقلة من خلال ما يستطيع أن يقدمه من مواد اتصالية للتأثير في عملية صنع القرار السياسي، والتدخل في تشكيل مفاهيم

وتصورات الرأي العام في كافة القضايا، وتزويده بالخبرات السياسية التي من خلالها يتشكل الرأي العام المحلي والدولي[7].

ويعتبر أحد أنواع المشاركة المؤثرة الغير مباشرة، فقراءة الصحف ومتابعة المادة الإخبارية في الوسائل الإعلامية، تمنح الأفراد أفاقا واسعة لاتخاذ القرار بالمشاركة السياسية، لان وسائل الإعلام ما هي إلا وسيلة تمنح الأفراد التقرب من العملية السياسية وفهم القرارات المتخذة من الدولة[8].

وتعتبر هذه المشاركة من أوجه الديمقراطية والضمانة الفعلية لوضعها موضع التنفيذ فالمجتمعات التي تتمتع بوجود صحافة حرة مستقلة تتميز باستقرار سياسي وتتمتع فيها الحكومة بالقدرة الكافية لمعالجة القضايا العامة، ما يعني العلاقة القوية بين الديمقراطية وحرية الإعلام لما لها من إمكانية إدارة النقاش بين الاتجاهات السياسية والفكرية المختلفة، والحدود غير المسبوقة التي يبلغها في فاعليته الاجتماعية لاسيما عبر الآفاق الجديدة التي يفتحها أمام حرية التعبير، وارتباطها بالطابع المتجدد والمتسارع للتطور التكنولوجي، الذي أدى إلى تزايد هذه الأفاق على نحو تحد متزايد للبنى الاجتماعية والسياسية المسيطرة .

وينظر علماء السياسة إلى وسائل الإعلام باعتبارها جزءاً من النسق السياسي تستخدمها النخبة الحاكمة والقيادات السياسية لإضفاء الشرعية والمصداقية على النظام السياسي، وتدعيم المؤسسات السياسية القائمة، وتبرير السلوك السياسي للقادة والمسئولين[9].

إضافة إلى العراقيل التي تضعها الحكومات للحد من الإعلام الحر كتقييد تدفق المعلومات، وتشديد الرقابة عليها (الانترنت). وأضحت هذه العقبات خطرا على حرية الصحافة وحرية التعبير، خاصة في المرحلة الراهنة أين أصبحت التكنولوجيا لها دور حيوي فيما يسميه المفكر عزمي بشارة (توحيد الزمن) بالنسبة للجمهور وجعله أكثر تسيساً حيث تستطيع قناة تلفزيونية مؤثرة أن توحد خطاب يشد اكبر نسبة من الناس بغض النظر عن اختلاف المكان وبعد المسافة[10].

اهتم العديد من الباحثين وفي مختلف التخصصات بعلاقة وسائل الإعلام بالعملية السياسية من خلال العلاقة الارتباطية بين الاتصال الجماهيري والمشاركة السياسية، وعلى الرغم من التضارب في الآراء حول مدى فاعلية هذه العلاقة إلا أن الإجماع كان حول ايجابية الوسيلة الإعلامية في القيام بالنشاط السياسي من خلال ما تطرحه من تبادل للمعلومات كما تساعد على تكوين رأي عام، بتزويد الجمهور بالأخبار و المعلومات و الحقائق، واستخدامها كقنوات للتعبير السياسي ونشر أفكار وآراء النخبة الحاكمة و المعارضة على حد السواء، ويعد بذلك العملية الاجتماعية الأساسية التي تؤثر في جميع العمليات الاجتماعية الأخرى كلما كانت المعاني والأفكار تنتقل بواسطتها.

وأثبتت المتغيرات العديدة التي ساهمت في عمليات التحول الديمقراطي بالتأكيد على دور وسائل الإعلام كوسيلة مساعدة على التغيير السياسي، بعدما كانت أداة لإحكام السيطرة السياسية في العديد من النظم السياسية التي تميزت بأنها تسلطية، إلا أن الاهتمام بهذا الدور لم يكن يلقى اهتماما واضحا في الدراسات المتعلقة بالتحول الديمقراطي نظرا لتركيزها على دور النخب الجديدة (المدنية) في عملية التحول مقابل النخب التقليدية(العسكرية) ولم ترقى المؤسسات الاجتماعية بما فيها وسائل الإعلام إلى اهتمام بعض الباحثين في تحليلهم لعوامل التحول الديمقراطي،إلا أن البعض الأخر كان ينظر إليها نظرة ايجابية على أساس أنها أداة أساسية في عملية التحول من نظم استبدادية إلى نظم ديمقراطية.

- **الاتجاه الأول**: يؤكد على الدور السلبي لوسائل الإعلام في عملية الانتقال من النظم التسلطية إلى نظم ديمقراطية، حيث لا توجد هناك علاقة تؤكد على هذا الدور،بل العكس من ذلك قد ساهمت إلى حد بعيد في توطيد النظم التسلطية من خلال تبنيها لمواقف إيديولوجية عززت من فرض نفوذ الفئات المسيطرة داخل النظام السياسي (وظيفة مساندة للسلطة)، وبذلك تمثل وسائل الإعلام أداة لاستمرار النمط السياسي المسيطر

ومصدرا لحماية شرعية النظام السياسي وعاملا مهما في استمرارية النخب التقليدية في السلطة.

- **الاتجاه الثاني**: ويمثل الفئة التي تشكك في إمكانية الدور الذي تقوم به وسائل الإعلام خاصة في المراحل الأولى لعملية التحول الديمقراطية(حساسية المرحلة وما يمكن أن ينتج عنها من انتكاسة، حيث أن وسائل الإعلام لا تساهم بشكل جدي في تهيئة الظروف العامة لعملية التحول، بل أن التجارب العديدة في بعض الدول أثبتت أنها عملت على إبقاء الوضع القائم في ظل استمرار سيطرة السلطة على هذه الوسائل، مما يجعل من ديمقرطتها من المهام الأساسية في عملية التحول الديمقراطي.
- **الاتجاه الثالث**: ينظر بإيجابية لأهمية دور وسائل الإعلام في ديمقرطة المجتمع نظرا لما يمكن أن تقدمه في نشر القيم والثقافة الديمقراطية، فهو بذلك من الأسس التي يُعول عليها في مرحلة التحول لما تمثله من قوة تأثير ومصداقية وانتشار في المجتمع، ويؤكد هذا الاتجاه على وجود رابط قوي بينها وبين نشر القيم الديمقراطية خاصة في المجتمعات التي تشهد المراحل الأولى من التحول خاصة في ظل السرعة على نقل الأخبار والمعلومات والقدرة على تفسيرها.

وظائف الإعلام الكلاسيكي:

استقر الفكر الإعلامي على أن الوظيفة الكلاسيكية للإعلام تنحصر في الوظائف التالية[11]:

1. **الوظيفة الإخبارية**: وهي تعد من أكثر الوظائف السياسية تأثيرا في المجتمع والنظام السياسي، فهي الوظيفة الأولى التي من أجلها بدأت محاولات الاتصال الجماهيري باستخدام النشر والبث على نطاق واسع بما يسمح من معرفة ما يحدث من أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية وغيرها،من خلال جمع وتخزين ومعالجة مختلف المعلومات ونقلها للتأثير

على الآراء لفهم مختلف الظروف المحيطة والتصرف تجاهها بكيفية يمكن من خلالها اتخذ القرارات، باستعمالها لمختلف الأساليب في التعامل مع الإخبار (تكرار، تجاهل، تنوع،تشويق، إثارة، تحويل....) من التأثير وتوجيه الرأي العام.

2. **وظيفة التنشئة**: وهي عملية يتم من خلالها اكتساب المعرفة وتكوين المواقف والقيم وتشكيل الثقافة السياسية والمحافظة عليها أو تغييرها بواسطة (التلفاز، الراديو، الإنترنت)، وتستمر هذه العملية مرحلة الطفولة، يعي من خلالها الفرد خصائص المجتمع والاتجاهات والأفكار السائدة على المستوى الداخلي والخارجي، مما يؤدي إلى نوع من التكيف الضروري مع النظام السياسي، ونالت تأثيرات وسائل الإعلام في عملية التنشئة الاجتماعية اهتماما بالغا، حيث اتفق علماء الاجتماع على ان وسائل الإعلام هي الأدوات الأساسية للتنشئة الاجتماعية أي أنها تمارس دورا في عملية التنشئة وعلى حد تعبير تشارلز رايت إن وسائل الإعلام تتولى جانبا من جوانب عملية التنشئة الاجتماعية.

وهي الوظيفة التي يرى فيها "هارولد لاسويل " ضرورة يتعين على وسائل الإعلام القيام بها، تشتمل هذه الوظيفة على توفير رصيد مشترك من المعرفة (التعليم، محو الامية،التربية الموازية..) حيث تخضع وسائل الاتصال إلى طبيعة النظام الاجتماعي السائد الذي تعمل فيه لدعم الاتجاهات وتكييفها عن طريق صناعة الرأي العام بما يضمن مشاركة فعالة في الحياة العامة .

3.خلق الدوافع: حيث يساهم الإعلام في دفع الأهداف النهائية لكل مجتمع ودعم المبادرات الشخصية التي تتجه نحو تحقيق الاسمي.

4.وظيفة الحوار والتعايش: تضمن الدرجة العالية من حرية التعبير بأن يكون المجتمع منفتحا للأفكار الجديدة وليس متمسكا بالمسلمات، من خلال توضيح مختلف وجهات النظر حول القضايا العامة لدعم الاهتمام بالمشاركة على نحو أفضل.

5.وظيفة ثقافية تعليمية: وهي من الوظائف الأساسية التي يحققها الفرد من العملية الإعلامية وينظر إليها باعتبارها دافعا للثقافة وخطرا يهددها فى الوقت ذاته ويمكن اعتبار دور الإعلام بمثابة دور الناقل الأساسي للثقافة لان وسائل الإعلام والاتصال هي أدوات ثقافية تساعد على دعم المواقف وعلى تعزيز الأنماط السلوكية وتحقيق التكافل الاجتماعي، كما ان الإعلام يمثل الوسيلة الأساسية فى الحصول على الثقافة وجميع أشكال التعبير الخلاق وتسهم وسائل الاتصال في العلمية التعليمية سوءا بطريقة مباشرة عن طريق البرامج التعليمية أو بطريقة غير مباشرة عن طريق ما تقدمه من دراما تجذب إليها الجماهير على اختلاف مستوياتهم التعليمية والثقافية، والتعليم وسيلة من وسائل التثقيف، وعنصر من عناصر الثقافة.

6.وظيفة ترفيهية: يمكن القول انه لا توجد آية وسيلة إعلامية من البرامج الترفيهية لما يمكن أن يشكله الترفيه من دور تثقيفي وتعليمي من خلال بث الروايات والقصص والبرامج الموسيقية يستغل في ساعات الفراغ في محاولة للتخلص من الصعوبات اليومية و إزالة التوترات ولم يعد الترفيه شيئاً ثانوياً في حياة الأفراد وإنما أصبح ضرورياً، خاصة في العصر الحالي الذي يتسم بالقلق والتوتر الشخصي أو الجماعي.

7.وظيفة التكامل: وتشمل تبادل القيم والمعايير والأفكار بين الإفراد ومختلف الفئات الاجتماعية بما يكفل وصول رسائل متنوعة تحقق الحاجات المختلفة في تشكيل مواقفهم حول القضايا الأساسية المطروحة ويحدد "كاتز و كاهن "درجة تماسك الجماعات الاجتماعية المختلفة بشكل وطبيعة الاتصال السائد فيها.

8.وظائف الإعلام في مرحلة التحول الديمقراطي

يشكل الإعلام أبرز مظاهر الحريات السياسية وشرطا ضروريا لأي عملية تحديث سياسي حيث يعكس حجم العلاقة بين الدولة والمجتمع من جهة وبين النخبة والجماهير من جهة ثانية، من خلال العلم بالحد الأدنى من المعلومات

حول الأحداث والوقائع التي تشهدها الحياة اليومية في المجتمع بالدرجة التي تحقق الصدقية وتقود إلى الترابط بين السلطة والمجتمع، وبذلك يحتل الإعلام أهمية قصوى بالنسبة لأي نظام سياسي مهما كانت الإيديولوجية التي يقوم عليها لتأكيد شرعيته وبما يمكنه من مواجهة الأزمات المختلفة التي تواجهه[12].

فالحديث عن التلازم الضروري بين نجاح العملية السياسية والقدرة على الاستغلال الأمثل لمختلف تكنولوجيات الإعلام والاتصال هي من المسلمات الأساسية التي تتناسق مع بمستوى تطور الأداء الإعلامي بمدى انتهاج أسلوب الممارسة الديمقراطية بما يعني انه لابد من ترسيخ القيم التي تعبر الانفتاح نحو الحريات الفردية والجماعية ،التي تمكن للمؤسسات الإعلامية من تكريس القيم الديمقراطية بنقد المؤسسات السياسية وإبراز الاتجاهات التعددية في المجتمع.

فوسائل الإعلام ما هي إلا وسيلة لخلق عملية التفاعل الايجابي بين اهتمامات الرأي العام وقرارات السلطة السياسية،حيث تمنح الأفراد التقرب من العملية السياسية وفهم القرارات المتخذة من الدولة وهو ما أكدته الدراسات الحديثة حول أهمية الإعلام في تهيئة الإفراد لتقبل الأفكار المستحدثة وتكوين الاتجاهات التي ستلزمها عملية التحديث وتعزيز وترسيخ مجموعة من القيم والأفكار الايجابية منها :المواطنة، الحرية والمسؤولية، المشاركة وحقوق الإنسان ...وتحقيق هذه القيم مرهون بشكل كبير بفلسفة النظام السياسي الذي تعمل في ظله وسائل الإعلام، ودرجة الحرية التي تتمتع بها داخل النسق المجتمعي بما يمكن من ضمان استمرار الاستقرار السياسي والاجتماعي.

إضافة إلى انفتاح وسائل الإعلام التابعة للسلطة التي أبدت اهتمامها لما يجري في الواقع وتخلت ولو جزئيا عن لغة الخشب حيث فتحت للمواطنين المجال للتعبير عن مشاكلهم[13].

وهو ما يعني أن الحرية الإعلامية استفادت من التعددية السياسية، فالمنظومة الإعلامية ما هي إلا انعكاس للنظام القائم، وجزء من النظام الكلي السائد في المجتمع، وأحد أهم مظاهر حرية الرأي والتعبير، وآلية أساسية لرصد

وحماية حقوق الأفراد، ومنه تصبح استحالة الحديث عن حرية الصحافة في ظل غياب الفصل بين السلطات وغياب الحريات الفردية وحقوق الإنسان والمجتمع المدني الفاعل، ولا يمكن تصور نظام إعلامي داخل نظام تسلطي.فالإعلام واحد من المؤشرات التي يمكن استخدامه للوقوف على درجة ديمقراطية النظام السياسي من خلال:

- ✓ تحفيز المناقشات العامة بما فيها النقاش حول السياسات الاقتصادية والاجتماعية للحكومة.
- ✓ رصد الانتخابات وتعزيز مصداقيتها، وهنا تلعب الصحف المستقلة والإذاعات دورًا مُهمًا في رصد شفافية الانتخابات، و يجعل من الصعب التلاعب في نتائجها أو تزويرها.
- ✓ فضح انتهاكات حقوق الإنسان وعمليات التعذيب والاعتقال.
- ✓ فضح الفساد السياسي من خلال نشر تحقيقات حول الفساد.

افترض Jurgen Habermas ضرورة توافر أربعة شروط أو محددات رئيسة حتى تتمكن وسائل الاتصال من القيام بوظائفها الديمقراطية، وهي[14]:

1. القدرة على تمثيل الاتجاهات المختلفة داخل المجتمع: التعدد في المجتمعات ذات الاتجاهات والأهداف والإيديولوجيات المختلفة، تفرض على وسائل الإعلام أن تمثلها من خلال إتاحة الفرص لكل هذه الاتجاهات للوصول إلى المعلومة، وأن تعرض أفكارها دون أية قيود، وتتراجع القيم الديمقراطية بالتحول في استخدامها لصالح النخب المسيطرة، وتنتفي بذلك الوظائف الديمقراطية للإعلام،ذلك أنه كلما كان هناك تحالف بين السلطة والإعلام كان تغييب للحياة السياسية وإغلاق للعبة السياسية.

2. حماية المجتمع: حتى تتمكن وسائل الإعلام من تأدية وظيفتها في المجتمع الديمقراطي يجب أن تتوفر لها القدرة على حماية مصالح المجتمع او حارسا عليه، حيث يصبو المجتمع دائما إلى السلطة التي تراقب المجتمع وتمثل مصالحه .

3. توفير المعلومات للجمهور: من أساسيات تنمية المجتمع الديمقراطي هو أن يحدث فهم مشترك بين المواطنين لكافة الإحداث، حيث يتقاسم الأفراد المعرفة كأحد أشكال التعليم الذي يضمن سلامة صناعة القرار،ويؤكد في هذا الصدد هابر ماس إلى ضرورة توفر المعرفة للجميع حتى تكون القرارات المتخذة صحيحة وفي صالح المجتمع، مما يؤكد تكامل الأدوار بين المؤسسة التعليمية ووسائل الأعلام للارتقاء بمستوى ثقافة المواطن في إشارة التسويق المتبادل بين المؤسسات المختلفة خاصة المتعلقة بالعملية التربوية والتنشئة الاجتماعية والسياسية.

4. المساهمة في تحقيق الوحدة الاجتماعية: تعمل وسائل الإعلام على تنمية المشاركة الايجابية في عملية التنمية المجتمعية وتقاسم المعرفة في تحقيق الوحدة الاجتماعية فإنها تساعد المجتمع على أن يظل موحدًا حيث توجد ثقافة عامة مشتركة لكل أعضاء المجتمع، وتزويد الجمهور بالقيم الثقافية وتشكيل الملامح الحضارية للمجتمع عن طريق تقديم المعارف وتفسيرها،فووسائل الإعلام تقوم بنشر هذه الثقافة العامة المشتركة التي تقوي من الشعور بالمشترك الثقافي الذي يعمل على اتخاذ قرارات تصب في المصلحة العامة المشتركة وتحقيق الوحدة الاجتماعية تجاه القضايا الأساسية في المجتمع.

ونظرا للقيمة الإخبارية التي يحملها الخبر في حد ذاته وما يشكله من ثقل في الوسط الاجتماعي،فان المسؤولية تقع على عاتق وسائل الإعلام في المحافظة على تماسك المجتمع من خلال تجنب التغطية المنحازة التي تعرض المصالح العليا للدولة "إشاعة الفوضى والاضطراب[15].

وقدم ثلاث حالات تمكن لوسائل الإعلام من القيام ولتوضيح العلاقة بين الصحافة والديمقراطية يتطلب الوقوف على الأدوار تؤثر من خلالها على الحياة السياسية والديمقراطية بشكل عام، وضعها Donohue , Tichenor and Olienو krauss باستخدام تشبيهات واستعارات مبنية على أساس العلاقة بين الإنسان والكلب لتوضيح هذه الأدوار والوظائف وهى[16].

1. **وظيفة كلب المراقبة** watchdog وهي امتداد لمفهوم السلطة الرابعة حيث تسعى وسائل الإعلام لأن تكون رقيبا على كل ما يدور في المجتمع من مدخلات ومخرجات، بما في ذلك مراقبة المؤسسات الاجتماعية النافذة في المجتمع، وهنا يوصف دور الصحافة بأنه مثل دور الحارس اليقظ الذي يعمل كحارس ورقيب ضد إساءات استخدام السلطة الرسمية، وكمراقب لمصالح المجتمع وحمايته من الفساد والانحراف، ووصفت هذه العلاقة بمصطلح أخر السلطة الرابعة Fourth Estate مما يعني أن سلطة الإعلام تتنافس مع باقي السلطات الأخرى في المجتمع ،وأول من طرح هذا المفهوم "ايدموند بيرك "في القرن الثامن عشر مشيرا بذلك إلى تنامي دور الإعلام في انجلترا على الخصوص لينافس الدور الذي تلعبه السلطات الثلاث: مجلس اللوردات، مجلس العموم، الكنيسة.
2. **وظيفة كلب الحراسة guarddog** وتعني هذه الوظيفة أن تكون وسائل الإعلام أشد حرصا على متابعة و حراسة فقط للمؤسسات النافذة في المجتمع، لحماية المجتمع من تسلط النظام السياسي، وهذا الدور الواقي يتم بشكل أفضل بواسطة صحافة مستقلة تحكمها اهتماماتها ومعاييرها الخاصة.
3. **وظيفة الكلب الأليف lapdog** وتعني أن وسائل الإعلام ترتمي في حضن المؤسسات الاجتماعية دون أن تكون أداة مستقلة، ودون إبداء أي مساءلة للسلطة، ودون الالتفات إلى الآراء والاتجاهات الأخرى في المجتمع وبالذات التي لا تتفق مع مصالح المؤسسات النافذة في المجتمع.

وهناك من يظيف وظيفة أخرى لا تقل أهمية عن الوظائف السابقة وهي وظيفة المرشد أو القائد وتعني أن الصحافة تقوم بدور المرشد أو الدليل الذي يمد المواطنين بمجموعة من المعلومات عن السياسات وصانعي السياسة، والتي يحتاجونها لصنع القرارات، ولتقييم قادتهم، وتقوم كذلك بوضع الأجندة للقضايا المطروحة على الساحة السياسية، وتعمل كمصفاة للحلول وترتيبها حسب

الأولويات قبل تقديمها للجمهور وتحث السياسيين على الاهتمام بهذه القضايا نظراً لأهميتها، وبذلك تلعب دور الكلب القائد في الطريقة المحددة لإعطاء تغطية أكبر لأحد القضايا أكثر من الأنواع الأخرى.

ومن هذا المنطلق فأن وسائل الإعلام تقوم بمجموعة من الوظائف الأساسية لدعم عملية التحول الديمقراطي تشمل هذه الوظائف الآتي[17].

- توسيع الآفاق تساعد على عبور الهوة بين المجتمع التقليدي والحديث بفسح المجال أمام الاتجاهات الموجودة داخل المجتمع لإبداء آرائها حول مختلف المسائل السياسية والاجتماعية والسياسية، أي أنها تساهم في تحقيق ديمقراطية الاتصال بتحولها إلى مساحة للتعبير الحر.
- **إثارة الطموحات**: حيث تعمل حث الأفراد على النضال من اجل الحياة الكريمة من خلال مراقبة الأحداث المعاصرة، وهي الأحداث التي من المحتمل أن تؤثر بالإيجاب أو السلب على رفاهية المواطنين وتمكنهم من الاطلاع على المستجدات للتكيف معها .
- **تأسيس المعايير الاجتماعية**: أن حرية وسائل إعلام تمثل دلالة قوية على وجود رقابة على مراكز السلطة السياسية بما يمكنها ضمان استقرار المجتمع واستمرار يته، ومن خلال الرقابة على مؤسسات المجتمع بإعداد التقارير عن الأخطار والفرص التي تواجه المجتمع، وكشف الانحراف والفساد الحاصل في الدوائر السياسية ومنه العمل على تأسيس لثقافة سياسية تمكن الكشف عن انحرافات السلطة، وإساءة استخدامها لتحقيق المنافع الشخصية.
- **تشكيل اتجاهات الرأي العام**: الإعلام لا يعني مجرد إعطاء معلومات فقط وإنما يعمل على تغيير الاتجاهات وخلق وتعديل أراء المواطنين تجاه أفكار أو أشخاص أو دول بحد ذاتها،حيث انه كلما انسجمت الرسالة الإعلامية مع شخصية المتلقي ودوافعه عملت على أحداث تأثير في ثقافته

السياسية، وبذلك أصبحت وسائل الإعلام هي التي تقرر ما الذي يشكّل الرأي العام من خلال تزويده بالمعلومات الكافية لتكوين الحقيقة السياسية حتى يتمكن من التفاعل مع المضامين الإعلامية التي من خلالها رصد توجهات الرأي العام ورؤيته حول مختلف القضايا مما يرشد السلطة السياسية ويسهم في إنجاح سياساتها، ومعرفة قدرة النظام السياسي على مواجهة الأزمات المتجددة والمفترضة بما يمكن من تحقيق الاستقرار والتماسك الاجتماعيين القائمين على مقدرة النظام على القيام بمهامه الحقيقية .

- **الوفاء بحق الجماهير في المعرفة**: من خلال نقل الأنباء من مصادر متعددة، وشرحها وتفسيرها، ونقل الآراء المختلفة حول القضايا الداخلية والخارجية، وبذلك فإن الوظيفة الإعلامية لا تقتصر على تقديم المادة الإعلامية فحسب، وإنما تتعداه إلى المساهمة في صناعة المعلومة التي تدخل في البرامج السياسية من خلال إظهار أولوية المسائل الأكثر اهتمام
- **الإسهام في تحقيق المشاركة السياسية**: من خلال إتاحة المعلومات الكافية التي تؤهل المواطنين للمشاركة واتخاذ قراراتها بالانتماء للأحزاب السياسية، أو التوجهات الفكرية، أو التصويت بما يدعم النشاط السياسي العام.
- **إدارة النقاش الحر في المجتمع**: وذلك من خلال قدرتها على تفسير الإحداث ووضعها في السياق العام مع تقديم النتائج المتوقعة، وتقديمها للنقاش بين مختلف القوى الاجتماعية والسياسية للوصول إلى أفضل الحلول الممكن، ذلك أن اختلاف التوجهات والأفكار يساهم إلى حد كبير صدقية تفسير النتائج السياسية وتشخيصها.
- **المساعدة في صنع القرارات**: فلوسائل الإعلام تأثير كبير على القرارات السياسية ويرجع ذلك لأنها تؤثر على القرارات السياسية فقد تعطي الشعبية أو تحجبها عن صانع القرار، كما أن صانع القرار ينظر إليها

كمقياس لرد فعل الناس تجاه سياسته وقراراته، فوسائل الاتصال في الأنظمة الديمقراطية تكون حرة في نقل المعلومات والتفاعل مع القضايا والأحداث وبالتالي تكون قدرتها على صنع القرار قوية، بينما في النظم السلطوية حيث تُنقل المعلومات من أعلى إلى أسفل، يضعف الدور الذي قد تمارسه هذه الوسائل.

إن قوة العلاقة بين وسائل الإعلام والديمقراطية تتحدد من خلال حجم القطاع الإعلامي وقوة نفوذه (عدد المتلقين) وطبيعة العلاقة بين الطرفين،والفلسفة التي يقوم عليها، وقوة النفوذ منحصرة بالضرورة في بفاعلية القطاع الثقافي، بمعني أنه يصبح كما هو الحال في الدول المتخلفة الأداة الرئيسية للثقافة بعد التراجع الملفت لدور المدرسة والجامعة وضخامة حجم الأمية وحتى تتمكن من بلورة الواقع السياسي للجمهور الذي يستقي معلوماته منها لتشكيل جملة من المفاهيم السياسية تمكنه من تقدير السلطة وتدعيمها. تعرضت الديمقراطية خلال مسارها التاريخي الطويل للعديد من التحديات والنكسات،إلا أن ذلك لم يوقف مسيرتها،وتطورها بالمفهوم الحديث يرجع إلى الثورتين الأمريكية والفرنسية،وقد واجهت أول تحد لها بعد الحرب العالمية الأولى، وصعود الحركات اليمينية المتطرفة من فاشية ونازية،وفي مقابلها الحركات اليسارية المتطرفة،التي تبنت على اختلاف انتماءاتها الفكرية أيديولوجيات معادية للديمقراطية فكرا وممارسة.

❖ هوامش البحث

(1) السيد احمد مصطفى عمر: **إعلام العولمة وتأثيره على المستهلك**، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد 256، 2000، ص 89.

(2) ميشال لونات: **الإعلام الاجتماعي**، ترجمة صالح بن حليمة،تونس:المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،1993،ص109.

(3) علي خليفة الكواري: "**مفهوم الديمقراطية المعاصرة**، قراءة أولية" في المسألة الديمقراطية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل العربي(19)، بيروت، ماي 2000، ص 37.

(4) هدى متيكس: **دراسة النظم السياسية في العالم الثالث**"، في اتجاهات حديثة في علم السياسة، المحرر علي الدين هلال دسوقي، القاهرة: اللجنة العلمية للعلوم السياسية والإدارة العامة، 1999، ص 141.

(5) إبراهيم مصطفى وآخرون: **المعجم الوسيط**، القاهرة، 1960.ج1، ص 216.

(6) بسام عبد الرحمان الجرايدة: **الإعلام وقضايا حقوق الإنسان**، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن 2013، ص 206.

(7) عزيزة عبده: **الإعلام السياسي والرأي العام**، دراسة في ترتيب الأولويات، القاهرة، دار الفجر للنشر والتوزيع، 2004، ص5.

(8) شريفة ماشطي: **المشاركة السياسية أساس الفعل الديمقراطي**، مجلة الباحث، عدد 10 سبتمبر 2010، ص156.

(9) بسام عبد الرحمان الجرايدة، مرجع سبق ذكره، ص 207.

(10) أصوات العراق، تصفح الموقع يوم:12/ 07/ 2012 . http://ar.aswataliraq.info

(11) بسام عبد الرحمان الجرايدة ، مرجع سبق ذكره، ص46.

(12) ثناء فؤاد عبد الله ،آليات التغير الديمقراطي في الوطن العربي،مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت، ص 309.

(13) عزيزة عبده، مرجع سابق، ص16.

(14) صفوت العالم: دور وسائل الإعلام في مراحل التحول الديمقراطي، مصر نموذجا: موقع الجزيرة للدراسات،الموقع :

http://studies.aljazeera.net/issues/2013/03/201331411434095725.htm

(15) انتصار ابراهيم عبد الرزاق: **الإعلام الجديد**، سلسلة مكتبة الإعلام والمجتمع، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد2011، ص 98 .

(16) عيسى عبد الباقى: وسائل الإعلام والتحول الديمقراطي في الدول العربية إشكالية الدور... وآليات التعزيز" المؤتمر الأول لمستقبل الإعلام في مصر

https://www.facebook.com/Media.Future.In.Egypt

(17) بسام عبد الرحمان الجرايدة، مرجع سبق ذكره، ص48.

دور الثقافة التنظيمية في الاتجاه نحو التغيير التنظيمي

الأستاذ الدكتور : نور الدين تاوريريت، جامعة بسكرة، الجزائر

الأستاذة: نسيمة بومعراف، جامعة بسكرة، الجزائر

الملخص:

إن التنظيمات ليست بمنأى عن التغيرات الاجتماعية، السياسية، و الاقتصادية العالمية، خاصة في ظل العولمة و انفتاح السوق، وما صاحبه من تغيرات. فالمنظمات ملزمة بالاهتمام بالعمال من خلال تطوير طرق التسيير؛ بتوفير مناخ عمل ملائم ومتطور لمسايرة التطورات المحلية و الدولية لتضمن المؤسسة بقاءها و استمرارها في ظل المنافسة الشديدة، وهذا لا يتسنى للمنظمة إلا إذا كانت تتمتع بكفاءة عالية المستوى و محفزات جيدة، لذلك فإن أي مؤسسة تريد مسايرة التغيير السريع الذي يعرفه العالم؛ لابد أن تحرص على الاهتمام بكفاءة العمال و رضاهم في ظل ما تتيحه الثقافة التنظيمية السائدة و كذا إشراكهم في هذا التغيير لتحقيق النجاح.

Résumé :

Les organisations ne pas loin des changements sociales, politiques et économiques mondiale; surtout à cause de mondialisation et de coopération du marché , c'est pour quoi les organisations seront obligés de s'intéresser des travailleurs; et ça ne sera pas sans l'amélioration des systèmes et des méthodes de gestion pour suivre les développements intérieurs et extérieurs .

surtout avec la grande concurrence et ça ne se fait qu'à travers une haute performance. avec la coopération des employeurs dans cette amélioration pour mieux faire et pour assurer une bonne résultat.

مقدمة:

كان التنظيم و لا يزال موضع اهتمام علماء الاجتماع و النفس على السواء جراء مختلف آثار التفاعل بين الأفراد وتباين سلوكهم، و اعتبارهم الأداة المساعدة على تطبيق مبدأ التخصص و تقسيم العمل. و الإطار الذي يرسم شكل العلاقات وتفاعلها. و لأن التنظيمات تتسم بالدينامية، و لكون العصر الذي نعيشه عصر التطورات، فالتغيير التنظيمي تصحبه تغييرات في العلاقات القانونية، الاجتماعية و الإنتاجية بين الأعضاء الفاعلين في التنظيم وهذه التغييرات التي تدخلها الإدارة على الهيكل التنظيمي تؤثر على المكانة المهنية و الاجتماعية للأفراد و الجماعات، و على اتجاهاتهم.

فالتغيير أمر ضروري، لكن إن لم يعاصره التنظيم فإن ذلك يهدد استمراريته وتطوره، وفي ظل النظام الاقتصادي العالمي، فإن كل مؤسسة تسعى إلى تكييف بيئتها التنظيمية بشكل عام، و الاجتماعية بشكل خاص لتتوافق واحتياجات هذا النظام. ولذا فهذه التغييرات لا تأتي صدفة بل تحدث وفق تصورات مستقبلية تهدف لتطوير الاقتصاد وآليات تعاملاته. وعليه يعتبر التغيير التنظيمي أمر مهم ، و الأهم منه هو تحقيق أهدافه، و تجنب مقاومته أو معارضته، و لتحقق ذلك لابد أن يأخذ التغيير أبعادا اجتماعية، ثقافية و تاريخية لا اقتصادية فحسب، إذ أن التغيير لا يصدر عن جهة واحدة لأن تطبيقه يشمل جهتين هامتين- العمال، الإدارة- في أي مؤسسة و لا يمكن إغفال أي طرف للوصول إلى الهدف المنشود من التغيير.

و نظرا لأهمية العلاقة بين الثقافة التنظيمية و الاتجاه نحو التغيير، فقد أضحت الثقافة التنظيمية تشكل مجالا حيويا متزايد الاهتمام في دراسة أنشطة التنظيمات، باعتبارها أحد أبرز المناهج الحديثة في إدارة التغيير والتطوير، وتتصف العلاقة بين الثقافة التنظيمية والتغيير بأنها تأثيرية تبادلية، إذ تتأثر الثقافة التنظيمية بما تشمله من قيم وعادات وسلوك باستراتيجيات التغيير المعتمدة في التنظيم، والتي بدورها تؤثر في سلوك وقيم ومعتقدات الأفراد. في المقابل تؤثر الثقافة

التنظيمية على إستراتيجيات وعمليات التغيير داخل المؤسسة، من خلال دعم إحداث التغيير في التنظيم. ونظرا لهذه العلاقة بين الثقافة والتغيير، سيتم التركيز في هذه الدراسة على دور الثقافة التنظيمية في اتجاه العمال نحو التغييرالتنظيمي.

من خلال الاجابة على التساؤل التالي:-

- كيف تؤثر الثقافة التنظيمية السائدة على اتجاه العمال نحو التغيير التنظيمي في المؤسسة؟ .

1. تحديد أهم مصطلحات الدراسة:

أ.التغيير التنظيمي:

من أهم العمليات التي على القادة الإداريين والمشرفين فهمها وإدراكها، إذ يمثل الانتقال من حالة أو وضعية إلى أخرى أحسن وأفضل. فالتغيير التنظيمي هو الانتقال من مرحلة إلى أخرى بطريقة مخططة وهادفة داخل التنظيم قصد إشباع الحاجات المادية والمعنوية للأفراد المنتمين للمؤسسة، وقد يكون التغيير التنظيمي ناتجا عن البيئة الخارجية أو الداخلية ،أما نتائجه فقد تكون ايجابية أو سلبية. [1]

فهو أي إجراء أو سلوك يتبناه التنظيم قصد تغيير وضع راهن، و قد يمس سبل التسيير، و أنماط الإدارة، و استراتيجيات الادارة، أو حتى نمط الاتصال أو القيادة السئدة في التنظيم، بما يتلائم و المستجدات المحلية و الدولية، و يتناسب و طموحات التنظيم و قدرات العمال و أهدافهم الخاصة و المشتركة بينهم و بين الإدارة.

ب. **الثقافة التنظيمية:** هي مجموع القيم، المعتقدات، المفاهيم وطرق التفكير المشتركة بين أعضاء التنظيم، عادة تكون معنوية و غير مكتوبة، يتم الشعور بها و يشارك كل فرد في تكوينها و يتم تعليمها للأفراد الجدد في المؤسسة.

ت. **المؤسسة:** تعد المؤسسة النواة الأساسية في النشاط الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع إذ تعبر عن علاقة اجتماعية.لان العملية الإنتاجية فيها تتم ضمن مجموعة من العناصر البشرية. و عموما فالمؤسسة وحدة إنتاجية تتكون من مجموعة من العناصر المادية (آلات، معدات، أجهزة) والعناصر البشرية (قوة عاملة)؛

بحيث يؤدي الاستخدام الجيد والفعال لهذه العناصر مجتمعة إلى تحقيق الأهداف الاقتصادية للمؤسسة وبالتالي ضمان وجودها واستمراريتها.[2]

ث. الاتجاهات النفسية الاجتماعية: تعددت تعار يف الاتجاه بتعدد واختلاف النظريات والمدارس النفسية والاجتماعية للعلماء والباحثين المختصين إلا أننا نجد خطا رابطا ونقطة التقاء بين كل التعاريف المقدمة.

و تجدر الإشارة أن موضوع الإتجاهات من أهم مواضيع علم النفس الإجتماعي. فقد كتب **ألبورت** ALPORTE في **[1935]** قائلا:"أن مصطلح الإتجاه **ATTITUDE** هو الوحدة الأولى في بنية علم النفس الإجتماعي" . و قد عرفه بأنه:" حالة استعداد نفسي وعصبي، ينشأ من خلال الخبرة و التجربة ويؤثر تأثيرا توجيهيا على استجابات الفرد نحو كل المواضيع والمواقف التي يتصل بها ."[3]

فعملية التوافق عملية نفسو عصبية، يتعلمها الفرد خلال مراحل حياته بالتجارب المختلفة التي يمر بها و المواقف التي يعيشها، و هي تؤثر في سلوكاته العامة و تصرفاته، إزاء الأشخاص المحيطين به، أو الذين يابلهم في أزمنة متباينة، و مواقف متعددة -ايجابية كانت أم سلبية-.

فالاتجاه استعداد نفسي وتهيؤ عقلي عصبي مكتسب يوجه استجابات الفرد بالموافقة أو المعارضة تبعا لخبرته السابقة إزاء موضوعات أو مواقف في بيئته، والاتجاه ثابت نسبيا إذ يمكن تغييره وتعديله. [4]

فالتوافق ليس استعدادا نفسيا و حسب بل هو عقلي عصبي، يتعلمه الفرد من خلال المواقف المتعددة التي يمر بها في حياته- السارة و غير السارة-، إما بالاتجاه نحوها أو الابتعاد عنها و تغييرها، و بالتالي فهو ثابت نسبيا، و يمكن تغييره بتغيير ظروفه و الشروط المتصلة به، بما يتلائم و الحالة النفسو عصبية و العقلية للفرد.

أولا:التغيير التنظيمي:

1.دايات الاهتمام بالتغيير التنظيمي:

لأن التغيير حقيقة اجتماعية وإنسانية فإنه لا يمكن إغفالها أو تجاهلها عند دراسة وتحليل قضايا المجتمع لذلك فقد شكلت فكرة التغيير إطارا عاما محدد المعالم والمراحل التاريخية وبتحليل قضية التغيير من قبل علماء الاجتماع توصلوا إلى أنه مر بمرحلتين هما:

أ/ **المرحلة الأولى**: امتدت من فترة الحضارات الأولى حتى نهاية القرن 18. اتسمت البدايات بسيادة الثبات النسبي في كل مجالات الحياة الاجتماعية، الثقافية والاقتصادية لسيطرة الإقطاع والتفكير الغيبي عند أغلبية سكان العالم وكان التغيير في هذه الفترة يتنافى مع فلسفة الحياة وطبيعة القيم السائدة؛ لذلك لم يحدث التغيير إلا مع ظهور السفسطائيين–تيار متمرد–الذين انتقدوا الأوضاع والنظم القائمة ودعوا إلى ضرورة استبدالها بنظم مبنية على العقل والمنطق ودافعوا على مبادئ الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية.

تلته تحولات في كل المجالات مع نهاية العصر اليوناني و بداية العصر الروماني، و لاتساع رقعة الإمبراطورية الرومانية تمكن المفكرون من التعرف على صور التباين بين المجتمعات في كل المجالات.

و ظل الفكر الإنساني يتأرجح بين التيارات المحافظة والتحررية. مع تتابع الحركات التاريخية ظهرت التيارات الليبرالية والراديكالية حتى نهاية القرن 19 ما دعم انتشار أفكار التغيير لإعادة البناء بفضل أعمال فلاسفة التاريخ وآثار [**هيجل** HIGEL/ **انجلز ENGLESH/ و ماركسMARX**].

ب/ *المرحلة الثانية*: امتازت في البداية بنضج الفكر العلمي وظهور الأنساق المعرفية المحايدة المتماشية مع منطق العلم وهو ما عكسته دراسات **كونت COMTE** عن الديناميكا و الاستاتيكا **وفيبر M -WIBER** عن تطور الرأسمالية **ودوركايم E –DORKHEM** عن تقسيم العمل.

و رغم محاولة هذه الأعمال تقديم حلول لمشكلات اجتماعية إلا أنها لم تصل إلى ما كانت تصبوا إليه لافتقادها الرؤية المستقبلية لكيفية تغيير الواقع الاجتماعي. أما ثاني فترة فامتازت بالواقعية لاستجابتها لمتطلبات الواقع المتغير باستخدام قضايا العلم لحل المشكلات الإنسانية كما توضحه أعمال "**كارل مانهايم**" K-MENHAM التي درس فيها التغيير وأهم التيارات التي فسرته وفقا لأيديولوجياته محددا أبعاده وعوامله والوقوف على نتائجه.

و امتازت آخر فترة بمعالجة موضوع التغيير من أجل التنمية الشاملة على التخطيط العلمي لأن دراسة الواقع واستيعاب قضاياه تساهم في التغيير نحو الأفضل وهو ما تعكسه أطروحات المفكرين.(5)

1. مراحل التغيير التنظيمي:

التغيير التنظيمي محاولة طويلة المدى لإدخال التغيير والتطوير بطريقة مخططة اعتمادا على أسلوب تشخيص المشكلات بطريقة يشارك فيها أعضاء المؤسسة بصورة جماعية.

يؤكد "**الغمري**"على عنصر التخطيط في إحداث التغيير التنظيمي بالاعتماد على طريقة حل المشكلات جماعيا ويوافقه أغلب الباحثين على ذلك لدراسة التغييرات التي تخضع لها مختلف المؤسسات و بذلك تصبح عملية مقصودة ومخطط لها، في إطار خطة تستهدف تنمية تلك التنظيمات لأن ذلك لا يعني أن العملية تلقى دائما التأييد الكامل من المشاركين؛ إلا أنه وفي كل الحالات تتم عملية التغيير عبر عدة مراحل تنفذ بطريقة متتالية تختلف من تنظيم لآخر. (6)

فعملية التغيير التنظيمي لا تحدث مرحة واحدة بل تتم عبر مراحل متتالية حتى يصل إلى شكله النهائي، بدءا بمرحلة التشخيص، فمرحلة التهيئة، ثم مرحلة تنفيذ التغيير التنظيمي، تليها مرحلة إعادة تجميد التغيير، لتنتهي بمرحلة تقييم العملية ككل، و كشف نقاط الضعف و القوة، التعرف على مدى نجاحها أو فشلها ليعمد التنظيم إلى إحلال تغيير آخر بدلا عنه، يتناسب و أهداف المنظمة و العمال و تطلعاتهم.

و فيما يلي شرح موجز لما يتم في كل مرحلة من مراحل التغيير التنظيمي:

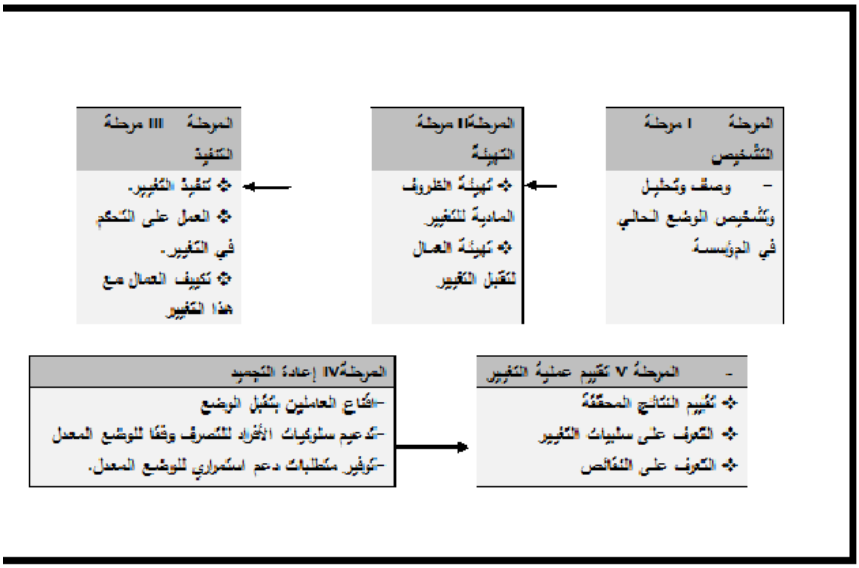

2. أهداف التغيير التنظيمي:

تختلف أهداف التغيير التنظيمي باختلاف تشخيص المشكلات التي تتعرض لها المؤسسة وعلى كل فهناك جملة أهداف يسعى كل تنظيم لتحقيقها.

إذ يرى "**الغمري**" أن أهداف التغيير التنظيمي تعكس جملة المشاكل المشتركة في المؤسسات و تحول دون تنفيذ القرارات واستخدام الطاقات البشرية للمؤسسة بشكل أمثل ومن هذه الأهداف:

- ✓ السماح للأفراد التعرف على ما يحدث بين أعضاء الجماعة أثناء أداء مهمتها.(كالاتصال).
- ✓ خلق مناخ مفتوح لحل مشاكل المؤسسة و إحلال التفاهم والاتفاق لإرساء قواعد الثقة بين الأفراد والجماعات في كل المستويات التنظيمية.

- ✓ زيادة التعاون بين الجماعات والأفراد المتنافسين. مع وضوح المنافسة واضحة يمكن إدارتها وتوجيهها لصالح المؤسسة وتجنب تأثيراتها السيئة.(7)

و منه يتضح أن " **الغمري**" يرى أن أغلب الأهداف المنتظرة من إحداث التغيير التنظيمي هي خلق جو مناسب للعمل لجميع الأفراد بما يحقق رغباتهم و طموحاتهم النفسية و الاجتماعية، من خلال مختلف مظاهر التعاون و الاتفاق و الثقة، و روح المبادرة .... و كلها تمثل عناصر لامادية للثقافة التنظيمية.

أما "**جون شيرود J-Sherwood**"فلخص أهداف التغيير التنظيمي في :-

- ✓ المساهمة في إيجاد علاقات تبادلية تكاملية بين العمال كأفراد أو جماعات وتشجيع روح المنافسة ضمن الفريق الواحد للعمل وتصعيد تأثير الإبداع بينهم ما يؤدي لزيادة فاعلية الجماعات
- ✓ وتشجيع العاملين على ممارسة أسلوب الرقابة الذاتية واعتمادها كأساس للرقابة الخارجية.
- ✓ تساهم في زيادة سبل الاتصال وأساليب القيادة الناجحة وفهم أبعاد الصراعات وأسبابها بزيادة الوعي بديناميكية الجماعة وإيجاد آفاق الانفتاح في المناخ التنظيمي لتمكين العاملين من المساهمة في معالجة المشاكل التي تواجه المؤسسة بشكل واضح بعيدا عن تحاشي مناقشتها وتحليلها.
- ✓ مساعدة المشرفين على العمل تبني الأساليب الإدارية المتطورة والديمقراطية في الإشراف كالإدارة بالأهداف بدل أسلوب الإدارة بالأزمات.(8)

فالخبراء يتفقون على أهمية إحداث التغيير لضمان استمرارية المؤسسة بتحقيق جملة من الأهداف تسمح لها بدخول غمار المنافسة، من خلال ما تطرحه القوى المنافسة أو ما يطرأ على الموارد البشرية من تغييرات. و منه مواجهة الأزمات التي تتعرض لها المؤسسة، والاستجابة للمتغيرات المحيطة بها.(9) ذلك

لأن التغيير التنظيمي عملية تعديل للتنظيم قصد زيادة مستويات فعاليته وقدرته على تحقيق أهدافه المحددة فهدفه الأساسي جعل التنظيم أكثر فعالية.

3. القوى الدافعة للتغيير التنظيمي :

يسعى التغيير التنظيمي لتحقيق الاستقرار، فهو أمر حتمي لأي تنظيم ليضمن استمرار يته،استجابة لظروف معينة كوجود تغييرات ومشاكل محيطة به، فلا يمكن مواكبة التغييرات المحيطة إلا بإحداث تغييرات في أجزاء المؤسسة وأسلوب تفكير المديرين في مواجهة مشاكلها.[10]

الشكل رقم02: مخطط توضيحي للقوى الدافعة التغيير التنظيمي

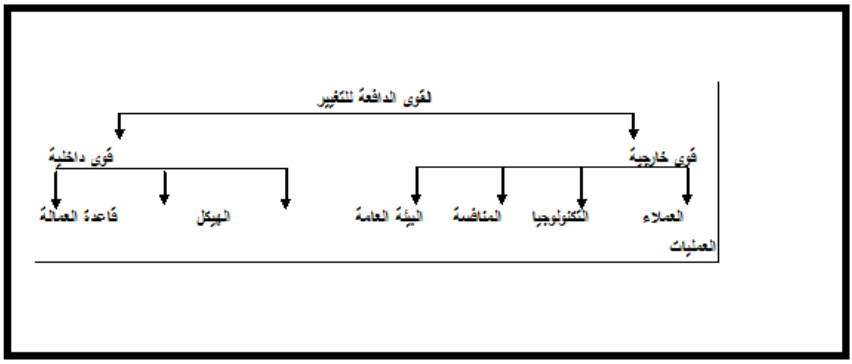

إضافة إلى تغييرات خارجية أخرى، كالتحولات الاقتصادية تجاه الرأسمالية والاشتراكية والتغييرات في قوانين التصدير والاستيراد والانفتاح والتغيير في الموارد الاقتصادية للدولة، وكذا التغييرات في هياكل القيم الاجتماعية كقيم التعليم وتطلعات الشباب والتحرر وعمل المرأة.

و غيرها من التغيرات الأخرى التي تطرأ على المناخ السائد خارج المؤسسة والذي يوجب عليها إجراء بعض التغييرات وفقه لتفادي أي تأثير سلبي له عليها.

إلى جانب بعض التغييرات الداخلية التي تؤثر على مصيرها : كالتغيير في الأساليب والإجراءات و معايير العمل و هياكل العمالة والوظائف وعلاقات العمل وكذا التغييرات في أساليب التخطيط، التنظيم، التنسيق والرقابة. وفي علاقات السلطة والمسؤوليات والنفوذ .[11]

كل هذه العوامل و المتغيرات سواء الداخلية و الخارجية تتحكم في المؤسسة و تحتم عليها ضرورة التكييف والتغيير، لضمان استمراريتها واستقرارها و إلا سيكتب لها الفشل والاندثار.

4. العوامل المؤثرة في التغيير التنظيمي:

إن الضغوط والعوامل المؤثرة في مؤسسات العمل و فعاليتها تأتي من مصادر رئيسية خارجية و داخلية ؛ لذا فإن الحاجة تدعو القادة الإداريين ، المديرين و المشرفين إلى اكتساب مهارات التغيير التنظيمي ليتمكنوا من التعامل مع هذه المتغيرات. و من العوامل المؤثرة في التغيير التنظيمي حسب الدكتور "**زكي الأيوبي** " المتمثلة في:

- التوترات و الضغوط الخارجية (البيئة الطبيعية، والتغيرات السكانية ومستوى الثقافة العامة السائدة).
- التوترات و الضغوط الداخلية المتمثلة في تضارب الاهتمامات و المصالح بين الإدارة و العاملين،و ظهور الاختلافات بين الثقافة العامة السائدة. و النظام الاجتماعي للمؤسسة، وكذلك الانفعالات داخل النظام الاجتماعي لنفس المؤسسات عندما تتضارب الأولويات.

أما "**هيت**" فقد حدد العوامل المؤثرة في التغيير التنظيمي في النقاط التالية:

1. **العوامل التقنية:** المتمثلة في التغييرات التكنولوجية التي يشهدها العالم حيث بدأت المعلومات في الزيادة مع الاكتشافات التقنية الجديدة ، و هذا التغيير له تأثير في بيئة العمل سواء من حيث الإنتاج و أساليبه أو الهيكل التنظيمي أو مشاعر العمال . و يتمثل هذا التغيير و التأثير في ثلاث جوانب هي:

* *العمال والفنيين.* * *الإنتاج .* * *العمليات الإنتاجية.*

2. **عوامل البيئة الإجتماعية** : المتمثلة في العوامل الإجتماعية كالعادات، التقاليد، القيم، المبادئ الدينية، والاتجاهات نحو العمل، وتغيير النظرة حيال هذه الاتجاهات و إلى المسؤولية الإجتماعية. كما تتمثل العوامل الإجتماعية في نمو السكان و تفاعلهم و وجود العمالة الأجنبية و الأنظمة السياسية و الحكومية .
3. **العوامل الاقتصادية** : تتمثل في عوامل البيئة الاقتصادية الداخلية و الخارجية مثل رأس المال، و الموارد الاقتصادية و حركة التغيير في الأسواق العالمية، ظروف الإنتاج، الأعمال والتسويق، ندرة الموارد، و المنافسة أو الأزمات الاقتصادية.
4. **العوامل التنظيمية:** تتمثل في العوامل التنظيمية داخل و خارج المؤسسة مثل اتجاهات العمال والموظفين و الإداريين نحو متطلبات المشاركة في الأعمال التقنية الإدارية، و كذا حجم المؤسسات، و زيادة مهارات العمال وتغيير المواقف لديهم.[12]

ثانيا: الثقافة التنظيمية:

1. **التتبع التاريخي لظهور الثقافة التنظيمية:**

مثلت ثلاثينات القرن الماضي البدايات الأولى لنشوء مصطلح الثقافة التنظيمية، و الذي يستدل عليه بالرجوع إلى الأدب الإداري بشقيه التنظيمي النظري والفكري الاستراتيجي بصياغة أطره النظرية والميدانية الموقفية ويمكن أن نوضح تلك الإسهامات من خلال الأدلة الواضحة عبر تمحيص مسترجع لأغلب ما كتب عن هذا الموضوع في الأدبيات الإدارية الأجنبية والعربية.

من الملاحظ أن الكثير من المفاهيم والمصطلحات الإدارية قد اشتقت من بيئة غير إدارية ومن حقول معرفية أخرى كالضغوط-علم النفس، الإستراتيجية-العلوم العسكرية والقوة -السلوك السياسي ... وغيرها. و هكذا الحال بالنسبة للثقافة التنظيمية فقد تطورت بتطور الإدارة والمنظمات وأخذت الكثير من أبعادها تشتق من البيئة المحيطة بها، فمع مرور الوقت وكثرة وتعدد البحوث والدراسات

والظواهر والمتغيرات تم الاهتمام بالثقافة التنظيمية، إذ بدأت في بداية الثلاثينيات عندما تمت الإشارة إليها بوجود العلاقات الإنسانية في جامعة **شيكاغو(1934)** ثم تجارب مصنع **هاوثورن**.

كما أجريت عدة دراسات أشارت إلى بعض الأبعاد كالأساطير والرموز والخرافات والإرث الإداري، ثم أصبحت احد مدخلات النظام المفتوح الذي تعيش فيه المنظمات ، وعدت متغيرا موقفيا ،أي عامل طارئ ومهم يلعب دورا في التغيير في ضوء عوامل النظرية الموقفية كالحجم والإستراتيجية والتقنية والثقافة.

و قد يشهد الاهتمام بالثقافة التنظيمية ذروته في فترة الثمانينات حيث أخذت حيزا كبيرا في الكتابات، إذ ورد في الفترة من **1978-1985** في أربعة عشر من كبريات مجلات الإدارة مثل: **AMJ و HRB و ASQ**، وتحت ثمان وسبعون عنوانا مختلفا وأكثر من (120) مقالا وبحثا ودراسة عن الثقافة التنظيمية.

فمفهوم الثقافة التنظيمية شأنه شأن بعض المفاهيم التي دخلت إلى الإدارة وأصبح من المفاهيم التنظيمية وهو مفهوم مستعار من علم الأجناس الثقافي الذي يعد أحد تخصصات علم الأجناس إذ دخل المجال الأكاديمي عام 1974 من خلال مقالة "**بيتيجرو**" .

و يمكن تحديد ثلاث اتجاهات بشان فهم الثقافة التنظيمية من خلال نشأتها وتطورها:

الأول: عبر مظاهرها وخصائصها الظاهرة والسطحية كالرموز، القصص، الطقوس و الشعائر ... الخ

الثاني: التركيز على الأبعاد الفكرية غير الظاهرة وغير الملموسة، بل المدركة كالقيم، الاعتقادات، الافتراضات، الإيديولوجيات والفلسفة أو ما يطلق عليها أحيانا جوهر الثقافة.

الثالث: يتمثل في تبني خصائص ثقافية تنظيمية وهو ما يعرف بالنموذج التنظيمي.[13]

2. **تعريف الثقافة التنظيمية:**

مجموعة القيم المشتركة التي تحكم تفاعلات أفراد المؤسسة فيما بينهم و مع الأطراف ذووا العلاقة خارج المؤسسة والتي يمكن أن تشكل نقطة قوة أو ضعف وفق تأثيرها على سلوك الأفراد المؤسسة .

أو هي مجموعة القيم و المعتقدات و المفاهيم وطرق التفكير المشتركة بين أفراد المؤسسة والتي قد تكون غير مكتوبة يتم الشعور بها ويشارك كل فرد في تكوينها ويتم تعليمها للأفراد الجدد في المؤسسة.(14)

يعرفها: **ديل وايندي؛** بأنها الارتباط و التماسك بين القيم و المؤثرات و الإشارات التي تحكم تصرفات الأفراد.

في حين يعرفها **كوسن**؛ بأنها مجموعة القيم التي يجلبها أعضاء المؤسسة (رؤساء ومرؤوسين) من البيئة الخارجية إلى البيئة الداخلية لتلك المؤسسة.

فيما يرى **بيتر و وترمان** بأن مفهوم الثقافة التنظيمية يعكس المفاهيم المرشدة و القيم المقتسمة و الشائعة داخل المؤسسة.(15)

و أخيرا تعرف حسب "Hélene Denis" في كتابه "**استراتيجيات المؤسسة و عدم التأكد مع المحيط**" أنها:" تلك المجموعة التي تربط كل من أسلوب التفكير، الشعور، الحركة بطريقة مقننة (متعارف عليها)، حيث تتقاسم و توزع بواسطة أغلبية الأفراد، و أن هذه الطرق تركب هؤلاء الأفراد في مجموعة متعاونة خاصة و متميزة".

هذا تعريف واسع جدا، فالثقافة التنظيمية هي؛ ما يربط بين الأفراد فيما يخص تصرفاتهم و إحساسهم و ذكائهم، هذا الإرتباط الذي تبنيه الثقافة موضوعي إذ يمكن للثقافة أن تدرس و ترصد من طرف ملاحظ خارجي من المحيط، و في نفس الوقت رمزي أي بالمستوى الذي يأخذ و يوزع بين أفراد الجماعة، ليصبح مشتركا بين كل أفراد التنظيم.(16)

و عليه فالثقافة التنظيمية هي انعكاس لثقافة المجتمع من خلال القيم و العادات و الأعراف الاجتماعية السائدة في البيئة التنظيمية وهذا ما يبرر تعدد

ثقافات المؤسسات كبيرة الحجم، و حتى المتعددة الأجناس نتيجة تعدد ثقافات المجتمع التي تتعامل فيها.

كما يمكننا أن نستنتج من التعريفات السابقة أن ثقافة المنظمة تتكون من ثلاثة عناصر تنظيمية هي:

- ✓ القيم والأفكار والمبادئ التي تتبلور لدى الأفراد.
- ✓ الخبرة التي يكتسبها الأفراد نتيجة تفاعلهم المستمر مع البيئة التي تحيط بهم.
- ✓ القدرات والمهارات الفنية التي اكتسبها الفرد في حياته.[17]

3. **أهمية و أهداف الثقافة التنظيمية:**

للثقافة التنظيمية أهمية كبيرة في كل المؤسسات، إذ لا توجد مؤسسة بدون ثقافة تنظيمية؛ فالمؤسسات تشكل ثقافتها التنظيمية بناءا على طبيعة عملها وإجراءاتها الداخلية وسياسات الإدارة العليا فيها وتتحول هذه الإجراءات و السياسات مع الوقت إلى مجموعة من الممارسات و الخبرات للموظفين و التي تكون بشكل غير مباشر ثقافة المؤسسة.

وتبرز أهمية الثقافة التنظيمية في:

- ✓ تحقق الثقافة التنظيمية التكامل الداخلي في المؤسسة والانسجام الخارجي بينها وبين بيئتها.
- ✓ تعد إطارا فكريا يوجه أعضاء المؤسسة الواحدة و ينظم أعمالها علاقاتهم و انجازاتهم.
- ✓ تعبر الثقافة عن الملامح المميزة للمؤسسة عن غيرها من المؤسسات وهي كذلك مصدر فخر واعتزاز.
- ✓ تعتبر الثقافة عنصرا جذريا يؤثر على قابلية المؤسسة للتغيير وقدرتها على مواكبة التطورات الجارية من حولها، فكلما كانت القيم مرنة و متطلعة للأفضل كانت المؤسسة أقدر على التغيير و أحرص على الإستفادة منها، ومن جهة أخرى كلما كانت القيم تميل إلى الثبات والحرص والتحفظ قلت قدرة المؤسسة واستعدادها للتطوير.

- ✓ تعتبر الثقافة التنظيمية عاملا هاما في جلب العامل الملائم ، فالمؤسسات الرائدة تجذب العمال الطموحين، والمؤسسات التي تتبنى قيم الابتكار والتفوق تستهوي العمال المبدعين. و المؤسسات التي تكافئ التميز والتطوير ينظم إليها العمال المجتهدون الذين يرتفع لديهم دافع إثبات الذات و تحقيقها .[18]

هذا و يرجع الاهتمام بالثقافة التنظيمية إلى أنها تؤدي مجموعة من الأهداف نذكر منها :

- تحقيق التكامل الداخلي بين أفراد المؤسسة من خلال تعريفهم بكيفية الاتصال فيما بينهم والعمل معا بفاعلية.
- تحقيق التكيف بين أفراد المؤسسة و البيئة الخارجية من خلال تعريفهم بأسلوب و سرعة الاستجابة لاحتياجات و اتجاهات الأطراف في البيئة الخارجية ذوي العلاقة بالمؤسسة.
- إرشاد الأفراد والأنشطة في المؤسسة و توجيههم لتركيز الفكر والجهود نحو تحقيق أهداف المؤسسة و رسالتها.[19]

4. **عناصر و مكونات الثقافة التنظيمية:**

تتكون الثقافة التنظيمية من عناصر مختلفة أهمها :

أ. ***القيم التنظيمية:*** وهي القيم في مكان أو بيئة العمل و التي تعمل على توجيه سلوك العمال، كالمساواة بينهم، الاهتمام بإدارة الوقت، عدم قبول الرشوة...

ب. ***المعتقدات التنظيمية***:هي الأفكار المشتركة حول طبيعة العمل والحياة الاجتماعية في البيئة التنظيمية و كيفية انجاز المهام في المؤسسة. كالمشاركة في عملية صنع القرارات و المساهمة في العمل الجماعي.

ت. ***الأعراف التنظيمية:*** وهي المعايير التي يلتزم بها العمال لاعتقادهم بأنها صحيحة ، ضرورية و مفيدة لتنظيم بيئة العمل. مثلا عدم السماح لمن يتزوج أجنبية بالعمل في بعض المؤسسات،... وهذه الأعراف غير مكتوبة في العادة ويجب على أعضاء التنظيم إتباعها .

ث. ***التوقعات التنظيمية:*** وتتمثل بالتعاقد النفسي الذي تم بين الموظف والمؤسسة خلال فترة العمل في المؤسسة ومثال ذلك توقعات الرؤساء من المرؤوسين أو المرؤوسين من الرؤساء، والزملاء الآخرين والمتمثلة في التقدير والاحترام المتبادل وتوفير بيئة تنظيمية ومناخ تنظيمي يساعد ويدعم احتياجات الفرد العامل النفسية والاجتماعية.(20)

ج. ***المعايير :*** هي المقاييس التي تشتق منها قواعد السلوك فإذا كان المعيار الذي يحكم به على قيمة الناس هو مدى تفهمهم لغيرهم مثلا فإنه يمكن اشتقاق صفات مرغوبة ذات علاقة بالمبدأ مثل التعاون و التكامل التي يتم نشرها و ترسيخها بين العمال.

ح. ***القوانين:*** هي قواعد عامة مكتوبة تحدد وتنظم السلوك داخل الجماعة (المجتمع) وتستخدم للفصل في النزاعات أو الانحرافات وقد تنشا القوانين من تطور المعايير والأعراف وانعكاساتها على المجتمع.

خ. ***الأساطير***: المتوارثة و المتداولة بين العمال عن بعض الأشخاص و دورهم الايجابي والسلبي، و الأحداث المؤثرة على مسيرة المؤسسة والتي يتم من خلالها استعراض و تأصيل القيم الموجودة بين العمال.

د. ***نظم التحكم:*** هي العمليات التي تحدد و توضح و تبرز ما يحدث داخل المؤسسة، و هي مجموعة القواعد التي تشكلها الثقافة والتي تعتبر محددات لقواعد العمل داخل المؤسسة.(21)

ثالثا: العلاقة بين الثقافة التنظيمية والتغيير التنظيمي:

حظي موضوع الثقافة التنظيمية بأهمية كبرى من قبل عدد من الباحثين،- خاصة فيما يتعلق بالتغيير التنظيمي و ذلك نظرا للدور الذي تلعبه الثقافة في تحديد الاتجاه نحو التغيير إما ايجابا بقبول التغيير أو سلبا برفضه و مقاومته.

و على كل تجدر الإشارة إلى ما أكد عليه " **يوسف درويش عبد الرحمان**" في دراسته المعنونة بـ (**العوامل المؤثرة في اتجاهات العاملين نحو التغيير التنظيمي**) التي توصل فيها إلى أن أهم محاور الثقافة التنظيمية– والتي تضم المستوى الدراسي، مدة

العمل بالمؤسسة، و المسؤولية الشخصية –تؤثر تأثيرا ايجابيا و معنويا في اتجاه العمال الإدراكي و العاطفي و النزوعي نحو التغيير التنظيمي. بينما لا تؤثر بقية محاور الثقافة التنظيمية – السن، الجنس، المستوى الوظيفي – و لا بأي شكل من الأشكال في مكونات الاتجاه الثلاثة.

كما أكده "**اللوزي موسى سلامة**" في إحدى دراساته التي كان قد توصل في نهايتها إلى أنه توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين اتجاهات العمال في المؤسسات الحكومية الأردنية نحو مجالات إدارة التغيير ومتغيرات (العمر، الجنس، المستوى الدراسي، المستوى الوظيفي الحالة الاجتماعية، الخبرة.).

و على العموم فإن أغلب الدراسات التي تناولت موضوع الثقافة التنظيمية و علاقتها بالتغيير أكدت على أن ثقافة المؤسسة عامل جد فعال في إدارة التغيير التنظيمي و منه تحقيق الكفاءة التنظيمية للفرد وللمؤسسة ككل. و على كل فإن فعالية التغيير في المؤسسة تقترن بمصاحبة التغيير الثقافي للأفراد و المؤسسة ككل بشكل يحقق أهداف المؤسسة والفرد معا .

- ✓ إن القيادة الإدارية تمثل حجر الأساس في نجاح قيادة التغيير.
- ✓ إن نجاح التغيير التنظيمي و ما يصحبه من نجاح الإصلاحات في المؤسسة يقترن بمدى تلاءم ثقافة المؤسسة وثقافة العامل و اندماج هذا الأخير فيها.

و بالتالي يمكننا التأكيد على أن كفاءة المؤسسة ترتبط بشكل أساسي بكفاءة أنظمة التسيير و هو ما يفسر وجود مؤسسات تملك الموارد المادية و التكنولوجية في حين تواجه مشاكل فيها تجعلها بعيدة عن تحقيق أهدافها واستمراريتها في محيطها، كما أكدت على أهمية دور القيادة الإستراتيجية في المؤسسة في تحقيق الفعالية وقيادة التغيير بنجاح، أكدت الدراسة أيضا على أن نجاح التغيير يتطلب إدخال التغيير الثقافي للأفراد باعتبارهم قادة التغيير.

من هنا، أصبحت الثقافة التنظيمية عاملا مساعدا لعملية التغيير أو معيقا لها، فقد أثبتت العديد من الدراسات أن التغيير الناجح عادة ما يكون مدعما

بتغيرات و تطورات ملائمة في كافة النظم الفرعية في المؤسسة بما فيها الثقافة التنظيمية، فمن خلال تبني المنظور الثقافي في المؤسسة يكون هناك تسهيل لإحداث التغيير بالتركيز على المفاهيم الرمزية للمؤسسة والطقوس والقيم والأنماط القيادية. و تسعى المؤسسات اليوم إلى تبني ثقافة تتصف بالمرونة والتطور لإعطائها ميزة تنافسية لمواجهة التحديات من جهة، واقتناص الفرص التي يوفرها المحيط المضطرب والمعقد من جهة أخرى.

الخاتمة:

و في الأخير نشير إلى أن الثقافة التنظيمية تلعب دورا هاما في إنجاح مبادرات التغيير التنظيمي من خلال الإستعداد للتغيير، فإدراك الاستعداد للتغيير داخل المؤسسة لا يعزى فقط إلى الفروق الفردية، وإنما أيضا إلى معتقدات و اتجاهات أعضاء التنظيم. فالتنظيمات التي تمتلك ثقافة تنظيمية مع هيكل تنظيمي مرن و مناخ تنظيمي داعم، أكثر ملاءمة لإنجاح مبادرات التغيير التنظيمي من المؤسسات التي تتسم بعدم المرونة والتحكم.

و عليه يتضح أنه حتى يتمكن التنظيم من ضمان نجاح عملية التغيير التنظيمي و مساندة الموظفين عليه و تبنيه، فلابد أن يتوافق و اتجاهاتهم، ميولاتهم، تطلعاتهم، اعتقاداتهم و بشكل عام الثقافة التنظيمية التي يؤمنون بها، سواء ما وجدوه في المنظمة أو ما اصطحبوه من مجتمعهم و ثقافتهم التي ينتمون إليها، حتى لا يتعارض مع ما يحملونه من قيم و مبادئ و عادات و تقاليد مع ما يحدث داحل التنظيم، و إلا فإنه سيواجه بالرفض و المقاومة، ما يفشل عملية التغيير و يحبطها، و منه يقف عائقا أما مسايرة التنظيم للتغييرات الحاصلة خارجيا سواء على المستوى المحلي، الاقليمي أو الدولي.

❖ **هوامش البحث:**

(1) صلاح الدين محمد عبد الباقي:**السلوك الإنساني في المنظمات،** الدار الجامعية، مصر، 2001، ص ص 326-327.

(2) رشيد زرواتي، **تدريبات على منهجية البحث العلمي في العلوم الإجتماعية**، ط3،ديوان المطبوعات الجامعية، قسنطينة 1429هـ-2008،.ص 10.

(3) Alain CERCLE , Alain SOMAT,**(2005):PSYCHOLOGIE SOCIALE - cours et exercices**, 2°éd, édition DUNOD,PARIS.p125.

(4) محمد مسلم: **مقدمة في علم النفس الإجتماعي،** دار قرطبة، للنشر، الجزائر،2007، ص ص35 -36.

(5) يوسف سعدون: **علم الاجتماع و دراسة التغير التنظيمي في المؤسسات الصناعية -دراسة نظرية و** ميدانية، عنابة-الجزائر،2005، ص ص 3-5.

(6) خضير كاضم حمود: **السلوك التنظيمي،** دار الصفاء، عمان-الأردن، 2002،ص 193.

(7) صلاح الدين عبد الباقي: **مبادئ السلوك التنظيمي**، الدار الجامعية، مصر، 2002، ص ص 372-373.

(8) خضير كاضم حمود ، مرجع سابق، ص 183.

(9) جمال الدين مرسي: **الثقافة التنظيمية والتغيير،** جامعة الإسكندرية، مصر، 2006، ص ص 46-47

(10) أحمد ماهر:**إقتصاديات الإدارة**، الدار الجامعية للنشر و التوزيع، الإسكندرية، مصر، 2006، ص 435.

(11) المرجع السابق، ص 436.

(12) محمد ناصر العديلي: **السلوك الانساني في التنظيم ،منظور كلي مقارن**، معهد الادارة العامة، الرياض، السعودية، 1995، ص ص547-548.

(13) سامي فياض العزاوي : **ثقافة منظمات الأعمال المفاهيم والأسس والتطبيقات،** معهد الإدارة العامة، السعودية، ص ص 47-48.

(14) مصطفى محمود أبو بكر: **التنظيم الإداري في المنظمات المعاصرة مدخل تطبيقي**، الدار الجامعية، مصر،2005، ص406.

(15) حمود سلمان العميان: **الثقافة التنظيمية**، دار وائل للنشر و التوزيع، عمان-الأردن، 2002، ص309.

(16) Hélène Dénis, stratégies d'entreprise et incertitudes environnementales, Design organisationnel, culture et technologie, Ed Economica,1990, p 122

(17) موسى سلامة اللوزي وآخرون: **السلوك التنظيمي مفاهيم معاصرة**، إثراء للنشر والتوزيع، الأردن، 2009 ص 265.

(18) بلال خلف السكارنة:**دراسات إدارية معاصرة**، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، 2001، ص 158.

(19) مصطفى محمود أبو بكر:**الموارد البشرية مدخل تحقيق الميزة التنافسية**، الدار الجامعية، الإسكندرية-مصر،2008، ص 78.

(20) خضير كاظم حمود، مرجع سابق ، ص ص 266- 267.

(21) أمل مصطفى عصفور: **قيم ومعتقدات الأفراد وأثرها على فاعلية التطوير التنظيمي**، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، القاهرة، مصر، 2008، ص ص 68-70.

دور التوترات الاجتماعية في تفشي الممارسات السحرية و الشعوذية في المجتمع التونسي دراسة سوسيولوجية ميدانية

الدكتور : سعيد الحسين عبدولي

جامعة تونس

الملخّص:

تكمن عديد العوامل التي تتصل بحاجيات المجتمع وبالرصيد الثقافي للفاعلين وراء انتشار ظاهرتي السحر والشعوذة في أيّ مجتمع. فبروز الممارســــــات السحرية والشعوذية في المجتمع التونسي له عديد المبررات التي يتوجّب علينا تحليلها ومناقشتها لكونها تمثّل أحد أبرز مقاصدنا الاشكالية وستبحث دراستنا في العلاقة بين التوترات الاجتماعية من ناحية و هذه الظاهرة من ناحية ثانية.

Résumé :

Les motifs relatifs de la propagation de la magie et la sorcellerie dans une société sont reliés à un besoin social et à un héritage culturel. Dès lors, l'apparition de ces pratiques (de la magie) dans la société tunisienne à plusieurs raisons qu'on doit analyser et discuter vu que cet axe représente notre principal centre d'intérêt. Notre étude concernera d'une part la relation entre les perturbations sociales et d'une autre part ce phénomène de magie et sorcellerie.

مقدّمة:

ما علاقة البخور وترديد التعويذات الغامضة المزوجة أحيانا بآيات قرآنية واستدعاء أسماء غريبة: أقش أقش كشليخ...أنوخ أنوخ...ونداء الأمر بالتنفيذ" توكّلوا يا خدّام ويا إبليس ابن مرّة" بما يصبو الفاعل الاجتماعي إلى تحقيقه مخترقا بذلك حدود الممكن والمعقول...؟ ما الذي يجمع بين حافر الحصان أو سبعة ابر وشعر الفتاة وثياب الزوج لتحقيق الفراق أو الوصال..؟ رجل طاعن في السّن أو دون ذلك من العمر... ثيابه رثّة متّسخة... أو عليه علامات وقار و تجلّة... فذلك لا يهمّ.

ربما لكونه أمر داخل في تقاليد المهنة...امرأة أو رجل مسكون من طرف جنّي مسلم أو نصـــراني أو يهوديّ يأبى الخروج من جسدها وإن فعل فهو سيخرج من عينها فيطمسها...التّابعة والنحس والعين والبخت وما إليها من مصائب لا تتّصل بمجالات الطّب ولئن كان تحليلا نفسيا..امرأة حبلى: تحمل ثم تلد في ظروف غامضة بعيدة عن زوجها ...طقوس عديدة وأنّات ألم متباينة، تلك وغيرها من المشاهد العلنيّة أو الخفيّة التي تطفو في المجتمع التونسي على اختلاف انتماءاته الطبقية والعقائدية والثقافية بل وحتىّ مدى درجة وعي أفراده.. هذا ليس لغزا أو تشويشا لفكر القارئ بل عنوان المشهد الفسيح المتباعد الأطراف: ظاهرة السحر والشعوذة في المجتمع التونسي.

على ضوء هذه المشاهد التي استقيناها من المعيش التونسي، حري بنا أن نبحث عن العوامل المساهمة في تفشي الممارسات السحرية والشعوذية ونحدد علاقاتها بتصورات الفاعلين وتطلعاتهم وهو ما سنحاول الاجابة عنه من خلال العلاقة بين الظاهرة موضوع الدراسة والتوترات الاجتماعية استنادا إلى دراسة ميدانية شملت 20 ساحرا ومـــشعوذا و 150 مستجوبا من سكان منطقة سيدي علي بن عون من ولاية سيدي بوزيد.

1. التأسيسات النظرية للدراسة:(البارادیقم)

1.1. تعريف السحر:

تبيّن لنا من خلال التعريفات التي اطلعنا عليها حول الظاهرة السحرية، أن السحر ظاهرة اجتماعية ميزت المجتمعات القديمة ولا تزال منتشرة في مختلف أصقـاع العالم،ولو بدرجات متفاوتة. و يكون السحر حسب مارسال موس، منتشرا في كافة أرجاء المجتمع، وليست تلك المصنفة في جانب منه فقط، ولكننا ندرك أيضا أن المجتمعات ليس لها نفس الفهم الواضح للـــــسحر، ويرى بأن تحديد مفهوم السحر لا يكون إلا بدراسة العلاقة بين الســـــــــحر و الدين[1].

يكون السحر إذا في ضوء هذا الفهم، كل الأنشطة التي يمارســـــها بعض الأفراد و التي تـــبدو في معظمها غامضة وملفتة للانتباه سواء من حيث مقاصده أو الوسائل المعتمدة في ممارسته. إنه بالتالي جوّ طقوسي خاص، تتآلف فيه جملة من العناصر المـــحسوسة و اللاّمحسوسة. وكأنــه عالم من الخوارق والعجائب. يتحول فيه المستحيل إلى ممكن والسهل إلى صعب، والعجيب إلى مألوف، والغيب إلى معلوم... إنه فنّ الممكن الذي بمقتضاه تفعل الرموز من كلمات ورسومات وحركات وأعراف فعلها في المكوّن المـــــــــــادي و النفسي على حد السواء. فمجرد تلاوة تعويذة أو حمل حجاب أو تنفيذ طقس من الطقوس وما إلى ذلك من ترتيبات قد يؤثر في مجرى الأحداث[2].

و يمكن بناء على ذلك، وضع تعريف اصـطلاحي للسحر على أنه: علم مكتسب تمارسه بعض النفوس الدنيئة إما بالخداع وتخييل الشيء على غير حقيقته. وإما بالإضرار بخلق الله تعالى وإذايتهم. وهذا الإضرار والخداع و التخييل، لا يتحقق إلا بالاستعانة بالشيطان والتقرب إليه، بارتكاب القبائح قولاً كالرقى التي فيها ألفاظ الشرك، أو عملاً كعبادة الكواكب و التزام الجنابة وسائر الفسوق، أو اعتقادًا كاستحسان ما يوجب التقرب إلى الشيطان ومحبّته، فيتحقق بذلك تأثير السحر في المسحور.

2.1 تعريف الشعوذة:

إن الشعوذة ولئن كانت تشترك مع السّحر في بعض الجوانب، فإنها لا تحمل نفـــــــس دلالاته. فالشعوذة هي في اعتقادنا ضرب من ضروب التخيّل والخداع والإيهام و ادّعاء البركة[3]. **baraka** وتستند إلى عبقريّة المشعوذ في إيهام الفرد بأنه يأتي أفعالا سحريّة تشدّ النّاظر، لكنها في الحقيقة ليست كذلك. فهي بذلك القدرة على المراوغة دون الاستناد إلى نفس الوسائط التي يعتمدها الساحر.

هذا الموقف الذي نتبنّاه في تعريف الشعوذة هو ما أكّده الباحث محمد زهير الحريري من خلال اعتباره الشعوذة " حيل وخداع وتضليل ليست من السحر المقصود حقيقة لأنها تتم دون الاستعانة بالأشياء التي يقولها الساحر(...) ونحن نسلّم معهم بأن الشعوذة تخييل وغير حقيقة"[4].

وهو ذات الأمر الذي اكده الباحث المغربي محمد أسليم من خلال قوله:" أما عندما يكون المُخاطَبُ هو القارئ المغربي، فإن اللهجة تتغيَّر، فتحكمها نزعة نضالوية يُختَزَلُ السّحر فيها إلى مجرد شعوذةٍ ومظهر من مظاهر التخلف الاجتماعي والاقتصادي التي ينبغي التخلص منها في أسرع وقت ممكن"[5].

إذا، فالشعوذة هي القدرة على التضليل وإيهام الناظرين وعادة ما يدّعي المشعوذ- شـــأنه في ذلك شأن الساحر- أنه صاحب بركات، وله خدّام من الجن وذلك من أجل بثّ الطمأنينة في المتلقّي وجعله يستأنس به و بقدراته. ولكن في الأصل هو يستخدم آليـات تضليل وخداع بحسب شطارته.

1.2. الاشكالية:

سنولي اهتمامنا بدراسة الفاعلين وتفاعلاتهم وتصوراتهم حول هذه الظاهرة. ومن ناحية أخرى ستنصبّ دراستنا على تحليل العوامل الكامنة وراء انتـشار ظاهرتي الـسحر و الشعوذة وعلاقتها التفاعلية بباقي المراجع الإيديولوجية الأخرى، التي طالما مثلت مرجعا يحتكم إليه المجتمع في حراكه وتغيراته. لنكون بذلك إزاء جمـلة من الأنساق و البنى و الوظائف التي تبدو غير متجانسة

ومتضاربة لكنها متأصلة في المجتمع من خلال وجودها العلائقي، مما يفرز جملة من المشاهد التي ستكون جزء من مقاصدنا البحثية وهي لئن تباينت وتعددت فإنها لا يمكن أن تكون إلا عنوان لإشكالية مركزية واحـــدة: إلى أيّ مدى تساهم التوترات الاجتماعية في انتشار الممارسات السحرية والشعوذية؟

وفي حدود بحثنا هذا الذي سيهتم بعلاقة التوترات الاجتماعية بانتشار الممارسات السحرية والشعوذية وتمهيدا لفرضيات البحث، يجدر بنا أن نصيغ في ضوء الإشكالية الرئيسية، الإشكالية الفرعية على النحو الآتي:

- ✓ ماهي تمثلات أهالي سيدي علي بن عون من ولاية سيدي بوزيد لظاهرتي السحر و الشعوذة من خلال ما يعكسه معيشهم اليومي من سلوكيات ومواقف؟
- ✓ كيف يكن أن تساهم التوترات الاجتماعية في إنتشار ظاهرتي السحر و الشعوة في مجتمع كالمجتمع التونسي عامة وفي مجتمع سيدي علي بن عون الريفي خاصة ؟

1.3. الفرضيات:

لو توقفنا عند هذا الأمر وتبحّرنا فيه بحثا عن الفرضيات الملائمة لدراستنا التي تعنى بظاهرتي السحر و الشعوذة، لجاز لنا صياغتها على النحو التالي:

- ✓ السحر و الشعوذة، ظاهرة اجتماعية معتلّة لها تجلياتها في المعيش اليومي.
- ✓ تؤدّي التوتـرات الاجتماعية دورا في الإقبال المـتزايد على السحرة و المشعوذين من طرف الفاعلين.

1.4. منهجية الدراسة:

سنعمد إلى استخدام المنهجيـــن الكمـــي و الكيفي، نظرا لطبيعة الظاهرة المدروسة التي تستلزم قصد الإلمام بكل جوانبها احترام مبدأ التكامل بين المنهجين.

على هذا الأساس، فإن المنهج الكمي كفيل بأن يكون في مقدمة اختياراتنا المنهجية، فهو كفيل بجمع بيانات ومعطيات حول ظاهرتي السحر و الشعوذة في

منطقة سيدي علي بن عون واستنباط بعض الدلالات الكمية. ولأجل ذلك خصّصنا في هذا الجانب استمارة، وقد مكّننا ذلك من قراءة البيانات و المعطيات الواردة في نصها وبالتالي تجريبها للتأكد من مدى صدقيّتها، وصولا إلى مطابقتها للتصورات النظرية، وإيجاد تفسيرات لبعض تصورات المبحوثين بـــــإزاء ظاهرتي السحر و الشعوذة. و اعتمدنا في هذا الغرض برنامج SPSS الاحصائي الذي ساعدنا على تجميع البيانات وتبويبها و إدراك العلاقة بين عدة متغيرات ومقارنتها بالقراءات النظرية حول الظاهرة موضوع الدراسة[6].

و سنعمد إلى جانب المنهج الكمي، إلى استخدام المنهج الكيـفي الوصفي الذي سنستعين به لإدراك بعض المعلومات الخصوصية[7].المتصلة بالظاهرة موضوع الدراسة أو فيما تعلق ببعض الجوانب الأخرى، وخاصة الفاعلين والتغيرات و المعيش اليومي. فاعتمدنا بالأساس تقنية المقابلة والملاحظة بالمشاركة والملاحظة غير المباشرة.

1.5. الاطار النظري العام:(الباراديقم)

هذا ولّما كانت دراستنا تهدف إلى دراسة دور التوترات الاجتماعية في تفشي الممارسات السحرية و الشعوذية في المجتمع التونسـي، استلزم الأمر أن نراوح بين أكثر من إطار نظري يستجيب لأهداف الدراسة.ويتراءى مما تقدم، أن دراسة ظاهرتي السحر و الشعوذة لا يكون إلا في إطار النـــــسق العام للمجتمع بكل مكوناته المؤسساتية و الرمزية و تفاعل الفاعلين، مما يعني أن التحليل البنائي الوظيفي كفيل بمقاربة هذه الظاهرة مقاربة سوسيولوجية. و لسوف نرى كيف إن لهذه الممارسات جملة من الوظائف في البناء الاجتماعي التونسي وكذلك في مستوى السلوك أو التصورات والمعتقدات أو أنماط التفكير.

إلى جانب كل ذلك، وبحكم أن بحثنا هذا يهتم بالجانب السّلوكي و التّصوري لدى أفراد العيّنة، فإنه من باب أولى اختيار الباراديقم "التفهّمي" الفيبري، لأنه يهدف إلى دراسة الأفعال الاجتماعية بل وتحليل السلوكات الفردية.هذا وتعدّ

التفاعلية الرمزية، إطارا نظريا أمكن تبنيه، فيمكن القول إنها من الأهمية بمكان في بحثنا وتعد مكمّلة لسابقاتها لفهم الظاهرة المدروسة.

2. دور التوترات الاجتماعية: دوافع الواقع المعيش، في تفشي الممارسات السحرية و الشعوذية في المجتمع التونسي

يعدّ الواقع المعيش أو المعيش اليومي، مشهد رئيسي في بحثنا هذا، ينظر فـي مظاهر الســـــحر و الشعوذة الرائجة في مجتمعنا التونسي. وهي مشاهد نعاينها باستمرار في تصورات الفاعلين و سلوكياتهم. على هذا الأساس سنبتعد عن التحليلات النظرية ساعين قدر الإمكان إلى مقاربة الظاهرة في تجلياتها اليومية الحسية- المادية، بناء على نتائج التحليل الميداني وخاصة الجداول والبيانات التي توصلنا إليها فضلا عن المقابلات والملاحظات والمعاينات.

إن الفاعل التونسي في ظل سعيه إلى تحـقيق حراكه واندماجه الاجتماعي وفكّ مواطن حيرته، غالبا ما يحيد عن المألوف، بل قل يتشبّث بخزّان معرفي مازال حيّا فاعلا في الذاكرة الجماعية التونسية. فحياده عن المــألوف، معناه تخطّيه أو يأسه من دور المؤسسات الحديثة في المجتمع التونسي والتي لها وظائف محددة، وعليه فإن الفاعل التونسي ولأسباب متعددة يعمد إلى تحييدها أو تجاهلها معتمدا حلولا خارجة عن المألوف من القوانين والمؤسسات.

لذلك، فإن تأرجح الفاعل التونسي بين قطبي المألوف الظاهر والمألوف الباطن، إنما سببه وتيرة الحياة اليومية وما تفرزه من تحديات جمّة. لنقل الآن إنها دوامة التوترات الاجتماعية بشتى تجلياتها ومضامينها، وكم هي عديدة تلكم التوترات الإجتماعية، وهي على تباينها وتعدّدها تشـــترك في كونها آفة اجتماعية أو أزمة نفسية اجتماعية أو مجرّد قلق نفسي أو حالات من اللاّتوازن وعدم الاستقرار المؤسساتي أي والحال تلك تصدّع في مستوى البنى والأنساق الاجتماعية وكل ذلك بمكن ان يكون من المحفزات على تعلق الفاعلين بالممارسات السحرية والشعوذية كمخرج لهذه التوترات.

1.2 القلق والتوتر من الدوافع المؤدية إلى التعلّق بالممارسات السحرية و الشعوذية:

يعدّ القلق والتوتر النفسي من المشكلات التي يعانيها الإنسان في ظل تفاقم العوامل المؤدية لها، وهي عديدة متباينة خاصة في بيئة ريفية لا تزال تحافظ على إرث فولكلوري وتقليدي. والتوتر النفسي باعتباره حالة مرضية ترهق الفاعل الاجتماعي، بحسب درجات حدته، وتجـــعله حبيس أوهامه وتصوراته في سعيه الحثيث إلى إيجاد مسارب منقذة عساها تكون مخرجه وخلاصه.

وإزاء هذا الحال، فإن تصرفات الفاعل تفسّر حسب الوضعيات التي يعيـــشها: مؤهلاته المادية و الإيديولوجية ورصيده الثقافي وحتى انحداره الطبقي الذي يستمد منه جزءا من تصوراته ورؤاه للعالم، وبالتالي كل ما له علاقة بالوضعية الإجتماعية التي يوجد فيها أي أن: "المدلول الذي يعطيه فرد ما لمستوى مدرسي معطى يتراوح حسب الوضعية الاجتماعية لهذا الفرد[8].

نلاحظ من كل ذلك، أن للسحر كما للشعوذة وظيفة سوسيولوجية، إذ يساهمان في ربط الذات المهزومة ثقافيا وماديا وحتى أخلاقيا واجتماعيا بالعالم الميتافيزيقي، الذي يعتقد أنه يحتوي حلولا للمشاكل التي يعانيها الفاعل الاجتماعي في عالمه المادي المشحون بالتوترات. على هذا الأساس يتم الالتجاء إلى العرافين و السحرة و الدجالين وغيرهم من ذوي الاختصاصات المزعومة المشحونة بالأوهام والأباطيل رغم نجاعتها المحدودة اجتماعيا ونفسيا، لكونها تساهم في خلق الحراك و التموقع الاجتماعي ناهيك عن الاستقرار النفسي.

أمام هذا المشهد، يسعى الفاعل إلى التشبّث بالحلول التي تكون قريبة من خياله والتي يرى فيها حلولا خارقة لمشكلاته لأنها تتصل بالمقدّس الذي هو الخارق والمتفوّق والغالب والحافظ لأسراره من رقابة المجتمع[9] المقدّس باعتباره: القوة الإلهامية العليا، الروح القدس..المحرك الذي لا يتحرك..الصالح والمبروك.. الشيخ صاحب البركات.. الساحر..المشعوذ..الجنّي والشبح والطاقة العجيبة التي

يتمتع بها بعض الأفراد في التحايل والخداع والتي غالبا ما يراها المهزوم نفسيا واجتماعيا سرّ النجاة رغم ما تحتويه من آلام وأكاذيب.

جدول رقـــــم 1ـــــ : الإقبال على السحرة والمشعوذين عند الإحساس بالقلق والتوتر حسب الجنس والمستوى التعليمي

المستوى الدراسي / السحر لعلاج القلق و التوتر	التكرارات		المجموع
	نعم	لا	
أمّي	8	21	29
يقرأ ويكتب	2	6	8
تعليم ابتدائي	7	17	24
تعليم ثانوي	19	50	69
جامعي	5	15	20
المجموع	41	109	150
النسبة %	27.33	72.67	%100

هذا ومن أجل مقاربة مدى صحة ما سبق ذكره بما سبق التلميح إليه في سؤال الاستمارة نورد المعطيات التالية:

نلاحظ إذا أن قرابة ثلث العينة المستجوبة والمتكونة من 150 فردا، أي 27.43% تؤمن بدور الممارسات السحرية في حل مشكلاتهم النفسية، رغم كون هذه النسبة تختلف باختلاف عامل المستوى الدراسي والجنس، حيث نلاحظ من خلال الجدول الموالي أن هذه النسبة ترتفع في صـــفوف الأمّيين وهذا ما يؤكد أن للجهل دورا فاعلا في التشبّث بالخرافات والأساطير و من ثمـّة يتردّد الناس علـى محلاّت المشتغلين بالسحر والشعوذة وبائعي الوهم. وما اقبال ذي التعليم الثانوي بنسبة متقدمة إلا تأكيدا على تعلّق الفاعل التونسي بالممارسات السحرية

و الشعوذية في تحقيق الحراك الاجتماعي خاصة وأن هذه الفئة من العينة إما أن تكون تزاول تعلمها في المستوى الثانوي أي في سن تتراوح بين 16 و 20 سنة وبالتالي فإنهم يسعون إلى تحقيق النجاح في الدراسة وقد لاحظنا عبر تقنية الملاحظة المباشرة أن بعض السحرة والمشعوذين في المجتمع التونسي عامة ومجتمع البحث خاصة يقدمون بعض الأعمال للممتحنين زاعمين أنها ستساعدهم على النجاح مثل كتابة الأحجبة في حين أن الذين انقطعوا عن التعليم في هذه المرحلة من الدراسة يسعون إلى ايجاد عمل وهذا من شأنه أن يتسبب في حدوث قلق وخوف من المستقبل خاصة أمام انخرام العلاقة بين المدرسة والمستقبل أي أن هذه المؤسسة لم تعد ضمانة فعلية للنجاح والحصول على عمل[10].

وبالتالي فإن الفاعل التونسي يبحث عن قنوات جديدة لتحقيق الحراك الاجتماعي من ذلك تفاقم ظاهرة الهجرة غير الشرعية أو ما يصطلح عليه بالملفوظ الشفوي التونسي بـــ" الحرقان" ومن بين هذه الحلول أيضا الاقبال على الممارسات السحرية والشعوذية وهذا ما تأكدنا منه عبر بحوثنا الميدانية، فالمشعوذ"حرجوطة" المقيم في سيدي علي بن عون البلدة و الساحر "شوشان الهمامي[11].

الذي يقيم على بعد حوالي 25 كلم من ذات المنطقة وتحديدا في " أولاد شكر"، كلاهما يقدمان حلولا سحرية وأخرى شعوذية لا تزيد عن كونها خدع وأكاذيب لمساعدة العاطلين عن العمل من ايجاد وظيفية أو تحقيق بعض المقاصد الأخرى التي هي سبب توترهم مثل الزواج وفتح باب الرزق ومعالجة النحس والتابعة..وهي جميعها من العلاّت التي تتصل بمجال السحر والشعوذة.

ما سبق ذكره، أمكن دعمه من خلال نتائج الاستمارة حيث نقرأ ارتفاع النسق في الإقبال على الممارسات السحرية لعلاج التوتر النفسي، في الفئات العمرية 15-20 سنة، وهذا أمر منطقي بحكم أنها فترة مراهقة، يواجه فيـــها الفاعلون جملة من الضغوط، متولدة من احتكاكهم بكل مكونات الفضاء الإجتماعي وخاصة بالمؤسسات التي تمثل مصدرا للضوابط: أسرية، أخلاقية، دينية، تربوية، قانونية. وبالتـالي فإن هذه الشريحة العمرية تجازف بتوخي حلول

مخالفة من أجل تقليص هذا الضغط والكبت، فيكون الإقـــــبال على السحر والشعوذة أحد هذه القنوات المعتمدة. هذا وتساهم المشاكل الأسرية التي تحدث مثلا بين الزوج والزوجة، في خلق مناخ من التوتر والقلق النفسي، الأمر الذي يدفع في الإقـبال على الحلول السحرية من سحر وشعوذة، من نوع سحر المحبّة، سحر الإصلاح، سحر الطاعة، أو في الاتجاه المعاكس إذا كانت النية انتقامية وعدوانية مثل سحر الجنون، سحر التفرقة، سحر التعطيل.

ينبت بين ثنايا هذه الاختيارات الصعبة لمصير الفاعل الاجتماعي الذي بدأ أصلا يفقد فاعليته، الوعي السحري و يتجذّر بقدر تجذّر الأسباب المشجعة على مزيد انتشاره و ترسخها. ومرّة أخرى يعود الوعي الخرافي والأسطوري في البروز، ليكون ما سبق تبيانه – من أن سبب الاضطرابات والتوترات النفسية يعود بالأساس إلى عدة عوامل تؤثر في مدارك الإنسان وتهدم كيانه، وهو ذات الأمر الذي عبّر عنه ابن خلدون "الظلم مؤذن بخراب العمران" – كلام عارٍ من الصحة لدى بعض الفئات المتشبعة من هذا الوعي الذي قلنا أنه أسطوريٌ وخرافي في أغلبه، لأن الأصل في المسألة وفق معتقداتهم مجـرّد أذى أو عين أو سحر أو تابعة أو تخييل أو نحس...وعلاجاتها لا تكـون إلا بزيارة سيدي فـلان أو "حرجوطة[12].

أو القيام ببعض الطقوس السحرية وما إلى ذلك من مـــــــممارسات تزخر بها منطقة سيدي علي بن عون و المجتمع التونسي بأسره.ومما يجب ذكره – في هذا الخصوص- أيضا، أن الواقع المعيش غزير بالدوافع المحفّزة لتنامي الممارسات السحرية، حيث تجدر الإشارة في هذا السياق أن هموم الفرد وعلاّته: نفسية كانت أم مادية، اجتماعية أم اقتصادية، تكون دافعا سواء من قبل المشتغلين في هذا المـــجال أو المقبلين عليه، في استنباط وسائل جديدة للترويح عن أنفسهم وإيجاد مخارج لعلاّتهم أو لتحقيق الربح بالنسبة لمن يمتهن هذه الصنائع السحرية وهذا ما يؤكّد الموقف الدوركايمي كون أوّل أنواع التصوّر التي حملها الإنسان حول العالم وحول نفسه كانت ذات طابع ديني[13].

وهو ذات الأمر الذي أكدته بداك شابحة من خلال قولها:" إن التقاليد الاجتماعية والعادات بما فيها من كبت وقهر وتسلط طبقي من جهة وتسلط الرجل على المرأة من جهة أخرى وحالة الانغلاق والتزمت الاجتماعي تجعل من ظاهرة الممارسات السحرية أداة للتلاعب يقوم بها الفرد حين تدفعه الحاجة وحين يعجز عن تحقيق غاية معينة بالوسائل التي يرضى عنها المجتمع[14].

ولنا أن نلاحظ في هذا الصدد، كيف أن قراءة الحظ في صفحات الجرائد من بين هذه الـــطرائق المعتمدة، حيث أن فئة لا بأس بها من عينة البحث تؤمن بدور الآليات السحرية في حل مشاكلهم الاجتماعية وتوتراتهم النفسية. حيث تهتم فئة كبيرة من التونسيين بقراءة ركن "حظك اليوم" أو "حظك من السماء" أو ما يسمى بالأبراج التي تروج لها وسائل الإعلام المكتوبة أي الجرائد والمجلات التونسية، حيث يرجع ما نسبته 45٪ ممن يؤمنون بذلك أن مبرّر ذهاب البعض إلى السحرة والمشعوذين هو تفاقم التوترات بأنواعها: نفسية واجتماعية واقتصادية. وليس بغريب في هذا المنحى أن التمعّن في قراءة الحظّ يجعلنا نقف عند أكثر من ملاحظة:

- ارتفاع نسبة المهتمين بالحظ أو ما يسمى بالبرج الذي تعج به صفحات الجرائد، يقدم الحظّ معلومات عامة وفق تاريخ ميلاد الفرد، حيث أن على القارئ تحديد برجه وفـــق تاريخ ميلاده ولذلك فإن عدد الأبراج موزعة حسب عدد الأشهر، يكاد الحظ يأتي على كل المناشط التي تتصل بالإنسان، يقدم الحظ معلومات عامة حول الشخص وهي حتما يمكن أن تنطبق على أي إنسـان لكن القارئ يتفاعل معها بجدية لكونه يراها موجهة إلى شخصه بالذات، يقدم الحظ جملة من البشائر والنصائح التي غالبا ما تسعد القارئ أو تحذره من أمر ما.
- ولكن الإشكالية في هذه المسألة التي تقتضي التوقف عندها وفك مغاليقها هي: لماذا تكثر الممارسات السحرية أمام هذه التوترات والهزات؟ ألسنا في عصر العلم الحديث الذي يتناقض في مجمله مـعـــلوم الروحانيات

الصفراء وليس تلك التي هي وليدة العصر مثل علم النفس والباراسيكولوجيا...؟.

تبيّن لنا إثر تحليلنا للظاهرة السحرية في المجتمع التونسي، أن الانسان أمام إحساسه بالعجز والتوتر يكون في صراع دائم مع ما يحتويه هذا العالم من غموض وعلامات إبهام، قلق في معيشه اليومي وخوف من الآتي، وذهول مما يعاينه في محيطه من تواتر شتى أصناف الأنماط الحياتية منها ماهو متعارض متضارب مع عالمه الخارجي ومنها ماهو متناغم منسجم وهو أمر مرشح للتفاقم في ظل غياب مؤسسات الدولة وصمتها[15].

وبالتالي عدم اكتراثها بمشاغل الفاعلين وتطلعاتهم، وفي كل الحالات فإن الذات المهزومة والمثقلة بعبء هذه التوترات تسعى إلى ترميز همومها التي تصطدم بالواقع، لكن من ذا الذي يستطيع أن يستوعب هذه الشحنة من التوترات، خاصة في ظل وجود موانع تتفاوت بحسب الموروث العقائدي السائد في المجتمع من نوع الديني والعرفي، العـيب و العار والحرام والشرف و القبح والرذيلة و الفاحشة وما إليها من المعايير التي يفرزها المجتمع. ذاك ما عبر عنه واليس بدج بقوله:"هكذا يتحول العالم الخارجي في الذات إلى رموز، لأنه من الصعب أن يتحمّل الإنسان ضراوة هذا العالم مع إحساسه بالعجز.

و في عملية الترميز للمدركات الحسية والنظرية، يتواصل الانسان مع همومه ومعضلاته، ليكون التديّن مختلفا جذرا ومضمونا مع روح الاسلام باعتباره ذلك الدين الرسمي كما عهدناه مع السلف الصالح، وعليه فإننا كبحاث لا بد من الأخذ بعين الإعتبار في تحليلنا هذا الدين المرمّز أي الدين الشعبي، الذي يتقاسم مع الممارسات السحرية والشعوذية الشيء الكثير[16].

وفي حدود هذا التحليل، هل نرجع انسياق المهزومين نفسانيا بحكم عبء توتراتهم النفسية والاجتماعية إلى عامل الجهل كما ذهب إلى ذلك حسن الشقرماني المتخصّص في دراسة الظاهرة السحرية في المجتمع المغربي من خلال

قوله: " تجد معظم ضحايا الجهل يقرعون أبواب المشعوذين والدجالين، يطلبون منهم خيوط الأمل التي تعيد لهم توازنهم في الحياة، لأنهم فقدوه بسبب مشكلة ألمت بـــهم قد تكـون مالية أو صحية أو نفســية أو اجتماعية[17]، أم إلى عوامل أخرى يمكن أن تكون فهما مخصوصا للمقدّس أو لضرورة الخلاص من الحالة التي عليها الفاعل الاجتماعي التي تملي عليه التشبّث بكل ماهو متاح من حوله للخروج من حالته البائسة فيسود الاعتقاد في كرامات الأولياء والصالحين[18].

هكذا إذن، فإن الثقافة التي يتلقاها الأفراد في صلب الجماعة و بحكم التنشئة الاجـتماعية والتلقين والتأثير، تظل راسخة في سلوكيات الفرد وتصوراته، وهي سرعان ما تبرز زمن التوترات الاجتماعية والنفسية. وما يسهّل عملية بروزها هو الحالة المرضية التي يتعداها الفرد، فالتاجر الذي يشتغل وفق منظومة اقتصادية حديثة يصاب بالتوتر النفسي بمجرد كساد تجارته فيسعى إلى إيجاد مخارج سحرية عاجلة لإنقاذ الموقف. وتزخر كتب السحر والشعوذة في تونس بعديد التعويذات السحرية وبعض الطلاسم التي يرتّبها السحرة لذوي الحاجة في هذا المجال[19].

وعودا على ما سبق أن طـرحناه نؤكد أن الفاعل الاجتماعي و بانخـراطه في منظومة الواقع المعيش، قد يصاب بعديد المحن التي بتنا نراها في يومنا هذا بأشكال متنوعة بتنوع خصوصيات الواقع المعيش الآخذ في التقدم وفق شروط الحداثة، فلم يكتف الفاعل هنا بما أنتجته العبقرية الفكرية من علوم وتقنيات لتخطي معضلاته تلك، بل نجده يلجأ إلى المخزون الثقافي الروحاني والذي منه الســحر و الشعوذة.

على غرار ما يفرزه المعيش اليومي من توترات نفسية واجتمـاعية تكون دافعا للّجوء إلى الممارسات السحرية أو عاملا مولّدا لها ومساهما في تثبيتها، فإن هناك عوامل أخرى أمكن معاينتها في المعيش التونسي تعد بدورها من العوامل السوسيوثقافية في انتشار الظاهرة السحرية عقيدة وممارسة وسلوكا، وهو ما أمكن تبويبه في العنوان الفرعي الآتي:

2.2 الممارسات السحرية من خلال معضلة المرض و البحث عن العلاج:

إلى جانب الطب الرسمي الحديث هناك الطب الشعبي أو ما يسمى بالطب الرعواني، وهـــــــو تخصص يحمل من علامات الإبـهام والغرابة الشيء الكثير، إذا نـظرنا إلى الكـلمة في مـستواها السطحي –الظاهري، كما يبرز ذلك الملفوظ، فهو طب يعتمد على استخدام الحشائش و بعض طرائق العلاج التي كانت تستخدم في القديم وقد لعبت الخبرات والعادات المتداولة بين الأفراد والأجيال في ترسيخها وتلقينها. فمثلا يستعمل زيت الزيتون والليمون والكمون الأسود والخل لإزالة حرارة الجسم المرتفعة، والبسباس والماء لعلاج الإسهال لدى الأطفال، والزعتر والإكليل والدباغ لمرضى المعدة... هكذا كنا نفهم الطب الشعبي- الرعواني، فهو إلى حد هذا الفهم لا يزيد عن كونه الطب اللاكيمياوي أي يعتمد على مواد بيولوجية وخبرات جماعية متداولة عبر الأجيال.

لكن هل الطب الشعبي هو السحر و الشعوذة؟ هل من قواسم مشتركة بينهما؟ هل فعلا أن الساحر هو طبيب رعواني؟ ماهي مصادر الطب الشعبي إن لم يكن في بعض مظاهره ومضامينه سحرا؟ ماذا عن هذه الكتب التي تزخر بها مكاتبنا الصفراء إلى جانب باعة الخضر والغلال وفي أسواق الدواب وقرب أسوار الجامعات والمدارس وفي مداخل المستشفيات: شمس المعارف الكبرى، شفاء العليل وتسهيل العسير في أسرار مزامير داوود، الدر النفيس في تسخير جنود ابليس، اللؤلؤ والمرجان في تسخير ملوك الجان..؟؟؟

هذه إذا حيرة أولى أوردناها في شكل أسئلة تتصل بعالم السحر والطب في آن، نضيف إليها انتباهة ثانية من خلال هذا الجزء من الاستمارة مع الساحر "شوشان الهمامي" أو كما يصرّ هو على تسمية نفسه بالطبيب الرعواني، وقد تبيّن لنا من خلال المقابلة التي أجريناها معه أنه يصرّ على تسمية نفسه بالطبيب الرعواني رغم أن كل أنشطته هي من السحر المحض، وانه كان يستخدم أسلوب المماطلة قصد التخفّي وراء ستار الطب الرعواني، مما دفعنا إلى توجيه أسئلة لها

صلة بالسحر ووقتها يقرّ بشطارته في السحر ومن جملة ما صرّح به في هذا السياق نذكر:

" نعم، أنا أداوي الأمراض بأنواعها مثل السرطان والحجر في الكلى والمرارة... أنا أداوي بالأعشاب.. أداوي بسلطان عود والزعتر والدّغموس والحلاّب والـجــداري وهذه الحشائش أجمعها بنفسي من الجبل وإذا لم أجد بعضها فإني آتي بها من مناطق أخرى"[20].

هنا كان علينا أن نتنبّه إلى مأزق خطير وقع فيه من قبلنا عديد البحّاث، وهو مسألة التداخـل بين الطب الرعواني و أعمال السحر و الشعوذة. هذا التداخل هو ما دفعنا إلى ذكر المعلومات السالفة. فنحن لا نريد أن نقع في مأزق إسقاط المفاهيم أو استخدامها بكيفية فوضوية، فالسـحر هو الاستعانة بقوى غير مرئية للقيام بأشياء غريبة بالنسبة للإنسان العادي. في حين أن المشعوذ هو المخادع و المـتحيّل الذي يقدر بفـضل مهـاراته في الخـداع على أن يـقوم بأشياء تـنطلي علـى الفـرد فتـكون بالنسبة له أشــبه بالسحر و الخارق.

و لنا أن نلاحظ هذا التداخل في المفهوم حتى في كتب السحر، فهي تقدم وصفات سحرية لعلاج بعض الأمراض أو خلق أمراض إذا تعلق الأمر بالسحر الأسود أو السحر الضار. وهنا يكون الطب أحد أبرز مكونات السحر، ولهذا السبب يتملّص شوشان الهمامي من اعتبار نفسه ساحرا ويصر على أنه طبيب رعواني يداوي بالأعشاب لكن لا يمانع من كتابة" الأحجبة" أي التمائم إذا تعلق الأمر بمسائل أخرى يبلغ أقصاها إلحاق المضرة بالآخرين. وفي اعتقادنا يعود سبب ذلك إلى الطريقة التكتيكية التي يتوخاها السحرة والمشعوذون في إبراز بعض الجوانب الحسنة المألوفة في الوعي الجمعي وإخفاء القبيح منها، وعلى هذا الأساس فإن السحرة والمشعوذين في تونس نادرا ما يطلقون على أنفسهم إسم الساحر أو المشعوذ بل غالبا ما يعرفون بهذه التسميات: الروحاني، الكتّاب، الطبيب الرعواني، العزّام، المبروك، المدّب، الطالب[21].

لكن وحده الفاعل الاجتماعي الذي ألف أعمالهم بحكم قربه منهم من يدرك حقيقة أنشـــطتهم وتمييزها. ومما يجب تأكيده هنا ولفت الانتباه إليه، أنه رغم هذا التداخل بين مفهوم المرض والسحر والشعوذة، فإن القاسم المشترك بينها يكمن في اعتبارها من إفرازات الواقع المعيش، الذي أفرز عدة أمراض متفاوتة الخطورة ومتنوعة من حيث نوعيتها ومتباعدة في مستوى تكاليف علاجها، ينضاف إلى ذلك كله الرصيد الثقافي للأفراد الذي يحدد بدوره طريقة التعامل معها، على أن لا نغفل هنا دور البنى الفوقية كما التحتية في تنميط وعي الأفراد إزاء جملة من القضايا داخل المجتمع وخاصة منها العامل الديني والاقتصادي والسياسي.

"إن العوامل التي تتسبب في الأمراض وهي سواء كانت أعراضا مادية أو حالات نفسية فإنها تعود إلى طائفتين من الأسباب:

الأسباب المادية الملموسة والتي يفترض أنها معروفة وتشكل الطبيعة إحدى مصادرها الرئيسية.

الأسباب النفسية أو الروحية ويرتبط بعضها بأعمال الأرواح الخبيثة والقوى الشريـرة والبعض الآخر بغضب الله ونقمة أحد الأسلاف المقدسين[22].

وتبعا لذلك تختلف أساليب العلاج، فإذا كان المرض ذا طبيعة مادية يتم اللجوء إلى الوصفات الطبية التقليدية والتي هي مزيج من الخبرات المتراكمة. أما في حالة الوقوع ضحية لتأثير أعمال الشعوذة فإن الرقى والتعاويذ هي الشكل المناسب لضبط الأرواح وسبيل التحكم فيها في حين يكون التقرب بالأضاحي والنذور إلى الله وإلى أحد أوليائه الصالحين لمواجهة ما يفترض أنه ناتج عن استيائهما ونقمتهما. ولذا "يميز بعض الباحثين أمثال don yoder" بين نوعين للطب الشعبي هما: الطب الشعبي الطبيعي والطب الشعبي الديني السحري"[23].

حري بنا الآن أن نلاحظ أننا في المجتمع التونسي إزاء نوع من الطـب الناجم عن تداخل العوامل الثلاثة: سحر، شعوذة و طب رعواني، وهو الطب الشعبي الديني السحري كما جاء على لسان " don Yoder ". بالتالي ما هي أوجه

التقارب بين المرض والسحر في المجتمع التونسي من خلال ما توصلنا إليه في معطيات البحث الميداني؟

يعتبر المرض حالة اجتماعية مرضية تصيب الإنسان، ولكل مرض- وفق المقاييس العلمية الحديثة في مجال الطب- جملة من القوانين والقواعد التي تفسّر ملابساته وطرق علاجه. لكن رغم ذلك كله لا يمكن للمريض في بعض الحالات إلا أن يبق وفيا لبعض الممارسات السحرية والطقوس العجيبة سواء بفعل الدين أو العادات والتقاليد والتنشئة الاجتماعية وهي عوامل غالبا ما تفرضها الحالة المادية والنفسية للمريض. فمن يكون عاجزا بحكم الفقر مثلا على إجراء فحوص طبية مكلفة حول مرضه الخطير يجد أمله الأخير لدى المشتغلين في السحر والشعوذة، وذلك ما يفسر كون الإعلانات الاشهارية التي نقرؤها في الصحف التونسية تبرز تخصص هؤلاء الروحانيين أو الشيوخ في شفاء أمراض من هذا النوع التي عجز العلم الحديث على فكّها، مثل السرطان والسكري وداء البرص..، بل إن بعضهم يستعمل مصطلحات مأخوذة من الطب الحديث مثل"السكانار" والتخطيط والتحليل، وذلك استعانة ببعض الوسائل والوسائط السحرية.

وما يزيد في جدية الممارسات السحرية في معالجة الأمـــــراض وفق منظور الفاعلين، هو ما يتردد من أخبار حول نجاح بعض المشتغلين في هذا المجال، من ترويج نجاحاتهم بل قل مهاراتهم في المجتمع لتصبح حديثا شائعا يتناقله الأفراد فيما بينهم، الأمر الذي يزيد من نجوميتهم و بالـــــــتالي يتم توجيه النصائح إلى بعض المرضى بزيارة سيدي فلان ونتيجة الشفاء مضمونة كليا.

مما تقدم نلاحظ أنه بالسحر تواجه الأمراض و به أيضا تتم إصابة الأفراد بالمرض، فالمشعوذ الذي لا يفقه شيئا في طلاسم السحر يسعى جاهدا إلى التعويل على قدراته في التخيّل وابتكـــار معارفه في السحر الشعبي، وما يتوصل إليه من ابتكارات في الإضافة عليها حتى يخرج بوصفة سحرية هي عصارة كل تلك العوامل سالفة الذكر.

لا يزال سكان شمال إفريقيا أي بلاد المغرب العربي، ومنهم تونس، يخلطون بين الطب والسحر في كثير من الحالات وهو ما أكده إدموند دوتيه في كتابه الشهير" السحر والدين في شمال إفريقيا" من خلال قوله " ليس الطبيب في الأصل سوى ساحر مُضاد. فكلمة طبيب في العربية الكلاسيكية تعني السحر والطب على السواء. الطب ابن السحر (LA MÉDECINE FILLE DE LA MAGIE) بالإضافة إلى ذلك، و حتى في أيامنا هذه، لا يتم التمييز في إفريقيا الشمالية إطلاقا بين الطبيب والساحر كما لا يميز المرض عن الجن أو على الأقل بين الاثنين مراحل وسيطة غير محسوسة [24].

وللتدليل عل أوجه التقارب بين الممارسات السحرية (السحر والدجل والشعوذة) والطب في تمثلات أهالي منطقة سيدي علي بن عون، كان لا بد من متابعة ما يحدث في فضاء الزاوية سواء ليلة كل خميس حيث انتصاب "الحضرة" ومجيء "الدّكارة [25].

وتوافد الزوار على اختلاف مراتبهم الاجتماعيـــة و تفاوت نظرتهم للمقدس، فالحضرة- في الزوايا مثل زاوية سيدي علي بن عون ، سيدي عمر بوحجلة، سيدي عبد القادر، سيدي تليل...وغيرها من الزوايا الأخرى الموجودة في المجتمع التونسي- ليست كما يتراءى للبعض أنها إنشاد ديني صوفي تعبّدي، بقدر ماهي فضاء لممارسة السحر والدجل والشعــوذة و انتسار شتى أنواع الفجور والتحيّل والكذب والرذيلة والخمور و سائر الفواحش، إذا لا يغدو أن يكون المقدّس سوى الوجه الخارجي للمدنّس والخبيث. فهي فضاءات الوعي السحري بكافة دروبه وخاصة الشعوذة، وما يسهّل هذه العملية هو ارتباط الزاوية بمسألة العلاج. حيث ساد الاعتقاد منذ القديم أن زيارة ضريح الولي الصالح والتقرب إليه بالقرابين" الوعدة" يسهم في شفاء المريض والتـخلص من همومه ومشاكله.

بعد هذا العرض لماهية الزاوية و"الحضرة"، يبدو أن سؤالا محوريا لا بد من طرحه، يتصل بعلاقة الزاوية بالممارسات السحرية، من خلال ربط ذلك

بمشكلة المرض و التداوي. إذن السؤال المحوري الذي يمكن طرحه في هذا السياق هو: كيف تساهم بعض التقنيات العلاجية الرائجة في تونس في تفشي الممارسات السحرية؟ وللتبسيط، هل من علاقة بين المرض و الزاوية و كل من السحر والشعوذة؟ و بالتالي ما هي تجليات ذلك من خلال أمثلة ملموسة من المعيش التونسي؟ .

يحتاج الأمر إلى معالجة و تبصّر وعمق نظر، وهو ما سنشرحه من خلال مثال المرأة التي حضرنا عليها جالسة إلى جوار أحد القبور التي يعتقد أنها لولي صالح وفق المتخيل الشعبي لدى أهالي سيدي علي بن عون(هو سيدي عبيد الشارف) وكان بجوارها موقد البخور، إذ شاهدناها تسدي بعض النصائح وتقدم أجوبة عن بعض الأسئلة للزوار. كلامها مقدّس غزير المعاني، متباعد المقاصد، عليك بكذا.. اذهب إلى زيارة سيدي فلان.. حصن وبخور من بركة سيدي عبيد الشارف ولد سيدي علي بن عون.. تراب ودواء وماء.. توضيح طريقة التخليط وأوقات الفعل..والدفع على قدر حال الزائر.

أهذه شعوذة، سحر، أم بركة؟ إنها أبرز تجليات الشعوذة، حيث والحال تلك استطاعت هذه المرأة أن تختار المكان والزمان لتحقيق أهدافها للحصول على المال، وهو كثير لا محالة. آلام و أنّات الزوار متعددة وفي مقدمتها المرض. والحاجة إلى المقدّس ماسة وملحة، وكل ما فهمناه أن هذه المرأة تؤدي دور المرشد أو الدليل، فالنساء في المجتمع التونسي أكثر معرفة من الرجال ببعض أمور السحر من الصنف الشعبي. فالنساء هم الأكثر دراية في مجتمعنا العربي بأدق تفاصيل السحر الأسود، لا في مستوى الممارسة بل في مستوى الدسائس والمقاصد التي يمكن تحقيقها بواسطة السحر، فالمرأة في تونس لها خزّان من المعارف لا يستهان به من المعارف السحرية والشعوذية تستنجد بها وقت الحاجة أي وقت تعرّضها إلى بعض التحديات، مما يفرض عليها الدفاع عن مصالحها، كأن تعرف أمهر الكتّابة والسحرة، وعلى هذا الأساس كان مضمون سؤالنا رقـ22ـم في نص الاستمارة التي توجهنا بها للمستجوبين: ماهي الفئات الأكثر إقبالا على محلات الكتّابة أو

من شابههم؟، وكنّا قد وضعنا 9 مقترحات وطلبنا من المستجوب ترتيب ذلك حسب الأولوية، وبسبر آرائهم تبيّن أن نسبة 90 % وضعوا مقترح"النساء أكثر من الرجال" في المرتبة الأولى.

وليس قولنا أن المرأة أكثر إقبالا على السحر والشعوذة، مقارنة بالرجل كما دلت على ذلك نتائج البحث الميداني، معناه تحقير من مكانتها أو ربطها بـ"الشيطنة" كما تذهب إلى ذلك بعض الدراسات، وهو أمر تنبهت إليه من قبلنا الباحثة الجزائرية بدّاك شابحة التي برّرت تشبّث المرأة القبائلية بالسحر بواقعها المعيش خاصة في ظل تعدد الزوجات وهيمنة الرجل الكلية وكذلك مفهوم الشرف في المجتمع القبائلي الجزائري الذي يتميّز بارتباطه الشديد بالتقاليد والأعراف التي لا تزال تملي جملة من السلوكيات والقواعد. وكل ذلك من الأمور المفسّرة لتشبّث المرأة بالطقوس السحرية[26].

تراءى لنا، من خلال الملاحظات التي سجلناها عبر وتيرة المعيش اليومي في سيدي علي بن عون، أن المرأة لا تزال مسكونة بأهمية الوصفات السحرية في مواجهة الأمراض، إذ لا تزال بعض الطقوس السحرية حاضرة إلى اليوم، فالمرأة التونسية هي من تتولى إشعال الموقد وتبخير البيوت من أجل طرد النحس والعين الشريرة، وهي من تسكب الماء وراء عزيز عليها، وهي المرأة المتعلمة والتي تقود السيارة وتحتل مراكز مهنية مرموقة وتحمل تميمة في حاوية أوراقها "حصن الحصين" أو "تعويذة سحرية ملفوفة، أي" تميمة"، هي المدركة لبعض الممارسات السحرية العلاجية، وتحسن خلط الأعشاب والعطور.

دلّت نتائج الاستبان، أن حوالي 1/ 3 المستجوبين يعتقدون في دور السحر لغايات علاجية، وترتفع النسبة جزئيا في صفوف النساء، وذلك يعود إلى تأثير البيئة المحيطة التي أفرزت عملية التنشئة الاجتماعية، وبعض الطقوس الاحتفالية و السلوكيات اليومية التي تمتد جذورها إلى عصور قديمة. ولفهم هذه النقطة بالذات كان لا بد من التنبّه إلى بعض الرموز التي يتمسّك بها الفاعلون، هي رموز حسية حركية مادية ذات أصول سحرية لا تزال رائجة في الثقافة

التونسية ونعتبرها من الدوافع المساهمة في تفشي الاعتقاد بالروحانيات، والبحث عن حلول سحرية لعللهم. في هذا الإطار تبرز سلطة الكلمة، الكلمة باعتبارها قوّة غريبة يمكن أن تؤذي أو تقتل أو تتسبّب في أمراض متفاوتة، على أن لا ننسى أن الكلمة هي جوهر كل فعل سحري. وهناك من البحاث من يعتبر أن أخطر أنواع السحر تلك القائمة على قوة الكلمات، ولتوضيح ذلك أمكن الاستدلال بنشاط التقازات في جهة سيدي علي بن عون حيث لاحظنا قدرتهن العجيبة على الكلام، فهو كلّه سجع وموزون وفق وتيرة غنائية معينة، أي أن "التّقازة" تخاطب محاورها بل قل الشخص موضوع "التتقيز" بكيفية تثير حميّته، تذكّره بأدق تفاصيل ماضيه وحاضره ومستقبله.

استنادا إلى البحوث السوسيولوجية تأكد أن الفرد يبقى بحاجة دائمة إلى قوة الكلمة التي تعتبر ناقل الفعالية الرمزية المفضل." فهي أداة إعجازية قادرة على خلق تواصل بين حقول إن لم ينعدم لقاؤها فهو يظل غير محتمل تماما. ولا يستطيع المرء، ما لم يكن ساذجا، أن يشك في فعالية هذه العلاجات التي ترتكز على سلطة الرمز المنقولة بواسطة الكلمة، والتي نجد التحليل النفسي في مقدمتها[27].

من كل ما سبق بيانه وتحليله، وفي إطار مبحثنا الإشكالي، يتجلى بكل وضوح صحّة الفرضية التي حددناها منذ البدء: تؤدّي التوتـرات الاجتماعية والأزمــات الاقتصادية دورا في الإقبال المتزايد على السحرة و المشعوذين من طرف الفاعلين قصد إشباع حاجياتهم وملء الفراغ النفسي.ليست التوترات النفسية والاجتماعية و الأمراض وحدها من العوامل المساهمة في تفشي الظاهرة السحرية في المجتمع التونسي، بل هناك عوامل أخرى تتصل بتطلعات الفاعلين في الواقع المعيش وهو ما أمكن تبويبه في المشهد التالي:

3.2 السحر والشعوذة من خلال تطلعات الفاعلين إلـى تحقيق التغير و الحراك الاجتماعيـين:

من المعروف أن هناك عدة وصفات سحرية تستعمل لأغراض مختلفة منها" توسيع الرزق، زيادة الفهم، تقوية الذاكرة، التوسل لدى أصحاب السلطة، العثور على مفقود في حرب، العثور على مفقود في غابة، العثور على ضال أو غائب، وقف صراخ طفل صغير، المحبة، هداية الابن العاق والمنحرف، التخلص من الحب، التعجيل بالزواج، وقف الغيرة، علاج العقم،إعاقة حمل امرأة، تيسير عسر الولادة، علاج الأرق وعلاج الاكتئاب والشعور بالخوف ومن يفزع بالليل ، أو إفاقة سكران، إنبات شعر أقرع وعلاج التسمّم، وغيرها.. وذلك ليصبح للجسم قوة ونشاط كبيرين –فيزيائي وروحي أو لجعل المحيط المادي و البشري مناسبا للمسحور حسب الناس[28].

نلاحظ من خلال هذه المجالات الواسعة التي يمكن أن يتدخّل فيها السحر، أنها من الأمور التي تتصل بواقع الإنسان المعيش وتطلعات الفاعلين. فجميع المناشط والحقول التي تتصل بالإنسان تتحول إلى ساحة فعل سحري، ذلك أن وتيرة الحياة المتسارعة تدفع الفاعلين إلى توخي شتى السبل المتاحة لتحقيق تطلعاتهم وتخطّي صعوباتهم. فالجدية و الإتقان والعزيمة والثبات و الثقة والاجتهاد والتقدم والإخلاص والانضباط كلها من المقاييس التي تعتمدها المجتمعات (المتقدمة أو تلك التي تسعى إلى تحقيق الرقي والتحول النوعي في كافة مسارات حياتها: أخلاقية كانت أم سياسية-اقتصادية، أو ثقافية-اجتماعية، أم علمية- تقنية) لتحقيق رقيّها ونهضتها.

على هذا النحو، يُرسم طريق الحداثة كما سبق أن رسمته الشعوب التي نعتبرها اليوم دولا متقدمة بامتياز والتي تأسست على مقولة ديكارت" أنا أفكّر إذن أنا موجـود" أو العقلانية على حد تعبير ماكس فيبر[29].لكن واقع الحال في البلاد العربية ومنها تونس لإ تزال الميكانيكية الخرافية والأسطورية مهيمنة.

في هذا الجانب لا بد من توضيح مسألة منهجية جد مهمة، وهي أن الظاهرة السحرية رغم بروزها للعيان في المجتمع التونسي- لكونها أضحت نشاطا رسميا يحتل مواقع مهمة في وسائل الإعلام التونسية، ووجود مكاتب وأماكن خاصة بها- فإنها تبقى ظاهرة خفية وعلنية في نفس الوقت، بما يجعل منها ظاهرة ميكروسوسيولوجية و ماكروسوسيولجية في آن واحد. فالمشتغلون في السحر يستقطبون زبائنهم عبر طرق تقليدية وأخرى حديثة مثل تسخير وسائل الإعلام، وفي هذا الإطار سئل محمد أسليم عن الطرق التي يجلب بها السحرة الزبائن في المغرب، فأجاب:" ولكن لا أحد منهم يقول إني ساحر. كلهم يقولون نزيل السحر أو نعالج المرض أو نقرأ الفأل، أو نزاول علم الفلك(...) وفئة خطت خطوة وصارت تسخر وسائل الإعلام العصرية، حيث ينشر أصحابها إعلانات إشهارية في نوع معين من الصحف"(30).

على عكس ما صرّح به محمد أسليم حول واقع الحال في المغرب، فإن الوسائط التقليدية تبدو أكثر جدوى في اعتقادنا بالنسبة إلى الساحر أو المشعوذ في مجتمع البحث، فالسحرة والمشعوذون الذائع صيتهم في منطقة سيدي علي بن عون والمناطق المحاذية لها، لم يكتسبوا البتة شهرتهم عبر الوسائط الإشهارية الحديثة بل عبر التقليديّ منها، وبالتالي كثرة الوافدين عليهم من فئة المستفيدين. ويعود ذلك في اعتقادنا إلى أن هذه الطرق لها قدرة فائقة على التأثير في الفاعلين مباشرة، خاصة وأن الأفراد يتناقلون عديد الأحداث من خلال تجاربهم الذاتية مع السحرة والمشعوذين أو من خلال منابر الحوار وتقصي الأخبار والسؤال مباشرة عن الحلول الممكنة لحل معضلاتهم. وبالتالي فإن درجة تشبّث الفاعلين وإيمانهم بالسحريات(أي كل ما ينتمي إلى السحر) ينضاف إلى ذلك جملة من التراكمات الثقافية مثل تفشي الزوايا، والتشبث بالغيبيات، وفتور الوعي الديني الذي يحرّم مثل هذه الممارسات... كل ذلك ساهم في انقلاب المعادلة، بمعنى أن الفاعلين هم من يخلقون شهرة الساحر أو المشعوذ على حد السواء.

من ناحية أخرى، فإن الممارسات السحرية مهما كان نوعـــــــها: سحر أم شعوذة، رسمية أم شعبية، ضارة أم نافعة، لا يبرز منها إلا الوجه الظاهر الذي يتقبله المجتمع وفق محدداته الأخلاقية والقيميّة، وهو ما نقرؤه في الإعلانات التي تزخر بها الصّحف التونسية وفي مقدمتها الصريح وكل الناس والإعلان... نفس الأمر كذلك لمن لم يسعفهم الحظ في الإشهار الرسمي، والذين اكتسبوا شهرتهم ورواج أنشطتهم عبر وسائل تقليدية أو أخرى تكتيكية، حيث تتناقل أخبارهم الألسن أو وجود وسطاء يروّجون لمهاراتهم التي يزعمونها[31]، فلا يمكن أن نجد ساحرا يصرّح على الملإ أنه قادر على وضع وصفات للقتل أو إلحاق الضّرر، أي كل ما يمكن أن يؤدي إلى خلخلة النسيج أو البناء الاجتماعيين، هذا هو إذن الوجه الميكروسوسيولوجي للممارسات السحرية، فالبعض لا يدرك هذه الخاصية، لكن في المقابل يندهشون لما يلاحظونه من جرائم وتوترات متفاوتة.

جدول رق2م: الأنشطة التي يتعاطاها السحرة والمشعوذون في سيدي علي بن عون [32]

الأنشطة	الإجابة			
	نعم		لا	
	التكرار	النسبة %	التكرار	النسبة %
علاج الأمراض	19	95	1	5
فكّ السحر	19	95	1	5
تخليص الناس من الجان	14	70	6	30
فتح باب الرزق	16	80	4	20
قراءة البرج	15	75	5	25
الإصلاح بين الزوجين	16	80	4	20

لكن ذلك لا ينفي أن مزاعم السحرة والمشعوذين كلها خرافات ووهم. نعم، من حيث المبدأ هي خرافات ووهم وانحطاط وتأخّر و قطيعة مع العبقرية الفكرية في أبعادها التجريدية والتجريبية التي هي أساس كل حراك وتغيّر ينشده المجتمع حتى لا يظل عليلا، إلا أنها عندما تختلط بمشاغل المجتمع وهموم الفاعلين

وتطلعاتهم ترتقي إلى درجة الفعل الظاهر البيّن الذي له دلالاته ومعانيه، مثل مسألة البركة التي تحدّث عنها ريموند جيمس من خلال قوله: " فالبركة لا تحدد فقط في مستوى التفكير الرمزي ولكن أيضا في مستوى الممارسة الاجتماعية[33] ، له آثاره وعواقبه: الموت، الجنون، التشرّد، قطع الأرحام، الإصابة بالأمراض، زرع الفتنة والتفرقة بين الأفراد مهما كانت المؤسسات التي ينتمون إليها، الإصابة بالتوتر و شتى ضروب الانكسارات التي يمكن أن تصيب الفرد وتفقده حياته الطبيعية.. الرقي في السلم الاجتماعي، تحقيق السعادة، الربح المادي السريع و العثور على الكنوز، النجاح في المشاريع التجارية، الشفاء من العلل، التطلّع إلى الغيب والمجهول... هكذا إذن تحوم الأعمال السحرية حول مدارين أساسيين، إما تحقيق النفع أو الضرر، ومن ثمة تم تصنيفها إلى سحر ضار وآخر نافع.

نحن إذن أمام ثنائية حضارية-سوسيولوجية من الظاهرة السحرية والشعوذية، الأولى نقوم بتفنيدها و الثانية نؤكد آثارها الوخيمة والخطيرة. ذاك ما أكده ويليام سيبروك الذي أقرّ بالآثار التي يمكن أن تنجم عن شتى أنواع الممارسات السحرية من خلال قوله:" وإذا أخذت أكثر التجليات شيوعا باعتبارها مثالا، اقتنعت أن بمقدورهم أن يقتلوا باستخدام السحر وحده، أي بالسحر الخالص، من دون اللجوء إلى السم، الحوادث المفتعلة، العنف أو أي وسائل مساعدة كيميائية-فيزيائية مهما كانت"[34].

أمّا كلود ليفي ستروس فقد أكد عن فاعلية الممارسة السحرية من خلال قوله:"ليس هناك سبب للشك في فاعلية بعض الممارسات الطقوسية"[35].لكن نحن من خلال بحوثنا الميدانية نذهب إلى أكثر من ذلك، حيث يستطيع المشعوذ أو الساحر- كل من خلال قدراته وبراعته في التعامل مع الجن والشياطين وتوظيف الطلاسم السحرية (حال السحرة) أو ما يستخدمه البعض من أدوات تضليل وخداع تبدو غاية في الدقة والدهشة، خاصة إذا كان الزبون يتمتع بقدر لا بأس به من الحماقة والسذاجة (حال المشعوذين)- من تحقيق الفاعلية و "النّجاعة" جرّاء أنشطتهم تلك.

فضلا عن هذا وذاك، فإننا لاحظنا أن كتب السحر الرائجة، يتلاءم محتواها مع تطلعات الفاعلين إلى تحقيق التغير و الحراك الاجتماعيين، إذ وردت مرتّبة في طلاسمها وتعاويذها وفق ما يستجيب لحاجة الفاعل الماسة في حياته اليومية. ولتوضيح ذلك أمكن أن نقدّم هذه القراءة العجلى لكتاب اللؤلؤ والمرجان في تسخير ملوك الجان: " وهو يشتمل على كثير من مهمات الفوائد الروحانية والعزائم والطلاسم وأبواب المحبة وحل المربوط وعلى خلخلة الهوى الكبرى الصحيحة المجربة وخلاف ذلك والله أعلم[36].

وهذه أبرز أبوابه وفوائده حلى حد قول كاتبه:

" باب قضاء الحوائج، باب عقد اللسان، باب في المحبة والتهييج، انتقام من عدو أو باغ، صرف العمّار من المكان الذي تريد فيه العمل، صفة ورد القرآن الشريف لقضاء الحوائج، فائدة من اضطر لأمر دنيوي أو أخروي، قسم عظيم وزجر عـلى سائر العمار، حرز يقرأ قبل كل عمل، فائدة لتفريج الكروب، الدعوة لجلب الرزق ودفع الشر[37].

وعلى هذا الأساس، وجدنا أن السحرة والمشعوذين في مجتمع البحث، لهم القدرة حسب زعمهم على التدخّل في كل المجالات، لصالح الفاعلين قصد تحقيق مآربهم، وهي متنوعة كل حسب حاجته، وهو ما أوردناه في الجدول السابق الذي يبيّن الأنشطة التي يتعاطونها وفق ما دلّت عليه نتائج الاستبيان الخاص بالمشتغلين في السحر.

الخاتمة:

إن دراستنا ليست حصرا جامعا مانعا لكل ما يتّصل بالظاهرة السحرية في المجتمع التونسي، فمفاصل هذه الظاهرة عديدة، أمكن تناولها من وجهات نظر مختلفة ومقارباتها سوسيولوجيا في إطارها العلائقي مع مفاهيم أخرى. ونحن إذ اقتصرنا في مقاربة الظاهرة على عامل التوترات الاجتماعية من أجل الإلمام أكثر بتصورات الفاعلين للظاهرة السحرية ودورها في ترويض توترات الإنسان وأزماته فإننا نشير ف خاتمة هذا البحث إلى توسّع مجالات السحر لتأخد أبعادا جديدة ومجالات واسعة، لتبرز الشعوذة كأحد هذه التخصصات التي تحاكي الممارسات السحرية في الاستجابة لمطالب المجتمع.

هذا وقد توصّلت الدراسة إلى توضيح فكرة جدّ مهمّة وهي محاكات الصنائع السحرية والشعوذية لرغبات الفاعلين وتطلعاتهم وعلى اعتبار أن السحر" يتأسس على الفكرة القائلة بأن الكائن البشري يمكن أن يؤثّر في مجرى الأحداث العادية بواسطة أدوات ما فوق طبيعية"[38].

فإن الفاعل التونسي التجأ إليها قصد تحقيق جملة من المطالب و إشباع حاجياته خاصة زمن الأزمات، الأمر الذي تحوّلت فيه الممارسات السحرية إلى رؤية للعالم يحوم حولها الفاعلون، إذ يتدخّل في مجالات عدّة منها ما هو ضار أي السحر الأسود أو ما هو نافع ونقصد بذلك السحر الأبيض، وفي كلا الحالتين فإن هذه الممارسات تستجيب ومطالب الأفراد كل حسب حاجياته.

من ناحية أخرى فإن انتشار الممارسات السحرية والشعوذية في المجتمع التونسي يطرح أكثر من تساؤل وأمكن تناوله من عدة زوايا نظر. إلا أن أهم ما يلفت الانتباه في هذا الإطار هو خطورة انتشار هذه الظاهرة على المجتمع والأفراد. فكم هي عديدة الجرائم التي يتسبب فيها هؤلاء المشتغلون.

لقد تبيّن لنا من خلال النتائج التي توصّلنا إليها في بحثنا الميداني أن تفشّي الممارسات السحرية بشتى أنواعها: سحر- شعوذة ومختلف مضامينها وتجلياتها

البرّانية المرتبطة بمعيش الفاعلين، تصلح أن تكون مؤشّرا نقيس به الوهن والضعف الذي آل إليه المجتمع، فتفاقم الممارسات السحرية في المجتمع العربي ومنه التونسي أمكن تشبيهها بواقع الحال الذي آلت إليه الأمّة في القرن الثامن الهجري، حيث اتّسمت هذه المرحلة التي عاشها ابن خلدون" بالانكفاء والتقهقر، إذ توالت على العالم الإسلامي في القرن الثامن الهجري كوارث عديدة: هجمات التتار شرقا، تقلص حكم المسلمين في الأندلس غربا، ضعف الأسرة الحاكمة وتنافسها بل تناحرها، الطاعون الجارف الذي خلّف الخراب والدمار، انتشار التفكير الخرافي، سيطرة الجمود الفكري. كل ذلك خلق أوضاعا مرتبكة تسودها الفوضى من كل ناحية، ويعمها الاضطراب من كل جانب[39].

❖ هوامش البحث

(1) Mauss (Marcel) & Henri (Hubert), « Esquisse d'une théorie générale de la magie », (1902), in Mauss (Marcel), *Sociologie et anthropologie*, Paris, PUF, 1950, pp.13-17.

(2) راجع في هذا الشأن: سيرجيميس فريزر، الغصن الذهبي: دراسة في السحر والدين، ترجمة أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، المطبعة الثقافية، مصر، 1971، ص 74.

(3) Doutte (Edmond), Magie et religion dans l'Afrique du Nord : La société musulmane du Maghrib, Alger, Typographie Adolphe Jourdan Imprimeur-Libraire-éditeur 9, Place de la Régence, 1909, Livre numérisé en mode texte par : Alain Spenatto, p.603.

(4) محمد زهير الحريري، السحر بين الحقيقة و الخيال، دار الإيمان، دمشق- بيروت، الطبعة الأولى، 1985، ص 120-122.

(5) محمد أسليم، هوامش في السحر، وكالة الصحافة العربية، القاهرة، 2001، ص 1.

(6)Boudon (Raymond), *Les méthodes en sociologie*, 10eme éditions, Paris, PUF, 1995, pp.86-96.

(7) Idem , pp.86-96.

(8)Boudon (Raymond), *L'inégalité des chances, la mobilité sociale dans les sociétés industrielles*, Ed. Armand colin, paris 1978, p. 58.

(9) لمزيد التعمق في هذا الجانب أنظر:

Mjouti (Mohamed), *Hôpital psychiatrique et thérapies traditionnelles au Maroc*, thèse pour le doctorat de 3ème cycle, Toulouse-le Mirail, 1983, p. 191

(10) راجع في هذا الشأن:

سعيد الحسين عبدولي، **المدرسة والمستقبل في تصورات تلامذة بيئة ريفية**: حالة منطقة سيدي علي بن عون من ولاية سيدي بوزيد مثالا تطبيقيا، شهادة الدراسات المعمقة في علم الاجتماع، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس، 9 جوان 2006.

(11) مقابلة مع الساحر" الطبيب الرعواني" شوشان الهمامي، القرية، أولاد شكر، في 28- 04- 2010.

(12) اسم الشهرة أو الكنية لمشعوذ مشهور في منطقة سيدي علي بن عون، والمعروف لدى جمهور المبحوثين بـ"خبثه" وارتكابه شتى أنواع "الفواحش"، موقعا عديد الجرائم التي يعجز العقل عن

تصورها وذلك استنادا إلى التصريحات التي تلقيناها عبر المقابلات وما استنتجناه بالملاحظة المباشرة، وهو لا يزال يواصل عمله بنفس الوتيرة حتى بعد 14 جانفي 2011 تاريخ سقوط النظام.

(13) Durkheim (Émile), Les formes élémentaires de la vie religieuse, Paris, Le livre de poche, 1991, p125.

(14) بداك شابحة، الوظيفة السوسويولجية للسحر عبر الأسطورة القبائلية- دراسة سوسويولجية، أطروحة ماجستير، جامعة الجزائر، معهد علم الاجتماع، 1992-1993، ص 133.

(15) Ziouziou (Abdallah), «Réflexions sur la thérapie traditionnelle» in Lamalif, n° 143, Février-Mars, 1983, pp. 42-43.

(16) Doutte (Edmond), ibid, pp.311-317.

(17) حسن الشقرماني، *المنقذ الثاني من السحر والسحرة*، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2007، ص9.

(18) المرجع السابق، ص12.

(19) راجع في هذا الاطار:

Ziouziou (Abdallah) «Réflexions sur la thérapie traditionnelle» in Lamalif, n° 143, Février-Mars, 1983, pp. 42-43.

(20) مقابلة مع الساحر" الطبيب الرعواني" شوشان الهمامي، القرية، أولاد شكر، في 28- 04- 2010.

(21) اسم الطالب غير متداول في تونس، لكنه شائع الاستخدام في كل من الجزائر والمغرب، وقد ذكره إدموند دوتيه في دراسته للظاهرة السحرية في شمال إفريقيا، أما ما يقابله في تونس فهو اسم المدّب، ونلاحظ كون كلا التسميتين: المدّب والطالب، لهما في الأصل مدلولات دينية إسلامية أي الشيخ أو من له بركة بحكم تفقّهه في الدين. لكن يطلقان أيضا على المشتغلين في السحر والشعوذة.

لمزيد التفصيل راجع:

Doutte (Edmond), ibid, pp. 293-378.

(22) عبد الرحيم تمام أبو كريشة، الطب الشعبي في الريف العربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1994، ص9. نقلا عن عماد بن صولة، وظائف الزاوية في المجتمع التونسي: سيدي

البشير نموذجا، شهادة الدكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، قسم علم الاجتماع، السنة الجامعية 1998-1999، ص 260.

(23) عبد الرحيم تمام أبو كريشة، الطب الشعبي في الريف العربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1994، ص9. نقلا عن عماد بن صولة، وظائف الزاوية في المجتمع التونسي: سيدي البشير نموذجا، شهادة الدكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، قسم علم الاجتماع، السنة الجامعية 1998-1999، ص 260.

(24) Doutte (Edmond), ibid, p. 37.

(25) هو مصطلح شائع للتدليل على انشاد النشيد الديني الذي يعرف بالذّكر. والذّكار هو بالتالي المنشد ومن بين أبرز الأذكار التي ينشدها الذكارة هي : "يا عيّا جيناك زوّرا ها عيا".

(26) بداك شابحة، الوظيفة السوسيولجية للسحر عبر الأسطورة القبائلية-دراسة سوسيولجية، أطروحة ما جستير، جامعة الجزائر، معهد علم الاجتماع، 1992-1993، ص78.

أنظر أيضا:

Doutte (Edmond), ibid, p 33-34.

(27) Foerster (H.V.), "On Self-Organizing Systems and their Environments", in Yovits (M.C.), Cameron (S.), *Self-Organizing Systems*, Oxford, London, New York, Pergamon Press, 1960, p.43-45

(28)بداك شبحة، *الوظيفة السوسيولوجية للسحر عبر الأسطورة الأمازيغية – دراسة نفسية – سوسيو – أنثروبولوجية*، مجلة العلوم الاجتماعية و الإنسانية، جامعة باتنة، الجزائر، العدد 8، جوان 2003، ص117.

(29) Weber (Max), *L'éthique protestante et l'esprit du capitalisme (1904-1905)*, Plon, 1964, Paris.

(30) حوار مع محمد أسليـم: "في ماهية السحـر ووجوده أو عدمه" www.aslimnet.free.fr

(31) يعتبر المشعوذ م,ح المعروف في جهة سيدي علي بن عون بحرجوطة من أبرز المتحايلين ويستخدم أساليب غاية في التعقيد و الاحكام من أجل الإيقاع بأكثر عدد من الضحايا، إذ له وسطاء في كافة الولايات التونسية يعملون على شهرته وينسقون معه في رسم الحيل والخطط.

(32) يستطيع المبحوث اختيار أكثر من نشاط

(33) Jamous (Raymond), *Honneur et Baraka: Les structures sociales traditionnelles dans le Rif*, éd Cambridge university press et Maison Des sciences de l'homme, Paris 1981, p.204.

(34) ويليام سيبروك، السحر قوته في العالم اليوم، ترجمة سليم عبد الأمير حمدان، المدى للثقافة والنشر، سورية، 2009، ص5.

(35) Lévi-Strauss (Claude), *Anthropologie structurale*, Paris, Plon, 1958, p.184.

(36) أحمد البوني، اللؤلؤ والمرجان في تسخير ملوك الجان، المكتبة الثقافية، لبنان، 1999، ص2.

(37) المصدر السابق، ص 25.

(38) Azria (R.) & Hervieu-Léger (D.), « MAGIE / SORCELLERIE », in *Dictionnaire des faits religieux*, Paris, PUF, 2010, p.679-685.

(39) محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**، دار الشؤون الثقافية، بغداد، من دون تاريخ، ص 20.

تجربة استصلاح الأراضي الصحراوية في أبعادها السوسيو- اقتصادية

الدكتور : رشيد زوزو

جامعة بسكرة، الجزائر

الملخص:

تشكل هذه الدراسة محاولة للاقتراب من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى شهدتها بلادنا، وقد انصبت هذه المحاولة على استعراض تجربة استصلاح الأراضى الصحراوية فى محاولة لتحليل دينامية العلاقة بين الإنسان والأرض واستخلاص أثارها ونتائجها. هذه الآثار انعكست بشكل واضح على القدرة الإنتاجية وفي خلق فرص عمل جديدة وفي وقف نزيف الهجرة الريفية وتوطين البدو وفي غيرها من الآثار .

ومن ثم جاءت هذه الدراسة لتتبع هذه التجربة وإبراز حجمها وانعكاساتها في سياق التنمية الفلاحية الشاملة .

Résumé:

Cette étude tente de s'approcher des mutations socio-économiques qu'a connu le pays, et cela à travers un bref exposé de l'expérience de la réforme agraire dans les terres sahariennes, dans le but d'analyser la dynamique de la relation entre l'homme et la terre ainsi ses conséquences et ses répercussions.

Ces répercussions qui ont eu des impacts sur la productivité et sur les possibilités de créer de nouveaux postes de travail aussi ont contribué a freiner l'exode rurale et à sédentariser les nomades ainsi que d'autre conséquences, ainsi le présent article essaie de retracer cette expérience et son ampleur et tous ses répercussions dans le contexte du développement agraire globale.

مقدمة:

شهد القطاع الفلاحي في الجزائر كغيره من القطاعات الأخرى سياسات عدة أملتها الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وفرضتها مقتضيات التغير الاجتماعي للمجتمع الجزائري.

فتجربة التسيير الذاتي غداة الاستقلال أملاها الوضع العام للبلاد فاتسمت بالعفوية والطابع الارتجالي فكانت النتائج المحققة دون الطموحات المرجوة.ثم جاءت الثورة الزراعية كعملية ثورية شاملة إلا أن تغلب الاعتبارات السياسية والاجتماعية على الجانب الاقتصادي أدى إلى تدني الإنتاج الزراعي وفشل التجربة.

ونتيجة لذلك كان لا بد من إصلاحات وقفة لمراجعة هذه السياسات بغية القضاء على السلبيات و الحد من تأثيراتها على الوضعية الزراعية فكانت عمليات إعادة الهيكلة للقطاع الفلاحي.

وفي سياق هذه الإصلاحات بدأ الاقتصاد الوطني يأخذ منحنى وتوجها نحو اقتصاد السوق، وبدا هذا واضحا بتشجيع الاستثمار الوطني الخاص وتحرير المبادرات الفردية حين صادقت اللجنة المركزية لجبهة التحرير الوطني في ديسمبر 1981 على ملف القطاع الخاص [1] ثم توج هذا التوجه في المجال الزراعي بصدور قانون الحيازة على الملكية العقارية الفلاحية بواسطة الاستصلاح (1983) بهدف توسيع المساحات الزراعية وبالتالي زيادة القدرة الإنتاجية في المجال الزراعي ولتحقيق أهداف اجتماعية واقتصادية وسياسية.

وبعد عشرية ونيف وفي إطار الإصلاحات الفلاحية وفي محاولة من السلطة إنعاش هذه التجربة أصدرت مرسوما عنون بتقنية الامتياز عام 1997 بهدف توسيع دائرة الاستصلاح وفتح الباب واسعا أمام الاستثمار.

والتساؤل المطروح هل كان لقانون الحيازة على الملكية العقارية بواسطة الاستصلاح ثم تقنية الامتياز دور ونقطة تحول وعلامة بارزة في المسيرة التنموية،

وهل كانا من الناحية العملية كفيلان باستقطاب اهتمامات الناس والمستثمرين في استصلاح المساحات الواسعة وفي إعادة الاعتبار لعمل الأرض وفي بعث الحياة في الريف من جديد؟

ومن ثم جاءت هذه الدراسة لتلقي الضوء على تجربة ظلت حبيسة المعالجات التقنية والاقتصادية وبشيء من الندرة والعمومية هادفة إلى عرض تجربة استصلاح الأراضي الزراعية وإبراز أهميتها وحجمها في سياق التنمية الزراعية بوجه عام، والتعرف على أبعادها الاجتماعية والاقتصادية.

1. مفهوم استصلاح الأراضي الزراعية:

يرى الدكتور عبد الوهاب مطر الداهري أن مفهوم استصلاح الأراضي الزراعية يختلف باختلاف المناطق وتبعا لظروف الطبيعة لهذه المناطق أو تلك.فإنشاء شبكة الري والبزل (Le drainage) وغسل التربة استصلاحا. ويعتبر حفر الآبار وتعديل الأرض وتسويتها لاستصلاحها أيضا، وباختصار أن كل ما من شأنه جعل الأرض قابلة للفلاحة والغرس استصلاحا[2].

والتعريف الذي ورد في القانون المتضمن الحيازة على الملكية العقارية بواسطة الاستصلاح قد لا يختلف عن التعريفات السابقة ولكن يحاول أن يكون أكثر شمولية، حيث هو "كل عمل من شأنه تهيئة وتنقية الأراضي والتجهيز والسقي والغراسة والمحافظة على التربة قصد إخصابها وزرعها"[3].

والملاحظ أن هذه التعاريف قد ركزت على العناصر الفنية ومراحل الاستصلاح وأغفلت الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والظروف الضرورية، لتطوير الإنسان باعتباره العامل الحاسم والأساسي في هذه العملية التنموية. لأن كل نشاط تنموي واسع كعملية الاستصلاح يجب أن يرفق بتوفير الخدمات لضرورية كشق الطرق وإنشاء التجمعات السكنية وإيصال الكهرباء وإقامة مختلف المنشآت الخدماتية.

وبعد هذه التعاريف والملاحظات المسجلة عليها يمكن أن نقدم التعريف التالي: "استصلاح الأراضي الزراعية عملية تنموية متكاملة ذات عناصر وأبعاد تقنية اقتصادية واجتماعية وسياسية هادفة إلى توسيع المساحات الزراعية وزيادة القدرة الإنتاجية وتطوير المجتمع الريفي بصورة عامة".

ولهذا فالاستصلاح موضوع هذه الورقة يندرج ضمن العملية التنموية الشاملة وليس مجرد عملية تقنية بحتة أو نقل لملكية بل ذو أبعاد اجتماعية اقتصادية والتي منها رفع معدلات الإنتاج وتوفير فرص العمل ثم تحسين الحالة الاجتماعية لسكان الأرياف كهدف اجتماعي. وأخيرا توفير الأمن الغذائي للدولة كبعد سياسي خاصة في بلد ظل يعتمد لفترة طويلة على مصدر وحيد للدخل وهو البترول.

2.تجربة استصلاح الأراضي كعملية تنمية:

تحتل المسألة الزراعية في بلدان العالم الثالث مكانتها بين مجموعة المسائل المطروحة على صعيدي التنمية والتخلف، وتأتي هذه الأهمية من كون الزراعة هي القطاع السائد في هذه البلدان، إذ تستحوذ على الأغلبية الساحقة من اليد العاملة وتشكل أكبر نسبة في عناصر تكوين الدخل القومي – وإن اختلفت هذه النسبة من دولة إلى أخرى- والأهم من ذلك هي السبيل الوحيد لتأمين الحاجات الغذائية لهذا العالم المكتظ بالسكان.

وتجارب استصلاح الأراضي كعملية تنموية وكإصلاح زراعي ذات أبعاد ومرامي مختلفة لا تنفصل عن المسألة الزراعية بل تندرج في إطار الحلول الإصلاحية المطروحة وكجزء من هذه العملية الشاملة.

تكمن أهمية الاستصلاح كعامل تنمية بالنظر إلى أهدافه ومراميه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فأولى نتائج الاستصلاح تتجلى في توسيع الرقعة الزراعية وبإضافة أراضي جديدة.

فالاستصلاح إذن هو حرب على الصحراء وافتكاك الأرض منها، وهو عملية تعد هجوما معاكسا عليها.ومن زاوية أخرى فإن زيادة القدرة الإنتاجية تتطلب سير التنمية الزراعية بشقيها الرأسي والأفقي، إلا أن التوسع الرأسي يبقى محدودا بفعل قانون تناقص الغلة، إضافة إلى أن التزايد السكاني والضغط على الموارد الحالية يحتم البحث عن موارد طبيعية إضافية.

وعليه فإن التنمية الزراعية الأفقية بواسطة الاستصلاح هي الاتجاه الضروري الذي يجب أن تنتهجه الدول النامية.ومن جهة أخرى يعد الاستصلاح كمصدر تأمين الغذاء إذا لم تستحوذ أية قضية اقتصادية من القضايا التي تواجه بلادنا وبلدان العالم الثالث على الاهتمام مثل الذي استحوذت عليه قضية الأمن الغذائي.

هذا الاهتمام يعود إلى أن الأمن الغذائي في حالة من التراجع المستمر، وأن جذور التبعية الغذائية للعالم الخارجي تتأصل عاما بعد عام، ثم أن التبعية الغذائية إضافة إلى استنزافها المستمر والمتصاعد للموارد الاقتصادية تحمل في طياتها مخاطر التبعية السياسية، لأنه لا يمكن أن يكون لشعب جائع إرادة ذاتية.

إن هذا الوضع الغذائي في البلدان المختلفة هو نتاج النمط الحالي لتقسيم العمل الدولي في الزراعة، ووجود مساحات واسعة من الأراضي الصالحة للزراعة لازالت عاطلة عن الاستثمار، وتأخر فنون الإنتاج، وعدم فعالية الهياكل التنظيمية والإدارية إلى غير ذلك من العراقيل والصعاب.

وفي دراسة أجراها كولن كلاك يشير إلى أن الأراضي الصالحة للزراعة يمكنها بالمستوى الحالي للهندسة الزراعية أن توفر الغذاء لأكثر من 35 مليار نسمة، وأن مساحة الأراضي المزروعة في العالم –حسب تقرير الإحصائيين- لا يزيد عن 5،7 % فقط من مجموع الأراضي الزراعية [4].

وبالنسبة للاستصلاح والعمالة في الريف فإن القطاع الزراعي يستحوذ على الأغلبية الساحقة من السكان وتبلغ نسبة العاملين 2/ 3 وفي حالات تصل

إلى 4/ 5 للعاملين كما هو الحال في ساحل العاج وتايلندة ، بينما لا تتجاوز هذه النسبة 7% في الولايات المتحدة، بالرغم من ذلك يبقى الإنتاج منخفضا في هذه البلدان بسبب العلاقات الإنتاجية السائدة والوسائل التقليدية المستخدمة [5].

إن التزايد السكاني المرتفع والذي يدفع بجيوش من القادرين على العمل في مختلف القطاعات الاقتصادية الأخرى وخاصة الصناعة، والتي يمكن أن تمص الفائض وتقلل من الضغط على القطاع الزراعي، جعل الباب مغلقا أمام التزايد السكاني.

أمام هذا الوضع يصبح من الضروري حاجة الدول النامية ومنها الجزائر إلى التوسع في استخدام الموارد الأرضية باستغلال أكبر مساحة ممكنة من الأراضي الزراعية لمقابلة الزيادة السريعة للسكان وبجعل الزراعة قاعدة والصناعة قائدة.

وعلى صعيد الاستصلاح والدخل الوطني وانطلاقا من أن الزراعة هي القطاع الرئيسي في البناء الاقتصادي وبالتالي فهي تمثل عبء التنمية الاقتصادية، وتعتبر مشروعات استصلاح الأراضي من المشاريع التي تساهم بالقدر الأكبر في تنمية الطاقة الإنتاجية وتعمل على دعم ميزان المدفوعات بزيادة الطاقة التصديرية الزراعية.

إن تأثير الاستصلاح لا يتوقف على القطاع الزراعي بل يمتد إلى قطاعات أخرى صناعية وتجارية وخدماتية، مما يؤكد الدور الفعال لهذه المشاريع في زيادة الدخل الوطني وتنشيط الحركة الاقتصادية للبلاد.

3. بين استصلاح الأراضي والإصلاح الزراعي:

ليس من السهل صياغة تعريف جامع مانع للإصلاح الزراعي ومرد ذلك اختلاف كيفية النظر إلى الموضوع. فالمعنى المقبول هو إعادة توزيع الملكيات والحقوق في الأراضي لمنفعة صغار الفلاحين للعمال الزراعيين. وإلى جانب هذا المعنى هناك مفهوم آخر يبدو أكثر شمولية فهو إلى جانب ما تقدم يعني تحسين حقوق التصرف بالأرض والتنظيم الزراعي [6].

وهكذا نلاحظ أن هذا المفهوم يحاول أن يشمل كافة الإجراءات التي تتخذ لمساعدة المزارعين لتحسين ظروف الإنتاج والإرشاد. وفي هذا الاتجاه ذي الطابع الشمولي يعرف الإصلاح الزراعي أيضا بأنه: "مجموعة الإجراءات التشريعية والتنفيذية التي تقوم بها السلطات العامة لإحداث تغييرات إيجابية في الحقوق المتعلقة بالأرض الزراعية من حيث ملكيتها وحيازتها والتصرف بها.....والإصلاح الزراعي بهذا المعنى المحدد الأكثر شيوعا يركز على إصلاح نمط توزيع الأرض، أي على تحقيق العدالة وفتح الطريق أمام تحرير الفلاحين اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا .

وقد يتسع مفهوم الإصلاح الزراعي لا ليركز على تحقيق العدالة فقط وإنما على تحقيق النمو أيضا. فيشمل في هذه الحالة بعض الإجراءات الكفيلة بتنظيم العلاقات الزراعية بين ملاك الأراضي الزراعية ومستأجريها، وتدريب الفلاحين وإرشادهم وتنظيمهم في تعاونيات، وتطوير طرق زراعتهم ووسائلها، وتوفير القروض لهم ومساعدتهم في تسويق المنتجات الزراعية وإقامة وحدات إنتاجية زراعية على أسس جماعية متقدمة، وغير ذلك.[7]

إن استصلاح الأراضي _ أو ما يعرف باستيطان الأراضي _ يعد إصلاحا زراعيا وإن كان يختلف عن الإصلاح الزراعي لكونه لا يتطلب نزعا قسريا للملكية ولا تحديدا لها، وإنما يتم على أراضي تمتلكها الدولة أو على أراضي تشتريها من مالكيها، وما عدا ذلك فهو لا يختلف عن الإصلاح الزراعي من حيث تحسين حقوق التصرف بالأرض وإعادة تنظيم العلاقات في القطاع الزراعي مما يؤدي إلى زيادة الإنتاج وتحسين ظروفه.

وإذا نعتبر الاستصلاح إصلاحا زراعيا فإننا ننظر إلى الإصلاح بالمفهوم الواسع ولا نختزله إلى أبسط عناصره .وفي رأينا أن الحكم على استصلاح الأراضي الزراعية إصلاحا زراعيا حقيقيا يكمن في مدى ما تقدم تجارب استصلاح الأراضي من نفع لصغار الفلاحين والعمال الزراعيين وإلى أي مدى ساهمت تجارب الاستصلاح في رفع الإنتاج وتحسينه وتطوير العالم الريفي.

4. استصلاح الأراضي الزراعية في إطار التجربة الجزائرية:

عاش الفلاح الجزائري تجربة استصلاح الأراضي الزراعية منذ أن عرف الزراعة وحياة الاستقرار، ولأن النشاط الزراعي لا يعدو كونه تهيئة الأرض واستزراعها وهذه العمليات هي جوهر الاستصلاح.لكن تجربة الاستصلاح بهذا الحجم وبهذا الحماس الشعبي لم تعرفها الجزائر من قبل –حسب معلوماتي- لأن عمليات الاستصلاح كانت تتميز بأنها محدودة وبالتخطيط وإنجاز الدولة.

فخلال الفترة الاستعمارية بل إبان الثورة التحريرية الكبرى قامت الإدارة الاستعمارية بوضع برنامج الاستصلاح في إطار ما يسمى بإحياء الأرياف وضمن ما عرف ببرنامج قسنطينة (1958) ضم هذا المشروع 100.000 هكتارا من أراضي المستنقعات، إضافة إلى مشاريع أخرى ذات طابع اقتصادي واجتماعي، إلا أنه بالنظر إلى اعتبارات اجتماعية واقتصادية وسياسية فشل المشروع وبقي حبرا على ورق [8].

وغداة الاستقلال و بعد تأكيد وثيقة طرابلس (جوان 1962) على مسألة الاستصلاح حين مناقشة المسألة الزراعية لم تدخل العملية حيز التطبيق بصورة واسعة إلا ضمن المخطط الرباعي الأول (1970-1974) حيث وافق على خمس مناطق يتعهدها باستصلاح الأراضي وحفظها وهي: بني سليمان، التل الجنوبي، بني شقران، غريس، سرسو، جبال تيارت غرب الظهرة.

ولتدعيم مشاريع الاستصلاح هذه كانت قد أنشئت تسع محافظات خلال سنة 1969 لتتولى الإشراف على المناطق التالية:الشلف، بوناموسة، مغنية، العبادلة، عين السخونة، الحضنة، سطيف، تبسة، بني سليمان [9].والملاحظة أن عمليات الاستصلاح تكاد كلها ترتبط بإنشاء السدود مما جعلها تتأثر بضعف إنجاز هذه الأخيرة.

وهكذا فإن القطاع الفلاحي لم يكتسب خلال فترة 1967-1978 مثلا سوى 100.000ه ولم يسمح له هذا المكسب حتى من تعويض الأراضي الضائعة بفعل الزحف العمراني والصناعي على الأراضي الزراعية [10].

إلا أنه خلال ثمانينات القرن الماضي بدأ القيام مشاريع زراعية ضخمة بالجنوب تعتمد على تكنولوجيا حديثة وخبرات أجنبية وعلى مساحات شاسعة وهذا بدء بمنطقة ورقلة. وفي إطار الإصلاحات الفلاحية (1990_1999) تمت إعادة توجيه هذا البرنامج من حيث الأهداف و من حيث الشروط و طرق تنفيذه

حيث أصبح استصلاح الأراضي حول الواحات يتم في إطار برنامج الامتيازات الفلاحية أما الإصلاحات الكبرى أو الفلاحة المؤسساتية التي تتم بوسائل مادية و تقنيات كبرى، خصصت للاستثمارات الوطنية والأجنبية[11] .

5. الفلاحة الصحراوية ومكانتها:

أصبحت الفلاحة الصحراوية وتحديث أساليبها في ظل الظروف الاقتصادية الحالية لها أكثر من أهمية.فالصحراء في الجزائر تحتل 3/ 2 من المساحة الإجمالية للبلاد وتتوفر على أكبر خزان جوفي للمياه في العالم وينحصر هذا الخزان بين هضاب الطاسيلي جنوبا ومرتفعات الأطلس الصحراوي شمالا ويحده غربا واد الساورة ويمتد شرقا حتى مصر ويتراوح سمك الطبقة الحاملة للمياه ما بين 500 و 2.000م [12].

هذه الكميات المائية تجعل الإنتاج الزراعي ممكنا على مدار السنة ومع ذلك فإن مساحة الأرض الصالحة للزراعة لا تزيد عن 91.000هكتار (أي 1,3%) من مجموع الأراضي الفلاحية الصالحة للزراعة (أي 0,5%) من مجموع ولايات الوطن [13].

ظلت الزراعة التقليدية في الصحراء تشكل الطابع السائد وتتركز في الواحات وفي بطون الأودية، حيث يتوفر الماء وتستغل معظم هذه المساحات في زراعة النخيل والباقي في زراعة الخضر والفواكه.

وقد واجه هذا القطاع مصاعب عدة حالت دون تطوره، والمتمثلة خاصة في زحف الرمال على الأراضي الفلاحية وفي تملح التربة بفعل الإسراف في الري الانسيابي إضافة إلى المشاكل التي تواجه الفلاحة في الجزائر عموما كالنقص في التجهيزات، الزحف العمراني...إلخ.

إلا أنه في ثمانينات القرن الماضي بدأت الزراعة العصرية تعرف طريقها نحو الصحراء حيث مشروع قاسي الطويل (ورقلة) والذي يعتمد على اتساع المساحة واستخدام الطرق العلمية خاصة في المجال الري (الري بالرش المحوري، الري بالتقطير) وقد حقق هذا الإنجاز نتائج مشجعة. ومع نهاية التسعينيات اتسعت دائرة الاستثمار الواسع بتطبيق سياسة تقنية الامتياز.

والفلاحة الصحراوية ليست عملية سهلة بل هي صراع بين الإنسان والطبيعة وحرب على الصحراء، لذا فالإرادة الإنسانية وحدها لا تكفي بل لابد من التزويد بالمعرفة العلمية واستخدام التقنيات الخاصة إضافة إلى الإمكانيات المادية والمالية ليكون الإنسان في مستوى تحدي هذه الطبيعة القاسية. وفي هذا السياق يمكن أن ندرج تجربة استصلاح الأراضي الزراعية باعتبارها شكلا من أشكال التحدي وافتكاك الأرض من الصحراء، ثم هي ذات أهداف اقتصادية واجتماعية وسياسية.

إن أهمية الفلاحة الصحراوية لهي نتاج معطيات جغرافية، اقتصادية، اجتماعية وظروف داخلية وخارجية.فخصوصيات الصحراء المناخية والطبيعية من حرارة ومخزن من المياه الباطنية تؤهلها لأن تكون مصدر إنتاج مبكر ووفير، حين نضع في الاعتبار إحساس الفلاح بثقل الأزمة الاقتصادية العالمية واستخدام الغذاء كسلاح، والحقيقة أن الفرص متاحة لأن تحتل الفلاحة الصحراوية مكانتها، حيث يمكن استصلاح أكثر من 6 ملايين من الهكتارات بفضل التجربة الواسعة وتوفر الجزائر على مؤسسات ومعاهد قديرة مثل معهد تطوير المناطق القاحلة، ومعهد الفلاحة الصحراوية.

وأخيرا والأهم من هذا، ذلك الحماس الذي أبداه الفلاحون في استصلاح أراضي جديدة والعودة إلى الأرض وإعادة الاعتبار للفلاحة.

6. استصلاح الأراضي الزراعية في المناطق الصحراوية في إطار قانون الحيازة على الملكية العقارية:

جاء في الميثاق الوطني لسنة 1986- "إن الثروة الحقيقية في جنوب البلاد لا تكمن فقط فيما يدخره باطن الأرض من نفط وغاز بل وكذلك فيما سيفتح أمامها مستقبلا من آفاق للزراعة وبالتالي توطين الإنسان الذي يستطيع استصلاح الأراضي بفعل عمله ومهاراته وعبقريته"[14].

واستنادا إلى روح الميثاق الوطني أصدرت اللجنة المركزية لحزب جبهة التحرير الوطني في دورتها الثالثة 3-7 ماي 1980 قرارا يقضي ب "أن يصبح كل مواطن يصلح أرضا بوسائله الخاصة في المناطق الصحراوية مستفيدا منها طبقا للقانون" [15].وعلى ضوء ما سبق صدر قانون الحيازة على الملكية العقارية الفلاحية بواسطة الاستصلاح خلال صائفة 1983.

1.6 محتوى القانون وكيفيات تطبيقه:

لقد تعرضنا إلى مفهوم الاستصلاح _ سلفا _ وبقي أن نشير إلى أن مهمة الاستصلاح تخضع في شكلها ومضمونها إلى القانون رقم 83-18 المؤرخ في 04 ذي القعدة 1403 الموافق لــ: 13 غشت 1983 المتعلق بحيازة الملكية العقارية الفلاحية وكذا المراسيم والمناشير التطبيقية.أما محتوى القانون (فهو نقل ملكية عقارية زراعية إلى القائم (أو القائمين) بأعمال استصلاح مقابل دينار رمزي وفق إجراء وشروط محددة) [16].

وتنحصر مجالات التطبيق والأراضي التي يسمح باستصلاحها وحيازتها في الأراضي العمومية والواقعة في مناطق صحراوية أو ذات طبيعة مشابهة لها.وللحصول على الملكية العقارية في إطار هذا القانون يتطلب الأمر إعداد

برنامج خاص للاستصلاح وإنجازه في مدة أقصاها خمس سنوات مع إتباع إجراءات إدارية وقانونية محددة.

7. توسيع تجربة الاستصلاح: (تقنية الامتياز كأداة للاستصلاح)

إن الركود النسبي الذي عرفته عملية استصلاح الأراضي الزراعية و بهدف التوسع الأفقي للأراضي و أمام وعاء العقار الفلاحي أن فتحت الدولة المجال واسعا أمام المستثمرين في المجال الزراعي و تبنيت تقنية الامتياز كأداة للاستصلاح وفي هذا الإطار أصدرت السلطة المرسوم رقم 97 / 483 المؤرخ في 15/ 12/ 1997 محددا كيفيات منح الامتياز في القطع الأرضية التابعة لأملاك الدولة.

وقد جاء تعريفه " أنه عملية استثمار رامية إلى جعل طاقات الأملاك العقارية منتجة وإلى تنميتها، وهو تصرف تمنح الدولة بموجبه ولمدة معينة حق الانتفاع بأرض تابعة لأملاكها الوطنية الخاصة لكل شخص طبيعي أو معنوي في إطار الاستصلاح في المناطق الصحراوية والجبلية والسهبية [17].

و نظرا إلى أنه عملية استثمار ترمي إلى جعل طاقات الأملاك العقارية منتجة و إلى تثمينها و لأن العملية تتطلب إمكانيات مادية و مالية كبرى فقد التزمت الدولة بالمساهمة في الأشغال الكبرى الأساسية كاستخراج المياه والتزود بالطاقة الكهربائية و شق الطرق.

8. أهداف الاستصلاح ومراميه:

تواجه الجزائر كغيرها من بلدان العالم الثالث تهديدا خطيرا بسبب النقص في الغذاء والاعتماد على العالم الخارجي في الحصول على المواد الغذائية، مما ترتب عنه من ضغوطات سياسية واقتصادية، وقد أثبتت الدراسات أن هذا الوضع مرده تناقص إنتاجية الأرض وإهمالها وعدم استغلالها بالصورة المطلوبة.فالمساحة الزراعية الصالحة لا تزيد عن 7,5 مليون ه أي 0,30 ه لكل نسمة، وتمثل المناطق الزراعية ذات الإمكانية الملائمة 1/ 3 من مجموع المساحة الزراعية في حين لا

يغطي الري سوى 3 إلى4% من المساحة الزراعية. ونجاح الزراعة يتوقف على العناصر التالية: الأرض، المـاء، الإنسـان.

وبلادنا لا تخلو من هذه العناصر إلا أنها ظلت تفتقر إلى فعالية العنصر البشري، ومن ثم جاءت تجربة استصلاح الأراضي الزراعية وحيازة الملكية العقارية لتشجيع الإنسان المواطن على استصلاح واستغلال أقصى ما يمكن من الأراضي الزراعية، ولتبعث فيه روح المبادرة، لأن عملية الاستصلاح من أهم وأبرز العمليات التي تتداخل فيها العوامل الفنية بعد الاعتبارات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

1.8 تجربة الاستصلاح ودورها في زيادة الطاقة الإنتاجية:

كشفت مختلف الدراسات ذات العلاقة بتجارب الاستصلاح في الجزائر وخارجها أن أول الأهداف هو العمل على زيادة القدرة الإنتاجية لتوفير المواد الغذائية أو توفير المبالغ الكبرى التي تنفق على استيراد المواد الغذائية.فإذا كانت تجربة الاستصلاح في المراحل الأولى قد أفضت في عقدها الأول إلى استصلاح ما يزيد عن 88000 ألف هكتار وغرس ما يربو عن 22000 نخلة: [18].

إلا أن المساحات المستصلحة ظلت دائما ضئيلة بالنسبة للمساحات الممنوحة، لظهور عقبات اتجاه هذه التجربة والتي منها :[19]

- ✓ النقص المسجل في تعبئة الموارد المائية و الناجم عن ضعف الوسائل المادية و المالية.
- ✓ قلة القروض و ضعف استخدامها وعدم مرونة الجهاز المصرفي اتجاه المستصلحين.
- ✓ الاختيار العشوائي للأراضي المستصلحة ودون وجود دراسات تقنية اقتصادية لها.
- ✓ عدم توفير التجهيزات الخاصة بالفلاحة و الري بالصورة المطلوبة.

وبالنظر لتلك الظروف وفي محاولة لإعادة إنعاش التجربة بتقنية الامتياز فإن العملية تكون قد سمحت بتوسيع المساحة وتثمين الموارد الطبيعية وتطوير الاستثمار، وقد قدرت مساحة المرحلة الأولى الجاري انجازها ب 600000 هكتار .وهذا في المناطق الجنوبية وحدها [20] .

ولأن التجربة لم تقتصر على المناطق الصحراوية بل امتدت إلى المناطق الشمالية فقد كشف تقرير حول تقدم مشاريع الاستصلاح الفلاحي لسنة 2005 عن اعتماد برنامج على مراحل يخص بالأساس 12 منطقة:

منطقة الوسط وتشمل 32 مشروعا، على مساحة تصل إلى 26625 هكتارا، و3453 عملية امتياز، وحوالي 10 آلاف منصب عمل. أما المنطقة التي سجل بها أكبر عدد من المشاريع فهي منطقة الجلفة ، حيث يصل عدد مشاريع الاستصلاح إلى 91 مشروعا وبمساحة تقدر بـ 91910 هكتارات.

وتأتي بعدها منطقة ورقلة التي تتضمن 88 مشروعا ومساحة تقدر بـ15226 هكتارا، و11474 منصب عمل. وتصل المساحة الإجمالية الزراعية التي يرجي استرجاعها من خلال المشاريع التي يصل عددها إلى 676 مشروع إلى 693669 هكتار مع توفير 173629 هكتارا مع تخصيص غلاف مالي إجمالي يقدر بـ73,4 مليار دينار، أي ما يعادل 987,222 مليون دولار، منها 56,9 مليار دينار نصيب الدولة.

ويوضح التقرير الصادر عن الشركة العامة للامتياز الفلاحي أنه خلال الفترة الممتدة ما بين نهاية ديسمبر 2004 وديسمبر 2005 تم اعتماد تسعة مشاريع استصلاح على مساحة 1710هكتارات، مضيفا بأنه منذ الشروع في تطبيق برنامج الاستصلاح تم مباشرة برنامج يتضمن مساحة تصل 432750 هكتار منها 61202 هكتار من الأشجار المثمرة [21].

2.8 الاستصلاح والعمالة:

و لعل من أهم أهداف تجارب للاستصلاح توفير فرص جديدة للمواطنين ذلك أن عملية الاستصلاح الواسعة تحتاج إلى أعداد كبيرة من القوى العاملة سواء في مرحلة الاستصلاح أو في مراحل الاستزراع.

أن العنصر البشري سوف يظل دائما أهم الاستثمارات التي يعول عليها، و أن مميزات العمل في إطار الاستصلاح و الاستزراع تستلزم تنوعا في الطاقة البشرية تبعا للمراحل التي تمر بها عملية الاستصلاح كما أن حجم العمل يخضع لهذه المراحل و الاستثمارات المخصصة.

و حسب إحصائيات الديوان الوطني للإحصاء و في دراسة لتوزيع اليد العاملة بين القطاعات الاقتصادية أظهرت الأرقام انه على امتداد الفترة من 2001 إلى 2006 تراوحت حصة القطاع الزراعي مابين 17 % إلى 21 % من إجمالي اليد العاملة بالرغم من أن المقيمين بالأرياف هم في حدود 40 % [22] مما يعني أن العمل في المجال الزراعي ما يزال يعاني العزوف ولا يستهوي الباحثين عن العمل حتى من شباب الأرياف، و من ثم سوف يظل العالم الريفي يفتقر إلى اليد العاملة مدربة كانت أو غير مدربة.

وفي تقديرنا أن تجربة الاستصلاح سوف تفتح الباب واسعا أمام طالبي العمل و ستستقطب اهتمام شباب الأرياف للعمل في المزارع الجديدة سواء كمستصلحين مباشرين للنشاط أو كعمال أجراء.

وإذا ما حاولنا معرفة واقع العمل وبنيته وتطوره وفي العالم الريفي خاصة، وكيف هيمن العمل المأجور يتضح من البيانات المتاحة أن الإحصائيات الوطنية تشير إلى أن 59.8% من الذكور 66,7% من الإناث في 1966 كانوا يعملون بأجر وأن 0,5% من الذكور، 0,3% من الإناث من أصحاب العمل يستخدمون العمل المأجور [24].

وفي عام 1973 فإن الأرقام تشير إلى أن 54% من قوة العمل المستخدمين فعليا في الزراعة مكونة من عمال مأجورين ومندمجين في سوق قوة العمل وإن اختلفت مدة العمل والاستخدام.[25]

أما في سنة 1985 فقد كشفت إحصائيات العاملين في القطاع الخاص عن 39,4% من العمل المأجور إلى مجموعة القوى العاملة في الجزائر، (12,4%) من هذا الاستخدام بالنسبة لقوة العمل الزراعية في القطاع الخاص أيضا [26].

وخلال الفترة (2000_2005) بلغ عدد مناصب العمل التي أنشأها القطاع الفلاحي والريفي 395837 عملا دائما و558271 منصب عمل مؤقت كان نصيب عمليات الاستصلاح والأنشطة ذات الصلة 92922 عملا دائما و123461 عملا مؤقتا [27].

وفي دراسة تناولت تجربة الاستصلاح انتهت إلى أن بنية العمل في مزارع الاستصلاح هيمن عليها العمل الأجير والاستغلال المباشر أيضا [28].

جدول رقم (1) يوضح أشكال الاستغلال في مزارع الاستصلاح

أشكال الاستغلال	%
الاستغلال المباشر	78,75
المساعدة العائلية	55,00
المزارعة (المحاصصة)	10
الكراء	2,5
العمل الأجير	71,86

(المصدر: رشيد زوزو: الآثار الاجتماعية لاستصلاح الأراضي الزراعية، ص 107)

و إذ شكل الاستغلال المباشر والعمل المأجور ه – بشقيه الدائم و المؤقت – أهمية فلأنهما يعبران عن قوة عمل تعمل على التقليل من ظاهرة البطالة. و إذا ما وضعنا في الاعتبار تلك العلاقة الطردية بين مساحة الحيازة و عدد العاملين فإن الاستصلاح في مرحلته الثانية (تقنية الامتياز) يفتح المجال أما فرص عمل كبيرة و واسعة.

3.8 الاستصلاح و النزوح الريفي :

شكلت ظاهرة الهجرة الريفية الظاهرة الأكثر حضورا في العالم الريفي و من ثم ظلت هدف كل عملية تنموية و هدف كل عملية استصلاح.عاش الريف الجزائري هذه الظاهرة فاتخذت الدولة عدة إجراءات إزاءها و انتهجت عدة سياسات لعل أكثرها جرأة عملية استصلاح حيث دعت المواطن إلى استصلاح و استزراع الأراضي مقابل تملكها و إذا كانت هذه السياسة قد نجحت في توسيع الزراعة فإلى أي حد كان لها التأثير في استقرار الريف و عودة المهاجرين إليه، و للإجابة عن هذا التساؤل نستعرض هذا الجدول:

الحركات الهجرية جدول رقم (2)

الإقامة الحالية	مدينة	قرية	بادية	المجموع
الإقامة السابقة	مدينة	قرية	بادية	المجموع
مدينة	%38,13	%20,62	–	% 58,75

قرية	–	% 27,5		% 27,50
بادية	–	% 6,25	% 7,5	% 13,75
المجموع	%38,13	% 54,37	% 7,5	%100

المصدر: رشيد زوزو: الآثار الاجتماعية لاستصلاح الأراضي الزراعية ص 118

فقد كشف عن إسهام التجربة في استقرار الريف بنسبة 27.5 حالت دونهم و التفكير في الهجرة نحو المدينة، و إذا ما أضفنا نسبة العائدين إلى الريف (20.62%) تصبح هاتين النسبتين ذات دلالة، لأنه و أن استمرت الهجرة في هذا الاتجاه – بالنظر إلى اتساع دائرة الاستصلاح– فسوف يستعيد الريف بعضا من مواطنيه و قواه الإنتاجية الذين كان قد لفظهم نتيجة للهجرات التي عرفها المجتمع الجزائري منذ عشرات السنين[29].

4.8 الاستصلاح واستقرار البدو:

ارتبطت سياسة التوطين في الجزائر بالسياسات التنموية والبرامج الخاصة ولعل أبرز هذه السياسات وأكثرها تأثيرا تجربة الثورة الزراعية سيما المرحلة الثالثة منها، وهذا بهدف ترقية الإنسان وسكان البدو وإحداث نوع من الاستقرار في الحياة البدوية، إلا أن الواقع دفع بالبدو نحو المدينة لمشاكلها وصعوباتها فحتى القرى الرعوية التي أنجزت في هذا الإطار ولتكون عامل جذب لم يعد يسكنها سوى أناس لا ينتمون للفلاحة ولا للرعي [30].

ولذا فإن الحل يكمن في سياسة محكمة لاستقرار البدو في مراكز زراعية قريبة أو في مواطن الاستصلاح، ولتعد عملية الحيازة على الملكية العقارية الفلاحية بواسطة الاستصلاح أكبر حافز للاستقرار لتوفر عنصر التملك ولتميزها بطابع حرية اختيار مواقع الاستصلاح.

ولان عملية الاستصلاح في ربوع الصحراء وهي المرابع الشتوية جعلت العديد منهم ينخرط في العملية وبالتالي كان لها التأثير في حياتهم في حلهم وترحا لهم.

فطبيعة الحياة الجديدة والزراعات التي دخلت عالم البادية أدت إلى الحد من ترحال هؤلاء البدو وإلى التنقل الجزئي للعائلة بسبب الحفاظ على المزرعة وصيانة تجهيزاتها ومزروعاتها فظهر بذلك شكلا من أشكال التنقل. بينما تخلى أكثر من 54% _ من الذين مستهم الدراسة _ عن الترحال ليستقروا نهائيا في مواطن الاستصلاح [31].

خاتمة

والخلاصة أن الدارس للتنمية الريفية في الجزائر يسجل أن الفلاح الجزائري كان تاريخه الطويل تاريخ نضال وصراع من أجل الأرض، وكشفت الدراسات أنه خلال المرحلة الاستعمارية خضع لأشكال من الضغوطات استهدفت الاستحواذ على أرضه حتى عاش غريبا في وطنه خماسا على أرضه، فكان أن خاض أشكالا من النضالات.

وحتى بعد الاستقلال لم يلمس هذا الفلاح التغيير المنشود لأن السياسات التي انتهجت حالت دونه والأرض ودفعت به نحو المدن. فالتسيير الذاتي أفرغ من محتواه والثورة الزراعية ألقت في نفسه الخوف والتردد فلم تحفزاه على الارتباط بالأرض .

وفي سياق الإصلاحات لمعالجة هذا الواقع جاءت تجربة الاستصلاح لتعيد تلك العلاقة الحميمية بين الإنسان والأرض ولتزيل ذلك التردد الذي ظل يطبع عالم الزراعة، فقد كشفت الدراسات عن هذه العودة بذلك الاستثمار الواسع واستزراع الآلاف من الهكتارات وغرس الملايين من النخيل في ربوع الصحراء .

وإذ بدت تجربة الاستصلاح الشكل البارز في الإصلاحات فذلك لما أفرزته من آثار ونتائج وعلى أكثر من صعيد، فقد فتحت المجال واسعا أمام الاستثمار مما انعكس على مجالات العمالة بخلق فرص التشغيل وفي وقف نزيف الهجرة الريفية وفي توطين أعداد من البدو الرحل.

ولأن التجربة آثارها واسعة فقد كشفت عن ظواهر اجتماعية أخرى من ذلك انتقال مركز التأثير إلى الأرض وعاد سلطانها إلى الحركة الاجتماعية بعد أن فقت هذا المركز لعقدين من الزمن، ولعل من التأثيرات أيضا إذكاء الروح القبلية والعشائرية حيث عاد الاهتمام بأراضي العرش وعاد الصراع حولها على مستوى القبائل والأفراد.

هوامش البحث

(1) جبهة التحرير الوطني: **مقررات اللجنة المركزية**، مطبعة الثورة الإفريقية، الجزائر 1985، ص:347.

(2) عبد الوهاب مطر الداهري وآخرون: **تجارب استصلاح الأراضي الزراعية في الوطن العربي**، معهد البحوث والدراسات العربية بغداد 1984، ص:12.

(3) وزارة العمل: **التشريعات العقارية**. المؤسسة الوطنية للكاتب، الجزائر 1994، ص: 28

(4) فؤاد مرسي: **التخلف والتنمية**، دار الوحدة، بيروت 1988،

(5) طلال البابا: **قضايا التخلف والتنمية في العالم الثالث**، دار الطليعة بيروت 1986، ص: 42.

(6) دورين وريتر: **الإصلاح الزراعي بين المبدأ والتطبيق**. ت. خير الدين وآخرون، دار الطليعة بيروت 1975، ص: 17، 18.

(7) صالح وزان :ا **لإصلاح الزراعي** في: عمر جنينة ، مديحة بخوش : دور القطاع الزراعي في امتصاص البطالة (الملتقى الدولي : استراتيجية الحكومة في القضاء على البطالة وتحقيق التنمية المستدامة 15_16 نوفمبر 2011 بجامعة المسيلة.

(8) حسن بهلول: **القطاع التقليدي والتناقضات الهيكلية الزراعية**. ش. و. ن. ت. الجزائر 1976، ص: 271.

(9) وزارة الأخبار: **الجزائر 1965-1969**، فرنسا 1970، ص: 69.

(10) وزارة التخطيط والتهيئة العمرانية: **خلاصة الحصيلة الاقتصادية والاجتماعية للعشرية 67/ 78**، الجزائر 1980، ص: 61.

(11) بوبية نبيل :**السياسات الفلاحية**، الموقع https://sites.google.com/site/bouibia/agr.

(12) بودر عبد المجيد و كردوس صلاح الدين :استصلاح الأراضي الصحراوية في شمال الصحراء الكبرى، (مجلة منبر التنمية) تصدر عن اتحاد الاجتماعيين والاقتصاديين، ص: 18.

(13) ع . حقوقة: الفلاحة في الجنوب، مجلة المجاهد الأسبوعي، ع 1327، جانفي 1986، ص22

(14) ج. ت. و: **الميثاق الوطني 1986**، قطاع الثقافة والإعلام، الجزائر 1987، ص: 231.

(15) ج. ت. و: **النصوص الأساسية**، ج: 4، مطبعة بن بولعيد، الجزائر 1982، ص: 159.

(16) وزارة العدل: . **المادة 11 من القانون رقم 83/ 18 المتعلق بحيازة الملكية العقارية**

(17) عجة الجيلالي: **أزمة العقار الفلاحي ومقترحات تسويتها**،دار الخلدونية، الجزائر،2005، ص:273 .

(18) رحماني موسى : **وقفة تحليلية مع تجربة الزراعة الصحراوية**، مجلة العلوم الإنسانية العدد التجريبي أفريل 2001، جامعة محمد خيضر بسكرة، ص 114 -115

(19) المرجع نفسه، ص:115 .

(20) بويبية نبيل: مرجع سابق.

(21) دون اسم : التصر في الجزائر، الموقع :www startimes com faspx

(22) دردوري لحسن، بن عامر نبيل : **تشخيص لقوة العمل في الاقتصاد الجزائري** الملتقى الدولي : إستراتيجية الحكومة في القضاء على البطالة وتحقيق التنمية المستدامة 15_16 نوفمبر 2011 بجامعة المسيلة.

(23) عبد الباسط عبد المعطي وآخرون: **علم الاجتماع الاقتصادي**، دار المعرفة الجامعية 1987، ص: 240.

(25) عبد اللطيف بن أشنهو: **الهجرة الريفية في الجزائر**، ت: عبد الحميد الأتاسي، المؤسسة الوطنية للمطبعة التجارية، الجزائر (بدون تاريخ)، ص: 47.

(26) رشيد زوزو: **الأثار الاجتماعية لاستصلاح الأراضي الزراعية في المناطق الصحراوية**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة قسنطينة، 1995، ص 109.

(27) الوزارة المنتدبة المكلفة بالتنمية الريفية: التجديد الريفي، المطبعة الرسمية، الجزائر، 2006 ص61 .

(28) رشيد زوزو: مرجع سبق ذكره، ص 107.

(29) المرجع نفسه، ص 118.

(30) محمد السويدي : **مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري (تحليل سوسيولوجي لاهم مظاهر التغير في المجتمع الجزائري المعاصر**) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1990، ص 172.

(31) رشيد زوزو:مرجع سبق ذكره، ص 128.

التطويـر الحضـري والتنميـة المستدامـة في الجزائـر
(نحو رؤية واقعية لحاجات الحاضر و متطلبات المستقبل)

الدكتورة : سعاد عباس، جامعة الجزائر

الباحثة: صبرينة معاوية، جامعة، بسكرة

الملخص:

هدفت هذه الدراسة الى بحث العلاقة بين الدين والمجتمع وتبيان أهمية الدين في حياة الأفراد والجماعات. استعرض المقال في البداية المفاهيم السوسيولوجية للدين من وجهات نظرمختلفة كالتطورية، الماركسية، الوظيفية والفيبيرية، مبيناً أوجه التشابه والاختلاف بينها من حيث التعريف والمعالجة المنهجية. كما ناقش المقال أيضا العلاقة بين الدين والعلمانية في المجتمعات الغربية من جهة، وعلم اجتماع المعرفة من جهة ثانية، وخلص إلى القول بأن هناك عودة صريحة إلى الممارسات الدينية في تلك المجتمعات التى يعتقد البعض أنها وسيلة للتخلص من بعض الإفرازات السلبية لتطور الحضارة الغربية، خاصة فيما يتعلق بالمسائل الأخلاقية والانحرافات الاجتماعية التى بدأت تنخر جسم المجتمعات الغربية.

Résumé:

Ce sujet traite la question du développement urbain en Algérie. Ce dernier représente une vision réaliste des besoins présents et des exigences futures, il permet également de mettre en évidence les mécanismes adoptés pour promouvoir la politique urbaine, ainsi que les principales contraintes qui l'entravent. Enfin, le sujet fait le point sur les différents mécanismes et structures initiés par l'Etat algérien, en vue d'assurer un développement urbain durable.

مقدمة:

تعتبـر المدينة أرقى تنظيم اجتماعي حققـه الإنسان ، ذلك أن هذه الأخيرة كمـا يقـول " **هنري لوفيفر**" المدينة ليست مباني بل مجتمع مسقط على بقعة ارض " .غير أن السياسات الحضرية المتبعة في دول العالم الثالث اعتمدت على تعمير مدنها بوظائف و نظريات و تجارب و نظم كان أغلبها مستورد . إذ لم تنسجم و تتطور كما أراد الإنسان نتيجة التغيرات و التقلبات التي أفرزتها هذه التجارب على المجتمع، حيث تغير وجه المدن و تعمق شعور الإنسان بتناقضات لم يعدها، بعد أن عمت الحياة الحضرية مشاكل اجتماعية حضرية مست المجتمع في العمق.

ولم تنج المدن الجزائرية من تلك المشاكل منذ استقلالها نتيجة للتجارب التنموية التي ارتكزت على إستراتيجية التصنيع المحرك الأساسي لتنمية البلاد خاصة مدن الشمال مهملة بذلك باقي القطاعات ورقع من الإقليم كمدن الجنوب ، لتختنق مدنها فيما بعد بمشاكل شوهت البيئة الحضرية كالأحياء المتخلفة و التدهور البيئي.

و لعلاج هذه المشاكل عملت الدولة على إعادة التوازن بين القطاعات من الشمال و الجنوب التي طبقت عليها نفس السياسة الحضرية دون مراعاة خصوصية المدن الصحراوية، حيث آخذت منحى لا يتلائم مع احتياجات السكان و الموارد الطبيعية المتاحة .

و من هنا جاءت الحاجة إلى ضرورة تكيف المجال العمراني و تحسينه و ضرورة إدراج البعد البيئي في السياسات الحضرية و ذلك بوضع صيغ مناسبة للمستقبل الإنسان و ضرورة المحافظة على البيئة و سلامتها. حسب ما أقرته اللجنة العالمية للتنمية المستدامة في تقريرها الذي ينص على تلبية احتياجات الحاضر دون أن يؤدي ذلك إلى تدمير قدرة الأجيال المقبلة على تلبية احتياجاتها الخاصة . ووفقا لسياسة حضرية ذات رؤية واقعية لحاجات الحاضر و متطلبات المستقبل [1]، جاءت سياسة التطوير الحضري التي تعمل على تحسين و تجديد المجال العمراني و

تحسين نوعية الحياة في ظل متطلبات التنمية المستدامة. و مما سبق نحاول في هذه الورقة إلقاء الضوء على مسألة التطوير الحضري في الجزائر و أهم المعوقات التي تقف حاجز ا لتنفيذ سياسة التطوير الحضري المستدام مع تبيان أهم الهياكل و الميكانيزمات (الوطنية و المحلية) التي تسعى لتطبيق مبادئ التنمية المستدامة.

أولا : واقـع التطويـر الحضري المستـدام في الجزائـر:

عرفت الجزائر نموا حضريا هائلا نتج عنه عدة اختلالات و تحولات كان نتيجة تزايد الاحتياجات الاجتماعية و الاقتصادية و التي عرفت منحى تصاعديا و مستمرا نتيجة عاملي النمو الديمغرافي و الهجرة الريفية التي فرضت مطالب جديدة أدت إلى تعقيد و تشابك الأوضاع الحياتية [2].

و مع تنامي الصيحات و النداءات العالمية من خلال المؤتمرات و الندوات و الملتقيات (مؤتمر استكهولم 1972، مؤتمر ري دي جانيرو 1992، قمة جوهانسبورغ 2002) تعنى الجزائر كغيرها من دول العالم مراعاة كافة أبعاد التنمية المستدامة (الاجتماعية، الاقتصادية، البيئية...الخ) في عملية التطوير الحضري باعتبار هذا الأخير يقدم تنمية متوازنة مع البيئة ، تنمية تأخذ في اعتبارها ضرورة التخطيط البيئي الذي يساهم في تقليل الخسائر البيئية (الموارد الطبيعية) دون كبح الطموحات البشرية لتحسين أوضاعهم الاقتصادية و الاجتماعية و العمرانية ...الخ و ضرورة مقابلة حاجات الأفراد في الحاضر دون المساس بقدرة الأجيال المستقبلية [3].

و استخدام الموارد الطبيعية التي تتخذ من التوازن البيئي محورا ضابطا لها بهدف رفع مستوى المعيشة من جميع جوانبه مع تنظيم الموارد البيئية و العمل على تنميتها [4]. و تعمل الجزائر جاهدة على تنظيم و تسيير و تطوير المجال الحضري في إطار طرق مستدامة و بذلك يتم الاعتماد على سياسات التجديد الحضري (إعادة التطوير) وإعادة التأهيل و المحافظة على الأبنية التاريخية و الأثرية باستخدام

أدوات التهيئة العمرانية تتمثل في المخططات التي تساعد على تهيئة المجال وهذه الأخيرة عرفت عدة تغيرات وتحولات مست المجال الحضري في الجزائر.

1-1 مخطط العمـران الموجـــه :

استمر العمل بهذا المخطط إلى غاية 1990 حيث استبدل بوسيلة عمرانية أخرى، هذا المخطط كان يوضح المدن الكبرى و المتوسطة، يرسم حدودها و يضع بعين الاعتبار توسع النسيج العمراني مستقبلا على المدى المتوسط و يحدد استخدام الأرض مستقبلا حسب الاحتياجات الضرورية للتجمع السكاني فكان بمثابة أداة قانونية تنظم المجال داخل النسيج العمراني ليصبحوا بمثابة قانون عمراني بمجرد المصادقة عليه من طرف الوزارة الوصية.

2-1 مخطط العمـران المـؤقت :

انتهت صلاحيته في سنة 1990 وهو يشبه مخطط العمران الموجه من حيث أبعاد التهيئة العمرانية و أهدافها، إلا أن هذا الأخير خاص بالمراكز الحضرية الصغيرة أو شبه حضرية، بالإضافة إلى انه تميز بقصر المدة الزمنية المخصصة له، كما أنه لا يحتاج إلى مصادقة وزارية، فمصادقة الوصايا على المستوى المحلي (الولاية) كافية لهذا النوع من المخططات العمرانية المؤقتة [5] .

3- 1 مخطط التحـديث العمـراني:

وهو مخطط يلحق باعتماد مالي يخصص للمدن ، وبالأخص المدن الكبيرة والمتوسطة الحجم لغرض ترقية وتطوير مكتسباتها العمرانية العمومية كالطرق و الأرصفة والمساحات الخضراء و المتنزهات و الحدائق العمومية.

وبالرغم أن الاعتمادات المالية المخصصة لمخططات التحديث اقل أهمية عن باقي المخططات المحلية الأخرى، كالمخططات البلدية مثلا إلا أن الأهداف العمرانية التي وضعت من أجلها هذه المخططات مهمة في مجال صيانة التراث المعماري الذي أصبح معرضا للتدهور من جراء القدم في الأحياء العتيقة و مراكز

المدن زيادة على بعض الأحياء القديمة في المدن الكبرى مثل حي سيدي الهواري بوهران وحي القصبة بالجزائر العاصمة اللذين أصبحا معرضين للانهيار [6] .

4-1 المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير :

استبدل المخطط العمراني الموجه سنة 1990 بوسيلة أخرى مماثلة تعرف بالمخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير وهو يهتم بالتجمع الحضري داخل إطاره الطبيعي و البيئي، و يأخذ بعين الاعتبار الانسجام بين جميع المراكز الحضرية.و بعبارة أخرى يهتم بالجوانب المعمارية التوسعية للتجمع الحضري، فانه يرسم و يحدد آفاق توسعه و علاقاته الوسيطة مستقبلا، كجزء من الكل على المستوى الإقليمي، و كخلية عمرانية للنسيج الحضري و المعماري على المستوى الوطني. و من خلال الإطلاع على القانون رقم 90/ 29 المؤرخ في 01/ 12/ 1990 المتعلق بالتهيئة و التعمير، يمكن استخلاص الخطوط العريضة لهذا المخطط:

المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير هو وسيلة للتخطيط المجالي و التسيير الحضري يحدد التوجهات الأساسية للتهيئة والتعمير لبلدية واحدة أو عدة بلديات.

و يتكون المخطط التوجيهي للتهيئة و التعمير من تقرير تقني و خرائط و رسوم بيانية و يتنـــاول:

- ✓ دراسة تحليله للوضع السائد في الجهة (بلدية أو أكثر) مع دراسة تقديرية مستقبلية للجهة في المجال التنموي و الاقتصادي و الديمغرافي.
- ✓ مخطط تهيئة المعتمد و تعديلات من الدوافع و الأهداف المرسومة.
- ✓ تحديد المدة و المراحل الأساسية لانجاز هذا المخطط.

اما الخرائط و البيانات المرفقة مع التقرير فيجب أن توضح مايلي:

- ✓ الاستخدام الشامل للأرض حاضرا أو مستقبلا على مستوى الجهة المدروسة.
- ✓ تحديد مختلف المناطق القطاعية ووظائفها للمدينة، مع التركيز على مناطق التوسع العمراني .

- ✓ تحديد الأوساط و الفضاءات الشاغرة و الغابات من أجل حمايتها.
- ✓ تحديد مواقع المعالم التاريخية و الأثرية أو الطبيعية من اجل حمايتها و المحافظة عليها .
- ✓ تعيين مواقع أهم الأنشطة الاقتصادية و التجهيزات العمومية.
- ✓ التنظيم الشامل لشبكة النقل و المواصلات حاضرا أو مستقبلا.
- ✓ التنظيم الشامل لشبكة نقل الماء الشروب و تجهيزات تخزينه ومعالجته حاضرا و مستقبلا .
- ✓ التنظيم الشامل لشبكة تصريف المياه المبتذلة حاضرا و مستقبلا .

وحسب قانون التعمير الجزائري فان كل بلدية من التراب الوطني مجبرة بتغطية مجالها بمخطط للتهيئة والتعمير، يتم إعداد مشروعه بمبادرة من رئيس المجلس الشعبي البلدي .

5. مخطط شغـل الأرض POS:

مخطط شغل الأرض هو عبارة عن أداة عمرانية حسب قانون رقم 90/ 29 المؤرخ في 01/ 12/ 1990 و طبقا للقانون رقم 91/ 178 المؤرخ في 28/ 05/ 1991 و يحدد بالتفصيل حقوق استخدام الأراضي و البناء في إطار التوجيهات العامة للمخطط الرئيسي للتهيئة و التعمير للبلدية بمبادرة من رئيس المجلس الشعبي البلدي و يهدف إلى:

- ✓ يحـدد بصفة مفصلة بالنسبة للقطـاع أو القطاعات المعنية الشكل الحضـري لتنظيم حقوق البناء و استعمال الأرض و يضبط القواعد المختلفة للمظهـر الخارجي للبنايات.
- ✓ يعرف الكمية الدنيا و القصوى من البناء المسموح به و يعبر عنها بالمتر المربع.
- ✓ يحدد المساحات العمومية الخضراء، الأماكن المخصصة للأعمال الفنية و نمط مسار الحركة و الارتفاقات.
- ✓ يحدد الآثار الواجب حمايتها او تحديدها أو ترميمها.

فهذا المخطط هو مشروع عمراني يعد من عمليات الخاصة بالنسيج الحضري الموجود مثل التجديد، إعادة الهيكلة، التهيئة، كما يعد لإقامة مناطق عمرانية جديدة مثل المناطق السكنية، مناطق النشاطات، مناطق صناعية و غيرها.

و تتمثل أهم تدخلات هذا المخطط في :

1-5 إعادة الهيكلة العمرانية:

تشمل الأحياء القديمة التي لا تسجتيب للمطالب قصد تحسين الوظيفة العمومية من خلال هدم جزء للوحدات و إعادة تصفيف و تكميل شبكة الطرقات و القنوات المختلفة و التي تمول من طرف الملاك المستفيدين.

2-5 تقسيم المناطق المركزية :

و يخص بالذكر المناطق المجاور المركزية التي لا تلبي مستوى الخدمات المتوسطة قصد إضافة شبكة الطرقات و القنوات، و المعني بالأمر العمارات القديمة في طريق تحويل الأنشطة و إدخال وظائف جديدة مع المحافظة على النصب التذكارية و المناطق الواجب حمايتها و ترميمها .

3.5 إعـــادة التأهيـــل :

حيث يقوم بتجديد الأحياء التي تهيكل و يجرى تحديثها و تطويرها و تشمل كل من السكن الجماعي المتدهور و الطرق القديمة لتحسين ظروف السكن كما يشمل هذا النشاط الأنسجة ذات الطابع التاريخي و الثقافي.

4.5 إعادة تهيئة المجمعات الكبيرة :

الهدف منها هو تكملة برنامج التجهيزات و تحسين مفهوم الفراغات مع إضافة سكنات جديدة و دمج نشاطات متكاملة زمن ثمة تحسين الإطار المعيشي في الأحياء الجديدة و تشمل المناطق السكنية الجديدة و المجمعات الكبيرة المسطر عليها السكن الجماعي.

5.5 إعادة هيكلة منطقة النشاطات:

و تشمل الأنسجة الصناعية و نشاطات أخرى غير منظمة و غير مهيئة جزيئا و الهدف هو تحسين الوظيفة و تسيير المنطقة و استرجاع الأراضي الباقية.

6.5 تجديـد العمـــران:

و يحوي الأنسجة التي تشمل الوظائف غير المتماشية مع الموقع و المسكن المتدهور و الهدف من ذلك هو استرجاع الأراضي غير المستغلة، كما يجب تجسيد عمليات عمرانية جديدة عن طريق هدم العمران و إعادة تقسيم العقار و إعادة البناء.

7.5 امتصاص و القضاء على السكن الفوضوي:

و يشمل الحالات التي تستدعي الرعاية و المحافظة بهدف تحسين أوضاع التهيئة و ربط بشبكات الطرقات القنوات، المختلفة و إعادة تأهيل الإطار المبني و التدخل من خلال هدم و فتح الطرقات و انجاز القنوات المختلفة.

6. المناطق الصناعية :

وهي تكون جزءا مهما من النسيج العمراني في الجزائر و يشترط إعادة تكوين منطقة للنشاط الصناعي بالتجمعات ، تواجد خمس وحدات صناعية على الأقل قادرة على توفير الف منصب شغل صناعي او أكثر ... و المناطق الصناعية تدمج في المخططات العمرانية و تنسجم مع استخدام الأراضي المخصصة لمختلف الأنشطة الحالية والمستقبلية المنصوص عليها في مخطط شغل الأراضي.

7. التجزئـــة:

و تعتبر التجزئة وسيلة عمرانية تهدف إلى توفير السكن الحضري و المنسجم مع النسيج العمراني للمدن وتقوم البلديات أو الوكالات العقارية بتهيئة هذه السكنات و الإشراف على عملية إنجازها، و يتولى المستفيدين من الأراضي المقررة و المهيئة في التجزئة ببناء مساكنهم ذاتيا مع احترام شروط رخصة البناء

المسلمة من طرف مديرية التعمير و البناء و التي تحدد المظهر الخارجي للسكن و ارتفاعه و مقاييس الهندسة المعمارية في السكن، ورغم إسهام نمط التجزئة في توفير سكن فردي حضري في أنحاء البلاد إلا أن هذه الوسيلة تعرضت لانتقادات خاصة فيما يتعلق بالتأخير من طرف البلديات في توفير الهياكل القاعدية و كذلك غياب الوعي المعماري و الجمالي لدى أصحاب البيوت بسبب مخالفتهم للقوانين المتعلقة بالبناء [7].

8. **مناطق السكن الحضري الجديد :**

و هي عبارة عن تخصصات للسكن الفردي و التعاونية العقارية موجهة للمواطنين في إطار الاستثمار في إنتاج السكن تكفلت بها الدولة مع بداية انطلاق المخطط الرباعي الثاني (74-77) و بدأ العمل بهذه الوسيلة في الجزائر منذ 1975 بهدف التحكم في التوسع العمراني وقد عدد السكن النمجز بواسطة هذه الوسيلة الى غاية 1990 بحوالي مليون سكن جماعي على النمط العمودي عبر مختلف ولايات الجزائر .

9. المدن الجديدة :

تبنت الجزائر كغيرها من الدول النامية سياسة المدن الجديدة لمواجهة التحضر السريع خاصة عبر الشريط الساحلي و التل، فقد صادقت الحكومة على عدة مشاريع مدن جديدة تنشأ بالقرب من المدن الميتروبولية مثل مشاريع المدن الجديدة بالقرب من الجزائر العاصمة مثل الناصرية و العفرون و من الهضاب العليا كمشروع بوغزول .

ورغم ذلك فان الفكرة في داتها تحتاج الى استثمارات ضخمة لانجاز مثل هذه المشاريع لان مفهومها لا يقتضر على انشاء مراقد للبشر بقدر ما يشترط في مخططاتها ان توفر جميع الهياكل الاساسية و التجهيزات المختلفة للسكان.

أما بعد سنة 1990 فق تم الشروع في تطبيق إستراتيجية جديدة للسكن (1996- 2000) و التي تم في ضوئها إعلان انسحاب الدولة، و تخليها بشكل

رسمي عن أدوراها الكلاسيكية في الإشراف و الإنتاج و الرقابة ... و الاكتفاء بدور المنظم فقط، محدثة بذلك القطيعة مع التجربة الوطنية السابقة المتضمنة العمليات الثقيلة.بالتالي استوجب استحداث آليات و هيئات جديدة مؤساستية و تبني أنماط جديدة من البناء **تطوري – تساهمي**، و تنويع الشركاء الأجانب والمحليين و على صعيد المؤسسات و هياكل التسيير تم تأسيس عدة هيآت حديثة لم تكن موجودة من قبل مثل :

الصندوق الوطني للسكن **CNL**، الوكالة الوطنية لتحسين السكن و تطويره **ADAL**، و إعادة إدماج آخري قديمة مثل الصندوق الوطني للتوفير و الاحتياط **CNEP** ...

أما في الجانب التشريعي الحضري خطت الجزائر خطوة هامة، فبعدما كانت الأحكام الخاصة بتخطيط المدن والتعمير موزعة على عدد كبير من القوانين المتفرقة كقانون البلدية، أصبحت منذ بداية التسعينات تنحصر فقط في القانون الخاص بالتهيئة والتعمير سنة 1990.

ثانيـــا : معوقات التطويـــر الحضـري في الجزائر :

و بالرغم وضوح القرارات التشريعية إلا أننا نسجل جملة من عوائق كانت سبا في فشل التطوير الحضرى و خلق وضعية عمرانية بيئية معقدة و تتمثل في:

- ✓ عدم المشاركة المجتمع المدني خاصة الجمعيات ذات الطابع الاجتماعي و كل من له علاقة بالتحقيق من اجل وضع المخططات، حيث يعتبر دور الجمعيات فعال و ايجابي من اجل معرفة احتياجات السكان و نقل انشغالاتهم وخاصة سكان المناطق المتخلفة.
- ✓ يعتبر الجانب المادي كأهم عائق نظرا لتذبب المداخيل و ضعف الإيرادات وبالنظر إلى كثرة الانشغالات [8].

- ✓ غياب ثقافة التعمير و الجهل و الاعتبارات الشخصية و المنعة الذاتية و عدم الصراحة في محاربة مخالفات قواعد التهيئة والتعمير، بالإضافة إلى تفشي ظاهرة الاتكال و عدم تدخل الدولة المواطن في وضع المخططات أو عند إجراء اي إثراء لأي أداة عمرانية حتى و أن تدخل فانه يتدخل وفقا للمصلحة الشخصية.
- ✓ عملية مسح الأراضي وجردها لا توفي بالغرض الكافي من معرفة دقيقة لطبيعة الملكيات لإنشاء المشاريع المخططة و المسجلة ولم تساير تلك العملية القوانين الخاصة بقانون التوجيه العقاري وقانون أملاك الدولة و أخير ا قانون 29/90 .
- ✓ تحديد المساحات في مخططات شغل الأراضي POS لم تدرس بأهمية و عقلانية للاستهلاك الأمثل للعقار و مسيارة نمو السكان و احتياجاتهم الاجتماعية والاقتصادي، و هذا ما يؤدي إلى مراجعة العديد من المخططات المنجزة و إدراج العديد من المقترحات عليها، كما تعدت الكثير من الأخطاء متمثلة في برمجة الكثير من المرافق في مواقع غير مناسبة لها، وهذا إنما يكمن إرجاعه إلى سوء التسيير من المرافق في مواقع غير مناسبة لها، وهذا إنما يكمن إرجاعه إلى سوء التسيير من جهة و نقص التنسيق بين الجهات المعنية من جهة أخرى.
- ✓ عدم وجود مخطط حركة المرور، مخطط الخطوط الكهربائية، تصنيف الطرقات محليا ولائيا ضمن مخططات شغل الأرض (مجال التطوير الحضري).
- ✓ عدم الاهتمام بالمساحات الخضراء اللازمة في الدراسة أو المعالجة (في التخطيط العام) في مشاريع التطوير الحضري و عدم دراسة تنسيق المواقع الترفيهية، فالمساحات الخضراء لابد تصنيفها و اعتبارها كمرفق عمومي ضمن مخطط بيئي يحافظ على الموارد الطبيعية.
- ✓ غياب الوعي البيئي خاصة عدم احترام المساحات المخصصة للمساحات الخضراء، و كذلك تشوه المظهر الخارجي للمدن و كذلك غياب الحس الجمالي للمدن و هذا بسبب عدم الانسجام و التناسق بين المساكن المنجزة

وعدم احترام المقاييس المتفق عليها بين هيئة التعمير و البناء و الجهات المعنية بالبناء سواء القطاع الخاص أو القطاع العام، و هذا ما أدى إلى انتشار البناء العشوائي في مدننا الجزائرية.

- ✓ غياب الرقابة و المتابعة المعمارية في بعض الأحيان أثناء القيام بدراسات التطوير الحضري أو تنفيذها، حيث تتم العديد من المخالفات البناء من طرف المواطنين و هذا ما يؤدي إلى عكس ما خطط له، ففي الوقت الذي تكون فيه المصالح المعنية تقوم بالدراسة لمنطقة معينة يكون المواطنون قد باشروا بنائتهم في تلك المنطقة و هذا ما يعطل المخططات المنجزة و مدى فاعليتها.

و نخلص إلى أن عمليات التطوير الحضري كانت عبارة عن تدخلات ظرفية غير منسقة و هذا راجع إلى عدم تلائم الوسائل و التقنيات و سوء التسيير الذي لا يتناسب مع حركة العمران العصري و ذلك راجع إلا أن الحكومات الجزائرية متمسكة بالجانب السياسي فقط مما جعل المدن تسقط في الفوضي و التدهور العمراني البيئي و يصيبها الخلل في الأداء. فالسياسة العمرانية في الجزائر مازلت تفتقد إلى الخبرة و الفنية في معالجة قضايا التنمية الحضرية رغم بعض المحاولات للإصلاح .

ثالثا: الهياكـل والمكانيـزمات (الوطنية و المحلية) لتفعيـل التطوير الحضـري المستـدام في الجزائـر :

تكاتفت الجهود والمساعي من اجل إرساء قواعد التنمية المستدامة و ذلك بسن مجموعة من القوانين 1983/ 2003 ، بغية حماية البيئة والمحافظة عليها و إنشاء مؤسسات وطنية و هياكل محلية تسهر على حماية البيئة و أهمها مايلـــي :(9)

1. **المرصد الوطني للبيئة و التنمية المستدامة :** تم إنشاؤه في 03 افريل 2002 بموجب قرار تنفيذي رقم 02/ 115 و الذي كلف بالمهام التالية: وضع شبكات الرصد و قياس التلوث و دراسة الأوساط الطبيعية و بذلك جمع المعلومات البيئة على الصعيد العلمي التقني و الإحصائي و معالجتها و إعدادها و توزيعها،

وكذلك جمع المعطيات و المعلومات المتصلة بالبيئة والتنمية المستدامة لدى المؤسسات الوطنية والهيئات المختصة ثم نشر المعلومات البيئة و توزيعها.

2. **الوكالــة الوطنية للنفايـات** : أنشئت في **2003/05/20** بموجب قرار التنفيذي رقم 175/02 و تتمثل في تطوير نشاطات فرز النفايات و معالجتها و تنميتها و كذلك تقديم المساعدات للجماعات المحلية في ميدان تسيير النفايات، معالجة المعطيات الخاصة بالنفايات و تكوين بنك وطني للمعلومات حول النفايات.

3- **المركز الوطني لتكنولوجيات إنتاج أكثر نقاء** : أنشئ بموجب القرار التنفيذي رقم 262/02 و ابرز مهامه منها: تشيع المشاريع الاستثمارية في المجال التكنولوجي حول الإنتاج الأكثر نقاء و مساهمته في تطوير تقنيات تقليص و تثمين النفايات، صناعة الدعم التقني اللازم للشركات، تعميم مفهوم تطوير الإنتاج الأكثر نقاء.

4- **المعهد الوطني للتكوين البيئي** : و الذي انشئ بموجب قرار التنفيذي رقم 263 /02 و ابرز مهامه منها: توفير التكوين الخاص في مجال البيئة، تطوير النشاطات الخاصة لتكوين المكونين المساهمة في برامج التربية البيئة و تنظيمها و التحسيس بها، و انعاش برامج التربية البيئة.

- ✓ **الهياكل و المكانيزمات المحلية:** و التي تتمثـل في الجماعـات المحليـة (الولايـة والبلديــة):

1- **المجلس الشعبي الولائي:** يقوم المجلس الولائي بتطبيق العمليات التي ترمي إلى حماية البيئة عن طريق مايلي:

أ- مشاركته في تحديد مخطط التهيئة العمرانية و مراقبة تنفيذه.

ب- التنسيق على المجالس الشعبية البلدية في كل أعمال الوقاية الصحية و تشجيع إنشاء هياكل مرتبطة بمراقبة و حفظ الصحة والمواد الاستهلاك. حماية الغابات وتطوير الثروة الغابية والمجموعات النباتية الطبيعية وحماية الأراضي و استصلاحها و كذلك حماية الطبيعية.

ج – العمل تهيئة الحظائر الطبيعية الحيوانية و مراقبة الصيد البحري و مكافحة الانجراف و التصحر.

-الوالي: و تشمل أهم اختصاصاته:

– تسليم رخصة استغلال المنشئات المصنفة. وكذا رخصة انجاز المنشأة المتخصصة في معالجة النفايات المنزلية و ما شابهها.

– انجاز أشغال التهيئة و التطهير و تنقية المياه في حدود اقليم الولاية .

– اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة للوقاية من الكوارث الطبيعية. ضبط التدخلات والإسعافات في كل من الأخطار.

– تسليم رخصة البناء الخاصة بالبنات و المنشآت المنجزة لحاجة الدولة والولاية و هياكلها العمومية .

2. **رئيس المجلس الشعبي البلدي:** حيث تمثلت مهامه حسب المادة 75 من قانون 03/90 على مايلي:

– المحافظة على حسن النظام في جميع الأماكن العمومية التي تجري فيها تجمع الأشخاص.

– السهر على نظافة العمارات و سهولة السير في الشوارع و المساحات و الطرق العمومية.

– اتخاذ الاحتياطات و التدابير اللازمة لمكافحة الأمراض المعدية و الوقاية منها.

– السهر على نظافة المواد الاستهلاكية المعروضة للبيع.

– السهر على احترام المقاييس و التعليمات في مجال التعمير .

* **البلديــة:** و تتمثل اختصاصاتها حسب قانون البلدية 1990 فمايلي:

- ✓ معالجة المياه القذرة و النفايات الجامدة الحضرية.
- ✓ مكافحة التلوث و حماية البيئة.

- ✓ توسع و صيانة المساحات الخضراء و تحسين إطار الحياة .
- ✓ السهر على النقاوة و اتخاذ التدابير الإجراءات اللازمة لحفظ الصحة العمومية.
- ✓ إنشاء مخطط بلدي لتسيير النفايات المنزلية ووضع نظام لفرز النفايات المنزلية و ما شابهها بغرض تمثيلها وضع جهاز دائم للإعلام السكان و تحسسيهم بآثار النفايات المضرة بالصحة العمومية و البيئة و اتخاذ إجراءات تحفيزية بغرض تطوير نظام لفرز النفايات المنزلية.

3 . مديريـة البيئـة:

نشاطات الحفاظ على البيئة: و التي تتمثل في تنفيذ المحتوى التشريعي و التنظيمي المتعلق بحماية البيئة ، التنوع البيئي ...الخ.

تفعيل برنامج تسيير النفايات البلدية:

و ذلك بواسطة وضع مخطط لجمع و تسيير النفايات و تدعيم قدرات مصالح التنظيف لبلدية. وإنشاء مراكز تقنية لدفن النفايات.

نشاط المراقبة والحراســـة:

و تتشكل من عدة لجان وهي لجنة المنشآت المصنفة و لجنة استغلال الموارد الطبيعية و لجنة الأمراض المتنقلة عبر المياه. إضافة إلى تفعيل المرسوم بالنفايات و النشاطات الصحية و متابعة و معالجة المعطيات للموارد الخطرة [10] .

خاتمة :

و خلاصة القول أن سياسة التطوير الحضري في ضل التنمية المستدامة تعتبر من أهم السياسات في معالجة قضايا التنمية الحضرية. و تحقيق متطلبات و احتياجات المدينة من تطوير و ترقية للمناطق المتدهورة عمرانيا و كذا المحافظة على الأبنية التاريخية والأثرية. لذلك يستوجب دعم كل الأجهزة المكلفة بتطبيق وحماية البيئة وإشراك كل الفاعليين الاجتماعيين من منظمات المجتمع المدني ووسائل الإعلام و غيرها و تعزيز المعرفة البيئة [11] و نشر ثقافة تطوير المجال الحضري في اطر مستدامة لتحقيق العدالة الاجتماعية.

❖ **هـوامش البحث :**

(1) أحمد بوذراع، **التطوير الحضري و المناطق الحضرية المتخلفة في المدن**، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، 1997، ص 178.

(2) **دليمي عبد الحميد، دراسة في العمران – السكن و الإسكان** – مخبر الإنسان و المدينة، 2007، ص 25.

(3) دوجلاس موسيشيت، **مبادئ التنمية المستدامة**، ترجمة بهاء شاهين، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، مصر، 2000، ص 17.

(4) سعد طه علام، **التنمية و الدولة**، دار طيبة للنشر و التوزيع، القاهرة، مصر، 2003، ص 25 .

(5) بشير تجاني، **التحضر و التهيئة العمرانية في الجزائر**، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 2000 ، ص 65 .

(6) المرجع السابق، ص 66.

(7) المرجع السابق، ص 73.

(8) المجلس الشعبي البلدي لبلدية بسكرة، مجلة احداث بسكرة العدد الأول، 1999-2000 ص ص 12-14 .

(9) سفيان بن قري، **الآليات القانونية لحماية البيئة في الجزائر**، رسالة دكتوراه، معهد العلوم السياسية و العلاقات الدولية، جامعة ابو بكر بلقايد – تلمسان، الجزائر، جويلية 2007.

(10) وزارة تهيئة الاقليم والبيئة، تقرير حول حالة و مستقبل الجزائر، 2000، ص 04 .

(11) Dahmani Krimo- Moudjari Messaoud, **Praxis Habitat Social Revers et Couronnements** ,office Despublications Universitaires ,1Place Central-Ben Aknoun-Alger-02-2013 ,P193.

التثاقف: الاستراتيجيات والآثار

الأستاذ: لحسن العقون

جامعة بسكرة، الجزائر

الملخص:

التثاقف ظاهرة نفسية واجتماعية عامة، تزايد الاهتمام بها في السنوات الأخيرة نظرا لآثارها العنيفة التي باتت تهدد المجتمعات والأفراد فى هويتهم وفى توازنهم النفسى والاجتماعى، وهذا من خلال جعل الأفراد يعيشون ازدواجية ثقافية تتجاذبهم في ذلك الرغبة ببلوغ الحداثة والعصرنة مع قلق من فقدان الأصالة والتقاليد في ظل العولمة.

Résumé :

L'acculturation est un phénomène psychologique et social. Elle connait une grande importance ces dernières années en raison de ces effets qui menacent la stabilité psychologique, sociale et identitaire des individus. Elle a réussi à rendre la culture des individus duale et ambivalente, prise entre deux modes culturels différents.

مقدمة:

نتيجة للعولمة وعملية التبادلات الناتجة عن وسائل الاتصال ظهرت ظاهرة التلامس السوسيوثقافي التي لفتت أنظارنا نحو إشكالية الحركية الثقافية في زمن العولمة، لهذا فإننا عندما نتكلم عن العولمة فإننا نتكلم عن هذا التلامس والتلاقي بين الثقافات المختلفة سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، مما يجعلنا نقر أن معظم المجتمعات الإنسانية في العصر الحالي أصبحت مجتمعات **متعددة الثقافات** مع التسليم بفكرة أن كل جماعة تملك حق التفتح على الثقافات الأخرى.

هذه الوضعية، من التعدد والتداخل الثقافي أو بعبارة أخرى تداخل الحضارات، تجعل الفرد مستقبلا لأفكار وأنماط سلوكية كثيرة مما يوسع من إدراكاته للأشياء ويفرض عليه تطوير معارفه وتغيير أنظمة تفسير وإدراك العالم الخارجي، اعتمادا على التعدد والثراء الثقافي الذي يميزه، بحيث يجابه الفرد في هذه الوضعية منهجين ثقافيين مختلفين مما يجعله يعيش ثقافته بشكل تقاطعي تتجاذبه في ذلك متطلبات العصرنة وإغراءاتها والتي تتقاطع مع الحاجة إلى الحفاظ على العادات والتقاليد. هذا المعاش يبرز إلى السطح صراعات على مستوى المعايير السيكولوجية والقيم والرموز الثقافية والتي تدفع بالفرد إلى ولوج أولى الخطوات على طريق عملية التثاقف.

لذلك سنحاول من خلال هذا العمل التعرف على ظاهرة التثاقف من حيث حصر المفهوم من مختلف جوانبه ثم محاولة التعرف على خصائص هذه الظاهرة والاستراتيجيات المتبعة من طرف الفرد لتحقيق التوازن النفسي والاجتماعي في وضعيات التعدد الثقافي. وفي الأخير سنشير إلى القلق الذي يصاحب عملية التثاقف مع ما يخلفه من آثار إن على مستوى عمليات التكيف الاجتماعية أو على مستوى الصحة النفسية والجسدية لدى الأفراد.

الإشكالية:

يعد مصطلح التثاقف من المفاهيم الكبرى قي علم النفس والأنثربولوجيا وعلم الاجتماع، رغم أن استعماله الأول يعود إلى ثلاثينيات القرن الماضي فقط **(موسكوفيتش و لينتون** M. Herskovits, R. Linton,1936). فهو يعبر عن حالة وجدانية وذهنية تتميز بالتناقض بين المثل الاجتماعية والواقع الاجتماعي في مجتمع متعدد الثقافات، أي بين قيم المجتمع الكامنة التي تولد رغبات وطموحات لدى الفرد في حين تقف بيئته الاجتماعية عائقا أمام هذه الطموحات. هذا ما يخلق لديه صراعا داخليا بين متطلباته الداخلية وخارجيا مع العوائق الاجتماعية، فتظهر لديه حالة من عدم الرضا نتيجة عدم تلبية رغباته كالحاجة للتطور المعرفي والثقافي وإقامة علاقات اجتماعية مع الآخرين في مقابل الحاجة إلى تجذر ثابت مع تملك لهوية خاصة ومستقرة، فعدم تلبية هذه الحاجات يدفع بالفرد للبحث عن مصادر أخرى لإشباعها مما من شأنه أن يحدث لديه تثاقفا لصالح ثقافات أخرى.

مع ظهور العولمة والمعطيات الاجتماعية الجديدة التي فرضتها السياسات المتعاقبة والأزمات العالمية والتغيرات الاجتماعية السريعة، وكذا التفتح على العالم والغزو الثقافي عن طريق الفضائيات المقعرة وأجهزة الانترنت وما تبثه من مفاهيم وقيم لثقافات مختلفة ومتناقضة أحيانا فيما بينها، وهذا بكل حرية ودون ضبط، ترانا نتساءل عن الواقع الثقافي للفرد في مجتمع متعدد الثقافات ووضعيته من عملية التثاقف التي أخذت بعدا عالميا في ظل العولمة، ومن خلال ذلك الوقوف على مختلف الصراعات الناجمة عن هذه الوضعية التي تعيشها هذه المجتمعات ومدى قدرة الأفراد على التأقلم والتعايش مع تلك الصراعات خاصة المتعلقة بالجانب الثقافي.

ولقد جاءت هذه الدراسة لتجيب على التساؤلين التاليين:

- ما هي الاستراتيجيات التثاقفية التي يتبعها الفرد في وضعيات الاحتكاك والتلاقي الثقافي؟

-ما هي الآثار التي تخلفها عملية التثاقف على المستوى الفردي أو الجماعي؟

للإجابة على هذه التساؤلات نجد بالضرورة ما كان أن نتناول مفهوم مصطلح التثاقف بالتحليل وتحديد مختلف مفاهيمه باختلاف الخلفيات النظرية التي تدرسه، ومن ثمة التعريج على خصائص عملية التثاقف وميكانيزماتها التي تحدد إلى حد بعيد الاستراتيجيات التي يتبعها الفرد في تثاقفه وما تخلفه من آثار إن على المستوى الفردي أو الجماعي.

1. **تعريف التثاقف:**

1.1 **التثاقف لغة:**

إن الأصل اللاتيني لمفردة التثاقف(Acculturation)، مستمد من كلمة acculturer والتي تعني تمثل فريق بشري، كليا أو جزئيا، لفريق بشري آخر وتأقلمه مع ثقافة أجنبية متصل بها، أي بمعنى المثاقفة والانسلاخ الثقافي. كما تعني أيضا انتقال سمات ثقافية من حضارة إلى أخرى مع شعور ذاتي وواقعي بالنقص الثقافي، فالحرف a هنا ليس مانعا. هذه الكلمة ليست موجودة في الكثير من المعاجم الحديثة عكس كلمة **(deculturation)** التي ظهرت قبل ذلك في القواميس بمختلف اللغات [1] .

2.1 التثاقف اصطلاحا:

ظهر لأول مرة مصطلح التثاقف على يد الانثربولوجيين الأمريكيين الشماليين(1880) للدلالة على التغيرات في صورتها الثقافية في المجتمعات الحديثة، فالتثاقف كمفهوم مستقل تناوله العديد من الباحثين من مختلف الاتجاهات والخلفيات النظرية. لقد تناوله الانثربولوجيون من خلال الدراسات التي تناولت الأوضاع الثقافية عند الشعوب المستعمرة وهذا بالتركيز على التحليل الانثربولوجي لآثار المعتقدات والتقنيات الأوروبية والأمريكية على المجتمعات غير التابعة لها، حيث خلصت إلى أنه لا يوجد في الوقت الحاضر مجتمع أو فرد ما بمنأى عن تبعات التثاقف. بينما علماء الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي فينظرون إلى

هذا المصطلح على أنه عملية ديناميكية وعامل أساسي من عوامل صقل وتكوين الشخصية العصرية من خلال التفاعل والتواصل مع الآخر . أما بالنسبة لعلماء النفس الميداني والإكلينيكي فيركزون على الجانب السلبي لهذا المفهوم في صورة قلق التثاقف وأثره على مستوى الصحة النفسية والاجتماعية للأفراد والمجتمع.

هذا التعدد في التناول أثرى البحث في مفهوم التثاقف بالعديد من التعاريف:

* يعرف كل من موسكوفيتش ور لينتون وريدفيلد(M. Herskovits, R. 1936 Linton, et R. Redfield) التثاقف بأنه:" مجموعة الظواهر الناتجة عن التفاعل المباشر والمستمر بين مجموعتين من الأفراد ذوو ثقافات مختلفة ، الشيء الذي يؤدي إلى حدوث تغيرات على الأنماط الثقافية البدائية لأحدى المجموعتين أو لكليهما[2] .

* كما تعرفه منظمة اليونسكو(Unesco, 1980) على أنه: "عملية اكتساب وتحول، بدون الحكم على ذلك في ميزان الربح و الخسارة، في تكوين الشخصية الثقافية للفرد والجماعة نتيجة للاحتكاك مع ثقافة أجنبية"[3] .

* أما روجي باستيد (Roger Bastide 1971) فقد قدم التعريف التالي: " يشير التثاقف إلى مجموع الظواهر الناتجة عن الاحتكاك المستمر والمباشر بين جماعات وأفراد منتمين إلى ثقافات مختلفة وإلى التغيرات التي تبدوا آثارها على النماذج الثقافية الأصلية لهاته الجماعة أو تلك [4] .

ولقد ذهب إلى حد تقسيم التثاقف إلى نوعين:

- **التثاقف المادي**: والذي يمس محتوى الشعور النفسي ويقوم بتغييره، لكن يترك طريقة التفكير سليمة، مثال ذلك المهاجرين البالغين الذين يحافظون على طريقة تفكيرهم على الرغم من اكتسابهم لقيم ومعايير العمل والمجتمع للثقافة المستقبلة.

- **التثاقف العقلي:** يمس بطريقة لا شعورية طرق التفكير والإحساس ، وهذا حال الأطفال المهاجرين الذين اكتسبوا قيم ومعايير كلا الثقافتين في نفس الوقت، فنجدهم يعيشون ازدواجية ثقافية بحيث يستعملون القيم التقليدية في المنزل وفي المجتمع المحلي التقليدي، بينما يتمثلون بالقيم العصرية في المدرسة وحياتهم الاجتماعية.

المتمعن لهذه التعاريف يرى أن هناك إغفال للجانب السلبي لعملية التثاقف الذي يتمثل في حدوث حالة من التوتر واللاتوازن على مستوى الهوية الثقافية للفرد المتثاقف مع ضمور وضياع للذاكرة الجماعية للجماعات الاجتماعية التي تعتبر حجر الزاوية في استقرار الجماعة. هذا الجانب السلبي يمس الفرد في ثقافته الأصلية وحتى في شخصيته القاعدية، فهو في معظم الأحوال يستعمل بمفهوم الاستلاب أو التهميش الثقافي مما يجعله يتجاوز التعبير عن التغير إلى الاختلال والاضطراب، يؤكد ذلك شيخ آنت ديوب (Chikh, Ant DOIB 1980) بقوله: "إن التثاقف والاستلاب الثقافي بين الثقافات الأوربية نقصت حدته لأنه يحدث في نفس الحضارة تقريبا، عكس استلاب وتثاقف الفرد الإفريقي الذي يتواجد في نفس الوضعية"[5] .

يمس التثاقف معظم الميادين الثقافية كاللغة والدين والعمران والمؤسسات، كما قد يمس مناطق محددة أو حضارات أو أزمان كاملة. إن جميع هذه التعاريف لم تسلم من الانتقاد، ويعود ذلك إلى صعوبة تحديد زمان ومكان ظاهرة التثاقف بدقة والتحديد الزماني للمستوى صفر للتثاقف وكذا درجة تثاقف الفرد عبر الزمن، بالإضافة إلى الصعوبة البالغة في تحديد الأفراد المنسلخين من غير المنسلخين في مجتمع ما .

ولمزيد من الإحاطة بهذا المفهوم، سنربط بين التثاقف وبعض المفاهيم المتعلقة به، والتي يمكننا اعتبارها مفاتيح الولوج إلى فهم أعمق وأوضح لهذا المصطلح :

التثقيف أو التنشئة الثقافية: هي عملية سابقة لعملية التثاقف، والتي من خلالها يكتسب الفرد ثقافة مجتمعه الأصلية والتي تتعرض لاحقا بفعل التأثيرات الخارجية إلى عملية تثاقف، وتتميز عن عملية التثاقف حسب روجي باستيد (Roger 1971 Bastide): " كون التثاقف يمس الكبار الذين هذبوا من طرف آبائهم، ويخص أشخاصا سبق تثقيفهم مما يطرح مشاكل وصراعات على مستوى نفسية الفرد، لهذا فمن النادر أن تتوج هذه العملية باستيعاب تام وحقيقي للثقافة المفروضة"[6] .

➢ **تداخل وتفاعل الثقافات**: هذا التداخل والتدامج الثقافي يفرض عملية دينامكية ومستمرة بين رموز مختلف الثقافات المتنافسة في إطار ما يسمى بالتفاعل الثقافي، الذي أشار إليه نورالدين طوالبي عندما تطرق إلى التشابك المستمر والدينامكي بين ثقافتين مختلفتين ومتنافستين بحيث تتمكن تأثيراتهما المتبادلة من تحديد عملية التثاقف بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، كما يقترحه ر.كونيج (R.Conidj ,1972): "في هذه الوضعية يجابه الفرد من قبل منهجين ثقافيين متناقضين مما يجعل الفرد يعيش ثقافته بشكل تقاطعي تتجاذبه في ذلك متطلبات العصرنة وإغراءاتها والتي تتقاطع مع الحاجة إلى الحفاظ على العادات والتقاليد.

هذا المعاش يبرز إلى السطح صراعات على مستوى المعايير السيكولوجية والقيم والرموز الثقافية والتي تدفع بالفرد إلى ولوج أولى الخطوات على طريق عملية التثاقف"[7] .

➢ **الصراع** : يعود الفضل في توضيح المعنى الدينامكي لمفهوم الصراع في علم النفس إلى التحليل النفسي، حيث نجد أن المفهوم الفرويدي للصراع يفترض تلاقي قوتين أو تمثيلين غير متوافقين عند الشخص نفسه، أطلق عليها فرويد (1882 Freud,) في بدايات كتاباته تسمية " **الإرادة المعكوسة**" والتي تظهر كرغبة لا واعية ومكبوتة هي أساس الصراع داخل النفس. هذا المفهوم ينطبق إلى حد بعيد على الصراع الثقافي والقيمي لدى الأفراد المتثاقفين في الوضعيات البينثقافية.

التقاطب: يرتبط مفهوم الصراع في علم النفس بمفهوم التقاطب بشدة ، ويؤكد روسبلاف سبليني (1970) ذلك في دراسته للصراع أين نجده يشير إلى أنه: " لا وجود لصراع حقيقي لا يتضمن العمل على مفهوم التقاطب، إذ يبرز هذا الأخير على أنه داخلي في الفرد وهو مدعو أيضا أن يكون معاشا ومنجزا بين البشر". يضيف روجي باستيد (Roger Bastide1971) أن التقاطب: "بالكاد هو معاش الكائن الذي يتموضع في حدود ثقافتين و الذي يجابه فيه قيم عالمين، ويختبر على هذا الأساس صراع القيم الدائم والمقلق أحيانا في وضعية من التداخل الثقافي، والذي تحدده طبيعة التفاعل الثقافي الذي بواسطة التناقضات العديدة التي يدخلها في الحقل الاجتماعي والمعاش السيكولوجي للأفراد يعزز ما يمكن تسميته عند باستيد بـ"هامشية الوضع الثقافي".

هذا الوضع الهامشي يشير بشكل طبيعي جدا إلى الميول التقاطبية ويقود إلى أفعال وسلوكات قد تكون غير مفهومة دون معرفة وإحاطة حقيقية لمحدداتها النفسية والاجتماعية. فالتقاطب بهذا الشكل سواء كان على المستوى الفردي الإنساني أو الاجتماعي العالمي، يمثل البعد النفسي للجانب المخفي والمبهم لعملية التثاقف، فهو الذي يحدد الانتقال الغير محسوس للنفسي نحو الثقافي لتحديد، وبطريقة لا شعورية، ارتباطات الفرد مع ثقافته، أطلق الباحث نور الدين طوالبي (1885) على هذه الوضعية النفسية المميزة للمجتمعات المعاصرة الواقعة تحت طائل التغير الاجتماعي السريع اسم التقاطب الثقافي[8] .

تسمح لنا هذه التعاريف باستخلاص حقيقة أن عملية التثاقف هي بمثابة احتكاك بين جماعات ذات ثقافات متباينة، ومن خلال هذا الاحتكاك تتبادل العناصر الثقافية المنتمية لهذا الطرف أو ذلك التأثير فيما بينها مما قد يساهم في تحقيق نوع من الاندماج الاجتماعي، بينما تكون الصفة الصراعية ظاهرة في هذه العملية عندما تكون عملية الاندماج قائمة على الإكراه والضغط بمعنى ممارسة أحد الطرفين السلطة على الآخر، مما يؤدي إلى بروز آليات دفاعية لمواجهة خطر وضغط النسق الثقافي المهيمن والسائد.

2. خصائص عملية التثاقف

1.2 شروط حدوث التثاقف: تتحدد درجة واستراتيجيات التثاقف تبعا:

1.1.2 نوعية التفاعل:

أ . حسب العدد والامتداد: يشير وليام فوت وايت (William Foot Whyte 1943) في دراسة تحت عنوان "street corner society" إلى نتيجة مفادها أنه كلما كانت الجماعات غير متساوية في العدد كلما كان اختراق معايير الثقافة الغالبة لرموز الثقافة المغلوبة سهلا ومحطما لهذه الأخيرة.

ب. حسب التجانس: لقد توصل برينو صورا(Bruno Saura, 1988) من خلال دراسته لعملية التثاقف في حالة"Papao " في المجتمع الفرنسي(خليط من أربعة جماعات أثنية : جماعة "Maohi "،جماعة "Papao "، جماعة الصينيين وفي الأخير الجماعة الناتجة عن التفاعل بين الجماعات السابقة) إلى أن تثاقف أفراد جماعة الفرنسيين في تفاعلهم مع جماعة "Maohi " يبقى محدودا جدا بالمقارنة مع التثاقف لدى الصينيين أين نجد شعورا قويا بالانتماء، ويعود ذلك للتجانس بين أفراد الجماعة الصينية[9] .

ج. حسب درجة الانفتاح والانغلاق: توصلت العديد من الدراسات بأن التثاقف يتحدد في الكثير من الأحيان بطبيعة التبادلات الثقافية بين الفئات المتفاعلة وهذا تبعا لدرجة انفتاح أو انغلاق هذه المجتمعات على العالم الخارجي .

2.1.2 طبيعة التفاعل:

أ . حسب إمكانية الاختيار لدى الأفراد: تتغير طبيعة التفاعل الثقافي في الجماعة حسب المكانة الاجتماعية للفرد وكذا طبيعة التفاعل بين الثقافتين، يمكننا أن نحدد ثلاث أنواع من التفاعل بين الثقافات:

- التفاعل الحر: وهو حال التفاعل بدون قيود بين ثقافات مجتمعات مختلفة، ويظهر ذلك مثلا في أثر العولمة الثقافية على مختلف ثقافات دول العالم خاصة دول العالم الثالث.
- التفاعل المفروض والمسلط: وهذه هي حالة الشعوب المستعمرة ، وتتميز برفض لغة وديانة المستعمر وكذا نظامه الاجتماعي وتمثيلاته الثقافية والاجتماعية من خلال الالتفاف حول الثقافة الأصلية، مثال ذلك شعوب دول المغرب العربي أثناء المرحلة الاستعمارية.
- التفاعل الموجه أو المخطط : ويمثل عملية انسلاخية عن الثقافة الأصلية بطريقة عقلانية ومقننة، حسب خطة موجهة لتحقيق تثاقف محدد بإتباع مراحل مدروسة، مثال ذلك مشاريع مساعدة الشباب لتحقيق اندماج اجتماعي جيد في ظل عمليات العولمة الثقافية والاجتماعية.

ب . حسب نوعية التفاعل: نميز هنا نوعين من التفاعل هما:

- ✓ التفاعل المباشر: مثال ذلك حال المهاجرين المغاربة في فرنسا أو حالة الشعوب المستعمرة وحتى أثر السياح في البلدان المستقبلة يمكن اعتباره تفاعلا مباشرا.
- ✓ التفاعل غير المباشر: مع الثقافة الأجنبية، ويتم ذلك من خلال أثر الثقافة المنتشرة بقوة وسائل الإعلام السمعية والبصرية وبخاصة الانترنت والفضائيات، يتم هذا التفاعل بصورة واسعة في عصرنا الحالي نتيجة التطور الكبير للتكنولوجيا.

ج . حسب مدة التفاعل: نميز هنا نوعين من التفاعل هما:

- **التفاعل المستمر والممتد:** وهو التفاعل الأكثر دراسة في مجمل الدراسات الحديثة حول الموضوع، مثال ذلك التفاعل بين الثقافة الكولونيالية وثقافة الأهالي في البلدان المستعمرة سابقا، وكذا حال الضغط الرهيب لوسائل العولمة على الثقافات المحلية في عصرنا هذا.

التفاعل غير المستمر: مثال ذلك حال السياح والمبعوثين إلى مختلف بقاع العالم، وأحسن دليل على ذلك أثر هذه الحركات الإنسانية الثقافية من مجتمع إلى آخر في بروز آثار هذا التفاعل واضحة للعيان حتى بعد نهايته[10] .

2.2 ميكانيزمات حدوث التفاعل:

كيف تتم عملية التثاقف وما هي ميكانيزماتها؟ لماذا يحدث تقبل معيار ثقافي ما ويرفض آخر؟ هذه التساؤلات سنحاول الإجابة عنها بالاعتماد على دراسات تمت في هذا الموضوع، فعلى الرغم من تعقد هذه الظاهرة وتشعبها إلا أن الباحثة الفرنسية الكسندرين برامي (Alexandrine BRAMI,2000) حددت ميكانيزمات وقوعها في وحدتين هما:

1.2.2 رفض الثقافة الأجنبية: يشير جان بورابي (John BURABI, 1978) في كتابه "الاستلاب الثقافي وتعدد الثقافات" إلى أن فشل التنمية في العالم الثالث قد دفعت بمجتمعاته إلى البحث عن تعويض في مجال آخر من خلال محاولات تقوية إرادة استقلالها الثقافي مع رفض تام للعناصر الثقافية الدخيلة ورغبة عارمة للرجوع إلى الأصول، الشيء الذي أدى إلى ظهور ردود أفعال تعتمد على اللجوء إلى الأصالة كآلية دفاعية ضد التحديات الآتية من الخارج بهدف تأكيد الشخصية والهوية الثقافيتين[11] .

إن رفض الثقافة الأجنبية " ثقافة الآخر" يمكن أن تكون بسبب مجموعة من العوامل الموضوعية أو الذاتية، تحددها الكسندرين برامي (Alexandrine 2000 BRAMI,) في ثلاث مجموعات:

أ . الثقافة الأجنبية بعيدة كل البعد عن الثقافة الأصلية : مثال المقاومة الناتجة عن التباعد بين هاتين الثقافتين مقاومة الشعب الجزائري لسياسات التغريب الاستعمارية، يلخص الجنرال بيجو ذلك تعبيرا عن فشله في إخضاع الجزائريين:" كلما بالغت في الترشيد كلما تمسك الشعب بدينهم وتراثهم وكلما جوعناهم كلما ازدادوا إيمانا[12] .

ب. التثاقف قد يؤدي إلى تهديد الاستقرار الاجتماعي ومهدم له: هذا التهديد يمس بالدرجة الأولى الهوية الثقافية للجماعة من خلال ضياع المبادئ والأسس التي تقوم عليها عملية بناء الهوية لدى الأفراد، والتي تتكون لديهم في المراحل الأولى من حياتهم وتكوينهم النفسي والاجتماعي.

ج. الثقافة الأجنبية مهددة للتوازن النفسي: يشير وليام فوت وايت (William 1943 Foot Whyte) في كتابه "التركيبات الاجتماعية والحركية الاجتماعية" من خلال دراساته على الشباب الايطالي في بوسطن بأن الثقافة الأجنبية تمثل عامل من العوامل المهددة للتوازن النفسي للفرد، فهي خاصة إذا كانت ذات طابع مغري وتستجيب لأهواء الفرد، تولد لديه صراعا تقاطبيا وثقافيا بين الأخذ بمعايير هذه الثقافة أو التمسك بثقافته الأصلية[13].

كما أن مظاهر رفض الثقافة الأجنبية تختلف باختلاف الزمان والمكان الذي تتم فيه، وكذا حسب مكانة الفرد أو الجماعة المعرضة لخطر التثاقف، نذكر من هذه المظاهر:

- **العودة إلى التقاليد والسحر:** كعملية لا شعورية للتخفيف من آثار عملية التثاقف يتجه العديد من الأفراد إلى عملية إحياء بعض التقاليد والطقوس السحرية، مثال ذلك ما حدث في الجزائر بعد الاستقلال الوطني من خلال أعمال نورالدين طوالبي (1988) حيث يشير إلى أنه منذ الستينيات ظهرت في الجزائر حركية كبيرة في اتجاه إحياء المقدس في نوع من التخفيف من شدة الصراع النفسي الناتج عن المحاولات المستمرة للتثاقف في مظهر من المظاهر اللاواعية لرفض الثقافة الأجنبية[14].
- ظهور حركات عنيفة ضد التثاقف : يمكننا أن نسلط الضوء على الكثير من الحركات العنيفة في الجزائر والتي يمكن تفسيرها من خلال التناول الثقافي على أنها ردات فعل طبيعية لعملية التثاقف التي صبغت المجال الثقافي الجزائري لسنوات عديدة، وهي حالة الأفراد الجزائريين بعد

الاستقلال حين اتجهوا إلى إحياء الثقافة والهوية الوطنية من خلال التركيز على إحياء الممارسات الدينية بقوة وفرض اللغة العربية لغة رسمية وحيدة في البلاد...الخ، كرد فعل سريع وعنيف ضد السياسات التغريبية للمستعمر إبان الاستعمار، وبهذا المفهوم يمكننا أن نفسر التطرف الإسلامي في وقتنا الحاضر كرد فعل عنيف ضد التأثيرات الثقافية لحركة العولمة الثقافية.

2.2.2 ميكانيزمات التبادل الثقافي: تتم عملية التثاقف عموما بطريقة متدرجة في ظل مجموعة من الميكانيزمات التي نتناولها فيما يلي:

الاستيعاب والتمثل:(assimilation) يتمثل في اندثار كلي وتام للثقافة الأصلية لصالح الثقافة الوافدة ، وهذا من خلال اكتساب الفرد بطريقة كلية وتامة لمعايير ومعتقدات ثقافة أجنبية في مقابل تخليه الكلي عن معايير ثقافته الأصلية.

الازدواجية الثقافية:(la dualité culturelle) تشير إلى عملية نفسية واجتماعية تتميز بمعاش وضغط متواصل بين ثقافتين مختلفتين، يعيش أفراده ازدواجية تطبع على مستوى سلوكاتهم الاجتماعية ، فتجدهم يخضعون إلى قواعد ومعايير الثقافة السائدة عندما يتواجدون في جماعة يغلب عليها طابع الثقافة السائدة ثم يعودون إلى معايير وقواعد ثقافتهم الأصلية عندما يكونون في مجتمعهم وبيئتهم الأولى.

لقد أعطت راضية طوالبي (1979) أحسن مثال على هذه الازدواجية الثقافية في المجتمع الجزائري من خلال موظفة الإدارة العامة التي ما أن تعود إلى منزلها حتى يتوجب عليها الرجوع إلى الأدوار التقليدية للمرأة بينما تسلك سلوك امرأة متحررة في العمل وخارج المنزل في إطار ما أسمته " تعاقب السلوك" وهذا لتحقيق نوع من" التوفيق بين الثقافتين الحديثة والتقليدية"[15] .

الأثر الثقافي:(emprunt culturel) يعتمد هذا الميكانيزم بالأساس على مبدأ الاختيار أي إمكانية الفرد اكتساب معيار ثقافي ما من الثقافة الأجنبية مع حذف وإقصاءه لمعايير أخرى ، إذ أنه تقليد بسيط مع استيعاب وإعادة تفسير جزئي لهذا

المعيار إلى أن يصل به إلى درجة الانفصال الجزئي، والذي يشير إلى تثاقف محدود في مجال خاص.

إعادة التفسير:(reinterpretation) يركز هذا الميكانيزم على إعادة صياغة عناصر ومعايير من الثقافة الوافدة حسب أنماط الثقافة المحلية ، فهي العملية التي يتم من خلالها تغير معاني ومفاهيم معايير ثقافية تقليدية بواسطة قيام الفرد باستدخال معيار اجتماعي مختار من الثقافة السائدة ثم تكييفه على حسب المعايير التقليدية ونمط معيشة الأفراد في هذا المجتمع. نأخذ مثال على ذلك عمل المرأة، ففي المجتمعات الريفية تقوم المرأة بالعمل في الفلاحة والرعي، فيقوم الفرد هنا بإعادة تفسير هذا المعيار في صالح عمل المرأة في المجتمع الحضري انطلاقا من أن عمل المرأة حق مشروع ومستمد من الثقافة التقليدية.

3.2 الميزة الارتدادية الانعكاسية لعملية التثاقف:

تتم عملية التثاقف في اتجاه واحد لصالح الثقافة السائدة، أو في اتجاهين في عملية تبادل تفاعلي بين الثقافتين وهذا بحسب طبيعة ونوعية عملية التفاعل والمجموعات المتفاعلة و العوامل الخارجية المحيطة بهذا التفاعل:

-التثاقف في اتجاه واحد: ويتمثل في أثر الثقافة السائدة من خلال أفرادها الذين ينقلون صورة من صور التفوق والاستعلاء لهذه الثقافة على الثقافات المحلية، وهذا حال ثقافات الشعوب المستعمرة وحال المهاجرين في المجتمعات الأوروبية والأمريكية الشمالية .

-التثاقف في الاتجاهين التفاعلي": يحدث عموما في المجتمعات المتجاورة والمنفتحة على بعضها البعض في إطار سياسة التعايش بين الثقافات، وهذا حال الثقافات الأوروبية فيما بينها كالايطالية والفرنسية والانجليزية مثلا، فعند الحديث هنا عن اتجاه عملية التفاعل نتكلم على عملية تبادلية بحيث تكون إحدى الجماعتين مأثرة من خلال معيار ما، تم تتحول إلى جماعة متأثرة من خلال معيار آخر[16] .

إن ظاهرة التثاقف، من خلال خصائصها، أصبحت ظاهرة عالمية تمس مختلف الشعوب والمجتمعات في مكون أساسي من دعائم تماسك وهوية هذه المجتمعات وأفرادها ألا وهي ثقافتها، لذلك تجدنا نتساءل حول ردة فعل والاستراتيجيات التي يتبعها أفراد هذه المجتمعات في مقابل هذه الظاهرة. فما هي هذه الاستراتيجيات؟

3. استراتيجيات التثاقف:

انطلاقا من الأبحاث ما بين الثقافات، نجد أن سلوكات وردود أفعال الفرد تجاه نفس وضعيات التلامس والتفاعل الثقافي ليست نفسها في المجتمع المحلي وحتى في المجتمع الخارجي، تكلم جون بيري (J-W. Berry,1986) أستاذ علم النفس جامعة **أوتاريو** في كندا عن نظرية الأنماط التثاقفية التي تظهر لدى الأفراد المتثاقفين ، تقوم هذه النظرية على رفض الاتجاه الذي يعتبر الهوية هدف محتم وأساسي، والتأكيد على الميزة الدينامية لعملية بناء الهوية مع تحديد الذات في مقابل التغير الثقافي الذي يمس المجتمع الأصلي تحت تأثير التلامس مع ثقافات أخرى. كما اعتمد بيري في نظريته على مبدأ اختيار الفرد لإستراتيجية التثاقف الذي تساعده على تحقيق التوازن والتكيف، فهو بهذا يعتبر أن الفرد مشارك في عملية التثاقف التي تمس مجتمعه المحلي وهو حر في اختيار أحد النموذجين الثقافيين الذي يراه مناسبا لطموحاته سواء على المستوى الشخصي أو الاجتماعي.

في عرضه لمشروعه النظري، بدأ بيري بتحديد مفهوم التثاقف والجماعات المتثاقفة، ثم أشار بعد ذلك إلى أن الأفراد الواقعين تحت ضغط التفاعل بين الثقافات يظهرون تغيرات على المستوى النفسي في ظل الارتباط المتين بين المظهرين النفسي والثقافي أين نجد أن الثقافة تمثل روح الجانب النفسي والنفس تدعم الجانب الثقافي .

قبل أن يشير بيري(J-W. Berry) إلى استراتيجيات التثاقف عند الفرد، أشار إلى الجماعات المتثاقفة انتقادا منه للدراسات التي تتناول التثاقف على جماعة واحدة

، أهم هذه الجماعات التي تناولها بالدراسة والتي حددها حسب ثلاث أبعاد أساسية " الحركية الاجتماعية، الإرادة في عملية التثاقف، استمرارية التلامس" موضحة في الجدول التالي:

الجدول رقم (1): يمثل تصنيف الجماعات المتثاقفة عند بيري:

الحركية	إرادية	لاإرادية
المستقرين	المجموعات العرقية	السكان الأصليين
المهاجرين	المهاجرين نهائيا أو مؤقتا	المنفيين واللاجئين

استعمل بيري (J-W. Berry,1996) مفهوم استراتيجيات التثاقف لدراسة كيفية تحقيق الفرد للتكيف مع تعدد الثقافات في مجتمع ما، يقول بيري أن اختيار إستراتيجية الهوية يتم بالإجابة عن سؤالين أساسيين يطرحان على الفرد الذي يعيش في مجتمع متعدد الثقافات:

- ✓ هل من المهم الحفاظ على الثقافة والهوية الأصلية ؟
- ✓ هل من المهم البحث عن ربط علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية مع الجماعات الأخرى والمشاركة معهم في الحياة الاجتماعية ؟ إن هذين السؤالين والإجابة عنهما تسمح لنا باستخراج أربعة استراتيجيات تثاقفية يوضحها بيري في الجدول الآتي:

الجدول رقم (02) : يحدد أنماط واستراتيجيات التثاقف عند بيري[17]

		هل من المهم الحفاظ على الهوية الثقافية الأصلية ؟	
		نعم	لا
هل من المهم البحث عن ربط علاقات اجتماعية مع الجماعات الأخرى ؟	نعم	الاندماج	الاستيعاب والتشابه
	لا	الانفصال	التهميش

تتم عملية التثاقف عبر أربعة مراحل يحددها بيري (J-W. Berry) كما يلي هي:

- ✓ مرحلة الالتقاء والتفاعل
- ✓ مرحلة الصراع
- ✓ مرحلة الأزمات
- ✓ مرحلة التكيف: هي النتيجة النهائية لأحدى استراتيجيات التثاقف عند بيري التالية:

– الاندماج :يرى بيري (J-W. Berry1992) أن الاندماج يعني أن الفرد يعمل على الحفاظ على خصائصه الثقافية وهويته الشخصية الأصلية المتمثلة في (اللغة والديانة والعادات والتقاليد والعرف والأعياد...) مع اكتساب بعض القيم الحديثة لإشباع حاجات ومتطلبات التحديث والعصرنة والاقتصاد. فهو يمثل الجانب الايجابي في عملية التثاقف لأننا نلمس الحفاظ على الثقافة المحلية وظهور ارتباط وثيق مع بعض خصائص الثقافة الأجنبية.

– **الاستيعاب والتمثل**: في حين يرى أن نمط الاستيعاب والتشابه يعني تخلي الفرد عن هويته الثقافية المحلية لصالح الهوية والثقافة الأجنبية مع تشبعه بالكثير من قيمها ومعاييرها.

– **الانفصال**: يعني محاولة الفرد قطع الطريق عن أي محاولات ربط علاقات مع الثقافة السائدة في المجتمع رغبة منه في الحفاظ على ثقافته المحلية في عملية مضادة للتثاقف. في هذه الاستراتيجية أشار بيري إلى عملية التمييز وهي الوضعية التي ترفض فيها الجماعة المستقبلة اندماج أفراد الجماعة الوافدة، وتفرض عليهم نوعا من العزل الاجتماعي مما يشجعهم على الالتفاف حول ثقافتهم المحلية في عملية دفاعية بحثا عن تحقيق المكانة الاجتماعية في هذه المجتمع، هذا ما يساعدهم على الحفاظ على ثقافتهم الأصلية.

– **التهميش**: هي ردة فعل الأفراد عندما يضيعون هويتهم الثقافية قبل أن يحققوا اندماجا كليا في ثقافة المجتمع السائدة، في الغالب قد يكون سبب ذلك التميز العنصري الذي يمارسه أفراد المجتمع السائد على هذه الجاليات[18].

إن اختيار الفرد لإستراتيجية تثاقف واحدة من هذه الاستراتيجيات يعود حسب بيري (J-W. Berry1992) إلى وجود العديد من العوامل المحددة لكل إستراتيجية، نذكر على سبيل المثال: خصائص المجتمع الأصلي على المستوى السياسي والاقتصادي والديموغرافي، والخصائص الشخصية للأفراد الوافدين (أسباب هجرتهم، مستواهم التعليمي وطموحاتهم وموقفهم المبدئي من الثقافة المستقبلة). بالإضافة إلى الاتجاهات السائدة في المجتمع المستقبل وتكوينه الاجتماعي والإيديولوجي لها دور كبير في تحديد صيرورة حدوث عملية تثاقف الأفراد وخلق محيط محفز للاندماج للأفراد المتثاقفين.

إن هذه الاستراتيجيات (التي هي غالبا عمليات نفسية لاشعورية) تهدف إلى الحفاظ على التوازن النفسي والتكيف الاجتماعي للأفراد خاصة وأن عملية التثاقف تهدد الأفراد في هويتهم النفسية وتماسكهم الاجتماعي من خلال

التشكيك في ثقافتهم ومدى قدرتها على الحفاظ على ترابطهم الاجتماعي وتلبية حاجاتهم الثقافية المتزايدة في ظل العولمة. غالبا ما يصاحب هذه الاستراتيجيات ضغط وتوتر نابع من الازدواجية الثقافية التي يعيشها الفرد في مجتمعه مع صراع الاختيار بين ما هو محلي موروث وما هو أجنبي معاصر، هذا التوتر والضغط يصطلح عليه اسم قلق التثاقف الذي يمثل الأثر المباشر لعملية التثاقف على المستوى الشخصي للأفراد. فما هو قلق التثاقف؟ وما هي الآثار التي تخلفها عملية التثاقف على الأفراد والمجتمعات؟

4. قلق التثاقف:

يعرفه يو جاكسون (Yo Jackson, 2006) على أنه: " القلق الذي يصاحب الفرد الذي يتعرض لعملية تثاقف وانسلاخ ثقافي مع تخليه عن بعض معاييره الثقافية الأصلية لصالح معايير الثقافة الأجنبية السائدة" ، ويضيف على أنه:" ضغط وتوتر سلبي مرتبط مباشرة بالصراعات والأزمات التي تظهر على مستوى الهوية الثقافية والقيم والأعراف والمعايير والممارسات الموروثة والأنماط المعيشية، واستمرار هذا القلق طوال الوقت لدى الأفراد يؤدي إلى مجموعة من الأعراض المرضية كالاكتئاب والحصر"[(19)] .

يعرفه بيري (J-W. Berry،1992)على أنه: "عبارة عن حالة استثارة فيزيولوجية للعضوية تتعلق ردات الفعل فيها بالظروف المحيطة بالفرد للتوصل إلى حالات تكيف كاملة مع الوضعية الاجتماعية السائدة ، يتبع هذا القلق التثاقفي عموما بمشاكل في الصحة النفسية والعقلية للأفراد في شكل حصر دائم واكتئاب وأزمات في الهوية واضطرابات في السلوك مع شعور الفرد بالتهميش والاستلاب"، ويضيف أن هذا القلق هو مظهر مصاحب لعملية التثاقف لكنه ليس بالضرورة حتمي الحدوث إذ يتعلق ظهوره بمجموعة من العناصر التي تتحكم في مختلف مراحل هذه العملية وهي: (خصائص المجتمع السائد، خصائص الجماعات المتثاقفة، إستراتيجية التثاقف المتبعة من طرف الفرد، الوضعية السوسيوديمغرافية للفرد المتثاقف، الخصائص الشخصية للفرد).

في بداية الأمر لاحظ بيري (J-W. Berry) أن المفاهيم الثلاثة: التثاقف، مسببات القلق ، وقلق التثاقف مرتبطة ببعضها البعض ارتباطا أحادي الاتجاه، حيث يقول :" في السابق كنا نعتقد أن خبرة التثاقف هي حتميا منبع مسبب للقلق وأن هذا القلق هو المنبع الأساسي لقلق التثاقف". لكن، ومن خلال دراسة قام بها عام (1987)، لاحظ أن الروابط بين هذه المفاهيم الثلاثة تتأثر بالعوامل السابقة الذكر، فإذا كان تأثير هذه العوامل ايجابي فإننا سنقف على عملية تثاقف واسعة الانتشار بينما إذا كان تأثيرها سلبي فان الاتجاه إلى التثاقف يصاحب بدرجات عالية من القلق والحصر.يوضح هذه الفكرة في الجدول التالي[20] :

الجدول رقم (03):العلاقة بين درجة التثاقف وقلق التثاقف و العوامل المحيطة بالفرد.

درجة التثاقف	مسببات القلق (العوامل المحيطة)	قلق التثاقف
درجة عالية	الكثير من العوامل المسببة للقلق	درجة عالية من القلق
درجة منخفضة	القليل من العوامل المسببة للقلق	درجة منخفضة من القلق

إن أهمية نظرية بيري تكمن في توضيحه أن التغيرات التي تصاحب عملية التثاقف ليست فيزيائية فقط كتغيير المحيط والمسكن والبلد، ولكنها تتعدى ذلك إلى الجانب البيولوجي في شكل برامج غذائية وسياسات صحة جديدة، والسياسي كضياع الاستقلالية و الاقتصادي في شكل المكانة الاجتماعية والعمل والأجر، وأخيرا في شكل تغيرات ثقافية واجتماعية كاللغة والديانة والتربية، لأن الفرد يدخل في علاقات جديدة مع الأفراد والجماعات المكونة لمجتمعه الجديد. وأكثر من ذلك عندما نجده يركز في معظم أعماله على دور الفرد في تحديد إستراتيجية

التثاقف التي يعتمدها بحيث أكد على أن الفرد عامل ايجابي في عملية التثاقف لأنه هو من يقرر الطريقة والإستراتيجية التي بها يتثاقف وينسلخ عن ثقافته . وكنقد لهذه النظرية نجد أن بيري اختصر عملية التثاقف في شكل سلوكات واتجاهات على الرغم من أن الحقيقة الاجتماعية تبين أنها عملية معقدة تشمل الكثير من الأبعاد السياسية والاجتماعية والتاريخية والتربوية والنفسية. كما أنه على الرغم من الدور الايجابي الذي أعطاه للفرد في اختيار إستراتيجية التثاقف التي يحبذها إلا أنه لم يتناول بالتدقيق أثر الاتصال بين الثقافات على المستوى النفسي للفرد، بمعنى على مستوى الهوية، فبيري(J-W. Berry) لم يتعرض إلى عمليات المد والجزر التي تحدث للفرد في محاولاته تحقيق التوازن على مستوى هويته وهذا قبل أن يقع اختياره على إستراتيجية التثاقف التي تناسبه.

5.آثار عملية التثاقف

نهدف في هذا العمل إلى تحديد آثار عملية التثاقف على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي في المجتمع الكلي، فمن خلال تركيزنا الناقد على مختلف الآراء حول الآثار البناءة والهدامة للتثاقف نستطيع تكوين رؤية كاملة وصحيحة حول هذه الظاهرة وآثارها:

1.5 على المستوى الفردي: للتثاقف آثار عديدة على المستوى الفردي، فهو يلعب دور البناء للهوية الفردية والمهدد لتوازنها في نفس الوقت:

- **الآثار البناءة للتثاقف**: إن عملية التثاقف تفتح مجال اختيار كبير للأفراد على أنماط الحياة والعمل وعلى المكانة الاجتماعية والقيم التعليمية بهدف إعادة التكوين الاجتماعي للفرد على مفاهيم الثقافة الجديدة. يشير بيرنو صورا (Bruno Saura, 1988) في أعماله على المجتمع الصيني في تاهيتي إلى هذا الأثر الايجابي للتثاقف الذي يساهم في تحرير الفرد من التعقيدات التقليدية. كما يمكن أن تشجع عملية التثاقف على التمكن من تجاوز العوائق البيئية، فالأفراد الذين

حققوا الاندماج في ثقافة المجتمع المستقبل بالتشرب بقيمه وبثقافته نجدهم بعيدين كل البعد عن التوتر النفسي وعن اختلال التنظيم الداخلي.

- **الآثار الهدامة للتثاقف:** الصراع والانطواء والانحراف: يظهر الصراع الداخلي والبينشخصي بين أفراد المجتمع الواقع تحت رحمة عمليات التثاقف عندما تكون معايير وقيم الثقافتين المحلية والأجنبية مختلفتين إلى حد التناقض الكلي، هذه الوضعية تخلق صراعا حادا داخل شخصية الفرد وتجعله في حالة دائمة من الارتباك والشك في تحديد خياراته الاجتماعية والثقافية، ويقابل ذلك من طرف المجتمع بردات فعل مناقضة ومناهضة لاختيارات الفرد مما يخلق صراعات ذات طبيعة بينشخصية تزيد من التوتر والارتباك الحاصل لديه. كما تولد عملية التثاقف شعورا باللاأمن عند الأفراد ذوي الشخصية النفسية الضعيفة والذين يتميزون بالانطواء على أنفسهم في عملية دفاعية تتميز بانتشار كبير لميكانيزمات الإنكار والنكوص.

إن اندثار معايير الثقافات الأصلية بواسطة الاندماج في ثقافة الآخر يؤدي إلى ضياع هذه المعايير التي تساعد الأفراد في التعايش الاجتماعي مع ثقافتهم الأم وإلى ظهور العديد من اختلالات تكيف الفرد على المستوى الاجتماعي في شكل مجموعة من السلوكات المنحرفة: كالإدمان على المخدرات والكحول وظهور الأعصبة والاضطرابات العائلية[21].

2.5 على المستوى الجماعي: أجمع معظم الباحثين على أن التثاقف هو السبب في ظهور العديد من الأنماط الثقافية الجديدة خاصة إذا كان ناتجا عن التفاعل الحر، على العموم يؤدي التثاقف على المستوى الجماعي إلى:

ظهور قيم ومعايير جديد كعملية تعويضية للمعاير السابقة أو كمزيج معها، مما يؤدي إلى حدوث تغيرات على مستوى التنظيم الاجتماعي والثقافي للمجتمع.

ظهور أنماط معيشية جديدة نتيجة للتثاقف، مثال ذلك ما لاحظه هنري ماندراس (Henri Mendras,1984) من أن التغيرات في نمط المعيشة الاجتماعية في الريف الفرنسي بعد الحرب هي ثورة تمت لهذا الفرد كمنعكس تطور بالمقارنة مع السابق.

– ظهور أنواع جديدة من التكوين الاجتماعي والتربوي: ويمثل مجموع العمليات اليومية التي تتم من خلال دور المدرسة والأسرة في الاندماج في المجتمع المستقبل في حالة المهاجرين.

3.5. التثاقف ومشكلات التكيف والصحة النفسية والجسدية : إن الغرض الأساسي من الدراسات المختلفة والعديدة حول موضوع التثاقف هو تسليط الضوء على أثر هذه العملية وصعوبات التكيف التي تصاحبها مع ظهور أعراض الاضطرابات النفسية والعقلية كالاكتئاب والحصر وتعاطي الكحول والمخدرات والتدخين ومختلف الأمراض الجسدية لدى الأفراد المتثاقفين.

لقد توصلت مختلف الأبحاث التي تناولت هذا الموضوع خاصة لدى الجاليات الآسيوية في الولايات المتحدة الأمريكية إلى أن العلاقة بين عملية التثاقف والتكيف علاقة معقدة وشديدة التداخل، أين أشارت إلى أن المهاجرين الجدد يكونون أكثر استعدادا وعرضة لظهور اضطرابات التكيف أكثر من غيرهم نتيجة للدرجة العالية من قلق التثاقف التي تظهر لديهم. كما أسفرت دراسات أخرى على التأكيد على الارتباط الوثيق بين الدرجة العالية على مقياس التثاقف وارتفاع نسبة الاضطرابات النفسية والعقلية في أوساط الأفراد المتثاقفين، مثال ذلك دراسة كيم وآخرون (Kim et al ,2009) حول هذه العلاقة اعتمدوا فيها على نظرية الاستراتيجيات التثاقفية لبيري. تمت هذه الدراسة على عينة قوامها 60 مراهقا أمريكيا ذو أصول صينية وكورية و يابانية مع عينة أخرى من 116 راشد مهاجر إلى و م أ، أسفرت النتائج إلى أن الراشدين والمراهقين الذين يتحصلون على درجات عالية في إستراتيجية التهميش على مقياس التثاقف يظهرون نسبة عالية من الأعراض الاكتئابي[22] .

استراتيجيات التثاقف النفسية		خطر الإصابة باضطراب في الصحة
التهميش		مرتفع الدرجة
الانفصال		
الاستيعاب والتماثل		
الاندماج		منخفض الدرجة

الشكل رقم (01): العلاقة بين خطر الإصابة بالاضطراب النفسي واستراتيجيات التثاقف

في دراسة أخرى قام فيها لو وآخرون (Law et al, 2009) بدراسة العلاقة بين مستوى التثاقف وخطر الانتحار عند مجموعة من الشباب الآسيوي الأمريكي مكونة من 280 فردا ذكورا وإناث في كاليفورنيا، أسفرت الدراسة على أن الدرجات المرتفعة على مقياس التثاقف تكون عموما مصاحبة لدرجات عالية من خطر وقوع الفعل الانتحاري[23].

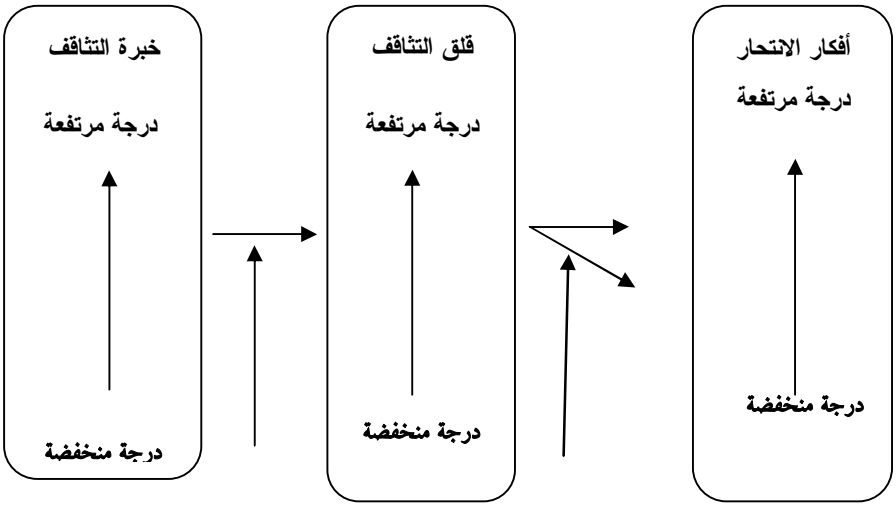

الشكل رقم(02) :العلاقة بين عملية التثاقف كخبرة و قلق التثاقف و أفكار الانتحار

لقد ساهمت العديد من الدراسات الوبائية بقوة في فهم العلاقة بين الثقافة والاضطرابات النفسية والأمراض الجسدية، ففي دراسة تناولت مدى انتشار الأمراض الوعائية والقلبية على مجموعة من الأفراد اليابانيين المقيمين في اليابان وهاواي وكاليفورنيا، أسفرت نتائجها على أن نسبة انتشار هذا المرض لدى الأفراد المقيمين في اليابان هي 25.4 % بينما تصل نسبة انتشارها لدى اليابانيين المقيمين في هاواي34.7 %في حين تتجاوز نسبة انتشارها لدى الأفراد اليابانيين المقيمين في كاليفورنيا نسبة 44 % من مجتمعهم الكلي، نفس النتائج تحققت لمتغير آلام الصدر وارتفاع نسبة الكولسترول في الدم بمعنى ارتفاع نسبة الإصابة بهذه الأمراض لدى الأفراد المهاجرين إلى و م أ.

كما أسفرت دراسة أخرى قام بها مركز البحث الكندي الوطني للصحة العمومية (2005) على عينة مكونة من 1972 فردا من المهاجرين إلى كندا لدراسة متغير ارتفاع الضغط الدموي في هذه العينة إلى أن التعرض العنيف إلى الثقافة الغربية واكتساب نمط المعيشة الغربي مرتبط بشدة بزيادة نسبة ظهور مرض ارتفاع الضغط الدموي لدى أفراد العينة[24] .

هذه الدراسات في مجملها تؤكد الصلة الوثيقة بين الحالة النفسية للفرد وثقافته، بمعنى أن أي تقاطب يعيشه الفرد في ثقافته من خلال ازدواجية الخطاب الثقافي الموجه له في مجتمعه سيقابل باضطرابات نفسية وجسدية واجتماعية لدى الفرد خاصة إذا عجز في تحقيق التوازن بين متطلبات الحداثة في مقابل الرغبة في الحفاظ على التقاليد وشريعة الأسلاف.

وعلى العموم يجب علينا النظر إلى أن العلاقة بين عملية التثاقف والتكيف النفسي والاجتماعي لدى الأفراد على أنها عملية معقدة من التفاعلات بين العوامل التاريخية والاجتماعية والثقافية مع الخصائص النفسية للفرد واتجاهاته الشخصية.

خاتمة:

توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى أن عملية التثاقف عملية شديدة التعقيد يتقاطع فيها السيكولوجي مع الاجتماعي والأنثربولوجي والسياسي..، فلقد أصبحت ظاهرة حتمية تمس مختلف المجتمعات والشعوب في ظل العولمة.

تمثل عملية التثاقف حالة عامة من الصراع والازدواجية الثقافية لدى الأفراد بين ما هو تقليدي موروث وما هو حداثي مرغوب. الشيء الذي يجعل الفرد يعيش ثقافته بشكل تقاطبي مما يدفعه إلى إتباع استراتيجيات تثاقفية مختلفة (التشابه، الاندماج، الانفصال، التهميش) بهدف تحقيق التوازن والتكيف مع هذه الوضعية. لكن إذا ما فشل بسبب عقبات ذاتية أو ثقافية وبيئية يظهر لديه توتر شديد ومستمر قد يفضي في النهاية إلى اضطراب الهوية وظهور الاضطرابات النفسية كالحصر والاكتئاب لدى الأفراد. لذلك يتوجب على القائمين على الشأن العام تسطير سياسات ثقافية موجهة لمختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية تأخذ بعين الاعتبار هذه الظاهرة (سياسة تثاقفية موجهة)، وأن يخطو مناهج تعليمية ذات مناخ منفتح على الآخر في مواده ومحتوياته ولغاته ورموزه مع الاهتمام بالجانب النفسي والروحي للأفراد، حتى لا نحصل على أجيال تعيش خارج التاريخ ولا تجيد إلا لغة الانفصال واليأس والعنف.

❖ هوامش البحث

(1) BRAMI. A**: L'acculturation ; étude d'un concept**, DESS, No121, pp 54 -63, Paris. France. (2000)., P 54.

(2) GUERRAOUI. Z**: psychologie interculturelle** ؛Armand colin, Paris ; France. (2000)., P 16.

(3) Unesco**: Phénomène d'acculturation et déculturation dans le monde contemporain,** Colloque d'orientation établie par Unesco, (Unesco, Paris, Novembre 1980)., P 05.

(4) الخطابي عزالدين : **سوسيولوجية التقليد والحداثة بالمجتمع المغربي** ، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء، المغرب، (**2001**). ص 24.

(5) Unesco**:** op.cit., p 07.

(6) الخطابي عزالدين : **مرجع سبق ذكره،** ص27.

(7) المرجع السابق، ص 30.

(8) TOUALBI. N: **L'ambivalence culturelle ou des reliquats psychologiques de l'histoire coloniale**, Revue algérienne de psychologie et des sciences humaines, édition n 01, OPU, Alger (1985)., P 11.

(9) BRAMI. A : **L'acculturation ; étude d'un concept**, op.cit., p.55.

(10) BRAMI. A: Ibid., p 56.

(11) الخطابي عزالدين : **مرجع سبق ذكره،** ص 30.

(12) طايبي مريم: **إشكالية الثقافة في الجزائر: بين المقاومة والاستلاب**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، (رسالة ماجستير غير منشورة)2007 ص 91.

(13) BRAMI. A**: L'acculturation ; étude d'un concept**, op.cit., p.57.

(14) طايبي مريم: **مرجع سبق ذكره**، ص 11.

(15) طوالبي نورالدين:**في إشكالية المقدس**، منشورات عويدات، الطبعة(1) ، بيروت، **(1988)** ص 30.

(16) BRAMI. A: **L'acculturation ; étude d'un concept**, op.cit., p.59.

(17)Gaillard. A: **Les répercussions du processus d'acculturation des jeunes requérants d'asile sur les familles**, Mémoire de fin d'étude pour l'obtention du diplôme HES d'assistante sociale, Haute Ecole Valaisanne Santé-Social, Septembre 2006, Suisse,(2006)., P 24.

(18) Gaillard. A : Ibid., P 25.

(19) Yo Jackson et al: **Encyclopaedia of multicultural psychology**, Sage Publications, Inc. California, USA. (2006)., P 26.

(20) HIJAZI. S**: L'identité libanaise entre l'appartenance confessionnelle et le partage culturel**, Thèse de Doctorat (N.R.) en psychologie sociale, Université Lumière Humanités et Sciences Humaines, Lyon 2; France, (2005). P 42.

(21) BRAMI. A: **L'acculturation ; étude d'un concept**, op.cit., P 61.

(22) DOH. N-R: **Relationships among English Proficiency, Acculturation, Identity, and Mental Health**, Miami University of Ohio, USA, (2001). PP 05-07.

(23)NHI-HA.T & al: **Handbook of Mental Health and Acculturation in Asian American Families**, Humana Press, New York. USA, (2009). P 25.

(24)LARA. M & al: **Acculturation and Latino health in the United States**, Annu Rev Public Health, 2005, No 26: 367–397, California.USA, (2005)., P 379.

الاتصال الأسري في ظل التكنولوجيا

الباحثة: زينب مرغاد، جامعة خنشلة، الجزائر

الملخّص:

إن الركيزة الأساسية لتطور أي مجتمع هي الأسرة وإذا رجعنا بالأسرة إلى زمن جميل مضى لوجدنا الاختلاف الشديد بين ما كانت عليه و ما هي عليه الآن من نمط في المعيشة خاصة الاجتماعية والتواصلية فتلاشت سلطة الأب مبرزة بعض الحريات للمرأة واختفت معها حكايات الجدة وما كان يحكى ويروى صار الآن مرئيا وبوسائل رقمية حديثة واختفت معها حتى مظاهر الدفء و التلاحم ليحل الجفاء محله في داخل الأسرة في عصر ملأته شبكات الانترنت واتصالات لا سلكية وتكنولوجيا رقمية باتت هي الآمر الناهي داخل الأسرة فبين تلفيزيون وانترنت و هاتف نقال اصبحى الفرد داخل الأسرة أسيرا لها حتى إنها باتت تهدد التواصل داخل الأسرة بل وتعدت حتى إلى العلاقات الاجتماعية بين الأفراد.

Résumé :

La famille qui est le noyau et la base fondamentale du tout développement social connait, actuellement, un changement radical dans le style de vie social et communicatif, par rapport à son passé prospère. La suprématie du père a disparu en cédant place à certaines libertés accordées à la femme ; les beaux contes racontés par la grand-mère, au cours des soirées en donnant naissance à une atmosphère émotionnelle où l'affection et les liens solides régnaient, sont narrés, aujourd'hui, par des moyens visuels et numériques modernes en brisant toute relation familiale chaleureuse.

L'Internet, la communication sans fil, le téléphone portable et la nouvelle technologie de communication sont devenus le maitre imposant ses lois au sein de la famille; l'individu est devenu prisonnier de ces moyens qui menacent non seulement les relations sociales mais aussi la communication entre les membres de la même famille.

مقدّمة:

في ظل التغيرات والتحولات التكنولوجية و التي مست العالم خصوصا الجزائري و التي كانت ذات وتيرة متسارعة أدت إلى إحداث أزمات اجتماعية و ثقافية أهمها غياب التواصل داخل الأسرة و يعتبر هذا من أهم و اكبر معوقات التنشئة الاجتماعية التي تجعل الفرد متأثر بالتكنولوجيا ووسائل الاتصال و كذا تأثره بالثقافة الغربية و ميله للتغير و التكيف مع الحياة العصرية و هذا يؤدي عادة إلى إضعاف الروابط الأسرية وبالتالي زيادة التباعد من حيث العلاقات فيما بينهم و التقليل من فاعلية اللحمة والعواطف الأسرية هذه التحولات التكنولوجية أفرزت تفاعلات جديدة للعلاقات داخل الأسرة مما ظهر عنه ن تفكك وتنافر عززته عزلة اجتماعية مفسحة المجال إلى شرخ تواصلي في المجتمع عامة وداخل الأسرة خاصة.

وقبل الخوض في غمار هكذا الموضوع يجب أولا ضبط بعض المفاهيم فالتكنولوجية هي كلمة يونانية هي تتكون من جزأين التكنو و لوجيا الأول تكنو techno والذي يعني الفن والصناعة، والمقطع الثاني لوجيا والذي يعني علم [1].

و وقد تصاعدت العبارة "تكنولوجيا" حتى اشتهرت في القرن العشرين مع الثورة الصناعية الثانية..و في 1937، كتب عالم الاجتماع" ريد بين" أن "التكنولوجيا تتضمن جميع الأدوات، الآلات، الآنية، الأسلحة، الأجهزة، الكسوة، سبل التواصل، وأجهزة النقل، والمهارات التى ننتج بفضلها ونستعملها." لا يزال تعريف "بين" شائعاً بين الدارسين هذه الأيام، خاصة علماء الاجتماع [2].

تقدمت التراجم والدارسون بتعريفات عديدة يعرّف قاموس مريام ويبستر المصطلح على أنه "التطبيق العملي للمعرفة خاصة في حقل معين" و"الإمكانية المعطاة من التطبيق العملي للمعرفة[3].

1.تعريف الأسرة

جاء في معجم علم الاجتماع " أن الأسرة عبارة عن جماعة من الأفراد يرتبطون معا بروابط الزواج و الدم و التبني، و يتفاعلون معا، و قد يتم هذا التفاعل بين الزوج و الزوجة، و بين الأم و الأب و الأبناء و يتكون منها جميعا وحدة اجتماعية تتميز بخصائص معينة[4].

و الأسرة في اللغة هي الدرع الحصينة و أهل الرجل و عشيرته و تطلق على الجماعة التي يربطها أمر مشترك وجمعها اسر يعرف "أوجبرن" و "نيمكوف" الأسرة بأنها " عبارة عن رابطة اجتماعية تتألف من زوج وزوجة و أطفالهما أو بدون أطفال و قد تكون الأسرة أكبر من ذلك بحيث تضم أفراد آخرين كالأجداد و الأحفاد و بعض الأقارب [5].

ويرى الدكتور احمد زكي بدوي في معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية إن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الأولى التي تهدف الى المحافظة على النوع الإنساني و تقوم على مقتضيات العقل الجمعي و القواعد التي تقرها المجتمعات المختلفة [6]. أما "أنتوني جيدنز" فيعرف الأسرة على أنها "مجموعة من الأفراد المرتبطين مباشرة بصلات القرابة و يتولى أعضاؤها البالغون مسؤوليات تربية الأطفال أما علاقات القرابة فهي الصلات التي تقوم بين الأفراد إما على أساس الزواج أو من خلال رابطة الدم و النسل مثل الأمهات والآباء و الأشقاء و البنين و غيرهم [7].

ويعرفها مصطفى الخشاب بأنها الجماعة الإنسانية التنظيمية المكلفة بواجب الاستقرار اما كولي فالأسر عنده هي الجماعة التي تؤثر

على نمو الأفراد و أخلاقهم منذ المراحل الأولى من العمر وحتى يستقل الإنسان بشخصيته ويصبح مسؤولا عن نفسه و عضوا فعالا في المجتمع [8].

2.مفهوم الاتصال الأسري

قبل التطرق إلى تعريف الاتصال الأسري يجدر بنا أولا ضبط مصطلح الاتصال ليتسنى لنا توضيح المفهوم المركب

أ.الاتصال لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور الاتصال والوصلة ما اتصل بالشيء قال الليث كل شيء اتصل بشيء فيما بينهما وصلة أي اتصال و ذريعة ووصلت الشيء وصلا وصلة والوصل ضد الهجران ولقد وصلنا لهم القول والوصل خلاف الفصل [9].

ب.تعريف الاتصال اصطلاحا

جاء في قاموس المصطلحات الإعلامية أن الاتصال هو انتقال المعلومات أو الأفكار أو الاتجاهات أو العواطف من شخص أو جماعة أخرى من خلال الرموز والاتصال هو أساس كل تفاعل اجتماعي ويمكننا من نقل معارفنا وييسر التفاهم بين الأفراد وعرفه إبراهيم إمام بأنه العملية الاجتماعية والوسيلة التي يستخدمها الإنسان لتنظيم واستقرار حياته ونقل أشكالها ومعناها من جيل إلى جيل عن طريق التعبير والتسجيل والتعليم والتغيير [10].

و التي تعني كلمة الاتصال communication هو التعبيـــر و التفاعل من خلال بعض الرموز لتحقيق هـدف معين و تنطـوي علـى عنصر القــصد و التــدبير يعرفه " تشارلز كولي" الاتصال " ذلك الميكانيزم الذي من خلاله توجد العلاقات الإنسانية وتنمو وتتطور الرموز العقلية بواسطة وسائل نشر هذه الرموز عبر المكان و استمرارها عبر الزمان [11].

أما فيما يتعلق بالاتصال الأسري فهو أحد متغيرات التنشئة الاجتماعية، و هو إتاحة الفرصة لأفراد الأسرة للتعبير عن آرائهم و مشاعرهم و حسن الاستماع لهم و تقبلهم.ومن بين التعاريف التي نوردها للاتصال الأسري نذكر :

- **الاتصال الأسري** يعرف الاتصال الأسري بالاحتكاك المتبادل بين أفراد الأسرة الواحدة و الذي يتم عادة عن طريق المعاشرة سواء ب الحوار اللغوي أو التواصل المعيشي والتفاعلي داخل محيط معين. و هو تلك العلاقة التي تقوم بين أدوار الزوج و الزوجة و الأبناء بما تحدده الأسرة، و يقصد به أيضا طبيعة الاتصالات و التفاعلات التي تقع بين أعضاء الأسرة و من تلك العلاقة التي تقع بين الزوجة و الزوج و بين الأبناء و الآباء و بين الأبناء أنفسهم [12].

يمكن تعريف التواصل الأسري بكونه الاتصال الذي يكون بين طرفين (الزوجين) أو عدة أطراف (الوالدين والأبناء) والذي يتخذ عدة أشكال تواصلية، كالحوار والتشأور والتفاهم والإقناع والتوافق والاتفاق والتعأون والتوجيه والمساعدة.الاتصال الأسري هو اتحاد مجموعة من الأشخاص بروابط الدم الزواجي و التبني، إذ يتواصلون و يتفاعلون مع بعضهم البعض بأدوارهم الاجتماعي [13].ويعني التواصل ذلك التوحد بين الأفراد والتفاعل حتى يصبحوا أصحاب لغة واحدة ومفاهيم موحدة، أو على الأقل مفاهيم متقاربة.

الاتصال الأسري هو تلك العلاقة التى تكونها الأسرة مع أفرادها، سواء كانت هذه العلاقة رابطة الدم أو الأصهار أو الأنساب [14].فكل التعاريف تركز على أن الاتصال الأسري أساسه الدور الاجتماعى الذي يلعبه أفراد الأسرة من خلال علاقاتهم و تفاعلاتهم يبعضهم البعض و تبرز عنصر الحوار بين أفراد الأسرة الواحدة خاصة

بين الوالدين باعتبارهم الأساس الذى تبنى عليه الأسرة وبين الأطفال فيما بينهم و العلاقة بين الأولاد و الوالدين .

3.مجالات الاتصال الأسري

يعدُّ التواصل الجيّد بين الأولاد والأهل من أهم العوامل التي تساعد على استقرار الأسرة، وتساعد على المحافظة على صحة جميع أفرادها، سواء فيزيولوجية أم النفسية.ويقصد الخبراء أنّ التواصل الأسري هو لغة التفاهم والتحاور بين أفراد الأسرة، التي تنقل أفكار كلّ منهم ومشاعره إلى الآخرين في الأسرة.وتعمل هذه اللغة على جعل أفراد الأسرة سعداء في حياتهم الأسرية و تتمثل هذه المجالات في العلاقات الأسرية التي تربط بين أفراد الأسرة، و تساهم في استمرارها وخلق جو يساعد على إعداد أفراد فاعلين في المجتمع و تتمثل في العلاقة بين الزوجين تقوم هذه العلاقة على أساس الحقوق الزوجية لكل منهما، ومسؤولياتهما تجاه تنشئة أطفالهما و اتخاذ القرارات الأسرية، و دور كل منهما في المسؤولية الاجتماعية و الاقتصادية للأسرة [15].

ويعتبر التواصل بين الزوجين معاً وتفاهمهما معاً فيما يتعلق بحياتهما الزوجية والأسرية مفتاحا لنجاح الأسرة ومن المفترض أن يشمل هذا النوع من التواصل مشاعر الود والاحترام بين الزوجين.ويعد التواصل بين الزوجين من أهم مجالات التواصل الأسري.وإذا كان التواصل الزوجي جيداً كان تفاعل الزوجين معاً إيجابياً بحيث يجلب لهما ولباقي أفراد الأسرة الفرح والسرور وهدوء النفس، والقدرة على مواجهة المشاكل.

أ.التواصل الأبوي:

التواصل "الأبوي" هو تواصل الأب مع ابنه أو ابنته، وحوارهما معاً وتفاهمهما حول ما يريده كلّ منهما من الآخر.وأساس هذا التواصل

هو تبادلهما مشاعر الود والاحترام والاهتمام والرعاية والحماية.وهذا النوع من التواصل يعدّ من أهم الركائز التي تقوم عليها التنشئة الاجتماعية، وبناء شخصية الابن أو الابنة.

وفي حال تفاهم الأب مع ابنه أو ابنته بأسلوب جيد فيه احترام متبادل وتشجيع في مختلف المواقف الجيدة، ومساندة ومساعدة في مواقف الضرّاء، كان تفاعلهما الأسري إيجابياً، وتوافقهما معا أكثر ايجابية.كما ويسهم هذا التفاعل والتوافق في تنمية الشخصية السوية عند الأبناء، وحمايتهم من الانحراف والاضطراب.

ب.التواصل الأمومي:

لا يمكن ذكر أنواع التواصل الأسري من دون التطرق إلى التواصل الأمومي.وأوضح الخبراء أنّ هذا التواصل تقوم به الأم مع ابنها أو ابنتها، ومحاورتهما معاً، وتفاهمهما حول ما يريده كل منها من الآخر، وتبادلهما مشاعر الود والمحبة والاحترام والرعاية والحماية والاهتمام ولا يقلّ تواصل الأم مع أبنائها وبناتها أهمية عن التواصل الأبوي، إن لم يكن يفوقه تأثيراً في التنشئة الاجتماعية وبناء شخصية الابن أو الابنة ولأن الأب والأم هما الكبيران في الأسرة واللذان يعدّان رأس العائلة، وهما المهيمنان على حياة الأبناء الأسرية، لذلك يجب أن يحرصا على طريقة توجيه عملية التواصل مع الأبناء

هذه العلاقة تقوم على تعليم الأبناء القيم المستوحاة من الشرائع السماوية و المعايير الاجتماعية، فالوالدان يعلمان أبناءهما القيم و الحقائق و المفاهيم والأنماط السلوكية و كل ما هو مرغوب و يبعدونهم عن كل ما هو غير مرغوب مثل طريقة الأكل و الملبس و طريقة التعامل، و التي تكتسب عن طريق التكرار أو التقليد أو الممارسة أو السلطة الوالدية [16].

ج.تواصل البنوة

يقصد الخبراء بتواصل البنوة أنه تواصل الابن أو الابنة مع أبيه وأمه، وحوراهما معه، وتفاهمهما معه حول ما يريده كلّ منهما من الآخر.إلى جانب تبادل الابن مشاعر الود والرحمة والاحترام مع والديه، أي يتواصل معهما تواصلاً جيداً، ويتفاعل معهما تفاعلاً إيجابياً في كل الأحوال.أما تواصل البنوة فيكون من الأبناء إلى الآباء، حيث يدير الأبناء الحوار، ويؤثرون في الآباء، ويقدمون وجهات نظرهم بطرق تقوم في الأساس على مبدأ الاحترام المتبادل [17].

د.علاقة الأخوة

وجد أنه العلاقة بين الإخوة تتسم بالقوة و التضامن، و يحظى الابن الأكبر بمكانة أكبر من إخوته لأنه يمثل أبيه فيعطي الأوامر لإخوته و أخواته الأصغر منه أو على الأقل يتهددهم بالعقاب و عليهم إبداء الطاعة و الاحترام، و يعزز أفراد الأسرة الآخرون مكانة الأخ الأكبر في الأسرة و خاصة بأنه عادة ما يتولى مسؤولية الأسرة و رعاية أشقائه و شقيقاته بعد وفاة الأب، أما العلاقة بين الأخوات فهي علاقة تقوم على المودة و التعاون المشترك بينهن، و تتسم العلاقة بين الأشقاء و الشقيقات بمسؤولية الإخوة عن أخواتهم ورعايتهم [18].

فالكل ينشد أو يبحث عن المحبة وعن الاحترام و الصفاء و الصراحة و التفهم و عن التقبل وعن المداراة في التعامل و عدم التطفل و الابتعاد عن الفضول وعن الطريقة الحسنة و المريحة في الكلام و التعامل و التواصل معه و يعدُّ التواصل الجيّد بين الأولاد والأهل من أهم العوامل التي تساعد على استقرار الأسرة، وتساعد على المحافظة على صحة جميع أفرادها، سواء الفيزيولوجية أم النفسية.

و يعتبر الخبراء أنّ التواصل الأسري هو لغة التفاهم والتحاور بين أفراد الأسرة، التي تنقل أفكار كلّ منهم ومشاعره إلى الآخرين في الأسرة.

وتعمل هذه اللغة على جعل أفراد الأسرة سعداء في حياتهم الأسرية.لذا فالعلاقات الأسرية تستوجب من الأبوين باعتبارهما العمود الفقري للحياة الأسرية إتقان مهارات الاتصال الأسري وذلك بإعطاء أفراد الأسرة فرصة للتواصل عن طريق السماع و الإنصات، بمحاولة الأخذ و الرد معهم والحوار حين يتحدثون و عدم إقحامهم و محاولةلا إحباطهم و تقليل رغبتهم بالتواصل عن طريق عدم الاهتمام لما يقولون أو ما يفعلون

4.تأثير التكنولوجيا على منظومة الاتصال في الأسرة

تقوم وسائل التكنولوجية بدور هام في ايجاد نوع من الترابط بين اجزاء البناء الاجتماعي ووحداته في المجتمع سواء كانت تلك الاجزاء جماعات أو نظما و مؤسسات اجتماعية أو ثقافات فرعية كما انها في نفس الوقت يمكنها ان تساهم في المساعدة على زعزعة العلاقات الترابطية أو اخفائها و بفضل الثورة المعلوماتية الحديثة في جميع وسائل الاتصال التكنلوجية أصبح إنسان اليوم يتلقى سيلاً غير منقطع خاصة الإنترنت التي تعكس المعلومة التي يتم الإطلاع عليها والبحث عنها أو بثها وإرسالها مستوى ثقافة الشخص.

ومع الانتشار الواسع لوسائل التكنولوجية خاصة داخل المنازل وتوفرها بصفة تسمح لأيكان باستخدامها اصبحنا لا نرى الأن أفراد الأسرة يلتفون حول مائدة واحدة، وقد تجمعهم وجبة ما وهم يتبادلون الحديث هذا اعترافٌ مِن أحَد الأبناء، قائلاً لا أريد أن ألقي اللوم على أحد، ولكني للأسَف، لم أتلقَّ تربية سليمة منذ صغري، فتربيتي وثقافتي تلقيتها من التلفاز وقنواته الفضائية، واليوم يلومني أهلي على تصرُّفاتي

المؤذية لمشاعرهم، ومشاعر الآخرين، ولم يسألوا أنفسهم أولاً عن أسباب تصرفاتي السيئة [19].

وأصبحت وسائل التكنولوجيا مَدْعَاةً للهروب من التعامل المباشر، وإقامة العَلاقات الاجتماعية، بادِّعاء الانشغال بها، وإنَّ ضَعْفَ هذه العَلاقات وندرة القيام بالزيارات الاجتماعية، يضعف التحاور، وتبادُل الخبرات والمشاعر، وتُستَبدل الرسائل القصيرة بها، تقول "كل عام وأنتم بخير – رمضان كريم – عظَّم الله أجركم – وغيرها [20].

اللافت للنظر عدم فَهم النِّسَب العالية في قضاء الفرد – صغيرًا وكبيرًا – أمام التِّلْفاز لساعات طويلة، إلا أن هذه الدراسة الحالية تبيِّن أن الإنسان اجتماعي بطبعه فإذا ضَعُفت علاقته بأفراد أسرته، وجد البديل في جهاز التلفاز وغيره من أجهزة التكنولوجيا، وعرف أنَّ هذه الأجهزة حلَّت مكان الأبوين للأبناء، لكثرة مكوث الأبناء أمام هذه الأجهزة والتفاعل معها، لكنَّ التعامل مع هذه الأجْهِزة يُضعف عَلاقة الأبناء بوالديهم، وتنتشر أمراضٌ نفسية بينهم مثل الاكتئاب، وحب العزلة، والانطوائية، وتَقِل قابليته على قبول قيم المجتمع، وثوابت الدين، ويحل محلها قيم روَّاد ومُستخدمي أجهزة التكنولوجيا.

وقد بيَّنت الدراسات النفسية أن أكثر الأفراد تعرضًا لخطر الإصابة بمرض إدمان الإنترنت، هم الأفراد الذين يُعانون من العُزْلة الاجتماعية، والفشل في إقامة عَلاقات إنسانية طبيعية مع الآخرين، والذين يُعَانون من مخاوف غامضةٍ، أو قلة احترام الذات، الذين يخافون من أن يكونوا عُرْضَة للاستهزاء، أو السخرية من قِبَل الآخرين، هؤلاء هم أكثر الناس تعرضًا للإصابة بهذا المرض وذلك لأن العالم الإلكتروني قدَّم لهم مجالاً واسعًا لتفريغ مخاوفهم وقلقهم، وإقامة عَلاقات غامضة مع الآخرين، تخلق لهم نوعًا من الأُلْفة المزيَّفة، فيصبح هذا العالم الجديد الملاذ

الآمِن لهم، من خشونة وقسوة عالم الحقيقة – كما يعتقدون – حتى يتحول عالمهم هذا إلى كابوس يهدِّد حياتهم الاجتماعية والشخصية للخطر [21].

تَوَصَّل فريقٌ بحثي أمريكي من جامعة "يونغ بريغهام" إلى أنَّ قضاءَ وقتٍ سعيدٍ مع الأهل والأصدقاء، يُقلِّل من خطر الموت المبكر بنسبة 50٪، وصرَّح أعضاء الفريق بأن العَلاقات الاجتماعية القوية مفيدة للصحة مثل التوقف عن التدخين حيث إن ضعف العَلاقات الاجتماعية يُوازي تدخين 15 سيجارة في اليوم، وإن تراجع الحياة الاجتماعية يُعادل معاناة إدمان الخمر.

وتأتي أهميةُ العَلاقات الاجتماعية في أنها تزيد في صحة الإنسان أفضل من اللقاحات التي تمنع الإصابة بالمرض ذلك أن الإنسان خُلِق كي يعيش مع غيره، وأن عزلته عن الناس تُسبِّب له أمراضًا نفسية وصحية.وخلص فريق البحث إلى أنه على الرغم من زيادة وسائل الاتصال والمواصلات، فإن المجتمع لا يعيش أفراده التواصل الاجتماعي [22].

ومن أهم ما تفعله التكنولوجية بمن جعلها أسرته العزلة من أهم الملاحظات الملموسة في حياتنا اليومية هو قضاء الناس أوقات طويلة أمام التلفاز أو الفيديو أو أجهزة الحاسب مما يجعلهم يقضون وقتاً أكثر داخل بيوتهم إلى درجة عزلتهم عن الاتصال الاندماج الثقافي من أهم الأسباب التي تساعد على الاندماج والتجانس الحضاري الوسائط الإعلامية المتعددة.

لذلك فإن كثيراً من المفكرين يحذرون من الخطر الذي سوف تجلبه الشاشات الإلكترونية من جميع أنحاء العالم وما سوف تسببه من تجانس حضاري يهدد الثقافات القومية الخاصة عن طريق إلغاء مميزاتها وخصوصيتها عند أهلها وقد أثبتت الدراسات أن الفوائد الاقتصادية الناجمة عن بيع أفلام السينما والتلفاز والبرامج الإعلامية الأخرى تصل

إلى مليارات الدولارات والتي تغزو جميع أنحاء العالم عن طريق الأقمار الصناعية [23].

ليس هذا فحسب بل إن العزوف عن الكتاب والاتجاه إلى التلفاز والحاسوب قد أديا إلى زيادة الأمية لدى عدد ليس قليل من الناس فهم لا يحبون التركيز وبذل جهد ولو يسير للحصول على المعلومة لذلك فهم يفضلون الاستماع إلى وسائل الإعلام المختلفة والتي تحتاج إلى أقل قدر من التركيز والانتباه لفهم ما تبثه أو تنشره بصرف النظر عن دقته أو مصداقيته.

البذاءة إن استخدام الوسائط الإعلامية المتعددة في نشر البرامج والعروض البذيئة التي يمجها ويرفضها العقل السليم من أكبر الإرهاصات السيئة للعولمة ذلك أنها تتنافى مع الفطرة والتقاليد والأعراف الاجتماعية لدينا ولدى الشعوب الأخرى خصوصاً تلك التي تبثها الفضائيات أو تلك التي يتم تلقيها عبر شبكة الإنترنت والتي تشكل تهديداً للناشئة من بنين وبنات والتي يحسن الالتفات إليها كظاهرة يجب العمل على التقليل من تبعاتها وذلك عن طريق إيجاد البديل المناسب وتحصين الشباب فكرياً ضدها عن طريق التعليم السليم والتربية الراقية والإعلام المتوازن هذا دون إغفال الجانب السلبي على صحة الإنسان حيث أنها تؤثر تأثير سلبي على الذاكرة على المدى الطويل و مساهمتها في انطواء الفرد وكآبته ولاسيما عند ملامستها حد الإدمان ثم إن الجلوس أمام الكمبيوتر لفترة طويلة، قد يجعل بعض وظائف الدماغ خاملة، خاصة الذاكرة الطويلة المدى، بالإضافة إلى إجهاد الدماغ [24].

و الاستعمال المتزايد للتكنولوجيا، قد يزيد من صفات التوحد والانعزالية، وقلة التواصل مع الناس.

- ✓ قد تتسبب الأجهزة التكنولوجية بأمراض عديدة وخطيرة كالسرطان، والأورام الدماغية، والصداع، والإجهاد العصبي والتعب، ومرض باركنسون (مرض الرعاش).
- ✓ قد تشكل خطراً على البشرة والمخ والكلى والأعضاء التناسلية، وأكثرها تعرضاً للخطر هي العين، الأمر الذي يجدد التساؤلات حول كيفية التعامل مع هذا العصر التكنولوجي في الوقت الذي يوسع فيه قاعدة مستخدميه على مستوى العالم بسرعة هائلة.

وقد أظهرت دراسة أجريت حديثاً على أطفال في إحدى الدول المتقدمة، تتراوح أعمارهم بين أربع وخمس سنوات، أنّ الأطفال يقضون سبع ساعات ونصف الساعة يومياً أمام شاشات الأجهزة الإلكترونية، أي بزيادة ساعة وسبع عشرة دقيقة أكثر مما كان يفعل الأطفال في العمر نفسه قبل خمس سنوات ومن المستغرب أكثر أنّ الدراسة نفسها أظهرت أن بعض الأطفال، ممن لا تزيد أعمارهم على السنتين، يقضون نحو ساعتين يومياً أمام شاشة جهاز إلكتروني [25].

- ✓ وتتعدد الأجهزة التكنولوجية التي يتنافس في استخدامها الأطفال، كالأجهزة السطحية اللمسية (الأيباد) التي يظهر ضررها في أمراض كالتشنج في عضلات العنق بالإضافة إلى أوجاع أخرى في العضلات التي تظهر من الجلوس المطول وغير الصحيح.
- ✓ استخدامها كثيرا يترافق بانحناء في الرأس والعنق، مقارنة مع أجهزة الكومبيوتر العادية التي تستخدم في المكاتب، لذا فهي تثير قلقاً حقيقياً حول تشكل أوجاع في العنق والكتفين.
- ✓ أما جهاز التلفاز فهو يعد الوسيلة التكنولوجية الأكبر والأكثر تأثيراً صحيا على الطفل، فإدمانه يؤدي إلى

- ✓ السمنة والعزلة.
- ✓ الكسل والخمول الجسدي والفكري، والهذيان الذهني، الذي يترتب أثناء الجلوس ساعات مطولة أمام التلفاز فهم يخافون من الخروج ولا يشعرون بالأمان، بل يصبحون أكثر أنانية وشحاً في تعاملهم مع جيرانهم ويميلون إلى العدوانية المفرطة [26]. وقال الباحثون في جامعة "ساني" لطب العيون بنيويورك إنهم وجدوا أن الأشخاص الذين يقرأون الرسائل ويتصفحون الانترنت على هواتفهم النقالة يميلون إلى تقريب الأجهزة من أعينهم أكثر من الكتب والصحف ما يجبر العين على العمل بشكل متعب أكثر من العادة.

وقال الباحث المسؤول عن الدراسة، مارك روزنفيلد إن "حقيقة حمل الأشخاص للأجهزة بمسافة قريبة من العين يجعلها تعمل بشكل متعب أكثر للتركيز على الأشياء المكتوبة".

اما نوعية الألعاب التي يلعبها الأطفال فتختلف بين ألعاب الصراعات والحروب وبين ألعاب الذكاء والتركيب وغيرها من الألعاب التي تنشط الذاكرة، كما تشير الأبحاث العلمية إلى أنه على الرغم من الفوائد التي قد تتضمنها بعض الألعاب إلا أن سلبياتها أكثر من إيجابياتها لأن معظم الألعاب المستخدمة من قبل الأطفال والمراهقين ذات مضامين سلبية ولها آثار سلبية جداً على الأطفال والمراهقين وتتمثل أيضا في الآثار الصحية التي قد تصيب الطفل، حيث حذر خبراء الصحة من تعود الأطفال على استخدام أجهزة الكمبيوتر والإدمان عليها في الدراسة واللعب ربما يعرضهم إلى مخاطر وإصابات قد تنتهي إلى إعاقات أبرزها إصابات الرقبة والظهر [27].

و من أهم الآثار السلبية للألعاب الإلكترونية وإدمان الأطفال عليها:

- ✓ بعض الأمراض نفسية كاضطراب النوم والقلق والتوتر والاكتئاب، والعزلة الاجتماعية والانطواء والانفراد بالكمبيوتر، وانعزال الطفل نفسه عن الأسرة والحياة والاكتئاب والانتحار.أمراض العيون وضعف النظر والرؤية الضبابية وألم ودموع في العينين.
- ✓ ضعف التحصيل العلمي ورسوب وفشل في الدراسة وعلامات منخفضة.و ظهور السلوكيات السلبية مثل العنف والقسوة وضرب الإخوة الصغار وعدم سماع الإرشاد والتوجيهات والتمرد ومشاكل صحية وألم في أسفل الظهر وآلام الرقبة، وضعف في عضلات المثانة والتبول اللاإرادي، وضعف في الأعصاب وخمول وكسل في العضلات، وإمساك بسبب الجلوس المستمر واللعب بالألعاب الإلكترونية.
- ✓ إيذاء الإخوة بعضهم بعضاً من خلال تقليد ألعاب المصارعات وتطبيقها في الواقع، حيث تخلق روح التنافس بين اللاعبين.زيادة على ان ارتفاع تكاليف الألعاب، والتي قد تؤثر على ميزانية الأسرة.

وتُعتبر الأجهزة السطحية اللمسية (الأيباد) وأجهزة الكمبيوتر من أكثر الأجهزة التكنولوجيا ضرراً على العين، والتي قد تسبب جفاف العين عند مستخدميها من الأطفال، حيث تتم العملية من خلال التركيز المطول الذي يرهق عضلة النظر الضعيف فالعين تحتوي على سائل دمعي يساعد على عدم جفافها، حيث يقوم الجفن بالرمش مرة كل خمس ثوانٍ وينتج عن ذلك تكون طبقة جديدة من الدموع تغطي سطح العين وانّ تعرضت العين إلى تركيز مطول وعدم الرمش، يؤدي ذلك إلى عدم

إفرازها الكمية الكافية من السائل الدمعي، ما ينتج عنه التهابات وحكة وعدم الراحة في العين".

ويعتبر "دخول الأجهزة التكنولوجية في الأسرة قد رسخّ مفاهيم ومعاني الانفراد والانعزالية في الأسرة، حيث أصبح لكل فرد أجهزة خاصة به لا احد يتعدى على خصوصيته في استخدامها، وهذا باعد بين أفراد الأسرة وأفقد روح التواصل والترابط ومن اخطر الأمراض التي قد تصيب أفراد الأسرة، وخاصة الأطفال، جراء استخدام هذه الأجهزة "التوحد" الذي يكون فيه المخ غير قابل لاستيعاب المعلومات أو معالجتها ما يؤدي إلى صعوبة الاتصال بمن حوله واضطرابات في اكتساب مهارات التعليم السلوكي والاجتماعي».

أما عن فوائد التكنولوجية فتشير الدراسات الحديثة إلى أن أغلب المدارس الذكية تعتمد في تعليمها على الأجهزة التكنولوجيا أكثر من العنصر البشري، حيث أن للأجهزة التكنولوجية فوائد اكبر قد تستغل بشكل ايجابي في توجيه الطفل وتنمية إدراكه العقلي بشكل صحيح، وعلينا أن نتمتع بالفهم والإدراك الكافي لاستغلال هذه الأجهزة بالإيجاب من خلال توفير أجهزة لابتوب لكل طالب في المدرسة واستخدامها في التعليم والترفيه أيضا مع خلق جو توعوي وتوجيهي لهذه الألعاب فالطفل بحاجه إلى اقل من ساعة تمارين ذهنية تسهم في تنمية خلاياه الذهنية، واستخدام هذه الأجهزة في التعليم وتوفيرها في المدارس قد يسهم بشكل ايجابي في تطوير الطفل".

وأشار إلى ضرورة تواجد الأهل مع أطفالهم لتوجيههم وتوعيتهم بالاستخدام الصحيح لهذه الأجهزة، وإيجاد بدائل تخفف من استخدام الأجهزة التكنولوجية، وإعطاء الأهل من وقتهم لأبنائهم من خلال الجلوس واللعب معهم بدل التوجه لهذه الأجهزة، مع اختيار المدارس التي تستطيع أن تغير وتؤثر في الطفل بالإيجاب و هناك الكثير من

الايجابيات التي عززتها التقنية أو فرضتها والتي لا يمكن حصرها في عجالة قصيرة ولكن يمكن أن نذكر منها جاء استطلاعٌ أُجْرِي من قِبَل مؤسسة "بيو إنترنت" في عرض آراءِ نحوِ "2252" أسرة، وخَلَصت إلى "أنَّ الأسر التقليدية تواجه ضغوط الحياة العصرية المتزايدة، باستخدام الهواتف المحمولة، والبريد الإلكتروني، والرسائل النصية للبقاء على اتصال ."

وقال 53 %ممن شَمِلتهم الدراسة إنَّ التقنيات الحديثة ساعدتْهم على البقاء على اتصال مع أقاربهم، الذين تفصلهم عنهم مسافات بعيدة أنها حسَّنت من تفاعلاتهم مع مَن يعيشون معهمآخرون بأن التكنولوجيا الحديثة ليس لها أي أثر سلبي على تحصيلا تهم سواء العلمية أو الاجتماعية [28].

آما في مجال الكتب والصحف فقد ساهمت تقنية المعلومات مساهمة كبيرة في تطوير أساليب الطباعة والإخراج وسرعة الإنجاز بل أصبح كل إنسان يستطيع أن يقوم بطباعة ما يشاء متى يشاء من مذكرات عامة أو خاصة أو حتى كتب وكل ذلك أدى إلى تشجيع استخدام الكلمة المطبوعة وقد أدى ذلك أيضاً إلى تعزيز اقتصاديات الورق والطلب عليه والآن تتخذ الكتب شكلاً جديداً اعتماداً على التطوير التقني فكتب الوسائط الإعلامية المتعددة تحتوي على مجموعة من المحفزات المترابطة لكل من الكلمة والصوت والصورة لذلك يمكن الاعتماد عليها في تعليم اللغات والرياضيات والعلوم بجميع أنواعها دون الاستغناء عن الكتاب العادي الذي يمكن حمله واستعماله في أي مكان أو زمان وعلى أية حال فقد أصبحت اقتصاديات الموسوعات الإلكترونية تفوق تلك المطبوعة في الكتب العادية وسوف تزداد تلك الأهمية عندما يتم الاتصال الإلكتروني مع المكتبات وعندما تحدث ثورة أكبر في مجال تقنية الشاشات بحيث يستطيع الجميع التعامل معها دون قيود لذلك فإن من يتخلف اليوم عن المتابعة والاستفادة من المستجدات التقنية الحديثة سوف يجد نفسه من

زمرة المتخلفين عن ركب الحضارة ومن جهلة القرن الحادي والعشرين [29].

آما في مجال التعليم فلا شك أن التعليم الركيزة الأساسية التي تبني شخصية الإنسان وانتماءه وتوجهاته خصوصاً إذا كان تعليماً منفتحاً يأخذ من تقنية العصر ايجابياتها ويستخدمها في جعل المتعلم أو الدارس يواكب المتغيرات العصرية ضمن إطاره الفكري والثقافي وليس تعليماً جامداً يبعث على الملل ويؤدي إلى الهرب والانبهار بالقشور والخزعبلات التي تبثها بعض القنوات الفضائية والتي تتم بالمحتوى المتدني المستوى قليل الفائدة

لذلك فإن التعليم بجميع مفرداته لابد أن يستفيد من التطور السريع في مجال تقنية المعلومات، وأن يكون ذلك في جميع المراحل.

لقد أصبح التعليم الآن المقرون بالمشاهدة والتدريب جزءاً رئيسياً من العملية التعليمية في الدول المتقدمة وهذا غير ممكن لولا استخدام التقنية الحديثة في مجال الحاسبات والتلفاز والفيديو وشبكات الإنترنت وغيرها من الوسائل.

5.أسباب ضعف العلاقات الاجتماعية

أ.التقليد الأعمى

تأثَّر الأطفال والمراهقون والشباب بأفلامِ ومسلسلاتِ التِّلْفاز، إلى درجة التقليد الأعمى لأبطال وهميين، وتقليدهم بارتكاب جرائم، وقد كان هذا التقليد وراءَ انزواءِ وبُعْد جيل الصغار والمراهقين عن جيل الكبار، في العادات والتقاليد والأفكار، وعدم سيطرة الكبار على هؤلاء الأحداث، بسبب اغترابهم وانعزالهم عن محيطهم الاجتماعي [30].

ب. الأقمار الصناعيَّة

قام البرلمان الروسي بتطوير نظام التلفزيون الفائق الدِّقَّة من خلال الأقمار الصناعيَّة، وكان معنى ذلك أنَّ المواطن في الاتحاد السوفيتي، كان يستقبل معلومات من خارج حدود دولته، والحكومة - بموافقتها على دخول هذه المعلومات دون رقابة إلى البلاد أعطت في الواقع الضوء الأخضر لتغيير بِنْيَة وأفكار الناس، ولعل هذا السبب ساعَدَ على تفكُّك جمهوريات الاتحاد السوفييتي [31].

هذه الأقمار ربطت دول العالم بعضها ببعض، وصار العالم "قرية كبيرة"، وانتشرت الأفكار، حتى إنَّ القيَم والثوابت المجتمعيَّة التي تتَّفق مع الفطرة الإنسانيَّة التي انهزمتْ أمام القيم من خلال ضعف العَلاقات الاجتماعية، وبث الأقمار سمومها خلال ما يعرف بـ"الفضائيات"

ج. غرفة الدردشة

وهذه وسيلة من وسائل التكنولوجيا التي تساعد على ضعف العَلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسرة الواحدة فمن سلبيات غرفة الشات Chat العزلة الاجتماعية، والناتجة مِن إفراط الشباب في استخدام الإنترنت، وبالذات غرف المحادثة تجعل الشاب منعزلاً عن محيطه الاجتماعي حتى إنه قد لا يعرف سوى الأصدقاء والصديقات الوهميين الموجودين في غرفة المحادثة هذه العزلة لها آثار سيئة على الشباب، منها الانشغال عن الدراسة والرسوب، أو الانقطاع عن الدراسة، أو ضياع مستقبله الدراسي، وضعف الروابط الاجتماعية بينه وبين أفراد أسرته "

د. التويتر Twitter و الفيسبوك

حذَّر علماء وباحثون من إدمان الشباب والأطفال لأجهزة التكنولوجيا - خاصة شبكة الإنترنت - وبالخصوص صفحة "الفيسبوك"

حيث إنها تعزلهم عن محيطهم الاجتماعي، وتجعلهم يتعاملون مع أصدقاء افتراضيين .

وقد كانتْ غُرفة الدَّردشة في السابق المتنفَّس الوحيد للشباب للتواصُل مع الشباب الآخرين، حتى ظهر (الفيس بوك)، وجعلهم أكثر إدمانًا للإنترنت وأكثر عزلة عنْ أسرهم لأسبابٍ عديدة منها الفضول، ومحأولة إظهار المستخدِم لشخصيته، وبأنه حاضر دائمًا في الإنترنت، إذ يعرض صوره، ويطَّلع على صور الآخرين، كما أنه يكتب تعليقات، ويطلع على آخرين وهذا يتطلَّب منه الكثير مِن الوقت، إلى درجة أنه لا يجد فُرصة للحديث مع أي شخص اما عن موقع التواصل تويتر فقد كشفتْ دراسةٌ حديثةٌ أنَّ الإقلاع عن التدخين والكحول أصعب مِن تَرْك موقع "تويتر"، وقد أجرى الدراسة فريقٌ بحثي من جامعة شيكاغو الأمريكية، تابعوا فيها إرادة 205 أشخاص، ترأوحت أعمارهم بين 18 و85، في مدينة ألمانية، وتبين أنه مع مرور النهار تضعُف الإرادة الإنسانيةُ تدريجيًّا، وكانتْ إرادة الإنسان أقوى في مُقأومةِ رغبةِ ممارسةِ التمارين الرياضية، والحاجة الجنسية، والرغبة الشرائية [32].

وأضاف هوفمان أن مقأومة التواصل الاجتماعي صارت في غاية الصعوبة لسهولة الوصول إليها، وتوافر الأجهزة الذكية ولأنها لا تكلِّف كثيرًا من المال [33].فمواقع التواصُل الاجتماعي لا تقوِّي عَلاقة الإنسان ببني جنسِه، وإن كان ذلك في الظاهِر، فهي تجعله في جل وقته منعزلاً عنْ مُحيطِه الاجتِماعِي، بل قد تدفعه إلى التواصُل مع أشخاص وهميين أو مخادعين، فيقع فريسةً للابتزاز والمكر .

هـ. الهواتف المحمولة

ان التقنيات الحديثة، التي فرضها التطوُّر الراهن في مجال التكنولوجيا والعلوم أثبتت أن لأجهزة التكنولوجيا سلبياتٍ عديدةً منها

التأثيرات الصحية، وانشغال الشباب لساعات طويلة في تناقل محادثات فارغة، تَشْغَلهم عن متابعة تحصيلهم العلمي، وتُضْعِف التواصل الاجتماعي لديهم، وتؤدِّي إلى تناقُل الإشاعات [34].

6.أشكال ضعف العلاقات الأسريَّة في ضل التكنولوجيا

ضعف عَلاقة الطِّفل بأمِّه وأبيه لقد اصبحت عَلاقات أفراد الأسرة ضعيفة بين الكبار في الأسرة بل وتعدت كذلك الى الصغار وذويهم ذلك أن عَلاقة الطفل والرضيع أصبحتْ ضعيفة بأمه وبأبيه بسبب عمل الاب الدائو وخووج المرأة للعمل من جهة اخرى حتى اصبح افراد الاسسرة الواحدة نادرا ما يلتقون و أشارتْ إحدى الدِّراسات إلى مُشكلة تعلق الطفل بالمربِّية التي تتولى أموره، ويكون هذا التعلق في سن 3 – 4 سنوات مِن عُمر الطفل، ومن ثَمَّ يكبر ويزداد تعلُّقه بها، وينتهي عقد الخادمة،فتختفي فجأة من حياة الطفل، وتأتي خادمة أخرى، فيدخل الإحباطُ في نفسه، وتضعف العَلاقة بين الطفل وأمه إذ غالبًا ما يكون التعلُّق – من جانب الطفل – بالمربية، وليس بالأم، حيث تقوم بإشباع الحاجات الأساسية للطفل من المأكل، والمشرب، ونظافة الجسم عند الابتلال، وتشبُّع حاجاته إلى الراحة واللعب، ومن ثَمَّ فهي أم بديلة.

وفي هذا ما يبعد الطفل تدريجيًّا عن الأم، بل قد لا يسأل عنها عند غيابها، أو وجودها في المنزل، والأعجب أنه قد ينزعج إذا لم يجد المربية، أو الخادمة بجانبه، عندما تنشغل عنه عند أداء وظائفها الأساسية في المنزل، وأحيانًا قد يناديها كما لو كانت أمه[35].

و كذلك مُكُوث الأطْفال لُمشاهدة أفلام كرتونيَّة لمدة طويلة، تَجْعلهم ينْعَزِلون عن والديهم خاصة إذا أدمن الأطفال مشاهدة أفلام الكرتون، ولعل الكبار يشجِّعون هؤلاء الأطفال على مُشاهدَة هذه الأفلام كي يتخلَّصوا من مُشكلاتهم وأذيَّتهم في المنزل[36].

وبعد ظهور جهاز "الأيباد" المخصَّص للصِّغار، بدأ أولياء الأمور يشكون من هذا الجهاز، الذي سلب منهم أولادهم، وجعلهم يفضِّلونه على الدراسة اليومية، وكتابة الواجبات المنزليَّة.

7. ضعف علاقة الحدث المراهق أو الشاب بوالديه

لقد أثَّرت شبكةُ الإنترنت على الأطفال والشباب وجعلتْهم منعزلين لِمَا تعرضه هذه الشبكة من برامج تجعل الطفل أو المراهق أو الشاب يبتعد عن والديه، ويقضي ساعات طويلة أمام هذه الشبكة، وظهر ما يعرف بـ(إدمان الإنترنت)، ومِن مخاطر هذا الإدمان الانعزال، وترك الحياة الاجتماعية لهذا المدمن، ونتيجة قضاء ساعات طويلة أمام شبكة الإنترنت فسنجد الشابَّ أو المراهِق لا يَخْتَلِط بالناس وسيصيح منعزلاً اجتماعيا[37].

وجاء في دراسة" الفرارجي،2011" نشرتْها جريدة السياسة الكويتية، وهي دراسة عن التَّحديات التي تؤثِّر على صِحَّة الشباب، ووضع البرامج والإستراتيجيات المناسبة للتعامُل مع هذه التحديات المهمة، وهي ليستْ تحدِّيات صحية فقط، ولكنها تحديات اجتماعية أيضًا ان الجيل الجديد يمضي الساعات الطوال أمام أجهزة الكمبيوتر، ويجد ضالته في التواصُل مع غيره عبر مواقع التواصل الاجتماعي، فيجلس الشباب لأوقاتٍ غير محدودة أمام أجهزة التواصُل، ويستفيدون من تكنولوجيا التواصُل والمعلومات، وفي المقابل فإنَّ هذه الساعات تعني العزلة الاجتماعيَّة عن الأسرة، وتعني الخمول الجسْمانِي، وتعني الضغط والتوتُّر النَّفسي، فضلاً عن التأثيرات السَّلبيَّة عليهم نتيجة الدخول إلى المواقع غير البريئة واللا أخلاقية[38].

- **ضعف علاقة الزوجين بسبب الهاتف المحمول**

نتيجة انشغال الزوج بالعمل خارج المنزل فإنه لا يستطيع أن يتخلى عن الهاتف المحمول، الذي يأخذ جُلَّ وقته حتى في منزله، ولا يستطيع أن يتحدَّث مع زوجته بعض الوقت إدمان بعض الأزواج استِخدام الإنترنت يُؤدِّي إلى العُزلة عن أسَرِهم، ويحبُّون الوحدة والانطواء، ويُهملون شُؤون أسرهم[39].

- **ضعف العلاقة بين أفراد الأسرة بسبب التلفاز**

لقد أضحى الفرد داخل الأسرة لا يكاد يستغني على التلفاز فأصبح هو الونيس و الصاحب و الصديق وأحيانا حتى المربي وإفراد الأسرة كلهم (مُتَسَمِّرون) أمام جهاز التلفاز أو الحاسوب حتى إن حجرة الطعام لم يعودوا بحاجة إليها لأن الجميع أصبح يحمل طعامه، ويذهب للجلوس أمام التلفاز [40].

وقد نتج عن كل هذا تصدع في العلاقات الأسرية وفقدان الأسرة لتماسكها مع انتشار الصراعات داخل بنائها أدت إلى إضعاف منظومتها القيمية و لأن الأسرة هي القاعدة الأساسية في تكوين هيكل المجتمع و جب على الفرد الاعتناء بمجموعة العلاقات الممارسة داخلها.

خاتمة:

كما سبق و ان رأينا كيف تحطم التكنولوجيا ا واسر العلاقات بالرغم من ايجابياتها الا ان على الفرد داخل الأسرة اعادة بناء المنظومة العلائقية بين الأفراد خاصة فيما يتعلق بالحوار داخل الأسرة اذ يجب على الآباء والأزواج اتِّباع نِظام أُسَريٍّ مُحَدَّد مُنظَّم فعند عند اجتماع أفراد الأسرة مثلا في غرفة الطعام وقت تناول الوجبات يجب أن تُطفأ جميع أجهزة الهواتف أو التلفاز، حتى تُتاح الفرصة للتحدُّث والتحاور وأيضًا إغلاق أجهزة الهواتِف عند الدُّخول للمنزل احترامًا لحرمة المنزل، وللشريك والأبناء وحتى يتسنى للفرد تمضية بعض الوقت مع باقي الأفراد .

إيجاد أوقات فراغ ولو مرة في الأسبوع لـ يجلس جميع أفراد الأسرة لممارسة نشاط ترفيهي أو للتحاور **ثم** إنَّ الناس بشكل عامٍّ يُعَانون مِن هدر أوقاتهم و أوقات الفراغِ لدَيْهم، خاصة بعد التطور التكنولوجي، حيث إنهم لا يُقَدِّرون قيمة الوقت، خاصَّة الأوقات التي تذهب امام الشاشات الالكترونية ومع اللهو اذ لابد من توعية أفراد الأسرة كبيرِهم وصغيرِهم، بقيمة الوقت، وصرفه في النافع والمفيد.

ومنها التقليل من المكوث أمام أجهزة التكنولوجيا و توجد دوراتٌ تدريبية في مجال التواصُل الاجتماعي والترابُط الأسري ينبغي الالتحاق بها، خاصة لمن يُعاني مِن العُزلة والانطواء بسبب أجهزة التكنولوجيا لذا فمن المفيد أن يلتَحِقُوا بهذه الدورات كي يتغلَّبوا على ضَعْف العَلاقات الاجتماعيَّة في الأسرة هذا دون اغفال الدور الاساسي الذي تلعبه وسائل الأعلام في توعية الناس بأضرارِ وسلبيَّاتِ أدوات التكنولوجيا، فلا ينبغي التخَلِّي عن هذه التَّوعية بحجة الانفتاح الحضاري والثقافي، ونقل كل أنواع التفسُّخ والانحلال الخلقي مِن خلال أفلام السينما، ومسلسلات التلفاز، وشبكة الإنترنت دون ان ننسى المؤسسات

المدنية خاصة تلك التي تهتم بقضايا الطفولة والشباب والأسرة بشكل عامٍّ، فعليها أن تكثّف جهودها في التنسيق والتعأون فيما بينها مِن أجْلِ المحافَظة على ترابُط الأسرة وتَوْعية أبنائها لأنَّ صلاح الأسرة وأفرادَها يعتبر صلاحٌ للمجتمع والأمة.

❖ هوامش البحث:

(1) مجلة مجمع اللغة العربية دمشق سوريا.

(2) For ex., George Crabb ,**Universal Technological Dictionary, or Familiar Explanation of the Terms Used in All Arts and Sciences, Containing Definitions Drawn From the Original Writers**) ,London Baldwin, Cradock and Joy, 1823), s.v"technology.

(3) Merriam-Webster Dictionaries Technology.

(4) Joseph Sumph et Michel Hugues, **Dictionnaire de Sociologie**, paris, librairie, la rousse, 1973, p 131.

(5) عبد الله عبد الرحمان: **علم الاجتماع النشأة و التطور**، الاسكندرية دار المعرفة الجامعية، 1999، ص253.

(6) مجموعة من المؤلفين المعجم الوسيط: مرجع سبق ذكره، ص 18.

(7) انتوني جدنر: **علم الاجتماع، (ترجمة فايز الصباغ)**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط4، 2001، ص 254.

(8) عبد القادر القصير:**الأسرة المتغيرة في مجتمع المدينة العربية**، دار النهضة العربية بيروت"، 1999، ص 34.

(9) ابن منظور: **لسان العرب**، بيروت، دار الفكر العربي، جزءرقم 6، ص 937.936.

(10) إبراهيم إمام: **الإعلام والاتصال بالجماهير**، القاهرة، دار المعارف، 1971، ص 5.

(11) مي العبد الله: **نظريات الاتصال**، بيروت دار النهضة العربية، 2006، ص ص 23-25.

(12) صالح محمد علي أبو جادو: **سيكولوجية التنشئة الاجتماعية**، دار البسرة للنشر، عمان، ط4، 2004، ص 218.

(13) عبد القادر القصير: **الأسرة المتغيرة في مجتمع المدينة العربية**، ص201

(14) سلوى عثمان صديقي: **الأسرة و السكان**، الإسكتندرية المكتب الجامعي الحديث، 2003، ص 34.

(15) فاتن شريف: **الأسرة و القرابة دراسات في الأنثروبولوجيا الاجتماعية**، الاسكندرية دار الوفاء لدنيا الطباعة، 2006، ص 196.

(16) فاتن شريف: **الأسرة و القرابة دراسات في الأنثروبولوجيا الاجتماعية**، مرجع سبق ذكره، ص 32.

(17) http //yasmin.jaeed.com/family/146.

(18) فاتن شريف: مرجع سبق ذكره، ص 206.

(19) مجلة ولدي العدد 22.

(20) مجلة الفرقان الإلكترونية: **التكنولوجيا وأثرها على العَلاقات الاجتماعية**، 2008.

(21) http //www.alukah.net/social/0/38731.

(22) http //www.alukah.net/social/0/38731.

(23) مصطلحات في الاعلام و الاتصال، الجزائر دار اللسان العربي للترجمة و التأليف و النشر، ط2، 1414.

(24) مجلة بلسم، العدد 452 لشهر فيفري2013.

(25) مجلة بلسم، العدد 452، لشهر فيفري2013.

(26) المرجع السابق.

(27) مجلة بلسم:العدد 452، لشهر فيفري2013.

(28) مجلة الفرقان الإلكترونية: **التكنولوجيا وأثرها على العَلاقات الاجتماعية**، 2008.

(29) عبد العزيز على الخزاعله: **العولمة الأسرة(تحليل سوسيولوجي)**، أعمال الندوة السنوية التاسعة لقسم علم الاجتماع، القاهرة، 7-8 مأي2002، ص50.

(30) المرجع السابق.

(31) جريدة الشرق الاوسط مرجع سابق.

(32) جريدة الأنباء 7/ 2/ 2012 نقلاً عن جريدة غارديان البريطانية.

(33) جريدة الأنباء 7/ 2/ 2012 نقلاً عن جريدة غارديان البريطانية.

(34) المرجع السابق ص 50.

(35) http //www.alukah.net/social/0/38731.

(36) الشرق الأوسط، العدد 9165، جانفي 2004.

(37) علاء الدين الفرارجي دراسة التحديات التي تواجه الشباب، ، 2011، جريدة السياسة 31/ 1/ 2012.

(38) المرجع السابق.

(39) فاطمة سعيد أحمد بركات المشكلات الأسرية المترتبة على إدمان الإنترنت، جامعة 6 أكتوبر 2009.

(40) المرجع السباق .

البيئة كمجال تعليمي في المدرسة الابتدائية بالجزائر

الباحثة: مازيا عيساوي

جامعة بسكرة، الجزائر

الملخّص:

يتناول هذا المقال مفهوم الثقافة البيئية كوسيلة لتطوير الوعى بغية بلورة سلوك ايجابى ودائم، والذي هو بمثابة الشرط الأساسى كى يستطيع كل شخص أن يؤدي دوره بشكل فعّال في حماية البيئة وبالتالي المساهمة في الحفاظ عليها.

و نظرا لما للثقافة البيئية من أهمية في حياتنا وخاصة الأطفال، أصبح من الضروري تضمينها في المناهج الدراسية المختلفة، بل كمنهاج مستقل يدرس للتلاميذ، وخاصة في المرحلة الابتدائية؛ وهذا ما سنتعمق فيه أكثر من خلال الإجابة على التساؤل التالى:مامستوى تناول المناهج التعليمية المختلفة للثقافة البيئية في المدرسة الجزائرية؟

Résumé :

Cet article traite la notion de la culture environnementale comme moyen de développement de la conscience environnementale en vue d'acquérir un comportement environnemental positif et durable, ce qui est une condition fondamentale pour que chaque individu puisse jouer efficacement son rôle dans la protection et la préservation de l'environnement. Vu l'importance de la culture environnementale dans notre vie et surtout les enfants, il est urgent et important qu'elle soit incluse dans les différents programmes scolaires et en particulier ceux du primaire. Notre présente étude se focalise sur ce thème en tentant de répondre à la problématique suivante : A quel niveau les différents programmes scolaires en Algérie traitent-ils la culture environnementale?

مقدّمة:

خلال العقود الأخيرة تحولت البيئة ومشكلاتها، مع تفاقم تداعياتها الوخيمة، إلى قضايا ساخنة تفرض نفسها بإلحاح في كل مكان من العالم، على المعنيين بشؤون البيئة والمتخصصين بها، وعلى جميع أفراد المجتمع أينما كانوا وحيثما وجدوا، وعليه فان حماية البيئة والعناية بها ترتبط وثيق الارتباط بوعي الإنسان وثقافته البيئية.

حيث أصبحت هذه الأخيرة- الثقافة البيئية- تشكل أحد أهم الروافد التى أصبح الإنسان المعاصر ينادي بها، وهذا نظرا للأهمية الكبيرة التى تحتلها في حياة البشرية، وبات من الملح إيلاء الأهمية القصوى لهذا الموضوع فى الجزائر، تجنبا للمزيد من التدهور في بيئتنا، من خلال مجموعة من الاستراتيجيات و التدابير.

1.تحديد المفاهيم

1.1 الثقافة

1.1.1. تعريف الثقافة لغة:

ثقافة، مصدر ثقف بالضم: صار حاذقا خفيفا فطنا[1].

2.1 تعريف الثقافة اصطلاحا:

تناول العلماء مفهوم الثقافة بتعاريف مختلفة حسب تخصصاتهم واتجاهاتهم الاجتماعية والمعرفية وتوجهاتهم الفكرية في المجتمع الذي ينتمون إليه، وتوجهاتهم نحو طبيعة هذا المجتمع ومسايرته للتقدم الحضاري وتحقيق أهدافه[2].

وعليه سنأخذ من بينها على سبيل المثال تعريف العالم-ادوارد تايلور-، الذي نظر للثقافة على انها: "ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والأخلاقيات والقانون والعادات والقدرات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع[3].

2.1 البيئة:

1.2.1 تعريف البيئة لغة:

يعود الأصل اللغوي لكلمة البيئة في اللغة العربية إلى المصدر" بوأ"، الذي اشتق من الفعل الماضي "باء"، قال ابن منظور في معجمه الشهير(لسان العرب)، باء إلى الشيء يبوء، بوءا، أي رجع، وبوأ بتضعيف الواو أي سدد، ومنه قولهم: بوأ الرمح نحوه، أي سدده نحوه وقابله به، وتبوأ: نزل المقام.

تقول: تبوأ فلان بيتا، أي اتخذ منزلا، وذلك إذا نظر إلى أسهل مايراه وأكثر استواء وأفضله لمبيته فاتخذه منزلا[4].

1.2.1 تعريف البيئة اصطلاحا:

ولا يختلف المعنى الاصطلاحي للبيئة عن معناها اللغوي كثيرا وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك اتفاق بين الباحثين والعلماء على تحديد معنى البيئة اصطلاحا بشكل دقيق، إلا أن معظم التعريفات تشير الى المعنى نفسه[5].

وقد عرف برنامج الأمم المتحدة البيئة على أنها:" الإطار الذي يحيا فيه الإنسان ضمن مجموعة من النظم الطبيعية والاجتماعية والثقافية التي تشكل الدورة الحياتية للإنسان والكائنات الأخرى[6].

هذا التعريف يرى بأن البيئة مجال يعيش فيه الإنسان مع غيره من الكائنات الحية وغير الحية، وأن هذا الحيز يحتوي على عدة نظم طبيعية وأخرى وضعية تتفاعل فيما بينها مشكلة الدورة الحياتية للإنسان وغيره من الكائنات الأخرى[7].

3.1 الثقافة البيئية:

الثقافة البيئية هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعارف والقيم والاتجاهات البيئية، أي كل ما يتعلق بالبيئة، غير أن الثقافة البيئية ترتبط بالتربية

والتعليم ولعل ابرز مثال يتحدث عن الثقافة البيئية هو ذلك الذي يربطها بعنصرين هما المشاركة والتعليم البيئي بمعنى السلوك البيئي والوعي البيئي[8].

كما عرفت الثقافة البيئية على أنها:" كل مايعبر عن اكتساب الفرد للمكونات المعرفية، والانفعالية والسلوكية من خلال تفاعله المستمر مع بيئته، والتي تسهم في تشكيل سلوك جيد يجعل الفرد قادرا على التفاعل بصورة سليمة مع بيئته، ويكون قادرا على نقل هذا السلوك للآخرين من حوله[9].

2.أبعاد الثقافة البيئية:

إن للثقافة البيئية والمتمثلة في مجموعة المبادئ والقيم والأفكار السائدة في المجتمع والممثلة لرصيد أفراده نتيجة الوعي البيئي المتراكم لديهم من مصادر عدة؛ هي في النهاية المنظمة والمحددة لسلوكهم، فهما وتخطيطا والتزاما، وهي تعتمد على عنصرين أساسيين:

- عنصر موضوعي متوارث من حصيلة قيم المجتمع ككل يتسم بالعمومية والشمول يتم انتقالها من جيل إلى جيل ومن فرد إلى فرد، مما يجعلها موحدة لغالبية أفراد المجتمع الخاضعين لنفس الظروف والمتعاملين مع نفس المعطيات.
- عنصر ذو طبيعة شخصية أو ذاتية, يتوقف وجوده على مدى القناعة الخاصة لكل فرد بضرورة الالتزام بتلك المبادئ والقيم أو الأفكار المتوارثة، وهذا ما يفسر وجود بعض الأفراد غير المهتمين بالبيئة ومشاكلها لسبب ما، قد يدفعهم للاعتداء عليها، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة رغم ارتفاع مستوى الوعي البيئي الجماعي[10].

كما أن الثقافة البيئية باعتبارها أسلوب لحماية البيئة فإنها بشكل عام تأخذ بعدين:

- **الأسلوب الوقائي:** وهو العمل على حدوث تلافي المشكلات البيئية والحد من تأزمها ويتأتى ذلك من خلال السلوكات الرشيدة والممارسات الايجابية نحو البيئة، ولا يتوقف ذلك على المستوى الفردي وحسب بل

لابد أن يمس أيضا مستوى الجماعة؛ من خلال النصح، الإرشاد والتوجيه.

- **الأسلوب العلاجي:** محاولة معالجة المشكلات البيئية، بغرض التخفيف منها أو إزالتها، ويتم ذلك على المستوى الفردي والجماعي[11].

كما أن للثقافة البيئية أيضا جملة من الأبعاد نذكر من بينها:

- ✓ المحافظة على المساحات الخضراء.
- ✓ المحافظة على نظافة الأحياء.
- ✓ ترشيد استهلاك الماء.
- ✓ التعريف بالنظام البيئي ومكوناته.
- ✓ التعريف بالمشكلات البيئية الإقليمية والعالمية.

كما يمكن الإشارة هنا إلى أهم الركائز التي تقوم عليها الثقافة البيئية:

- ✓ الشعور بالمسؤولية[12]، هي شعور الفرد بالمسؤولية اتجاه بيئته.
- ✓ النظافة والصحة [13]، بمعنى أن صحة المجتمع أساسها صحة البيئة ونظافتها.
- ✓ الثقافة الجمالية والذوقية [14]، بمعنى أن النظافة والذوق الفني مسؤولية الجميع.
- ✓ الالتزام الشرعي [15]، دعوة الإسلام الى احترام البيئة وعدم الإضرار بها.

3. أهداف الثقافة البيئية :

للثقافة البيئية جملة من الأهداف يمكن حصرها في النقاط التالية:

- إتاحة مجالات واسعة لتكوين المفاهيم وتحديد السلوكيات البيئية المرغوبة.

- توظيف مهارات التفكر العليا لمواجهة التحديات البيئية.
- إكساب المواطن المهارات البيئية وتنميتها بالتفكر الناقد والتطبيق العملي للمعلومات [16].
- حماية وحفظ صحة الإنسان والبيئة على حد سواء.
- حماية المصادر الطبيعية كالتربة والماء والهواء والمناخ.
- الحفاظ على التنوع البيئي والحيوي والأماكن الطبيعية.
- حماية وحفظ الموارد المعنوية والتراث الحضاري كقيم حضارية وثقافية واقتصادية للفرد والمجتمع.
- استبدال المصادر الأحفورية بالمصادر الطاقوية البديلة [17].
- إزالة أو معالجة الأضرار البيئية القائمة.
- تجنب أو التقليل من المشاكل والأخطار البيئية الراهنة.
- الوقاية الاحتياطية من المشاكل البيئية المستقبلية والتي قد يكون من الممكن تداركها [18].

4. أهمية الثقافة البيئية:

إن الاهتمام بالبيئة ومكوناتها جزءاً لا يتجزأ من اهتمام كافة الجهات والهيئات والوزارات وحتى الأفراد، في سبيل الحفاظ على بيئة سليمة ونظيفة بكل ماتحويه من كائنات حية، ولعل الخطوة الأهم هي البدء مع الأطفال، جيل المستقبل، وتثقيفهم بيئياً من خلال خلق سلوك بيئي وحب للبيئة وتعليم الأطفال كيفية المحافظة على جمالها وصحتها وديمومتها، وبالتالي الحفاظ على حياتهم المستقبلية سليمة ومعافاة [19].

ومما سبق يمكن القول بان للثقافة البيئية دور في تزويد الفرد بالمعرفة وطرق التفكير وأساليب العمل وأنماط السلوك المختلفة في تعاملهم مع البيئة، فمن

خلالها تتحقق نشأة مواطن يتمتع بالالتزام البيئي والذي يحتم عليه إتباع ماهو صواب وتجنب ماهو خطا دون وجود رقابة خارجية عن سلوكه, وترسيخ قيم المشاركة في حماية البيئة وصيانتها، ليصبح السلوك البيئي جزءا لا يتجزأ من أخلاق الإنسان وثقافة المجتمع [20].

بالإضافة إلى أن الثقافة البيئية تسهم في إعداد المواطن بيئيا وصولا إلى تنمية الحساسية البيئية التي تنتج عنها مسؤولية بيئية تؤدي إلى الارتقاء بسلوك الأفراد وتكوين الأخلاق البيئية التي تحد من السلوكيات السلبية وتدفعها إلى السواء [21].

المشكلات البيئية وآثارها على التنمية والصحة:

مشكلات البيئة هي كل تغير كمي أو كيفي يلحق بأحد الموارد الطبيعية في البيئة بفعل الإنسان، أو أحد العوامل الفيزيقية بنقصه أو تغير من صفاته أو يقلل من توازنه بدرجة تؤثر على الأحياء التي تعيش في هذه البيئة وفي مقدمتها الإنسان تأثيرا سلبيا [22].

إن الثقافات الإنسانية هي التي وجهت الفرد والمجتمع إلى التعامل بشكل مدمر وإجرامي مع الطبيعة وقد مرت في هذا التوجه بأشواط تاريخية مهمة لا يمكن تجاهلها وهي إجمالا تشكل جذور المشكلات البيئية وتتمثل أسبابها فيما يلي:

- ✓ مسؤولية الرأسمالية تجاه البيئة.
- ✓ الصناعة والبيئة.
- ✓ الحرب والبيئة.
- ✓ التزايد السكاني وأثره على البيئة.
- ✓ العوامل الطبيعية [23].

وقد أصبحت مشاكل البيئة تكتسي أهمية كبيرة على كافة المستويات من حيث أسبابها ونتائجها وكذا آثارها [24].

وبالتالي انشغلت بها جميع الدول وانعقدت من اجلها العديد من المؤتمرات المحلية والدولية، واهتم بها الكثير من العلماء والمفكرين وحتى عامة الناس [25].

6. الثقافة البيئية كأهم إستراتيجية لمعالم المشكلات البيئية:

يسعى التثقيف البيئي إلى جعل سكان العالم أكثر وعيا واهتماما بالبيئة وبالمشاكل المتعلقة بها، ليمتلكوا المعرفة والمهارة والسبل والحوافز والالتزام للعمل كأفراد أو مجموعات من اجل إيجاد الحلول للمشاكل الآنية والحيلولة دون نشوء مشاكل جديدة(تصريح بلغراد (1976).

ولان علينا أن نهتم على أن يبقى على الكرة الأرضية بعد مغادرتنا لها موارد كافية تستجيب لاحتياجات الأجيال القادمة، ليس هذا فحسب، بل يقع علينا واجب تعليم الأطفال أن يولوا التقدير والاحترام للكنوز الطبيعية بالبيئة رغبة في حمايتها [26].

ويكون ذلك من خلال التنمية المستدامة؛ وهي التنمية التي تلبي احتياجات الحاضر دون الإخلال بقدرات الأجيال القادمة على تلبية احتياجاتها, أو هي تعبير عن التنمية التي تتصف بالاستقرار وتمتلك عوامل الاستمرار والتواصل [27]؛ وذلك من خلال إدماج البعدين البيئي والاجتماعي في كافة الأنشطة التنموية، ويتم كل هذا تحت مضلة الثقافة البيئية [28].

وعليه فمعالجة المشاكل البيئية تنطلق من مجتمع يستطيع أن يعي الأخطار المحدقة به وبالأجيال اللاحقة، ولا يمكن مواجهة هذا المشكل إلا بغرس قيم ثقافية وسلوكية تستطيع أن تتفاعل ايجابيا سواء بشكل فردي أو جماعي تقوم على مناهج علمية مدروسة ودقيقة، لكنها لن تؤتي ثمارها إذا لم تكن مدروسة وموجهة بعقلانية وتضطلع بها الدولة والهيئات المحلية والمنظمات العالمية انطلاقا من العمل

الإعلامي إلى المؤسسات التعليمية وإلى الميدان العلمي, وهي كلها تؤدي إلى غرس قيم جديدة وبناء أفكار تواجه السلوكات الإنسانية نحو الإيجابي [29].

7.توجهات النظام التربوي الجزائري للاهتمام بالثقافة البيئية:

إن النظام التربوي هو ذلك النظام الذي يشتمل على الأدوات والمعايير الاجتماعية التي تعمل على نقل المعرفة من جيل إلى جيل، تلك المعرفة التي تتضمن القيم وأنماط السلوك كما أن ينطوي على تعليم مهارات وقيم أساسية ولازمة لاستمرار المجتمع [30].

ويتكون النظام التربوي من أربعة أجزاء رئيسية؛ المدخلات، المعالجة أو العمليات، المخرجات، والتغذية الراجعة [31].كما يتشكل كل نظام تربوي من مستويين أساسيين هما المستوى البنائي الواصف للنظام، والمستوى الوظيفي الواصف لعملياته.

و النظام التربوي الجزائري هو أساس النظم الأخرى الموجودة في المجتمع ومحورها، إذ انه يتكفل ببناء أهم رأسمال في الأمة وهو الإنسان.فإذا كان النظام قائما على أسس قيمية وعلمية فاعلة، انعكس ذلك على نوعية الإنسان وكفاءته، ومن ثم على أدائه كعضو يساهم إيجابا في تطوير مجتمعه وإنتاج حضارته والعكس كذلك [32].

فمعالجة المشاكل البيئية تنطلق من مجتمع يستطيع أن يعي الأخطار المحدقة به وبالأجيال اللاحقة، ولا يمكن مواجهة هذا المشكل إلا بغرس قيم ثقافية وسلوكية تستطيع أن تتفاعل ايجابيا سواء بشكل فردي أو جماعي تقوم على مناهج علمية مدروسة ودقيقة، لكنها لن تؤتي ثمارها إذا لم تكن مدروسة وموجهة بعقلانية وتضطلع الدولة والهيئات المحلية والمنظمات العالمية انطلاقا من العمل الإعلامي إلى المؤسسات التعليمية و إلى الميدان العلمي، وهي كلها تؤدي إلى غرس قيم جديدة وبناء أفكار تواجه السلوكات الإنسانية نحو الايجابي [33].

وعليه فالجزائر من بين الدول التي أعطت أهمية للقضية البيئية حيث تتجسد هاته الأهمية في العديد من المجالات من بينها المجال التربوي التعليمي، غير أن هذا الاهتمام كان ضعيفا نوعا ما، حيث أن المناهج التربوية الجزائرية القديمة لم تكن تعطي البعد البيئي حقه، فالمتصفح للكتب المدرسية القديمة أوكتب تكوين المعلمين يجد أن البعد البيئي قد ورد فيها بطريقة عرضية [34]، أما فيما يخص المناهج التربوية الحديثة فقد أعطت أهمية اكبر للمجال البيئي ويظهر ذلك جليا من خلال التعديلات والإصلاحات التي قامت بها في المنظومة التربوية حيث تم دمج مواضيع متعلقة بالبيئة في المواد الدراسية وإدراج بعض الأنشطة المدرسية اللاصفية لتدعيم هذه المواد، فخصصت الحقيبة البيئية للتلاميذ، وبرنامج إنشاء النادي الأخضر الموجه لجميع الفئات المتواجدين داخل المدرسة [35].

- **تفعيل اقتراح مادة مستقلة :**

بغية التوصل إلى اقتراح علمي يغطي النقائص المذكورة آنفا حاولت الباحثة القيام بدراسة تحليلية للكتب المدرسية للطور الابتدائي؛ من السنة الأولى إلى السنة الخامسة ابتدائي.

1.8 منهج الدراسة: إن طبيعة المشكلة والأهداف المرسومة تفرض على الباحث تحديد منهج معين لتطبيقه في الدراسة، فهو الوسيلة التي تمكننا من الوصول إلى الحقيقة في أي وقت أو موقف من المواقف ومحاولة اختبارها والتأكد من صلاحيتها وتعميمها [36].

وحتى نضفي الصبغة العلمية اعتمدنا في دراستنا هذه على منهج تحليل المحتوى فهو كأي منهج علمي في مجال الدراسات الاجتماعية والإنسانية يختص ببعض الخصوصيات الإجرائية، والتي تعد أحيانا من العوامل التي تمس مصداقية النتائج التي يخلص إليها من باب ذاتية الباحثين أو المحللين [37].

2.8 عينة الدراسة: تعتبر العينة مجموعة فرعية من عناصر مجتمع بحث معين [38]، أما فيما يخص عينة هذه الدراسة فقد كانت كتب الطور الابتدائي من السنة الأولى ابتدائي إلى السنة الخامسة ابتدائي؛ وهذه الكتب هي: كتاب اللغة العربية، اللغة الفرنسية، التربية الإسلامية، التربية المدنية، التربية العلمية والتكنولوجية، الجغرافيا، والتاريخ.

3.8 حدود الدراسة: أما فيما يخص حدود هذه الدراسة فقد كانت الكتب المدرسية للموسم الدراسي 2012/2011.

4.8 أداة الدراسة: أما فيما يتعلق بأداة الدراسة فقد كانت عبارة عن جدول يوضح؛ نسب توافر(تناول) الكتب المدرسية لمواضيع البيئة حسب المادة الدراسية:

الرقم	السنة / المادة	01	%	02	%	03	%	04	%	05	%	مج
1	اللغة العربية	01	67	02	77	01	100	03	87	03	96.26	10
2	اللغة الفرنسية	///	///////	////	///////	02	100	04	78	04	92	10
3	التربية الإسلامية	04	27.27	01	82	07	54.05	07	58.06	07	70	26
4	التربية المدنية	03	46	04	68.18	04	83	05	61	06	71	22
5	التربية.ع.و التكنولوجية	02	63	03	74	03	96	01	100	01	125	10
6	الجغرافيا	////	///////	////	///////	06	56	02	100	02	100	10
7	التاريخ	////	///////	////	///////	05	56	06	59.26	05	79	16
المجموع		10	///////	10	///////	28	//////	28	///////	28	//////	///

	/				/						

نلاحظ من خلال الجدول المدون أعلاه أن نسبة 67 ٪، 77 ٪، 100 ٪، 87٪ ، 96.26٪، تمثل مستوى تناول مواضيع البيئة بالنسبة لمادة اللغة العربية من السنة الأولى إلى السنة الخامسة ابتدائي على التوالي.

أما بالنسبة لمادة اللغة الفرنسية فقد كانت نسبة مستوى تناول البيئة في السنة الثالثة 100٪، أما في السنة الرابعة فقد سجلنا نسبة 78٪، أما فيما يخص السنة الخامسة فقد كانت النسبة 92٪.

أما النسب 27.27%، 82 %، 54.05%، 58.06 %، 70%، فهي تمثل مستوى تناول مواضيع البيئة بالنسبة لمادة التربية الإسلامية من السنة الأولى إلى السنة الخامسة ابتدائي على التوالي.أما بالنسبة لمادة التربية المدنية فقد كانت نسبة مستوى تناول مواضيع البيئة في السنة الأولى 46%، أما في السنة الثانية فقد سجلنا نسبة 68.18%، أما فيما يخص السنة الثالثة فقد كانت النسبة 83%، كما نجد نسبة 61 %في السنة الرابعة، ونسبة 71 % في السنة الخامسة.

أما النسب 63%، 74%، 96%، 100%، 125 %، فهي تمثل مستوى تناول مواضيع البيئة بالنسبة لمادة التربية العلمية والتكنولوجية من السنة الأولى إلى السنة الخامسة ابتدائي على التوالي.أما بالنسبة لمادة الجغرافيا فقد كانت نسبة مستوى تناول مواضيع البيئة في السنة الثالثة 56 % أما في السنة الرابعة فقد سجلنا نسبة 100 %، أما فيما يخص السنة الخامسة فقد كانت النسبة 100%.

أما بالنسبة لمادة التاريخ فقد كانت نسبة مستوى تناول مواضيع البيئة في السنة الثالثة 56%، أما في السنة الرابعة فقد سجلنا نسبة 59.26 %، أما فيما يخص السنة الخامسة فقد كانت النسبة 79 %.

هذا فيما يخص مستوى تناول الكتب المدرسية لمواضيع البيئة حسب المادة الدراسية، أما فيما يتعلق بترتيب المواد الدراسية المتناولة لموضوعات البيئة فيمكن

القول بان مادة اللغة العربية احتلت المرتبة 01 في السنة الأولى والثالثة، والمرتبة رقم 02 في السنة الثانية، والمرتبة رقم 03 في السنة الرابعة والخامسة.

أما اللغة الفرنسية فقد احتلت المرتبة رقم 02 في السنة الثالثة، والمرتبة رقم 04 في السنة الرابعة والخامسة.أما فيما يخص ترتيب مادة التربية الإسلامية فقد احتلت المرتبة رقم 04 في السنة الأولى، المرتبة رقم 01 في السنة الثانية، والمرتبة رقم 07 في السنة الثالثة والرابعة والخامسة.

وفيما يتعلق بترتيب مادة التربية التربية المدنية فقد احتلت المرتبة رقم 03 في السنة الأولى ابتدائي، والمرتبة رقم 04 في السنة الثانية والثالثة ابتدائي، كما احتلت المرتبة رقم 05 في السنة الرابعة ابتدائي، والمرتبة 06 في السنة الخامسة ابتدائي.أما فيما يخص ترتيب مادة التربية العلمية والتكنولوجية فقد احتلت المرتبة رقم 02 في السنة الأولى، والمرتبة رقم 03 في السنة الثانية والثالثة ابتدائي، كما احتلت المرتبة رقم 01 في السنة الرابعة والخامسة ابتدائي.

أما مادة الجغرافيا فقد احتلت المرتبة رقم 06 في السنة الثالثة، والمرتبة رقم 02 في السنة الرابعة والخامسة ابتدائي.وفيما يتعلق بترتيب مادة التاريخ فقد احتلت المرتبة رقم 05 في السنة الثالثة والخامسة ابتدائي، أما في السنة الرابعة فقد احتلت المرتبة رقم 06.

ومن خلال قراءتنا للنتائج المسجلة في الجدول أعلاه؛ اتضح لنا أن تناول الكتب المدرسية لموضوع الثقافة البيئية لم يكن كافيا؛ وهذا ما استدعى الإشارة إلى ضرورة تخصيص مادة دراسية مستقلة تعرف بمادة الثقافة البيئية في النظام التربوي الجزائري؛ و التي تعد إحدى المواد الدراسية المتضمنة مفاهيم تربوية بيئية مهمة، حيث تعد هذه المفاهيم البيئية التي يتوجب على الفرد التزامها أمرا من حيث الأداء(كالحفاظ على البيئة بغرس الأشجار، ومنع هدر الماء، وترشيد استخدام مصادر البيئة...) ونهيا من حيث الامتناع والاجتناب(كاجتناب تلويث البيئة، والاعتداء عليها، إسراف المياه وقطع الأشجار، واستنزاف ثروات الأرض...).

فالثقافة البيئية، هي ثقافة احترام وصحّة وذوق و مشاعر الطفل نفسه، وصحّة وذوق ومشاعر الآخرين وذوق وصحة البيئة المحيطة، فهي ما يجب عمله من أجل حفاظ الطفل على البيئة وحمايتها و التفاعل بسلوكيات ايجابية [39].

ولان الثقافة البيئية تتوجه إلى شرائح متباينة من المجتمع فانه يلزم لها أن تتوجه لكل شريحة منها وفقا لخصائصها ومستوياتها ونقاط اهتماماتها، ومن أكثر هذه الفئات هي فئة الأطفال بمستوياتهم المتباينة باعتبار أن مرحلة الطفولة من المراحل العمرية المهمة التي يتم فيها إعداد القوى البشرية المستقبلية، ويمكن من خلال الإعداد البيئي لهؤلاء الأطفال تحقيق تنمية مستدامة تطول جميع جوانب البيئة والمجتمع، كما أن تثقيف الطفل بيئيا يساعد بشكل كبير في تهيئته للتعامل مع قضايا البيئة المحيطة، خاصة إذا ما تم إعداده ثقافيا وحضاريا وأخلاقيا للتعامل الرشيد معها ومساعدته على إدراك العلاقات الشمولية والنظرة المتكاملة والروابط المتداخلة بين عناصرها وبين السلوك العام اتجاهها بالإضافة إلى تزويدها بالمعلومات البيئية المناسبة التي تجعله يسلك سلوكا بيئيا ايجابيا مسؤولا [40].

فالمدرسة هي التي من شانها أن تحدث فرقا كبيرا في الثقافة البيئية لدى الأطفال، ومن خلال الثقافة البيئية سيكون التلاميذ أكثر حرصا للحفاظ على البيئة، كما سيكونون قادرين على تطبيق ما يتعلمونه خارج الفصول الدراسية، ونظرا لأهمية المحافظة على كوكبنا، باتت الثقافة البيئية الآن أمرا في غاية الأهمية. ويمكن للأهالي أو أولياء الأمور والمعلمين لعب دور متميز في مساعدة الأجيال الصاعدة الناشئة على تبني ممارسات بيئية والتمسك بفهم أفضل للبيئة طوال حياتهم، وتحفيزهم ليصبحوا مواطنين ذوي إحساس بالمسؤولية تجاه البيئة [41].

خاتمة:

عندما تخرج توجهات الثقافة البيئية من نطاق تواجدها في العديد من المجالات كغرس الأشجار والأعياد والمناسبات البيئية، وتواجدها في بعض المواد الدراسية كمواضيع استثنائية؛ و تتحول هذه إلى منهج تدريسي خاص وقائم بذاته قادر على أن يأخذ دوره في كافة المناهج الدراسية وفي كافة المراحل المدرسية والجامعية بهدف تنشئة أجيال بعقول جديدة تعي مفهوم الثقافة البيئية، وتعمل على تطبيقها؛ يمكن إحداث تغييرات جذرية في طرق التفكير والسلوك البيئي عند المجتمع بحيث يتصرف كل شخص فيه وكأنه صاحب قرار ناضج خلال حياته وفي كافة نشاطاته وأعماله.

❖ هوامش البحث

(1) فؤاد افرام البستاني: **منجد الطلاب**، ط43، دار المشرق، بيروت، لبنان، 1986، ص 64.

(2) فايز محمد الحديدي: **ثقافة تروية- التربية مبادئ و أصول**-، دار أسامة، عمان، الأردن، 2007، ص 156.

(3) عبد المنعم عبد القادر الميلادي، **أصول التربية**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2004،ص 119.

(4) ذيب فيصل: **دور المسجد في نشر الثقافة البيئية**- مساجد بلدية عين اعبيد نموذجا-، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع البيئي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم علم الاجتماع، جامعة منتوري- قسنطينة-، 2008/ 2009، ص 19.

(5) محمد أبو سمرة: **الإعلام الزراعي والبيئي**، دار الراية، عمان، الأردن، 2009، ص 15.

(6) سوزان أحمد أبورية: **الإنسان والبيئة والمجتمع**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2008، ص 29.

(7) عيساوي مازيا: **واقع الثقافة البيئية في المجتمع الحضري- دراسة ميدانية بمدينة بسكرة**-، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم اجتماع البيئة، قسم العلوم مكملة الاجتماعية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2009/ 2010، ص 8.

(8) شتوي الأخضر، **برامج التربية البيئية في التلفزيون الجزائري- دراسة تحليلية لسلاسل إعلانات الغزالة دنيا**-، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع الثقافي، تخصص علم الاجتماع، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية, جامعة يوسف بن خدة، الجزائر، 2005-2006، ص 15.

(9) حسن محمد محي الدين السعدي: **دراسات في العلوم الإنسانية وقضايا البيئة**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2008، ص 240.

(10) رضوان صالح محمد, دور الثقافة البيئية في حماية البيئة الحضرية- دراسة ميدانية بمدينة عين اعبيد، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم اجتماع البيئة، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتورى، قسنطينة، 2010/ 2011، ص 101.

(11) المرجع السابق، ص 102.

(12) أيمن مزاهرة، علي الشوابكة: **البيئة والمجتمع**، دار الشروق، عمان، الأردن، 2008، ص 65.

(13) مصطفى قمش وآخرون: **مبادئ الصحة العامة**، دار الفكر، عمان، الأردن، 2000، ص 27.

(14) مزياني نور الدين، قحام وهيبة: **التوعية البيئية ودورها في تحقيق التنمية المستدامة**، الملتقى الوطني الخامس حول اقتصاد البيئة، كلية العلوم الاقتصادية، جامعة 20اوت 55 سكيكدة، بتاريخ: 11-12/ 2008، ص 3.

(15) المرجع السابق، ص 4.

(16) سناء محمد الجبور: الإعلام البيئي، دار أسامة، عمان، الأردن، 2011، ص 113.

(17) عيساوي مازيا: مرجع سابق، ص ص 72-73.

(18) تعميق الثقافة البيئية واكتشاف المواهب عند الأطفال .... مشاركة واسعة لمشروع سبانا في الاحتفالية الثالثة للطفولة والبيئة http://fedaa.alwehda.gov.sy/__archives.asp?FileName=994787407201 00609230259، ص 02.

(19) المرجع السابق، ص 3.

(20) رضوان صالح محمد: مرجع سبق ذكره، ص 94.

(21) سناء محمد الجبور: مرجع سبق ذكره، ص 113.

(22) ليندة شنافي: تنمية الوعي البيئي عند أفراد المجتمع، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة خنشلة، الجزائر، العدد 01 مارس، 2012، ص 160.

(23) أسماء مطوري: مؤسسات الشباب وحماية البيئة، مطبعة سخري، الوادي، 2012، ص ص 104-106.

(24) سامح الغرايبة، يحي فرحان: المدخل الى العلوم البيئية، دار الشروق، عمان، الأردن، 2011، ص 13.

(25) كمال رزيق: دور الدولة في حماية البيئة، مجلة الباحث، العدد 5، 2007، ص 95.

(26) عزاوي اعمر، لعمى أحمد: الثقافة البيئية بعد استراتيجي لحماية البيئة, 3/ 6/ 2013/ / 20:30، ص 49.

(27) خالد مصطفى قاسم: إدارة البيئة والتنمية المستدامة في ظل العولمة المعاصرة، الدار الجامعية، الإسكندرية، 2007، ص 20.

(28) عزاوي اعمر، لعمى أحمد: مرجع سبق ذكره، ص 49.

(29) المرجع السابق: ص 50.

(30) محمد سلمان الخزاعلة: النظام التربوي- بين وزارتي التربية والتعليم العالي-، مكتبة المجتمع العربي، عمان، الأردن، 2010، ص 58.

(31) المرجع السابق: ص ص 60-61.

(32) محمد عقوني. النظام التربوي الجزائري نقلا عن: http://aladdin.7olm.org/t2986-topic 2013/07/13/23:20.

(33) عزاوي اعمر، لعمي أحمد: مرجع سبق ذكره، ص 52.

(34) بلعيد جمعة: **دور مدارس التعليم الابتدائي والمتوسط في التربية البيئية- دراسة ميدانية بابتدائية صاولي بشير ومتوسطة قربوعة عبد الحميد ببلدية الخروب- ولاية قسنطينة**-، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم اجتماع البيئة، قسم علم الاجتماع, كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، 2010/ 2011، ص 180.

(35) عبلة غربي: **التربية البيئية في المدارس الابتدائية من وجهة نظر المعلمين**، مدارس مدينة قسنطينة نموذجا، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، 2008-2009، ص 20.

(36) فوزي غرايبية وآخرون: **أساليب البحث العلمي في العلوم الاجتماعية والإنسانية**، ط2، دار وائل، الأردن، 2002، ص18.

(37) إسماعيل رابحي: **الإصلاح التربوي وإشكالية الهوية في المنظومة التربوية الجزائرية دراسة تحليلية تقويمية لفلسفة التغيير في ضوء مقاربة حل المشكل**، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم في علم النفس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم العلوم الاجتماعية، جامعة الحاج لخضر- باتنة-، 2012/ 2013، ص 338.

(38) موريس أنجرس: **منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية تدريبات علمية**، ترجمة: بوزيد صحراوي, إشراف ومراجعة: مصطفى ماضي، دار القصبة، الجزائر، 2004، ص 301.

(39) وليد فاضل العبيدي: **الحملة الوطنية لإعداد مناهج للتربية البيئية في المدارس العراقية بالتعاون مع وزارة التربية العراقية- دراسة مشروع مقترح**-، نقلا عن: /http://www.m3arej.com

(40) سناء محمد الجبور: مرجع سبق ذكره، ص 111.

(41) برنامج بيئتي وطني التثقيفي, يعزز الوعي البيئي بين الطلاب المدارس, نقلا عن : .ww.alittihad.ae/mobile/details.php?id=121527&y=2012

00:30/2013/05/13، ص 01.

الدراسات النفسية والتربوية

اختبار فعالية برنامج انتقائي متعدد الأبعاد-نموذج أرنولد لازاروس- لعلاج الاكتئاب لدى المراهقة المتمدرسة (دراسة حالة)

الأستاذ الدكتور : نور الدين جبالي جامعة باتنة، الجزائر

الاستاذة: وردة يحياوي، جامعة بسكرة، الجزائر

الملخص:

العلاج الانتقائي متعدد الأبعاد مقاربة في العلاج النفسي، طورت من طرف (أرنولد لازاروس) كرد فعل على القيود التي يفرضها العلاج السلوكي التقليدي، ويعتبر من الأساليب العميقة في علاج اضطرابات الشخصية حيث أنه يتناول الجوانب السبعة للشخصية ممثلة في الصيغة (BASIC ID)، يسعى هذا الأسلوب إلى علاج الخلل في وظائف الشخصية السبعة، من خلال تشخيص الاضطراب في كل جانب على حدة ثم التخطيط للتدخل العلاجي عن طريق الانتقائية التقنية، وهي الاستعانة بالتقنيات العلاجية لمختلف التوجهات النظرية مع عدم ضرورة الانتماء إليها، أو الالتزام بمبادئها لأن الهدف الأول لهذا العلاج هو مساعدة العميل على تجاوز آلامه النفسية وتغليب مصلحته على أية اعتبارات نظرية.

Abstract:

The Multimodal therapy approach in psychotherapy developed by **Arnold Lazarus** as a reaction to constraints imposed by the traditional behavioral therapy and its was considered as a profound method in the treatment of personality disorders, where it deals essentially with the seven aspects of character represented in the formula BASIC ID .This method trying to treat the defect in the seven personal functions ; By diagnosing disorders in each side separately and then planning for therapeutic intervention through selective technique using various of trends techniques, without belonging necessarily to its principles, because the first objective of this method is to assist the patient to overcome his psychological pains by giving priority to his interests first.

مقدمة:

إن فكرة تكامل وتفاعل وظائف الشخصية ليست بالفكرة الحديثة، غير أن التطبيق الفعلي لهذه الفكرة لم يظهر إلا في بعض النظريات العلاجية كالعلاج المعرفي الانفعالي والعلاج المعرفي السلوكي، وحتى هذه النظريات لم تصل إلى أبعد من هذا الحد، غير أن الجديد الذي أتى به (أرنولد لازاروس) هو تجزئة الشخصية إلى سبعة أبعاد اختصرها في الصيغة BASIC ID، إن ما يميز أسلوب (لازاروس) عن بقية الأساليب هو في نظرته الشمولية للشخصية حيث يتم تحليل المشكلات النفسية إلى سبع أبعاد أساسية تتفاعل مع بعضها والتي تتمثل في الصيغة BASIC ID وهي السلوك، الوجدان، الإحساس، التخيل، المعرفة، العلاقات البينشخصية و الجانب العضوي و يركز العلاج بعد ذلك على المشكلات المميزة لكل بعد من هذه الأبعاد[1].

وطريقته المميزة في اختيار أدوات التدخل العلاجي أو ما أطلق عليه لازاروس اسم الانتقائية التقنية *Technical Eclecticism*، كل هذا بهدف تغليب مصلحة المتعالج عن الانتماءات النظرية للمعالج، سعى لازاروس من خلال نظريته إلى تكييف العلاج للمريض وليس العكس كما حاول الابتعاد عن التعصب لنظرية أو لتقنية من تقنيات العلاج النفسي مادامت أثبتت فعاليتها في ميدان العلاج النفسي، فلقد امن انه على المعالج استخدام أية تقنية من تقنيات العلاج النفسي المعروفة من اجل مساعدة الفرد على تجاوز معاناته النفسية.

لاسيما في الآونة الأخيرة حيث تزايدت الحروب والأزمات السياسية والاقتصادية والكوارث الطبيعية وأصبح الفرد مطالبا بلحاق الركب الحضاري المتسارع الذي أدى إلى التأثير على الجانب النفسي للفرد. ويعد الاكتئاب من بين أكثر الاضطرابات النفسية انتشارا وفقا لأخر إحصاءات منظمة الصحة العالمية، كما أن اثنين من أصل ثلاثة مصابين هن من الإناث و أشارت المنظمة إلى ضرورة التكفل بهذه الفئة لاسيما المراهقين منهم لما لهذه المرحلة الحرجة من حياة الإنسان من أهمية بالغة على بقية مساره، إذ تعتبر فترة تصحيحية يمكن التدخل المبكر فيها

من تجنب العديد من الاضطرابات النفسية والعقلية الأخرى، وفي سبيل هذا هدفت الدراسة الحالية إلى اقتراح برنامج علاجي انتقائي متعدد الأبعاد لعلاج المراهقة المتمدرسة المصابة بالاكتئاب.

أولا:الجانب النظري:

1-1 **تعريف العلاج متعدد الأبعاد** : Multimodal Behavior therapy

يعرف روزنهان وسيلجمان (*Rosenhan et Seligman*) هذا النوع من العلاج بالنموذج العلاجي المتعدد، وتتركز مهمة المعالج في هذا النوع من العلاج في تحليل الاضطراب إلى سبع مستويات(BASIC ID)، ثم اختيار التقنيات الملائمة لكل مستوى، مع ضرورة الاتصاف بمرونة التفكير وسعة الأفق في انتقاء التقنيات الملائمة للعلاج، وتركيز الاهتمام على التخفيف من معاناة العميل في أسرع وقت ممكن دون التعصب لوجهة نظر معينة[2].

2. **الأسس النظرية للعلاج متعدد الأبعاد:**

1.2**نظرية التعلم الاجتماعي**: حيث تستند هذه النظرية إلى مسلمة أن الإنسان يتعلم من خلال تفاعلاته وخبراته بالعالم وتفاعلات العالم والآخرين به واستجابتهم له ومن خلال هذه التفاعلات يتعلم، وبالتالي يكتسب الإنسان مختلف أنواع السلوك السوي منه وغير السوي.

2.2 **الانتقائية التقنية**: و يضم الاتجاه الانتقائي العديد من النظريات التي تشكل في مجملها المدرسة والاتجاه الانتقائي كنظرية ثورن الاختيارية، ونظرية لازاروس متعددة الأبعاد ونظرية هارت في العلاج الانتقائي الوظيفي، حيث تشترك هذه النظريات وغيرها من النماذج الأخرى في مجموعة من المبادئ الرئيسية التي تربط بينها، وتتضمن الانتقائية التقنية استخدام العديد من التقنيات المستمدة من التوجهات النظرية المختلفة في علم النفس، مع عدم ضرورة الانتماء لها [3].

3.2 الشخصية من وجهة نظر العلاج متعدد الأبعاد: شخصية الفرد عبارة عن بناء متكامل ومتفاعل الجوانب تتكون من سبع جوانب هي السلوك الوجدان،

الإحساس، التخيل المعرفة، الجانب الاجتماعي والجانب العضوي البيولوجي. ممثلة في الصيغة (BASIC ID) [4].

4.2 تفسير الاضطراب من وجهة نظر متعددة الأبعاد:الاضطراب النفسي إما أن يكون اضطراب في احد الجوانب السبعة للشخصية وانعكس على بقية الجوانب أو انه عبارة عن اضطراب في طريقة التفاعل بين الجوانب السبعة للشخصية،حيث عندما تفقد هذه الأجزاء التكامل والتفاعل فيما بينها [5].

5.2 **مبادئ العلاج متعدد الأبعاد**:

- ✓ إن البشر يتفاعلون ويسلكون من خلال الوظائف السبعة للشخصية.
- ✓ هذه الوظائف هي مترابطة ومتداخلة فيما بينها ويمكن اعتبارها نظام تفاعلي موحد.
- ✓ التقييم الدقيق والجيد والمنظم يساعد في تشخيص المشكلة وأثرها على شخصية الفرد بشكل شمولي كلي [6].

6.2 **التشخيص والعلاج متعدد الأبعاد**

التشخيص: تشخيص الاضطراب يعتمد على تحديد المشكل الذي يعاني منه كل جانب من الجوانب السبعة على حدة، ويتم ذلك من خلال التحليل الوظيفي لمشكلات المريض باستخدام شبكة التحليل الوظيفي BASIC ID، إن الإجابة عن الأسئلة أي الطرق تصلح؟ و لمن؟ وتحت أية ظروف معينة؟ غالبا ما تقتضي تقييما شاملا في بداية العلاج النفسي لجميع الأنماط السبعة للشخصية، عندها يمكن انتقاء الأدوات المناسبة للعمل، و التقييم يعتبر عملية مستمرة طوال فترة العلاج [7].

أ- العلاج:يتم من خلال انتقاء انسب التقنيات لعلاج المشكلات التي يعاني منها المريض او ما يسمى بالانتقائية التقنية.

العلاقة العلاجية: العلاقة العلاجية هي التربة التي من خلالها تستطيع التقنيات المنتقات من أداء دورها بالشكل المناسب، لهذا ليس هناك علاقة محددة يجب على المعالج الالتزام بها بل عليه أن يختار طبيعة العلاقة التي سيقيمها مع العميل مثلما ينتقي التقنيات، مع الأخذ بعين الاعتبار شخصية العميل وطبيعة المشكلات التي يعاني منها [8].

7.2 أهداف العلاج متعدد الأبعاد:على العموم هنالك 7 أهداف على المعالج أن يوزعها على الأبعاد السبعة للشخصية وهي كالتالي:

- تغيير السلوك إلى سلوك إيجابي فاعل.
- تغيير المشاعر إلى مشاعر إيجابية.
- تغيير الأحاسيس السلبية إلى إيجابية.
- تغيير الصور العقلية السلبية للذات إلى صور إيجابية.
- تغيير الجوانب المعرفية غير المنطقية إلى جوانب منطقية و تصحيح الأفكار الخاطئة .
- إكساب المتعالج المهارة في تكوين علاقات اجتماعية ناجحة.
- المساعدة على تحسين الجوانب البيولوجية له [9].

8. أدوات التقييم والعلاج: يتميز العلاج متعدد الأبعاد بمجموعة الأساليب وهي كالتالي:

أ- **التقييم:**

استبيان القصة الحياتية *Life History Inventory* : يهدف إلى سبر جوانب الشخصية السبعة وفحصها فحصا دقيقا، للحصول على صورة شاملة عن حياة العميل وهو عبارة عن استبيان يملئ من طرف العميل بعد الجلسة الأولى بمثابة واجب منزلي ويناقش معه في الجلسة الثانية [10].

شبكة التحليل الوظيفي للسلوك الصيغة BASIC ID:ابتدعها لازاروس من خلالها يتم سبر الشخصية بجميع أبعادها السبعة وتشخيص المشكلات التي يعاني منها كل بعد على حدة.إذ بعد إدارة مقابلتين أو ثلاث، وملأ استبيان القصة الحياتية.يتمكن المعالج من إنشاء بروفيل الأنموذج Modality profile إما بمساعدة المريض أو بدونه [11].

ان استخدام شبكة التحليل الوظيفي (BASIC-ID) في وصف المشكلة يساعد في تصويرها للمتعالج من سبعة جوانب السلوك، الانفعالات، الاحساس، التخيل، الافكار، الجانب البينشخصي والجانب البيولوجي [12].

- البروفيل الانموذج:Modality profile وظيفته توجيه المعالج للقصورات التي تعاني منها سلوكيات المتعالج في كل بعد، كما ان هذا البروفيل الأنموذج يضع الشكاوي النوعية ضمن إطار العمل العام، لرسم هذا البروفيل لابد على المتعالج من وصف مقتضب عن كل بند من بنوده (معنى السلوك،العاطفة،الخيال ...مع التعليمة) و عندما يتم انجاز البروفيل الأنموذج تتم مناقشة كل بند منه مع المريض.
- البروفيل التركيبي:

ب-الإجراءات العلاجية:

تسلسل المسار Firing order:افترض لازاروس أن لكل عميل ترتيبه الخاص للصيغة للصيغة BASIC ID كأن يكون ترتيبه كالتالي ASIBC ID لذا على المعالج التعرف على طريقة استجابة عميله الأمر الذي يساعد في عملية العلاج[13].الترتيب الثاني للصيغة BASIC ID: قد تستمر عملية العلاج دون أن يلاحظ كلا من المعالج و المتعالج أية تطور، لذا على المعالج أن يعيد النظر في ترتيب الصيغة و أن يعرف على أي الجوانب يجب عليه التركيز أكثر، وهي تقنية تستخدم للتركيز على مشكل محدد في الجوانب السبع للشخصية لذا فهي مفيدة لكسر الجمود في العلاج [14].

9-1 تقييم العلاج متعدد الأبعاد

أهمية العلاج متعدد الأبعاد: لقد أصبحت نظرية الانتقاء متعددة الأبعاد ضرورية لتجنب البحث عن نظرية جاهزة تستعمل في حل مشاكل الأفراد، وميزتها أنها تساعد في وضع جميع الاحتمالات نصب أعين المعالج النفسي لينتقي ما يحتاجه من تقنيات تؤدي إلى الاتزان والشمولية في علاج الاضطراب، هذا بالإضافة إلى إمكانية استخدام تقنيات من نظريات أخرى [15].

وفي هذا السياق يذكر إبراهيم عبد الستار أن على المعالج النفسي الحديث أن يتعامل مع الاضطراب النفسي بصفته متعدد الجوانب ، ومن ثم نجد أنه لدى المعالج النفسي المعاصر إمكانيات متعددة لتغيير السلوك [16].

ب- الخصائص المميزة للطريقة متعددة الأبعاد:

- ✓ التقييم الشامل للشخصية من خلال تطبيق شبكة التحليل الوظيفي (BASIC ID).
- ✓ الاستخدام النوعي لتحليلات الترتيب الثاني للصيغة BASIC ID و تتبع توالي التفاعل المتسلسل للنموذج هما عمليتان ينفرد بهما العلاج المتعدد الأبعاد(17).
- ✓ فصل الجانب التخيلي عن الجانب المعرفي [18]. كما انه يولي اهمية بالجانب الاجتماعي للمشكلة النفسية، حيث أن الاضطراب النفسي ينشأ في سياق اجتماعي [19].
- ✓ الاعتقاد أن كل بعد من هذه الصيغة BASIC ID يؤثر ويتأثر بدوره بكل بعد من الأبعاد الستة المؤلفة للصيغة.
- ✓ الاعتقاد أن التقييم الدقيق (التشخيص الشامل) يحتاج إلى تثمين نموذجي لكل بعد من أبعاد الصيغة BASIC ID وتفاعلات الأبعاد السبعة فيما بينها.

- ✓ العلاج متعدد الأبعاد يتطلب التصحيح النوعي لكل مشكلة في الصيغة BASIC ID (20).
- ✓ إمكانية الاستفادة من نتائج كل النظريات العلمية في علم النفس، حيث لم يركز لازاروس على أوجه الاختلاف بين النظريات بقدر تركيزه على أوجه الاتفاق والتكامل (21).

جـ- الانتقادات الموجهة للعلاج متعدد الأبعاد:تعرض هذا الأسلوب العلاجي لعدة انتقادات كان أهمها ما يلي :

الغلو في الامبريقية، بحيث لا يلتزم هؤلاء بمبادئ نظرية معينة من شأنه أن يلقي بعض الغموض على النظرية (22).

عملية انتقاء التقنيات طريقة عشوائية لا تستند إلى أسس علمية (23).

د- تعليق على الانتقادات:من هذه الانتقادات ما هو مؤسس علميا ومنه ما هو غير مؤسس، غير أن هذه الانتقادات لا تنقص على الإطلاق من قيمة هذا العلاج وفي تميزه في علاج اضطرابات الشخصية، كما يمكن تفادي عيوب هذا العلاج أو على الأقل التقليل من تأثيرها من خلال وعي المعالج بها وبالتالي إمكانية تجنبها قدر الإمكان.

وعلى الرغم من انه لا يمكن اعتبار العلاجات الانتقائية شكلا علاجيا مقبولا نظريا، إلا أن نتائج الدراسات الامبريقية المتوفرة حتى الآن تؤيد مقولة أن الأساليب العلاجية العريضة والمرنة التي لا تتقيد بالحدود بين المدارس العلاجية تقود إلى تحسن واضح في مجالات متعددة، وبما انه فد تم تحقيق نتائج ايجابية في العلاجات المعرفية السلوكية وظهر ان الجمع بين أكثر من أسلوب علاجي أكثر فاعلية من الاقتصار على طريقة واحدة في العلاج، غير أن الدراسات المتوفرة الآن قلما تلقي الضوء على أسلوب التأثير وفاعلية مثل هذه العلاجات، إذ أن المجال الذي بنيت عليه المقولات التي قامت عليها الارتباطات مازال غير محدد بدقة كافية (24).

ثانيا:الجانب الميداني:

2-1 منهجية البحث:اعتمدت الدراسة على منهج دراسة حالة.

2-2 أدوات البحث:اعتمدت الدراسة على نوعين من الأدوات، أدوات التقييم السيكولوجي و الأداة التجريبية (البرنامج العلاجي).

أ- أدوات التقييم:

- ✓ سلم (بيك) الثاني للاكتئاب BDI II.
- ✓ مقياس (هوبر و لاين) S.Hooper and C.Layne للأفكار اللاعقلانية.
- ✓ اختبار (بيك) للشعور باليأس.
- ✓ مقياس (كوبر سميث) لتقدير الذات.
- ✓ قائمة (وولب و لازا روس) لتوكيد الذات.
- ✓ استبيان القصة الحياتية (لازاروس).
- ✓ شبكة التحليل الوظيفي BASIC ID:(لازاروس).
- ✓ بروفيل التركيبي (لازاروس).

2-3 تقديم الحالة:الحالة أنثى في السابعة عشرة، الفتاة الوحيدة في عائلة مكونة من الأم و ثلاث إخوة ذكور، ترتيبها في العائلة هي الأخيرة. متمدرسة بالسنة الثانية ثانوي تخصص (آداب ولغات) أعادت السنة لمرتين متتاليتين، لم تتقبل الحالة وفاة الأب بسبب مرض عضال منذ ثلاث سنوات كما لم تستطع تجاوز فترة الحداد حيث كانت شديدة التعلق بالأب نظرا لأنها الفتاة الوحيدة و كانت موضع اهتمامه الزائد.

الإحالة: تمت إحالتها إلى المختصة النفسية من طرف مستشارة التوجيه و الإرشاد بمؤسستها التربوية.

الشكوى: تعاني الحالة من تراجع ملحوظ في نتائجها الدراسية، شكاوي جسمية(صعوبة في التنفس، فقدان شديد للوزن) وعزلة عن بقية زملائها.

التشخيص:من خلال كل من المقابلة التشخيصية والدليل التشخيصي و الإحصائي الرابع للاضطرابات النفسية DSM-*IV* سلم بيك الثاني للاكتئاب تم تشخيص الحالة على أنها تعاني من اكتئاب شديد.

البروفيل التركيبي للحالة:

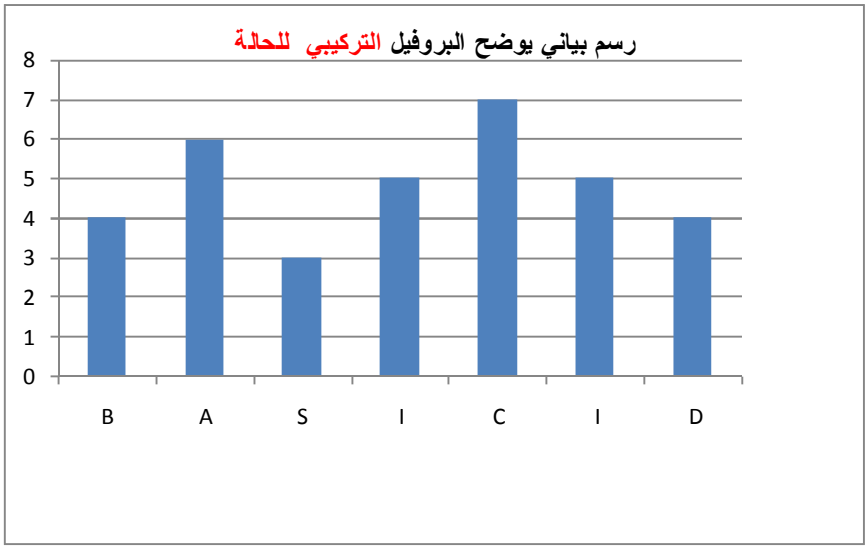

تسلسل المسار للحالة:يشير التسلسل (CAIIBDS) إلى أن مسار حدوث الاكتئاب لدى الحالة يحدث كمايلي: فالتفكير اللاعقلاني للحالة أدى إلى شعورها باليأس هذا الأمر اثر على كيفية نظرتها إلى ذاتها وتقديرها لها، مما انعكس على سلوكاتها التوكيدية اتجاه بيئتها الخارجية الاجتماعية مما أدى إلى حدوث اضطرابات في علاقاتها اجتماعية، وهذا ما جعل سلوكاتها تتسم بالانسحاب والعزلة وعدم الاستمتاع بالنشاطات السارة، الأمر الذي سبب لها قلة المجهودات

البدنية المبذولة مما أدى بها إلى الأرق وفقدان الشهية وبالتالي فقدان الوزن، وضعف القدرة على التركيز.

شبكة التحليل الوظيفي لمشكلات الحالة BASIC ID:

البعد	المشكل	التقنية العلاجية الملائمة
B	قلة النشاط ، الانعزال.	الانخراط في النشاطات السارة
A	الشعور باليأس.	التفريغ الانفعالي
S	ضعف القدرة على التركيز.	تمارين الاسترخاء
I	تخيلات سلبية.	التدريب التخيلي
C	الأفكار اللاعقلانية.انخفاض في تقدير الذات.	تعديل الأفكار اللاعقلانية
I	اضطراب العلاقات الاجتماعية.	التدريب التوكيدي.
D	الأرق، فقدان الشهية،التعب،انخفاض في الوزن.	النظام الغذائي،التدريبات الرياضية

جدول (01): يوضح التحليل الوظيفي لمشكلات الحالة

أ- الأداة التجريبية:البرنامج العلاجي من تصميم الباحثة.

بروتوكول البرنامج العلاجي :

التسمية: برنامج علاجي انتقائي متعدد الأبعاد.

الهدف العام:علاج الاكتئاب لدى الحالة.

طبيعته: فردي.

الخلفية النظرية: نموذج أرنولد لازاروس.

عدد الجلسات:21 جلسة.

تكرار الجلسات: ثلاث جلسات أسبوعيا.

مدة الجلسة: من 60 إلى 90 دقيقة.

مكان إجراء العلاج: مكتب الأخصائية النفسانية بالمؤسسة العمومية للصحة الجوارية سيدي عقبة.

الجلسات العلاجية:

الجلسة التمهيدية:التشخيص والقياس القبلي.

الجلسة 01:جلسة التعريف بالاكتئاب.

الجلسات 02- 03-04: جلسات التدريب على الاسترخاء النظام الغذائي والتمارين الرياضية.

الجلسات 05-06-07: جلسات تعديل الأفكار اللاعقلانية.

الجلسات 08-09-10: تعديل النظام الغذائي،التمارين الرياضية.

الجلسات 11-12-13: جلسات خفض الشعور باليأس.

الجلسات 14-15-16: جلسات الرفع من درجة تقدير الذات.

الجلسات 17-18-19 : جلسات التدريب على السلوك التوكيدي.

الجلسة 20:إنهاء البرنامج العلاجي و القياس البعدي.

الجلسة 21:بعد شهر من آخر جلسة علاجية للتقييم التتبعي.

التقنيات العلاجية المستخدمة:تم انتقاء مجموعة من التقنيات العلاجية، الملائمة لمشكلات الحالة والتي تحقق أهداف البرنامج العلاجي وتغطي الجوانب السبعة للشخصية من مختلف التوجهات النظرية نذكر منها: المقابلة العلاجية، الواجبات المنزلية، تمارين الاسترخاء (طريقة جاكبسون)، التدريب التوكيدي، التعديل

المعرفي، التدريب على دحض الأفكار اللاعقلانية، أسلوب وقف الأفكار، لعب الدور، مراقبة الحوار الذاتي، التفريغ الانفعالي، أسلوب الكرسي الفارغ،التمارين الرياضية، إتباع نظام غذائي صحي، قائمة النشاطات السارة.

نتائج الاختبارات القبلية:

الاختبار.	الدرجة الكلية للاختبار.	الصفة
سلم بيك الثاني للاكتئاب .	49	شديد
مقياس بيك للشعور باليأس.	17	مرتفع
مقياس الأفكار اللاعقلانية.	75	مرتفعة
مقياس تقدير الذات.	23	منخفض
مقياس توكيد الذات.	10	ضعيف

جدول (02): يوضح نتائج الحالة على المقاييس النفسية (القياس القبلي).

4-2 عرض وتفسير نتائج الاختبارات:

الاختبارات القبلية: من خلال نتائج الاختبارات السابقة، نلاحظ أن الحالة تحصلت على درجة75 في مقياس الأفكار اللاعقلانية وهي درجة مرتفعة حيث يكاد يجمع المنظرون المعرفيون (اليس، بيك، ماكينبوم) على أن الاضطرابات النفسية لاسيما الاكتئاب ما هي إلا حصيلة لعمليات التفكير اللاعقلانية [25]. وقد ميزها (ألبرت أليس) في إحدى عشرة فكرة لاعقلانية خصوصا ما يتعلق بالتمركز على الذات التي تعد خاصية من خصائص هذه المرحة العمرية، بل يذهب بعض المعرفيون إلى تفسير بعض الأعراض الفبزيولوجية للاكتئاب كالخمول والتعب على أنها نتاج

للمحتوى المعرفي السلبي فهما تعبيران عن فقدان الدافعية، أما التعب السريع فهو نتيجة للتوقع الدائم للنتائج السلبية لأي فعل يقوم به المكتئب و الى الشعور بعدم الكفاءة [26]. كما تحصلت الحالة على درجة17 على مقياس الشعور باليأس وهي درجة مرتفعة، حيث يؤكد(سليجمان) في نظريته عن العجز المتعلم على دور اليأس كونه مسببا للاكتئاب [27].

تعاني الحالة من تخيلات سلبية بشان ذاتها مما اثر على تقديرها لذاتها حيث تحصلت على 23 درجة في مقياس تقدير الذات وهي درجة منخفضة قد يعود هذا الى متطلبات المرحلة حيث يظهر التفكير المجرد وفق نظرية (جون بياجي) للتطور المعرفي، وتزداد التخيلات لدى المراهق بسبب انه يلبي حاجاته الهيامية التي لا يستطيع تحقيقها في الواقع عن طريق الخيال حسب (فرويد)، كما انه يصبح حساسا لأبسط المنبهات الخارجية ويعتقد أن كل ما يجري يرتبط به نظرا لتمركزه حول ذاته، الأمر الذي يزيد من صعوبات المرحلة العمرية و هذا ما تعانيه الحالة من تخيلات سلبية مرتبطة بتقدير الذات، حيث يمثل تقدير الذات (خاصة و أنها أنثى) في هذه المرحلة بعدا محوريا إذ أنها المرحلة التي يبحث فيها المراهق عن هويته حسب (اركسون) وتظهر فيها الحاجة إلى الانتماء والحاجة إلى التقدير، هذا ما أوضحه (أبراهام ماسلو) في هرمه للحاجات الإنسانية. حيث يذهب كل من Rosenberg 1978 و Carmins 1985 الى ان تدني تقدير الذات وطغيان المشاعر السلبية يجعلان الفرد غير محصن ضد المشكلات النفسية بما فيها الاكتئاب [28].

حيث اقترح براون وهارس(Brown & Harris , 1978) أن اليأس و إن كان يعتبر سببا محوريا في حدوث الاكتئاب، فان الانخفاض في تقدير الذات يعتبر عامل استهداف ربما يسهم في وقوع الأعراض الاكتئابية من خلال عملية اليأس، لذلك اعتبر ميتالسكي وزملائه (Metalsky et al , 1993) أن نظريات تقدير الذات يمكن النظر إليها على أنها تتضمن استهداف – ضغط ومكونات وسيطية – أي أن تقدير الذات المنخفض ربما يكون عامل استهداف، والذي يتفاعل مع مصدر الضغط ويؤدي إلى مزيد من الانخفاض في تقدير الذات أو انه يجعل من

الجوانب السالبة في الذات أكثر بروزا مما يزيد من خطر الإصابة بالاكتئاب.وتحصلت الحالة على درجة 3 من عشرة على بعد الإحساس...

كما تحصلت الحالة على درجة10 في مقياس توكيد الذات وهي درجة ضعيفة، وهذا نظرا للعلاقة الوطيدة بين تدهور الجانب الاجتماعي للحالة وإصابتها بالاكتئاب الأمر الذي انعكس على سلوكاتها هذا ما يفسره (لوينسون) بان الأشخاص المكتئبين لا يحصلون على تدعيمات ايجابية كافية من الأشخاص المهمين في حياتهم، وذلك بسبب نقص في مهاراتهم الاجتماعية الضرورية كمهارة توكيد الذات للحصول على استثارات بينشخصية ايجابية، ويؤكد (لوينسون) على أن بقاء الاكتئاب وشدته يتأثران أيضا بعدم ميل الشخص المكتئب للانخراط في نشاطات اجتماعية لأنه لا يرى فيها مصدرا للسعادة [29].

أ- كما أن فقدان الأب وما يمثله من سلطة حسب وجهة نظر تحليلية وما يمثله من مصدر للتدعيم والتعزيز الذي فقدته المراهقة، والذي أدى إلى وقوعها في الاكتئاب حيث يؤكد السلوكيون على أن الاكتئاب ما هو إلا انخفاض في مستوى التعزيز الذي تعود عليه الفرد.أما بالنسبة للجانب البيولوجي فالحالة تعاني وفق تقريرها الذاتي من اضطراب في النوم تمثل في الأرق الدائم وهذا راجع إلى الخمول الذي تعانيه طيلة اليوم، مما يجعلها لا تبذل من المجهودات ما يؤدي إلى الإحساس بالتعب ومن ثم الحاجة إلى النوم والراحة، كما تعاني من فقدان للشهية، هذه الأعراض الفيزيولوجية تعود إلى خمول الجهاز السمبثاوي والذي يسبب كذلك عسرا وضيقا في التنفس، حيث يعتبر نمو الجانب البيولوجي في هذه مرحلة البلوغ بعدا هاما إذ أن أي خلل في هذا الجانب سينعكس بالضرورة على باقي الجوانب من جهة وعلى المرحلة التالية من جهة أخرى.

ب- نتائج الاختبارات البعدية:

الاختبار.	الدرجة الكلية للاختبار.	الشدة
سلم بيك الثاني للاكتئاب .	25	خفيف
مقياس بيك للشعور باليأس.	08	متوسط
مقياس الافكار اللاعقلانية.	30	متوسط
مقياس تقدير الذات.	50	متوسط
مقياس توكيد الذات.	25	مرتفع

جدول (03) يوضح نتائج الحالة على المقاييس النفسية (القياس البعدي).

من خلال نتائج الاختبارات البعدية يمكن ملاحظة تراجع كل من درجات الاكتئاب والأفكار اللاعقلانية موازاتا مع ارتفاع في درجات اختباري تقدير الذات وتوكيد الذات، و من الجدير بالذكر أن كل جانب من هذه الجوانب يؤثر ويتأثر بالجوانب الأخرى هذا ما أكده لازاروس حينما قال "نحن كائنات نسلك نشعر نحس نتخيل نتفاعل وبالأساس نحن كائنات بيولوجية نخضع بدرجة كبيرة إلى نظام بيولوجي يتأثر بالنظام الغذائي الذي نعتمده وبالعقاقير التي نتناولها وبالأنشطة التي نقوم بها [30].

وبالتالي فان خطة علاج كل جانب هي منسجمة ومكملة للجوانب الأخرى، فمستوى تقدير الذات له تأثير كبير على تأكيد الذات كما أن الأفكار اللاعقلانية لها تأثير على كل من درجة الشعور باليأس ودرجة تقدير الذات. كما أن الجانب الحسي مرتبط بالجانب البيولوجي والجانب التخيلي بالجانب المعرفي، لذا فان التكامل في العلاج من شانه أن يعيد التوازن والانسجام بين الأجزاء

السبعة للشخصية.إن نجاح البرنامج العلاجي مرتبط بشمولية هذا الأخير وتنوع التقنيات المستخدمة فيه،؟ كما أن تحميل المتعالج مسؤولية اضطرابه وعلاجه يعتبر أمرا ضروريا لنجاح العلاج لان هذا الأمر يعزز من ثقته بنفسه و يجعله يأخذ زمام أمره.

جـ - مال الحالة:

الاختبار.	الدرجة الكلية للاختبار.	الشدة
سلم بيك الثاني للاكتئاب .	25	اكتئاب خفيف.
مقياس بيك للشعور باليأس.	04	منخفض
مقياس الأفكار اللاعقلانية.	16	ضعيف
مقياس تقدير الذات.	65	مرتفع
مقياس توكيد الذات.	28	مرتفع

جدول (04):يوضح نتائج الحالة على المقاييس النفسية (القياس التتبعي)

من خلال نتائج الاختبارات التتبعية(تم إعادة تطبيقها بعد شهر من إنتهاء البرنامج العلاجي). نلاحظ أن الحالة أبدت تطورات ملحوظة بعد انتهاء البرنامج العلاجي حيث بدت أكثر استبصارا بمشكلتها بحيث بدأت تراقب الأفكار اللاعقلانية التي تسبب لها المشاعر السلبية وأصبحت قادرة على مناقشتها و دحضها تدريجيا، كما أن الحالة تعودت على تمارين الاسترخاء ودأبت على اللجوء إليها وقت الحاجة، أصبحت الحالة مؤكدة لنفسها في كثير من المواقف الاجتماعية "كنت غير قادرة على قول لا وأصبحت اليوم افعل ذلك بسهولة". عادت الحالة

لأداء واجباتها الدينية كالصلاة بعد أن أقلعت عنها، و أصبح لديها طموحات تريد تحقيقها "قررت أن أصبح شرطية في الشرطة العلمية".

تحسنت علاقاتها مع أفراد عائلتها خاصة الأم والإخوة " أصبحت أكثر تفهما لهم "كما بدت الحالة محبة للحياة لم تعد تعاني من الأعراض البدنية السابقة للعلاج. من خلال نتائج الاختبار التتبعي، نلاحظ أن الحالة حافظت على درجات المرتفعة في كل من اختبارات تقدير الذات و التوكيدية كما أنها حافظت على درجات منخفضة على كل من سلم بيك الثاني للاكتئاب و اختبار الشعور باليأس، هذه النتائج تثبت للمرة الثانية فعالية البرنامج العلاجي المطبق مع الحالة في علاج الاكتئاب ومنع الانتكاسة.

خاتمة :

إن العلاج الانتقائي متعدد الأبعاد ليس العلاج المثالي، غير انه العلاج الذي حاول الجمع بين نقاط القوة في جميع مقاربات علم النفس، كما حاول تفادي نقاط الضعف فيها، وبالرغم من أن هذا اعتبر عيبا، فهذا لا ينفي عنه انه محاولة جادة في سبيل وضع علاج نفسي أكثر فاعلية واقل عيوبا.فلا مفر اليوم من الانفتاح على كل مقاربات علم النفس المختلفة و الاستعانة بكل ما هو في صالح العميل، ممثلا في العلاج الانتقائي متعدد الأبعاد، طالما أن النظرة أحادية الجانب أثبتت قصورها في حل الكثير من المشكلات النفسية حلا نهائيا، لذا لا يجب على المعالج النفسي أن يحد نفسه في نظرية واحدة، بل عليه أن ينفتح على كل ما هو جديد في مجال البحث العلمي، وقبل هذا عليه أن يطلع على التراث النفسي وان لا يكتفي بهذا أيضا بل عليه أن يسعى جاهدا إلى محاولة البحث الذاتي البحث عما هو صالح لمجتمعه وثقافته.

ملاحظة: نتائج الدراسة تنطبق على الحالة المدروسة ولا يمكن تعميمها.

❖ هوامش البحث:

(1) محمد محروس الشناوي، محمد السيد عبد الرحمن:**العلاج السلوكي الحديث**، دار قباء للطباعة و النشر،القاهرة،1998، ط1،ص23.

(2) يوسف موسى فرحان مقدادي، **فاعلية برنامج إرشاد جمعي معرفي سلوكي في خفض الوسواس القهري لدى عينة من طلبة جامعة آل البيت**، مجلة أم القرى للعلوم التربوية والنفسية،الأردن،المجلد العشرون،العدد الثاني،2008، ص271.

(3) Arnold A. Lazarus :**Multimodal Therapy: A Primer**; Rutgers University, Piscataway, NJ Posted by Permission http://www.zurinstitute.com/multimodaltherapy.html.

(4) محمد جرادات،2011، العلاج السلوكي متعدد الأوجهbasic-i d ،موجود في الموقع

http://www.acofps.com/vb/showthread.php?t=8722

(5) نادر فهمي الزيود: **نظريات الإرشاد والعلاج النفسي**، دار الفكر، الأردن،2008،ط2، ص325.

(6) أحمد عبد اللطيف أبو اسعد:**العملية الإرشادية**، دار المسيرة،الأردن،2011،ط1، ص 399.

(7) Windy Dryden ; Jill Mytton; **4 APPROCHES TO COUNSELING AND PSYCHOTHERAPY**; Hoboken : Taylor & Francis Ltd ;London;1st ed; 1999;p 144.

(8) James O. Prochaska,John C. Norcross: **Systems of Psychotherapy: A Transtheoretical Analysis;** Belmont, CA : Brooks/Cole Pub;USA ;2010;7th ed;p443.

(9) Richard Nelson-Jones: **Theory and Practice of Counselling and Therapy**; SAGE publications; 2011;5th ed; p:348.

(10)Arnold A. Lazarus ;Ibid.

(11) أرنولد لازاروس،**العلاج النفسي الشامل الحديث:الأسلوب متعدد الأشكال والمختصر**، ترجمة: محمد حمدي الحجار، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،2002، ط1،ص 113.

(12) أرنولد لازاروس، مرجع سبق ذكره،ص ص 100- 102.

(13) المرجع السابق، ص135.

(14) Arnold A. Lazarus ;Ibid .

(15) أبو عراد الشهري،مرجع سبق ذكره.

(16) إبراهيم عبد الستار:**الضغوط اللاحقة للصدمات النفسية والانفعالية منهج سلوكي متعدد المحاور في فهمها وعلاجها**،مجلة شبكة العلوم النفسية العربية،العدد21-2009،22، ص121.

(17) أرنولد لازاروس، مرجع سبق ذكره،ص 133.

(18) بيرني كورني، بيتر رودل، ستيفين بالمر:**العلاج المعرفي السلوكي المختصر**، ترجمة :محمد نجيب احمد الصبوة، ايتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2008،1، ص 73.

(19) أرنولد لازاروس،مرجع سبق ذكره،ص ص 134- 135.

(20) أرنولد لازاروس، مرجع سبق ذكره،ص 112.

(21) Arnold A. Lazarus ;Ibid .

(22) أرنولد لازاروس،مرجع سبق ذكره،ص211.

(23) دلال بنت طاهر الخميس، مرجع سبق ذكره.

(24) كلاوس غراوه، روث دوناتي، فريديريكه بيرناور: **مستقبل العلاج النفسي معالم علاج نفسي عام**، ترجمة: سامر جميل رضوان، منشورات وزارة الثقافة، سوريا،1999، ط1،ص 106.

(25) منتهى مطرش عبد الصاحب:**الشعور بالذنب وعلاقته بالإكتئاب**، دار الصفاء للنشر ،عمان،2011،ط1، ص115.

(26) منتهى مطرش عبد الصاحب،مرجع سبق ذكره،ص116.

(27) منتهى مطرش عبد الصاحب،مرجع سبق ذكره،ص119.

(28) لابا سليم معربس:**الاكتئاب لدى الشباب**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان،2010،ط1،ص227.

(29) غريب عبد الفتاح غريب ،**دورة في الاضطرابات الاكتئابية**،نظمتها الجمعية المصرية للدراسات النفسية بالتعاون مع مستشفى الطب النفسي (هشام عادل صادق)، القاهرة، 2005 ، ص15.

(30) محمد جرادات، مرجع سبق ذكره.

دور الانحرافات الجنسية في ظهور سلوك العود للجريمة لدى المرأة

- دراسة سيكوديناميةلحالات بمدينة بسكرة

الأستاذ الدكتور: نصر الدين جابر ، جامعة بسكرة، الجزائر

الباحثة: زرورة عبيد، جامعة بسكرة، الجزائر

الملخص:

تعني هته الدراسة الاهتمام البليغ لفئة اجتماعية جد خطيرة، تكمن كقنبلة موقوتة داخل مجتمعنا، و المتمثلة في فئة النساء معتادات الإجرام، و ذلك من خلال التعرف عن بنائهن النفسي و بالخصوص عن طبيعة حياتهن الجنسية، و مدى تأثيرها على سلوكياتهم التوافقية ذاتيا و اجتماعيا، إضافة إلى التعرف على مدى قابليتها التكرارية و خاصة على المستوى الإجرامي، سواء من خلال توظيفهن لتك السلوكيات المنحرفة جنسيا للبحث عن التوازن النفسي، أو قصد مبتغى آخر ذو دافع شخصي.

Résumé :

La présente étude s'intéresse à une tranche importante par sa dangerosité, car elle est considérée comme une bombe à retardement au sein de notre société ; elle n'est autre que les femmes criminelles. Nous tenterons, en premier lieu de connaitre leur psychologie mais surtout leur vie sexuelle et son degré d'influence sur leur attitude comportementale et sociale ; en second lieu, nous mettrons l'accent sur leur prédisposition à la récidivité criminelle engendrée dans la déviation et la perversion sexuelle dans le but de retrouver un équilibre psychologique perdu ou pour atteindre d'autres buts personnels.

مقدّمة:

عرف إجرام المرأة العربية و بالخصوص الجزائرية زيادة و تطور ملحوظ من خلال نوع و كمية الجرائم المقترفة خلال السنوات الأخيرة، حيث جاءت الإحصائيات تبين النسب الإجرامية في الجزائر موضحة مدى تفاقم الظاهرة وطنيا، بحيث كشفت التقارير الصادرة عن قيادة الدرك الوطني خلال دراسة ميدانية حول علاقة المرأة بعالم الإجرام إذ كانت على النحو التالي:خلال سنة 2006 قدرت جرائم النساء ما يعادل 1136 امرأة.

أما حسب مصالح الشرطة لنفس السنة فكان يقارب 4121 عبر كامل التراب الوطني، أما خلال سنة 2008 فكانت بما يقارب 2169 امرأة موقوفة، أما سنة 2009 قدر عدد النساء الموقوفات على كامل التراب الوطني ما يقارب: 20185 امرأة.[1]، كما سجلت ذات المصالح للأمن و الدرك الوطني خلال سنة 2013 بوجود: 11624 امرأة على علاقة بمختلف الجرائم التي شهدتها ولايات الوطن، منها 2572 امرأة متورطة بشكل رئيسي في ارتكاب هذه الجرائم مقابل 9052 أخرى وقعت ضحية هذه الاعتداءات الإجرامية.[2]

أما على المستوى المحلى فالظاهرة ليست ببعيدة كذلك، بحيث جاءت الإحصائيات القضائية على هذا المستوى موضحة الدور الذي تلعبه المرأة إجراميا

داخل المجتمع "البسكري"، و الذي يعد في العموم مجتمعا محافظا نظرا لما تسخر به المنطقة من عادات و تقاليد و أعراف مجتمعية عريقة، ينفى عنها العديد من الاقترافات الشاذة و خاصة بالنسبة للعنصر الأنثوي، إلا أن الواقع يقول العكس، فرجوعا للإحصائيات الإجرامية المصرح عنها من طرف الجهات القضائية المختصة بدائرة اختصاص الولاية، وضحت مستوى هذا الإجرام خلال السنوات الثلاث الأخيرة الماضية و التى أسفرت على و جود ظاهرات إجرامية جد خطيرة متمثلة في نساء معتادات تكرار الفعل الإجرامى، وبصفة غير منقطعة ما خلف لهن شهرة و قبول شبابى غير منطقى، إذ كانت على النحو التالى: -بلغت نتائج إحصائيات إجرام النساء لسنة: 2010بـ:461 امرأة موقوفة في مختلف الأنواع القضائية، إضافة إلى سنة 2011 فقدرت الإحصائيات الجنائية بـ:1131 قضية، أما فيما يخص السنة القضائية 2012 فكان الإحصاء ألجرمى النسوي يقدر بـ:722 بحيث تضم هته القيم العديد من الأنواع الإجرامية كالجرائم ضد الأخلاق، و الجرائم ضد الأملاك، و الجرائم ضد الأشخاص.

و نظرا لاستفحال هته المعضلة اجتماعيا أصبحت هته الظاهرة تشكل خطرا كبيرا يداهم كل أركان المجتمع نظرا لما تبثه من فساد أخلاقي و قيمي لدى فآت المجتمع بمختلف طبقاته، عاملة على ادحاض القيم النبيلة به، بحيث أثبتت العديد من الدراسات مدى تأثير العامل الإجرامي على الكيان المجتمعي و إمكانية تدميره كليتا كونه يتعلق بشخص الكائن الإنساني ذو الطابع ألعلائقي، كون إجرامه لا ينحصر على ذاته فحسب بل ينتقل إلى غيره قصد المساس بحقوق الآخر و التعدي على ما ليس له فيه أي حق، ذلك ما يؤكد و بشكل واضح مدى خطورة الوضع لهته الإشكالية مترامية الأبعاد الإنسانية و الاجتماعية و المهددة للوجود الإنساني، ما يدل على تأثيرها المؤكد و الذي لا يمكن إنكاره.

إذ ما ميز ذلك الطابع الإجرامي النسوي بروز خاصية أساسية متمثلة في التوظيف الجانب الجنسي، إذ نجد في واقعنا المعاش اليوم بأن المرأة تمتهن مجددا مهنتها القديمة ناشرة الفسوق و الرذيلة في المجتمع و على جميع المستويات العمرية

للأفراد، سواء كانوا أطفال، شباب أو حتى كهولا، باسم التحضر و التحرر الفردي من خلال التأثر بالثقافات المغايرة لقيمنا و لعاداتنا الإسلامية المحافظة.

بحيث يعد هذا الجانب من بين أهم التركيبات النفس البشرية و الذي لجأت البيولوجيا لتفسيرها في بادئ الأمر على أنها حالة من الجوع الجنسي، فقوبلت بعد ذلك بمصطلح "الليبيدو" عند مدرسة التحليل النفسي، و نظرا لمكانتها الكبيرة في نفسية الكائن البشري، فقد تنحط هذه الرغبة من حيث الموضوع إلى مستوى لا ينزل إليه الجوع، مما يدفع بالفرد إلى الجنوح و الوقوع في المحضور جراء إلحاح إشباع الدافع الغريزي، و عليه تبزغ ظاهرة الإجرام، مع إمكانية التكرار لتلك الأفعال المعاقب عنها قانونيا، بحيث هته الطاقة الليبيدية الباحثة عن الإشباع و التي ينبغي أن نفترض وجودها في أساس جميع السيرورات النفسية بوجه عام، نجدها تأثر في نوعية استجابة السلوك البشري، مؤثرة في حكمه على الأشياء، فهذه العينات المريضة نفسيا تعد خطرا على باقي المجتمع كونهن يعانين أو مدفوعات من عوامل قد تكون خفية عن شعورهن، مما يجعلهن يتخبطن في الاضطرابات النفسية و يعشن حياة بين الحقيقة و الخيال، فسلوكياتهن حقيقية في واقع غير موافق على هته السلوكيات العاملة على:- إما التقليل من التوتر و عدم التوازن النفسي هذا من جهة، و من جهة أخرى أن مثل هته الانحرافات قد تكون إما مباشرة من خلال معرفة الضرورة للقيام بها و إما غير مباشرة نتيجة عصاب مؤلم.

لذا عند التمييز بين الطاقة الليبيدية و بين كل طاقة نفسية أخرى، نفترض أن تكون كل هته الطاقات منسجمة و متكاملة فيما بينها، حيث في حال زيادة الطاقة النزوية يزيد التوتر عند الإنسان و عليه يظهر الغضب في تعامله و استجاباته الآحقة،...الخ، من العمليات النفسية المشابهة، لذا كان يرى العالم النفساني فرويد مثل نظرة الليبراليين الأوائل "بأن الإنسان حيوان معتد عدواني، و تنافسي معزول و مكتف بذاته"[3].

و عليه وجب ردعه قانونيا، و هذا ما أثبت واقعيا نظرا للتزايد المستمر في عدد النساء المنحرفات و معتادات الإجرام على مستوى كل من المحاكم و المجالس القضائية بصورة رهيبة.

إلا أن الكثير من هته القوانين و الأنظمة الوضعية البشرية لم تثبت جدارتها بالشكل المراد التوصل إليه من خلالها للتصحيح في الشخصية الإنسانية، كونها ليس باستطاعتها أن تنفذ إلى أعماق روح الإنسان، و تحدث التغيير فيه، و هذا ما أكدته ظاهرة العود لارتكاب الجريمة و خاصة عند العنصر النسوي، فظاهرة العود للجريمة تعد مؤشرا على خطورة المجرم، و عدم فعالية و مناسبة العقوبة التي تلقاها، كما تمثل خطرا على أمن المجتمع و مصالحه، و تؤصل الإجرام في نفوس البعض، و اكتسابهم سلوكا إجراميا متعددا، و محترفا أحيانا، من خلال تكرار الفعل الإجرامي، و على الرغم من هذه النتائج تبدو محسومة تجاه الرجل، إلا أن مشكلة العودة إلى الجريمة عند النساء لا تزال بحاجة إلى المزيد من الدراسات العلمية، و حصر الأسباب و حجم المعاناة، و الظروف التي دعت إلى العودة من جديد إلى الجريمة.

هذا من جهة القانونية، أما من الناحية النفسية للمجرم فيفسر عالم التحليل النفسيFreud ظاهرة العود للجريمة بأنها فعل إكراهي عند العصابيين و بأنها فعل لعقاب الذات، إلا أن معظم المدارس دراسة السلوك البشري أجمعت على أن القصد من تكرار السلوك أن عامل الحصول على اللذة ردته إلى التعلم الخاطئ، و الإشباع عد من أهم العوامل التي تؤدي إلى تكرار السلوك رغم عامل العقاب الموجه للجاني.

و عليه و من خلال كل ما سبق ذكره تناولنا فكرة عودة المرأة للإجرام كمجال للبحث، و كنشاط إجرامي حاولنا تفسيره و تحليله، ذلك ما دلنا على أهمية الدراسة الفردية للشخصيات المجرمة من الناحية النفسية الداخلية و البحث عن مدى التوافق النفسي للفرد المجرم اعتمادا و بشكل أساسي على مدى تأثير الطابع الجنسي في حياة هته الفئة من النساء معتادات الإجرام.

و من هذا المنظور تركزت دراستنا في هـذا المضـمون التمحـور في البحـث على إجابات للتساؤلات الواقع المعاش و المتمثلة في الآتي:

1.ما دور الانحرافات الجنسية في عودة المرأة للفعل الإجرامي بصفة متكررة ؟

بحيث انطوى هذا التساؤل على سؤالين فرعيين و المتمثلين في:

أ.ما طبيعة الحياة الجنسية للمرأة معتادة الإجرام؟.

ب.ما طبيعة العلاقة بـين الانحرافـات الجنسـية و سـلوك العـود للجريمـة لـدى المرأة؟

2.ما هي الأهداف التي تسعى المرأة معتادة الإجرام تحقيقها ميدانيا وراء فعل العـود الإجرامي؟.

و للإجابة عن هته التساؤلات قمنا بدراسة ميدانية نعرضها في قسمين:-القسم الأول نظري:

و يشمل باختصار تعريف الانحرافات الجنسية و محدداتها التشخيصية، مع التطرق لمفهوم السلوك الإجرامي، إضافة إلى تعريف العود للجريمة و خصائصه المميزة، أما القسم الثاني:- فاحتوى الجانب الميداني و المتضمن دراسة تحليلية لحالات من نساء معتادات الإجرام بمدينة "بسكرة"، متبعين في ذلك المنهج الإكلينيكي، بتقنية دراسة الحالة، مع عرض في الأخير لنتائج هته الدراسة.

أولا: القسم النظري:

1.تعريف الانحرافات الجنسية: تعرف على أنها:"ضروب من الممارسات الجنسية يخرج فيها أصحابها عن سبل الاتصال الجنسي الطبيعي و المألوف"[(4)].

2.**محدداتها التشخيصية:** تتمثل في الأمراض أو الانحرافات التي حددتها مقاييس الطب النفسي العالمية(DSM-IV)، مع وجود اختلافات تقسيميه في مراجعات أخرى، و لها عدة صفات و أعراض لابد أن تتجمع حتى نستطيع أن نطلق عليها انحرافا جنسيا و هي كالآتي:

أ/ لمدة 6 أشهر، متكررة، شديدة و عنيفة، خيالات جنسية أو رغبات جنسية أو فعل جنسي محدد.

ب/ يعتمد فقط على موضوع الانحراف و لا يوجد ما يثيره غير هذا الموضوع.

ج/ الانحراف الجنسي عادة تعبير عن طاقة جنسية مكبوتة، أو إحباط جنسي مزمن.

د/ الفعل تليه إثارة أور جازم، و عادة ما يصاحبه استمناء و فانتهازيا جنسية [5].

بحيث تتميز هته الاضطرابات النفسية الأصل، بشذوذ الموضوع و الهدف الجنسي بشكل مبالغ فيه، إذ يصبح الإشباع حينها لا يؤدي النتيجة المرجوة من تلك العلاقة، مما يكسب فاعلها السلوكيات المنحرف، و المؤدي في كثير من الأحيان للوقوع في المحظورات الإنسانية و حتى الاجتماعية مما يعطيها صفة السلوك الإجرامي و المعاقب عنه قانونيا، كون هته السلوكات مجرمة من طرف المشرع، كالمساهمة في قضايا ضد الشرف، أو التحريض أو المساعدة على أعمال منافية للآداب...الخ، من الأفعال التي تخدش الإحساس و تتعدى على حرمات الآخرين، جراء ما قد يدفعهم إليه توترهم و صراعاتهم الآشعورية و الباعثة للدوافع النزوية و العدوانية، و خاصة في الحالات الضاغطة كحل للمشاكل التي تعاني منها الأنثى بصفة دائمة و يومية.

3.تعريف السلوك الإجرامي: هو ذلك السلوك المادي الصادر عن إنسان، و الذي يتعارض مع القانون، فالجريمة هي في المقام الأول فعل آدمي أي سلوك صادر عن إنسان، فالفعل هو جوهر الجريمة و لهذا قيل: "لا جريمة دون فعل"، و الفعل يشمل الإيجاب كما يشمل السلب، فمن يأمره القانون بالعمل فيمتنع عن أدائه يكون قد خالف القانون، مثله مثل من يأمره القانون بالامتناع عن الفعل فيفعل سواء بسواء، ففي كلتا الحالتين هناك مخالفة لأوامر القانون [6].

1.3**أما تعريفه من الناحية النفسية:** فلقد أشار إليها عبد الخالق (1999) بأنه:"حيلة دفاعية للتخفيف من الصراع النفسي و الأزمات الداخلية، و الجريمة امتداد مباشر

لدى الشخصيات الغير سوية،لاستعداد إجرامي مكتسب من الطفولة المبكرة، استعدادا يجعل الفرد أشد تأثيرا بالآثار السيئة الاجتماعية"[7].

لذا يربط علماء النفس الجنوح بالجريمة، و يعتبرونها كأساس تمهيدي للاحتراف الإجرامي في مراحل لاحقة من العمر، و خاصة إذا لاقت ما يدعمها و ينميها في حيات الفرد سواء كان "فتاة أو فتى"، بحيث يكتسي سلوك الشخص محترف الإجرام خبرات خطيرة، و يكسبه بذلك صفة الخطورة الإجرامية، و ذلك كلما تعددت أشكال و أنواع القضايا المقترفة في حق الجاني، و هو ما يسمى بالعود للجريمة أو اعتياد الإجرام.

4.تعريف العود الإجرامي:هو: "حالة الشخص الذي يرتكب جريمة أو أكثر، بعد الحكم عليه نهائيا من أجل جريمة سابقة، فهذه الحالة تتكون من تكرار وقوع الجرائم متماثلة أو مختلفة يرتكبها شخص واحد"[8].

1.4**خصائص العود الإجرامي:** من الخصائص الأساسية للعود الإجرامي و التي حددها القانون الوضعي، اتضح بأن للعود شرطان ملزمان هما:

أ: صدور حكم بالإدانة على الجاني: مما يثبت بأن للشخص المدان ماضيا إجراميا، أوضحه الحكم الصادر عن القضاء، و يعد الحكم بمثابة إنذار للجاني بأن لا يعود للجريمة ثانية، فإذا عاد الجاني إلى الجريمة، فقد أظهر أن لديه شخصية خطيرة، لا تكفي العقوبات العادية المقررة للجريمة على ردعها، و لذا جاز أن تغلظ تلك العقوبات لتصبح قادرة على ردعه.

ب: اقتراف جريمة جديدة بعد الحكم السابق: و لكي يعد الجاني عائدا لابد أن يرتكب جريمة بعد الحكم السابق عليه، تكون مستقلة عن الجريمة السابقة التي صدر بها الحكم.

بحيث يعد اشتراط أن تكون الجريمة التالية مستقلة عن الأولى شرط جوهري [9].

ثانيا: القسم التطبيقية:

1.منهج الدراسة: طبقت الباحثة في هته الدراسة المنهج الإكلينيكي، و المتضمن للأدوات التالية:

1.1: الملاحظة البسيطة: و التي لا يمكن الاستغناء عنها كوسيلة مشاهدة لكل التصرفات و الإيماءات للشخصيات المدروسة، بحيث تم الاستزادة من خلالها بالتعرف عن الإيحاءات الجسدية التي تبرز الدلالات اللاشعورية، كلغة جسدية غير منطوقة و خاصة لدى مثل هته النسوة، معتادات السلوكيات الغير متداولة، بحيث تمثلت في سلوكيات عديدة، كالتعبيرات الانفعالية الكاذبة كالبكاء الهستيري، و الشعور بالنشوة عند طرق مواضيع و التعبير عن الاشمئزاز عند الحديث عن مواضيع مغايرة...الخ، من التعبيرات الملاحظة و الواضحة على مستوى المشاهدة من خلال حالات الدراسة.

2.1: **تاريخية الحالة:** و التي تطرقنا من خلالها إلى التعرف عن ماضي و تاريخ الحالات، و خاصة فترة الطفولة المبكرة من خلال أساليب التربية، و العادات الجنسية المكتسبة، و بدايات الجنوح و المتسبب فيه، إضافة إلى التطرق إلى عدة جوانب مدعمة، و بالخصوص إلى التعرف أكثر عن شخصية الحالات كونها فاعلة أو متفاعلة بهته الانحرافات، إضافة إلى معرفة نوع طابعها الإجرامي و تاريخها العقابي، و أثر انحرافاتها الجنسية فيه.

3.1: المقابلة الإكلينيكية: و بالتحديد النصف الموجهة، و التي تطرقنا من خلالها للبحث عن نوع الاضطراب الجنسي لكل حالة و ما يرافقه من انحرافات أخرى كميولات مستحبة ذاتيا، إضافة إلى التعرف عن طبيعة العلاقة بين السلوكيين (الجنسي و الإجرامي)، مع عدم إغفال التأكد من كون العامل الجنسي هو المتسبب الرئيسي في تكرار السلوك الإجرامي، و ذلك من خلال طرح تساؤلات حول معرفة أهم الأسباب الدافعة للعود للسلوك المعاقب عنه قانونيا، وصولا إلى التأكد من كون هته الشخصيات مضادة للمجتمع بشكل واعي أم لا.

4.1 الاختبارات النفسية: تم تطبيق كل من "اختبار الرورشاخ و اختبار تفهم الموضوع"، قصد تبيان درجة التكيف لهاته النسوة، و إبراز التصورات الجنسية و العدوانية، من خلال المثيرات النفسية للاختبارين، التي تعكس السياقات الفكرية و دينامكية الشخصية و الصراعات النفسية للفرد، منذ فترات الطفولة المبكرة، و مدى قابليتها التكرارية، إضافة إلى التعرف على مدى خطورة هته الحالات سواء على ذواتهم أو على المجتمع.

5.1 حالات الدراسة: قدرت حالات الدراسة بستة حالات (06) من النساء معتادات الإجرام من مدينة بسكرة، بحيث تم اختيارهن وفقا لشروط محددة:

-السن بين(25 إلى 60) سنة، أن تكون الحالة من مدينة بسكرة، أن تكون تعتمد بالدرجة الأولى في إجرامها على انحرافاتها الجنسية، أن تكون قد سبق لها الدخول للسجن أكثر من مرة.

2.نتائج الدراسة:

فمن خلال ما تم التوصل إليه إجرائيا وفقا لنتائج الدراسة لعينة النساء محترفات الإجرام، تبين لنا من خلالهن ما لدور الشذوذ الجنسي من أهمية بليغة في تكرار السلوكات الشاذة و المعاقب عليها قانونيا، بحيث أظهرت النساء معتادات الإجرام قابلية و إستعدادية نفسية تدفعهن لتكرار و العودة لتلك السلوكات المنافية للآداب ما يؤدي بهم لسلب حريتهن جراء ما يقمن به من أفعال تعد غير قانونية في نظر المشرع، إذ توصلنا لإثبات ذلك الدور من خلال الإجابة عن التساؤلات البحثية التالية:

فبالنسبة للسؤال الأول: الباحث عن طبيعة الحيات الجنسية للنساء معتادات الإجرام فتبين من خلال التحاليل العامة لبروتوكولات النفسية الحالات أنهن يحيين حيات جنسية غير سوية.

- ✓ بحيث جاءت نتائج دراستنا موضحة لبروز الطابع (السادو ماز وشي) بشكل عام عند معظم الحالات، إضافة إلى الجنسية المثلية لدى حالة

واحدة، مع مرافقة هذان النوعان لأنواع أخرى من الانحرافات الجنسية كالبصبصة و الاستعراض و الاستمناء، لدى عامة الحالات المدروسة.

- ✓ إذ نجد جل حالات الدراسة موجهة عدوانها تجاه نفسها بالدرجة الأولى و تجاه الغير كذلك، بقصد القصاص من الذات و من الغير، بحيث تجلى الطابع الجنسي المازوشي من خلال توجيه العدوان نحو الذات كانتقام من النفس، جراء ما يشعرن به هته النسوة من تحقير للذات و إحساس بالدونية مقارنة بالغير، مع توجه غير واعي و مثبت بشكل مرضي قصد إفناء الذات و بتلذذ لا متناهي، و الراجع بالأساس إلى ما أشارت إليه تاريخية حيات معظم حالات الدراسة، جراء ما اكتسبنه و خبرنه خلال المراحل العمرية الأولى، كإحساسهن بعدم الاهتمام من أقرب أناس لهم، و الجز بهم لخوض معترك الحيات الصعبة بمفردهن و كأنهم لا يمتون لهم بأي صلة، كل ذلك عمل على تكوين الشخصية الجافة شعوريا و التي تفتقر للأمان من الآخر، نظرا لنظرتها الإحتقارية لنفسها و لكيانها كأنثى، ما سهل لها كل شاذ بطرق استسلامية قصد إفناء الذات، نظرا لعدم فعاليتها و خلفيتها الهشة، إضافة إلى التربية الغير سليمة و التقمصات الأنثوية الشاذة ...الخ، من الدوافع المؤثرة في التكوين النفسي المنحل و المنحرف، كما وافقت نتائج الاختبارات النفسية لما تم التصريح به من خلال المقابلات العيادية، بحيث كانت دالة على مازوشية مرضية واضحة تمثلت في كثرة الاستجابات التشريحية الداخلية و كثرة تغليم العلاقات، و وضوح في الاضطرابات ذات الطابع الجنسي من خلال الاستجابات على البطاقات ذات البعد الجنسي، مما أثبتت وجود مستوى نزوي عالي الإشباع و الغير متحكم فيه.

إلا أن هاته النسوة نظرا لطبيعة الحيات النزوية ذات الدافع التدميري، لم تكتفي من توجيه عدوانيتها لذاتها فحسب بل عملت على تحويل ذلك الألم للغير، جراء دوافع تدميرية لذية متمثلة في الطابع الجنسي السادي، بحيث تمثل ذلك من خلال القصاص من الآخر بدون رحمة و بدون تمييز، كاستغلال الغير و التغرير

بهم و ترويج و إشاعة الآفات الجنسية الضارة حتى تعم الرذيلة و الأمراض الاجتماعية الخطيرة بكامل المجتمع، كل ذلك بمنطلق الرغبة في رؤية الغير يعاني مما يؤدي بها إلى الارتواء النفسي و الإحساس بالنشوة، جراء ما تراه هته النسوة من آلام نفسية و معانات من طرف الغير و بتعميم الرذيلة، على كامل المستوى الاجتماعي، نظرا لما ترسخ بذاكرتها اللاشعورية، مكونة من خلاله آراء تحطيمية للغير بقصد و بدون قصد، حتى تلقى هته المريضات نفسيا الرضى و الإشباع النفسي و النزوي، نظرا للمستوى العدواني الذي ظهر من خلال الآليات الإسقاطين و الموضحة لمستوى تدميري كبير من خلال الاستجابات الدالة على ذلك ككثرة الاستجابات اللونية.

- كما جاء الانحراف الجنسي المثلي موضحا من خلال الرغبة في معاشرة بني جنسها جراء ما تشعر به الحالة من ميل نفسجنسي مستحب للإناث مقارنة بالجنس المخالف، نتيجة تربية خاطئة مع ميل عدواني ما أدى بالحالة إلى استغلال تلك الشذوذ كفرض سيطرتها على الغير، إضافة إلى توظيفية انحرافها وفقا للطابع النزوي المسيطر و المتمثل في السادية، بحيث تستغل خبراتها الشاذة في جر الفتيات و تدريبهم على الأفعال المخلة بالآداب، كل ذالك قصد مبتغى ذاتي و الرامي إلى الإحساس بآلام الغير و التلذذ بها.
- بحيث يرجع كل ذلك بالأساس إلى الدور الأنثوي المستدخل ذو الطبيعة المشوهة و الدال على اضطرابات بالمراحل الأوديبية و كذا التقمصات للأدوار الجنسية من طرف النماذج الوالدية كمشاريع تقمصية و التي اتسمت بالشذوذ و الانحراف، إضافة إلى أساليب التربوية الغير صحية كأساس مبدئي لإنشاء شخصيات غير سوية مستقبلا، كل ذلك ساهم في البناء النفسجنسي الشاذ لهته النسوة، ما أدى بهن لتمثل الدور الأنثوي من خلال التفعيل للجانب الجنسي دون غيره، و بطريقة منحرفة.

مع ظهور لانعدام الضمير المتمثل في (الأنا الأعلى) و الراجع إلى انعدام الخلفية الأخلاقية و كذا تمثل السلطة نتيجة انعدام الدور الأبوي الحازم خلال مراحل النمو المبكرة للحالات.

و الذي ساهم في تكوين الأنا المثالي الشاذ و الراجع إلى المثلنة في تقمص الموضوعات الأوديبية الأولية للوالدين و خاصة من طرف نموذج الأم المشوه، بتقبل كل أصناف التحقير و التعذيب و إذلال الذات.

كون الأنا المثالي يعد وريث عقدة أوديب و لذلك فهو أيضا نتيجة اقوي الدوافع و أهم التقلبات اليبيدية في الهو، و بتكوين هذا الأنا المثالي يقوم الأنا بالتغلب على عقدة أوديب كما يقوم في نفس الوقت بوضع نفسه تحت سلطة الهو، فبينما يقوم الأنا على الأخص بتمثيل العالم الخارجي أي الواقع، يقوم الأنا الأعلى على العكس من ذلك بتمثيل العالم الداخلي، فالصراع الذي ينشب بين الأنا والأنا المثالي، إنما هو يعكس في نهاية الأمر الخلاف بين ما هو واقعي وما هو نفسي، أي بين العالم الخارجي و العالم الداخلي [10].

ما عمل على ظهور تلك الإختلالات و المؤسسة على كيفية التنظيم الليبيدي خلال النمو النفس الجنسي، أي طريقة توزيع "كمية الليبيدو" على كل من الأنا و الموضوع و مدى تكامل النزوات الجنسية تجاه الموضوع الموحد، هذا الاستثمار المتكامل هو الذي يضمن في المنظور "فرويد" التحكم في النزوات المجزأة لدى الطفل التي تحرك الاندفاعات الإنحرافية المتعددة الأشكال [11].

و لهذا يمكننا القول أن البناء النفسي للحالات دل على الشذوذ، ما أدى بغالبية التنظيمات النفسية لتوظيفهن سيرورات نفسية ذات الطابع النرجسي و هستيرية من خلال التعامل مع الواقع بطرق لاشعورية، عن طريق الجسد ما دل على اضطرابات نفسية واضحة ذات طابع جنسي شاذة، مع انعدام كلي للخلفية الأخلاقية.

أما إجابة عن السؤال الثاني: الباحث عن طبيعة العلاقة بين الانحرافات الجنسية و سلوك العود للجريمة؟.فجاء موضحا من خلال ما صرحت به حالات الدراسة لمدى توظيفيتهن لانحرافاتهم النزوية ضد ذواتهم و ضد الغير.

إضافة إلى ما أظهرته الاختبارات النفسية للتنظيمات النفسية الشاذة ذات الآليات النفسية الجامدة و المشوهة بحيث تمثلت في القولبة الفكرية و الدالة بشكل ثابت على التكرارية و الروتينية الأدائية لنفس السلوكات اليومية و خاصة الدافعة للشعور بالتوتر النفسي، إضافة إلى ما جاءت به الاستجابات للبطاقات الجنسية و الدالة على حرية جنسية مبالغ فيها و شاذة مما أكدت إمكانية اقتراف جرائم جنسية جراء ذلك المستوى النزوي الكبير ضد الذات و ضد الغير، و الدال على سيرورة نفسية ثابتة، إضافة إلى ما جاءت به استجابات اختبار تفهم الموضوع المدعمة للاختبار ألإسقاطي لبقع الحبر و كذا المقابلات العيادية(المقننة و النصف موجهة).

بحيث خلص إلى أن جل حالات الدراسة يلجأن لحل عراقيلهم و صراعاتهم النفسية بنفس آليات الدفاعية الشاذة، بحيث تمثل معظمها في جانب صد الصراعات ذات الطابع ألعلائقي و الدال على عدم تكيف هته النسوة اجتماعيا مع دلالات عدوانية على المستوى ألعلائقي ما أدى إلى إثبات العلاقة العدوانية "السادية" بين حالات النسوة معتادات السلوك الإجرامي و تكرارية الفعل الإجرامي ذو البعد الاجتماعي، ما أكدت على خطورة الحالات على أنفسهن و على غيرهم، و إمكانية تكرارية التوظيف السادي ضد الغير و ضد المجتمع كلما تعرضن لإشكالية صد الصراع و كحل للنزاع النفسي، ما أدى إلى التأكيد على التنظيم النفسي السيكوباتي لدى حالات الدراسة.

بحيث يعد الاضطراب السيكوباتي من اضطرابات الشخصية، كما يعد من أخطر الشخصيات الضد اجتماعية، نتيجة تكراراتها الإجرامية مع انعدام الردعية القانونية لهم، بحيث جاء في التصنيف الرابع للطب النفسي موضحا

لأعراضه المرضية، تحت اسم اضطراب الشخصية المضاد للمجتمع Antisocial PD : متمثلا بالخصائص التالية:

1.نمط شامل من الاستهانة بحقوق الآخرين و انتهاكها، يحدث منذ سن الخامسة عشرة، كما يتبين في ثلاث (أو أكثر) مما يلي من أعراض:-

أ.العجز عن الامتثال للمعايير الاجتماعية المتعلقة بالسلوكيات الجائزة قانونيا يتجلى ذلك في تكراره لأفعال تضعه تحت طائلة القانون.

2.الغش و الخداع، كما يتجلى في تكرار الكذب، و اتخاذ أسماء مستعارة و الاحتيال على الآخرين لمآربه الخاصة أو متعته الشخصية.

3.الاندفاعية و العجز عن التخطيط للمستقبل.

4.النزق و العدوانية، كما يتمثلان في تكرار الشجار أو الاعتداء البدني.

5.التهور و الاستهانة بسلامة الذات و سلامة الآخرين.

6.انعدام المسؤولية كما يتمثل في العجز المتكرر عن الدوام على سلوك وظيفي قويم، و العجز المتكرر عن الوفاء بالتزاماته المالية.

7.عدم استشعار الندم على ما يقترف، كما يتجلى في عدم الاكتراث بمشاعر الآخرين و تبرير إيذائهم و إساءة معاملتهم و السرقة منهم.

ب.الشخص في الثامنة عشرة من العمر على الأقل.

ج.هناك أدلة على وجود اضطراب السلوك Conduct Disorder الذي بدأ حدوثه قبل سن الخامسة عشرة.

هـ.لا يحدث هذا السلوك المضاد للمجتمع على وجه الحصر أثناء المسار المرضي للفصام أو أثناء نوبة هوس [12].

إذ نجد بأن مشكلة السيكوباتي ليست في ظاهر سلوكه بقدر ما هي في ضعف كيانه الداخلي (الذات الداخلية) و تشوهه و عجزه، و إذا كان البارنوى

قد حل هذه المشكلة بالتوجس و الحذر و الاقتراب مع وقف التنفيذ، و كان الفصامي قد حلها بالانسحاب العدمي و النكوص و التفكك، فإن السيكوباتي يحلها جزئيا بإطلاقها فجة منفرة متحدية، ثم بإخفاء ما تبقى منها بالإضافة إلى ما تيسر من السلوك الدمث العادي داخل أعماقه .

و إذ يبدو متوحشا معتديا لأخلاق له في ظاهر الصورة الإكلينيكية يمكن للباحث أن يتبين أن هذا السلوك هو دفاع عن ذلك الضعف الداخلي، و في نفس الوقت فإن هذا السلوك هو تفعيل "Acting out " لمحتوى اللاشعور، بمعنى أن الذاتية و الانفرادية و إلغاء الآخر بدلا من أن تكون قابعة في اللاشعور في الأحوال العادية تظهر في السلوك بطريق غير مباشر، فإنها عند السيكوباتي تخرج في سلوك يلبس شكل السواء مباشرة، و لكنه يحقق هذه الذاتية في فعل معلن مباشر، أي " التركيب المعكوس"، و رغم هذا التفعيل الذي يطلق للأنانية العنان، و الذي يسمح للعدوان بالظهور متحديا إلا أن الأمر ليس مجرد ردة إلى المراحل البدائية بقدر ما هو أسلوب دفاعي ضد الضعف الداخلي و الهجوم الحقيقي و المتخيل من جانب العالم الخارجي.

و عليه في الأخير هذا ما يدفعنا بالقول أن للدور الجنسي الدافع القوي لعودة المرأة للسلوكات المجرمة قانونيا [13] ، أما إجابة عن التساؤل الخاص عن ما تسعى إليه المرأة معتادة الإجرام لتحقيقه ميدانيا وراء فعل العود الإجرامي؟، فلقد دل عليه من خلال ما جاء في تصريح معظمهن في حدود البحث عن كسب الرزق و الذي يعد كآلية دفاعية مقبولة على المستوى الشعور و على مستوى عامة الناس، إلا أنه في المقابل و من خلال الخبرات اليومية المعاشة فإن هناك نساء أكثر فقرا، إلا أنهن لا تقمن بمثل هته الأفعال السالبة للحرية و ذات الطابع الإجرامي و السيكوباتي، إضافة إلى أنواع أخرى من الحالات المنحرفات جنسيا يسعين لتحقيق توازنهن بطرق مشروعة عن طريق الزواج المباح قصد تحقيق حياة صحية بدون أن يعرضن أنفسهن لما يضاهي العرف و لا القانون.

خاتمة:

وعليه و من خلال النتائج المتوصل إليها توضح ما للدور الجنسي المرضي من أهمية كبيرة دافعة لارتكاب الأفعال الشاذة اجتماعيا ما يكسب صاحبها الصفة المجرمة و السيكوباتية جراء الفعل المكرر لهته السلوكات الغير أخلاقية ولا اجتماعية، لذا فالجانب الجنسي عد ولازال يعد من أهم المكونات الأساسية للتركيبة الإنسانية، إذ أوكلت إليه المدرسة التحليلية "فرويدية" جميع الاضطرابات التي تصيب الفرد، بحيث تكسب المريض أعراضا و سلوكات تعد شاذة مقارنة بأعراف عامة الناس، واضعة إياه ضمن فئات مرضية اجتماعيا جراء ذلك التأثير الجد هام على كامل الشخصية و الغير منطقي.

لذا وجب إعطاء الاهتمام الكافي و الصحي للمراحل النمائية المبكرة و التي تعد من أهم المسببات للأمراض الشخصية على طول حيات الفرد، إضافة إلى تكثيف الجهود للعمل على التصدي لهته المعضلة الاجتماعية و السلوكات الدخيلة و المريضة إجتماعيا، حتى نجتث شبابنا من وحل الأمراض و الآفات المدمرة للأخلاق و للصحة و للمستقبل ككل، إذ المتتبع للمجال البحثي يلاحظ نقص كبير في الجانب الأبحاث العلمية ذات الاختصاصات المختلفة في المجال البحثي الجنسي، و كذا في مجال السلوكات المرضية للمرأة، إلا من خلال بعض الدراسات ذات البعد الاجتماعي و المحددة في إطار البحث عن العوامل الباعثة لهته السلوكات دون التطرق إلى العوامل الذاتية، و المحددة للخصائص الشخصية

البشرية، و مدى تأثيرها المباشر على كامل الشخصية كونها لها علاقة مباشرة بكيان الفرد، بدون تدخل أي متغيرات أخرى مانعة أو باعثة لذلك السلوك دون غيره.

❖ **هوامش البحث:**

(1) المرأة تتنزع الريادة في عالم الجريمة(د.ت).تم استرجاعها في تاريخ:14 مارس. 2012 من
http://www.elmihwar.com/?p=3253

(2) جريدة أخبار اليوم.(03/ 02/ 2014). **الجنس اللطيف يتصدر الاعتداءات و السرقات عبر الشوارع**، تم استرجاعها في تاريخ:15.فيفري 2014 من http://www.akhbarelyoum.dz/ar

(3) سيغموند فرويد، ترجمة: جورج طرابيشي، **الحياة الجنسية**، ط3، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت،1999، (ص: 22)

(4) منير البعلبكي، **موسوعة المورد**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، دس، ج9، (ص:31).

(5) دن، الاضطرابات النفسية الجنسية Sexual disorders (الانحرافات الجنسية)-علم النفس المعرفي، (د.ت)، تم استرجاعها في تاريخ :10/02/2012 من
http://www.psy-cognitive.net/vb/t445.html

(6) عبد الله سليمان، **شرح قانون العقوبات الجزائري القسم العام**-الجزء الأول الجريمة- دار المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، ط5،2004،(ص:146).

(7) عبد الخالق جلال الدين، **الجريمة و الانحراف الحدود و المعالجة**، الإسكندرية،1999، (ص:24).

(8) دن،-دور المؤسسة العقابية –منتديات الجلفة لكل الجزائريين و العرب- 03/01/2012، تم استرجاعها في تاريخ:06/ 02/ 2012من http://www.djelfa.info/vb/showthread.php?t=518468

(9) عبد الله سليمان، مرجع سابق، (ص:378-380).

(10) سيجمند فرويد، ترجمة:محمد عثمان نجاتي، **الأنا و الهو**، ط4، دار الشروق، القاهرة، 1982، (ص:60) .

(11) عبد الرحمان سي موسي، محمود بن خليفة، **علم النفس المرضي التحليلي و الإسقاطي** ، ج1، 2008، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (ص:92).

(12) الرابطة الأمريكية للطب النفسي،ترجمة: أمينة السماك، عادل مصطفى،**الدليل التشخيصي الرابع للاضطرابات النفسية**، 2001، (ص:303-304).

(13) اضطرابات الشخصية.(د.ت). تم استرجاعها في تاريخ:12فيفري 2013 من http:/www.rakhawy.org/a_site/psychotherapy/books/PsychopathologyWeb/Psychopathology_No_10.htm

التعليم الابداعي ....اليابان نموذجا

الدكتورة: انتصار الكرد ، جامعة البليدة 2، الجزائر

الملخص:

هدفت الدراسة إلى معرفة كيف نجحت اليابان في تطوير النظام التعليمى وجعله تعليمًا إبداعيًا، وهذا طبعًا لم يتأتى إلا عن طريق توفير وتقديم خطة أو استيراتيجية واضحة، وكما أشارت الدراسة إلى تبيان أهم وأسس الآليات النظرية المستخدمة في صيرورة خطة واستراتيجية التطوير التعليمية اليابانية. وقد حاولنا من خلال هذه الدراسة – النظرية – تحليل أهم مراحل تطور التعليم عامةً والتعليم الإبداعي في اليابان خاصةً.

Abstract :

The study aims to find out how Japan has succeeded in the development of the educational system and make educated creative, and of course, this did not come only through the provision and submit a plan or clear strategy. The study showed the most important mechanisms used in the process of strategy development of learning in Japan. We have tried through this theoretical study analysis of the most important stages of the development of education in general and creative education, especially in Japan.

مقدمة:

يمثل التعليم عاملا أساسيا ورئيسيا في تطور البشرية منذ أبونا آدم عليه السلام، حيث اتجه الانسان الى طلب المعرفة عندما لاحظ ان التعلم أدى به الى التطور واكتشاف المزيد من المعارف والعلوم، وقد استفاد من ذلك فأوجد أنماطا تعليمية جديدة تتناسب ومستوى تطور الاحتياجات اليومية.

فقد أصبح التعليم مطلبا ضروريا في حياة التمدن التي عرفتها المجتمعات الحديثة، وتنافست في ذلك الامم المتطورة حتى تفوز وتهيمن على العالم، من خلال ما أبدعته كوادرها في المجالات التكنولوجية والصناعية والعلمية بصفة عامة....واليابان هنا مثالا على نجاح تجربتها في التعليم والتعليم الابداعي الذي اعتمدته خاصة بعد هزيمتها في الحرب العالمي الثانية، حيث انكفأت على نفسها بهدف اعادة بناء مجتمعها وأجيالها المحطمة نفسيا واقتصاديا واجتماعيا، باعثة بذلك استيراتيجية و خطة تعليم جديدة، مرسومة الاهداف والنتائج التي تتطلع اليها اليابان كدولة متطورة اقتصاديا تنافس الدول الغربية التي كانت سببا في هزيمتها في ح ع 1، وحيال ذلك لم تنأ اليابان بنظامها الجديد عن ما سجل من تحديث وتطوير في برامج التعليم الاوربية والامريكية، حيث استطاعت ان تضع في خططها هذه المعطيات وتكييفها بما يتناسب و طبيعة احتياجات المتعلم في اليابان.والتركيز خاصة على التعليم من أجل الابداع، وليس التعليم من أجل التعليم.

تحاول هذه الدراسة تقديم التعليم الياباني كنموذج من النماذج الانسانية الرائدة في تطوير التعليم الحديث، والذي اعتمد خاصة في المرحلة الاخيرة من مراحل تطور التعليم الياباني، وتوضيح الخطط والاسس النظرية التي قامت عليها فلسفة التعليم الابداعي الياباني، خاصة في جانبها النفس الاجتماعي، من خلال دراسة نجاعة التطوير التاريخي المرحلي للتعليم الياباني في بناء وغرس قيم الابداع والعمل من أجلها .....ومقارنة ذلك كله مع بعض نماذج التعليم الغربية الناجحة، حيث تظهر الفروقات بين المتعلم الياباني والمتعلم الغربي واضحة خاصة قي استعدادات الطلبة اليابانيين ومرونة برامج التعليم اليابانية المستحدثة،

وهذا انطلاقا من تحاليل مختصين في تطوير التعليم في الغرب والنتيجة هو تفوق الطالب الياباني على الطالب في الغرب ، من حيث الاستعداد والتقبل والتكوين المحكم والاحساس بضرورة امتلاك روح الابتكار لدى الطالب الياباني...

ومن أجل ذلك قمنا بطرح تساؤلات الدراسة كمايلي :

1. كيف تطور التعليم الياباني الى التعليم من أجل الابداع؟
2. ماهي بنيات وعوامل تكون التعليم الابداعي الياباني ؟
3. كيف يتكون الابداع عند الطالب الياباني ؟

❖ **أهداف الدراسة :**

- ✓ تهدف هذه الدراسة الى التعرف على التجربة اليابانية في تطوير التعليم الى التعليم الابداعي من أجل الاستفادة منها مستقبلا في الجزائر ...
- ✓ كما تهدف الدراسة ايضا الى التاكيد على أولوية ونجاعة التعليم الابداعي كتعليم نوعي يؤدي الى التنمية الاقتصادية والاجتماعية المطلوبة.
- ✓ كما تحاول فهم تكون الابداع لدى الطالب الياباني بهدف تكييف ذلك عند الطالب الجزائري.

❖ **اهمية الدراسة:**

ان مسألة التعليم في اليابان، والتعليم الابداعي خاصة ، يجب أن تشكل محل اهتمام ودراسة من طرف الباحثين في عالمنا العربي و العالم باسره .....كون ارتباطه الوثيق واضح خاصة بالنجاحات والانجازات العلمية والتكنولوجية التي ابهرت العالم كله، حيث أكد باحثون غربيون حقيقة هذه العلاقة الوطيدة بين نمط التعليم في اليابان ومستوى التطور العلمي الذي سجلته اليابان خاصة في المجال التكنولوجي والصناعي....ونحن في الجزائر مطالبون بالاستفادة من التجربة اليابانية الناجحة والتي بدأتها بوضع سياسة محكمة لتطوير التعليم وجعله تعليما ابداعيا....ونحن في الجزائر نمتلك كل الطاقات العلمية

المطلوبة من اجل تطوير التعليم ووضع استيراتجية واضحة للنهوض بمستوى التعليم وجعله تعليما ابداعيا نوعيا....

1. دور النظام التربوي في صنع المستقبل:

إن الانظمة التربوية التي لا تساهم في صنع مستقبل المجتمع ، تقف على حافة الانهيار، حيث لا مبتغى لها ولا اهداف واضحة تجتر الماضي سواء كان ماضيها او ماضي غيرها، دون الوقوف والتامل المفيد حتى تصنع مستقبل جديد ، هذه الانظمة ايضا تعرف اهتزازات في بنائها الداخلي حيث لا مكانة للمعلم لا ماديا ولا معنويا، لاتضع للتربية والتعليم الميزانية المطلوبة ناهيك عن تفضيلها للعمل اليدوي على العمل العقلي (أو العكس) ....او تفضيلها للعلوم الدقيقة على العلوم الانسانية، هذه الانظمة تسهم بلا شك في تاخر المجتمع وتخلفه، فتصبح تلك الانظمة التربوية عبئا ثقيلا لا تنتج سوى البطالة والتسرب والجهل.

إن الحقيقة المتفق عليها، والتي يراها أغلب المربين والباحثين والقادة والمصلحين ان النظام التربوي يقع في مقدمة الاسباب التي تقف وراء نهوض الشعوب ومنها الامة اليابانية [1] ففي تنوع برامجه، ومرونته وكفاءته تكمن قوة هذه الامة ونجاحها، وفي تخلفه وضعفه تكمن عوامل انحدارها وضعفها.

ولنا في ذلك العديد من النماذج الانسانية الناجحة كالاتحاد السوفياتي سابقا: الذي اعاد بناء نظامه التربوي بكامله بعد ثورته الاشتراكية سنة(1917) واستمر يعيد النظر فيه كلما دعت الحاجة الى ذلك[2].

كما سارت امريكا بنفس الاتجاه، اذ راجعت واصلحت نظامها التربوي، وغيرت معظم مناهج تعليمها، وخاصة مناهج العلوم الطبيعية، والرياضيات. بعد اطلاق السوفيت قمرهم الصناعي الاول سنة (1957) الذي حققوا به السبق العلمي والتكنولوجي والسياسي لم تكن تتوقعه لا الولايات المتحدة ولا دول اوروبا ....وفي سنة (1983) راجعت الولايات المتحدة نظامها التربوي بكامله واعلنت في وسائل الاعلام ضمن تقريرها المعروف - امة معرضة للخطر -

اعلنت فيه ان امريكا معرضة للخطر بسبب ضعف وتدهور نظامها التربوي ، وقد شارك في اعداد هذا التقرير 18 شهرا [3] درسوا كافة العوامل التي تؤثر في النظام التربوي ونشاطاته وتتاثر بهما ، أكدوا على ذكر الجوانب السلبية دون الايجابية ...وهي دون شك كثيرة ، اقترحوا البدائل والحلول التي يمكن ان يسهم بها الجميع ، كما يوجد العديد من الدراسات والندوات والمؤتمرات التي تهدف الى خلق نظام تربوي يكفل تحقيق السبق والتفوق المستمرين [4].

مما سبق يتضح لنا ان النظام التربوي لاي مجتمع اذا ما توافق وتكامل مع الانظمة االاقتصادية والاجتماعية والرغبة السياسية - ونعني بها الارادة السياسية التي تتجلى في القرارات والتشريعات التي تتبناها الدولة -، فانه يصبح السبب الرئيسي في التخلف والانحطاط .

2.التطور التاريخي للتعليم الياباني:

أ.مرحلة ميجا:

بدات في عهد ميجا (1868 – 1913) مرحلة التحديث اليابانية من خلال الاتصال بالثقافة الغربية، ونجمت عنها نجاحات وابداعات باحثين خاصة في ميادين العلوم والتكنولوجيا، الا أن هذه المرحلة كان ينقصها توفر البحوث العلمية المنشورة .

ب.مرحلة تيشو (1913 -1936):

ازدهرت مرحلة الحاكم تيشو بزيادة البحوث العلمية والتركيز على تطبيق التربية الابداعية ، فالف عام 1919 ميكيجا جيبا ستة كتب جميعها تتعلق بالتربية الابداعية منها كتاب :" الجوانب النظرية والتطبيقية للتربية الابداعية" .

وفي سنة (1923) اقترح أحد المربين في كتابه "مباديء التعليم " ان يكون تنمية الابداع هدفا رئيسيا للتعليم وفي سنة (1924) كتب سوفا انج حول المشاكل المنهجية للتربية الابداعية، للعلم فان دراسة ابن الجوزي (الاذكياء) هي دراسة وصفية للاذكياء واخبارهم وقصصهم ونوادرهم واقوال الحكماء في وصفهم دراسة وصفية سبق بها كالتون .

اذن تركزت هذه المرحلة بظهور بحوث تناولت تنمية الابداع في اليابان [5].

ج. مرحلة كوشيشي :

وفي سنة(1931) أدخل كوشيشي آتو وهو مدير مدرسة ثانوية برنامجا تربويا لتنمية الابداع، وبعد رحلته العلمية لاوروبا وأمريكا وهو برنامج يعمل على رفع الدافعية والاطلاع والابتكار عند الطلبة الثانويين.

وهكذا تتالت البحوث النفسية والتربوية حول عالم الابداع وكيفية غرسه كسلوك ايجابي مبكر لدى المتمدرسين عامة في اليابان .

د.مرحلة التحديث :

في الثمانينات زاد اهتمام اليابان بتحفيز وبتدريب التفكير على الابداع بين ابنائهم، وعبرت ميري وايت بذلك بقولها : "وقد عبأت اليابان – اخيرا- حملة من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب ومن شرقها الى غربها ،داعية الى تنمية الابتكار والابداع ....الخ.

3.الدروس التي قدمها النظام التربوي الياباني:

لقد تبنت جامعة كاليفورنيا الامريكية بحثا شاملا عن التعليم الثانوي في اليابان حتى يقفوا على اهم دعائم هذا النظام، ايجابياته وسلبياته، وهذا في بداية الثمانينات، كما خصص مركز دبلن للبحوث الاجتماعية والاقتصادية في بريطانيا منحة لواحد من كبار الباحثين في التربية من اجل دراسة النظام التربوي الياباني بهدف تحديد الدروس التي يمكن الاستفادة منها مستقبلا.

اذن اعد الدراسة الاولى الدكتور توماس ب وهلن من جامعة كاليفورنيا الولايات المتحدة وأصدرت سنة (1983) في كتاب تحت عنوان: "التعليم الثانوي في اليابان" حيث جاء في هذه الدراسة ان الباحث قضى مائة ساعة زار فيها قاعات الدراسة في خمس مدارس ثانوية يابانية، وتحرى خلالها مفردات المناهج الدراسية، وكيفية بنائها وكيفية تقديمها (تدريسها للطلبة)، المعلم الياباني وبرامج اعداده قبل التوظيف وبرامج التدريب اثنائها، راتبه، محفزاته، عدد الساعات التي يقوم

بتدريسها، نسبة عدد الطلبة اليه ....الخ. الطالب الياباني غذاءه، طموحه، تنافسه هواياته، أسباب تفوقه وسبقه، وأسباب انتحاره [6].

وبعد التحليل والمقارنة بين ما شاهده الباحث الامريكي وبين الاحصائيات المتوفرة عن التعليم الثانوي الياباني توصل الى حقيقتين هامتين هما:

ان طلبة الثانويات اليابانية أكثر كفاءة والماما بالمعلومات من زملائهم الامريكيين.

السنة الدراسية اليابانية اطول من السنة الدراسية الامريكية، حيث يقضي طلبة اليابان وقتا اطول من طلبة اوروبا وامريكا [7].

اما الدراسة الثانية التي اعدها استاذ علم النفس البريطاني الدكتور ريجارد لين الباحث في معهد دبلن للبحوث الاجتماعية والاقتصادية ونشرت سنة(1988)، كانت تحت عنوان: "التحصيل التربوي في اليابان : دروس للغرب" [8].

قدم الباحث دراسة مقارنة بين النظامين التربويين الياباني والاوربي بما فيها الولايات المتحدة وكندا واهم ماتوصلت اليه الدراسة هو :

- بالرغم من ان اليابان دولة صناعية وان ما تصرفه على التربية والتعليم لا يتجاوز كثيرا ما تصرفه بريطانيا 5 ,8% من الدخل القومي العام الا ان تعليمها – أي اليابان – يمتاز بكونه :
- يحتل اعلى مستويات التعليم في العالم.
- ان طلبة المرحلة الثانوية اليابانية الذين تتراوح أعمارهم بين (11و 19) عام، متقدمين على امثالهم في دول اوروبا الغربية وكندا والولايات المتحدة بعامين دراسيين علل الباحث لين سبب هذا التفوق والسبق الى اربعة عوامل هي:
  - ✓ كفاءة ومركزية مناهج التعليم العام أي مناهج االلغات والرياضيات والعلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية.
  - ✓ طول العام الدراسي الياباني، أي ان الطالب الياباني يقضي ساعات دراسية فعلية في الدراسة والتعلم داخل المؤسسات التربوية اكثر من

زميله في دول اوروبا وامريكا وكندا، وهذه الساعات يقضيها الطالب الثانوي الياباني بتعلم معلومات ومهارات واتجاهات ايجابية وهذا يؤدي الى زيادة الميول والدافعية نحو التعلم، ونفس الشيء ذكره دي بونو أستاذ علم النفس – جامعة كامبرج – بريطانيا، والذي أعطى نفس الملاحظات السابقة الذكر حول اسرار العقلية اليابانية المبدعة (1993 _1994).

- ✓ يمتاز الطلبة اليابانيون بان لديهم دوافع قوية ورغبة كبيرة جدا نحو العمل العملي والمنافسة حادة بينهم للظفر بالتعليم العالي، اي أن التعليم الجامعي ليس لكل من هب ودب بل فقط 40% من الثانويين يدخلون الجامعات.
- ✓ يوفر النظام التربوي الياباني أفضل الحوافز المادية والمعنوية للمعلمين لكي يقدموا اعلى كفاءة ممكنة [9].

عكس ما هو واقع في معظم بلداننا العربية التي تركز على تخريج الكم دون النظر الى نوعهم وتكوينهم وجودتهم العلمية بل ان المتخرج لا يقوى في معظم الاحيان على التكيف في الحياة العملية الا بعد سنوات من الخبرة والتكوين وكان ما اكتسبه خلال فترة التعليم الجامعي حبرا على ورق لا علاقة بين تعلمه ووظيفته هكذا هو الحال في كثير من التخصصات وخريجيها المكدسين في أروقة سوق العمل في البلدان العربية [10].

يعتبر البروفيسور لين هذه العوامل الأربعة عوامل أساسية تؤثر على ارتفاع أو انخفاض مستويات التعليم في دول اوروبا، وهذه المستويات ستحدد آجلا أم عاجلا مصير الامم والشعوب كما يقول ولاس أن البقاء والسيادة للاقوى والاصلح، ولا يأتي هذا الاصلح بالتمنيات والتفاخر والتعداد الكمي السكاني.

بل ينبع من نظام تربوي متكامل متناغم تضمنه السلطة السياسية وتدعمه القوى الاجتماعية المسؤولة، ورغم وجود عدد هائل من المنظمات والمراكز

والمخابر والباحثين العرب المتخصصين في مجال تطوير التربية والتعليم فاننا بحاجة الى النوع وليس الكم، فعلى هذه الاعداد الهائلة من المراكز والمنظمات العربية النظر بجدية وفعلية في التجربة التربوية اليابانية باعداد البحوث حولها ومقارنتها بأنظمتنا التربوية العربية وتحديد الايجابيات والعبر التي تمكننا من الاستفادة منها واستثمارها حتى تخدم اهداف التنمية في شتى ميادين الحياة ونحن كعرب نملك الطاقة التنموية والكفاءات اللازمة والخمائر المنتجة والعقول المبدعة، فدفعة بسيطة الى الامام قد تحول واقعنا المبهم الى واقع محظوظ لاجيالنا القادمة.

4. اهتمام النظام التربوي الياباني المبكر بالتربية من اجل الابداع:

يشير معظم الباحثين ان البحث العلمي في ميدان الابداع بدأ فعليا منذ عام 1868م عندما نشر كالتون دراسة حول العبقرية الموروثة.....الخ.

لقد استفاد علماء النفس والتربية اليابانيين بترجمة ونشر اعمال كلفورد وتورانس وفون فانج وغيرهم وطوروها نظريا وتطبيقيا وقد صنف اوندا مراحل دراسة الابداع وتطويره في اليابان:

5. اتجاهات بحوث الابداع في اليابان:

يرى اوندا ان اتجاهات بحوث الابداع في اليابان تركزت خاصة بعد عام 1963م في اتجاهين رئيسيين هما :

أ. منذ العام 1964م أصبح بحث وتطبيق اساليب تنمية الابداع نشطا في مجال الصناعة اولا ثم في ميدان التربية والتعليم .

ب. اكتسبت اساليب التحفيز وتنمية التفكير والابداع شعبية وانتشارا كبيرا في اوساط المتعلمين والمربين في اليابان اكثر من امريكا أو اوروبا (11).

6.المصادر الرئيسية للابداع :

يرى اوندا ان المصدرين الرئيسيين لمفهوم الابداع هما التخيل والحدس، فعملية الخيال هي احدى العمليات الاساسية التي يلجا اليها الانسان في سعيه نحو الافكار والتصورات والخبرات الجديدة وغير المالوفة ومن ثم تكاد تكون عملية مشتركة بين حب الاستطلاع والابداع اما الابداع فهو القدرة الخاصة بالخيال والتي تمكن الفرد من تفكيك الاطر والوجهات الادراكية الموجودة

لديه بدرجة تمكنه من اعادة تكوين افكار ومشاعر وتصورات جديدة وتكوين روابط ذات معنى بين هذه الافكار والمشاعر والتصورات وهنا تكمن أهميةاستثمار الخيال لدى الفرد المتعلم لما له من تأثير في تنمية التفكير الابتكاري والابداع.

7.ابداع العلماء والمهندسين اليابانيين :

حاول اوندا دراسة ابداع العلماء والمهندسين اليابانيين خلال العام 1961 من خلال دراسة تطور الابداع وتنمية وادارة وتوجيه العلماء والمهندسين الشباب ففي عام 1963 م تبنت "وكالة العلم والتكنولوجيا " مشروع بحث بعنوان "تحسين الدافعية وقدرة الباحثين" وهنا درس أوندا وزملاؤه موضوع تنمية الابداع عند العلماء والمهندسين في المؤسسات اليابانية العامة والخاصة [(12)].

8.التربية والتعليم من أجل تنمية الابداع:

لقد تركزت جهود التعليم داخل المدارس أو في ميدان الصناعة على الاساليب السريعة وتنمية الخيال والتفكير الحدسي والتباعدي، كما اصبحت اساليب تنمية الفكر الابداعي وحل المشكلات اكثر تطويعا لتستجيب الى متطلبات ظروف المدارس اليابانية، وقد تم توحيدها وتكاملها بحيث يمكن تطبيقها على نحو أفضل في المواقف التربوية داخل قاعات الدراسة.

وفي ميداني الرياضيات والعلوم الاجتماعية، تركز تعلم وتعليم طرق حل المشاكل والاكتشاف أين ظهرت النتائج ايجابية.

ففي مجال التربية العلمية طور Kiyonobu .Itakura سنة 1974 طريقة تدريس الفرضيات التجريبية وقام بتوجيه الطلبة نحو ممارسة عملية البحث العلمي والاستكشاف.

9.آليات التفكير الابداعي الاساسية عند اليابانيين:

توصل اوندا الى تحديد بعض آليات الابداع عند اليابانيين حيث لاحظ ان اليابانيين يتميزون بخاصية رحابة الصدر تجاه الامور الغامضة في تكوين الشخصية الابداعية ، في حين يفتقد التفكير الغربي لهذه الخاصية رغم تميزه بدرجة عالية من التعقل والتفكير المنطقي، لكن برأيه ليسا كافيين لتطوير الافكار الجديدة لان ميزة رحابة الصدر تجاه الغموض هو مطلبا اساسيا للخروج من مازق العقلانية والتفكير المنطقي.

كما يتميز اليابانيون بخاصية اخرى هي الحدس في أساليب التفكيير وهذا متعلق اساسا بالموروث الثقافي عبر الاجيال [11]. خاصية اخرى ضمن آليات التفكير الابداعي عند اليابانيين وهي المرونة وتعني التجديد المتواصل وقوة و سرعة الخروج من القوالب الجامدة والتكييف الفاعل تجاه البيئات والمواقف الجديدة، وهذه الخاصية كانت اساس التفكير والسلوك الابداعية الياباني[12] .

الاستنتاج العام :

- ✓ ارتبط تطور التعليم الياباني الى التعليم الابداعي بمراحل مدروسة باستراتيجية تعليمية نمت وتطورت منفتحة على الغرب ومراعية بذلك واقع واستعدادات المتعلم الياباني، واضعة في الاعتبار الاول الوصول الى هدف واحد وهو التعليم من أجل الابداع.
- ✓ تكون التعليم الياباني وتطور انطلاقا من فلسفات علمية مدروسة من طرف خبراء في التربية والتعليم وقد ركزت على بناء الشخصية الابداعية بدأ بمرحلة الطفولة وصولا الى مرحلة الشباب والكوادر المتخصصة في مجالات الهندسة والصناعة التكنولوجية الحديثة.
- ✓ يصنع النظام التربوي حاضرومستقبل الامم شرط ان يحصل على دعم وتبني سياسة الدولة والمجتمع.
- ✓ رغم ان اليابان لا تنفق على التربية والتعليم بالقدر الذي تنفقه الدول الاوروبية بما فيها اميركا وكندا الا انها تملك اقوى نظام تربوي في العالم
- ✓ تمكن اليابانيون من احتلال الريادة العلمية من خلال الجمع الامثل بين معطيات الحضارة الغربية المعاصرة وثقافتهم الشرقية، فخلقوا معجزات اقتصادية وسياسية واجتماعية.
- ✓ يتقدم اليابانيون على الاوروبيين والامريكيين في اهتمامهم المبكر بالتعليم قبل الابتدائي، كما يتقدمون عليهم في حجم اهتمامهم بتحفيز التفكير والابداع وتنميتها
- ✓ لا زال كثير من جوانب النظام التربوي الياباني ودروسه مجهولة لنا نحن العرب ولكثير من الدول النامية بسبب ارتباطنا السياسي والاقتصادي والثقافي بالدول الغربية وامريكا التي لا يسرها تعلم العرب وغير العرب من تجارب غيرها، لذلك توجد حاجة ماسة، تتطلب دعما حكوميا وشعبيا، لدراسة الجوانب المجهولة في النظام التربوي الياباني والاستفادة منها.

الخاتمة :

إن مستقبل امتنا يتوقف فعليا امام تطور مستوى التربية والتعليم ولنا في اليابان المثل والعبرة التي اذا ما سرنا على منهجها نكون قد وضعنا الخطوة الاولى امام مسيرة الحضارة التي نعتز– كمسلمين- باسترجاعها ولملمتها من جديد.وفي الجزائر نتطلع الى ثورة تعليمية ترتقي بنا الى مصاف الدول المتحضرة التي تنتج ولا تستهلك فقط، ولكن هذا لن يتاتى الا بالاستفادة من النماذج الحديثة الناجحة في تطوير التعليم وجعله تعليما ابداعيا، وعلينا اذن اعادة النظر في منظومتنا التعليمية وتكييفها حتى تنفتح على التجارب الاخرى مع وضع في عين الاعتبار واقع ومتطلبات المجتمع الجزائري وتطلعات جمهور المتعلمين، فنحن نتعلم ونتربى في مدارس وجامعات ومعاهد ولكن بدون منهجية أو استيراتيجية مسطرة واضحة تقودنا الى الاهداف الحضارية....نريد بحوث علمية منجزة ومدعمة وموزونة عالميا، تقود الى اقتصاد منافس، وتحمل رؤية حضارية انسانية، فلنتمسك دائما بالتعليم الابداعي فهو الطريق الى الحضارة.

❖ هوامش البحث

(1) خوري، توماجورج: **الاختبارات المدرسية ومرتكزات تقويمها**، بيروت / 1991م – ص 33.

(2) سعد الدين وآخرون : **مستقبل النظام العالمي وتجارب تطوير التعليم** ، منتدى الفكر العربي، عمان – الاردن ، 1989م – ص112.

(3) وايت ميري: **التربية والتحدي**، عالم الكتب –القاهرة – 1991م - ص 202.

(4) بهاء الدين حسين كامل: **الجامعات وتحديات العصر**، مجلة ادب ونقد ن العدد 125، ص ص 21 _32.

(5) محمد آيت موحي وآخرون: **التدريس الهادف**، ط 3، دار الخطابة للطباعة والنشر، 1991، ص 12.

(6) تيسير الدويك وآخرون: **أسس الادارة التربوية والمدرسية**، عمان، دار الفكر، بدون تاريخ ، ص 82.

(7) محمد طارق السويدان : **مباديء الابداع**،دار ابن حزم، بيروت ،2002، ص 49.

(8) كاظم عبد النور: "**النظام التربوي الياباني واهتمامه المبكر بالتربية من اجل الابداع**"، التربية المعاصرة، 1997، ص 141.

(9) Jean –pierre tyberghein § Yvon pesqueux :**l'ecole japonaise d'organisation** ;puf ,2012 .P -69.

(10) Horio Teruhisa : **l'education au japon**,puf, 1997- p 83.

(11) Gaston Mialaret : **Histoire mondiale de l'education** ,presses universitaires de France ,1981 – p 107 .

(12) Kessinger publishing : **Apercu General de L'Education au Japon 1905** ,ed 2010 – P 50 .

الإرشاد الأسري للأطفال ذوي الإعاقة العقلية

الأستاذة: حسينة طاع الله، جامعة بسكرة، الجزائر

الملخص:

إن مشاركة أسر الأطفال المعاقين ذهنيًا في برامج الإرشاد التى تعطى للأولياء من قبل المختصين والعاملين في مجال التربية الخاصة، أصبحت ضرورية لتنمية جميع المهارات الأساسية التى تتناسب مع قدراتهم وحاجاتهم البيولوجية والنفسية والتربوية مثل تناول الطعام والمشاركة فى الأنشطة الاجتماعية المختلفة، وحسن التصرف في المواقف المعايشة عن طريق التقليد والدعم، فيؤدي بهم إلى الاستقلالية الذاتية والاجتماعية والمهنية.

Abstract :

The participation of the parents of the mentally disabled children in the guidance programmes prepared by the professionals of Special Education becomes crucial to develop the basic skills needed by this category (the mentally disabled children) that are commensurate with their abilities and also with their psychological, educational and biological needs such as: how to eat, how to participate in different social activities and how to acquire an adequate behaviour to deal with the various situations lived, this can be achieved through imitation and support that would lead these mentally disabled children to self reliance in different fields.

مقدّمة:

تعد الإعاقة العقلية من الموضوعات التي اهتم بها ميدان التربية وعلم النفس التي تندرج ضمن فئة الأطفال غير العاديين.إن العناية أو الرعاية عنصر أساسي في حياة المعوق عقلي، حيث يتسنى له في الأخير التكيف مع المجتمع و ما نريده أن يتواجد في مجتمع تتضافر جهود كل من الأسرة و المتخصصين و لتفعيل طاقته المخزنة وعدم إهمالها و أن توفر برامج الإرشاد الصحي الاجتماعي و النفسي التربوي من أجل متابعتهم و تقديم نصائح للآباء حول طريقة التعامل معهم و الابتعاد عن ردود الأفعال السلبية من طرفهم الإنكار و الحزن القلق و الخوف و من اجل تحقيق حاجات الأطفال المعوقين من طرفهم لجعله يتوافق وبيئته، ويعيش بسلام كباقي الأقران، و يحقق الكفاية الذاتية.

أولا: الإعاقة العقلية

1. تطور الفكر في تربية الأطفال المعوقين عقليا

ففي عهد الفراعنة نجد أن ملوكهم اهتموا بالفئات الخاصة وأولوا عناية بالفقراء، و العجزة **أما في إسبرطة** كان التعامل معهم بلا رحمة أو شفقة ، لكن **رومولوس Romulus** و**سولون Solon** استاءا من تلك التصرفات، وطالبا بتشكيل جمعية أهلية تحميهم[1]، في حين عمل الإغريق على التخلص من هؤلاء المعوقين عقليا واعتبروهم غير صالحين للحياة ووجب التخلص منهم في مرحلة الطفولة الأولى [2]، لذلك أطلقوا الكلمة الإغريقية **Idiots** على هذه الفئة ومعناها المعتوه التي مازالت تستخدم لحد الآن .

أما في عهد المسيح أين كانت الديانات السماوية في العصور الوسطى تهتم بهم، فقد ظهرت بذور الإحسان، وأعطيت لهم فرصة العيش في رحاب الكنيسة كما وفرت تعاليم **جوستينيان** للمتخلفين عقليا، و للصم والبكم أوصياء يقومون عل مصالحهم[3].

أما في العصر الإسلامي فقد قدم المسلمون الكثير لهم بتقبلهم كما هم، حيث نجد أن رسولنا الحبيب حرص على المساواة بين مختلف الفئات في المجتمع، ونهى عن السخرية والتعالي ،حيث خصص لهم من بيوت مال المسلمين جزءا من مصاريف الزكاة التي مكنتهم من العيش بسلام. وفي بغداد تم الاهتمام بتربية المعوقين، وذلك بإنشاء مستشفيات علاجية(**البيرمستانات**) وتأسيس أول معهد للمعاقين عام **707 م، 88هـ** وبعدها في عام **756م – 137هـ**[4]. وكانت تعزى الجهود التربوية في الفترة (**1794–1798**) **لـ إيتارد Itard** الذي قام بمحاولة تدريب وتعليم طفل الغابة المتوحش طفل الأفيرون[5]. وبعد وفاته حاول الطبيب الفرنسي **إدوارد ساجان Edouard Onesimus Seguin** عـام **1837** مواصلة تعليم طفل **الآفيرون،** الذي قام بإنشاء معهد في باريس عام **1839**م واستعمل فيه طرقا تربوية خاصة لتعليمهم، وهاجر إلى (و.م .أ) حيث واصل في المجال نفسه، وأنشأ جمعية "المتخصصين في التخلف العقلي" التي تطورت فيما بعد إلى (**AAMD**)[6].

في القرن (ق 20) أين أنشأت صفوف خاصة على مستوى الدول العربية والغربية لكي تتمكن هذه الفئة من التكيف ومسايرة متطلبات الحياة الاجتماعية.

هكذا نجد عبر هذه السلسلة التاريخية أن الطفل الذي اعتبر كطفل الغابة فيما مضى أصبح بفضل جهود الكثيرين في الجانب الاجتماعي و التربوي النفسي أن تكون له مكانة اجتماعية خاصة.

2. مفهوم الإعاقة العقلية

إن المراجع الأجنبية تستعمل مصطلحات مثل: **Déficiences, Handicap, Handicapés, Débiles, Arriéré, L'idiot, L'imbécile أما** المراجع العربية فتستعمل مصطلحات: التخلف العقلي، الإعاقة العقلية (الذهنية)، الضعف العقلي، التأخر العقلي، أو حسب المفهوم من بين المصطلحات المتشابهة **مثل** (أبله، أحمق) **Demeuré**.فحسب دراسة لـ **ساجان** عام **1846** أن

T21 كان تحت اسم المعتوه المقشر **Idiotie Furfuracée**.[7] أيضا معظم المجتمعات فحالات التخلف يطلق على البعض منها تعبير الساذج **Idiot Du Village**ويتوسط التخلف الحاد والعميق: معتوه **Idiotie**، الضعف **Débilite Mentale** و أن الضعف درجة من التخلف **L'arriération** ويمكن أن يكون إما عميق **Profond** أو بسيط **légère** وللضعف **Débilité** شكلان: **الأول:** وراثي **Endogène** و**الثاني**: مكتسب **Exogène**[8] .وفي دراسات التحليل النفسي لـ **M.Mannoni** تحدث حول الطفل المتخلف والتجارب البيداغوجية المختلفة حول الأطفال الذين لديهم ضعف عقلي **Enfants Débiles** أو الأطفال **Handicapés** حيث نجده استعمل وأطلق،عليهم مصطلح **Débiles** نفسه **Handicapes**[9].

– لكن المجلس الفرنسي (**Des Jeunes Inadaptés**) نقد هذا التفسير والتقسيم وكان التفسير كما يلي:

أ . المعتوه **a - l' idiotie**

ب. الأبله **b - l'imbécillité**

ج. الضعف العقلي **c - la débilité**

إن الأمريكان يستعملون مصطلح **المأفوفون Moron** الذي مستواه العقلي **Q.I.=50 -70**

أما الإنجليز يسمونه**Dullard** [10]. و في دراسة لـ **Claude lévy**استعملت ثلاثة مستويات للضعف العقلي **Les Débiles**

- **العميق** أقل من **50** .
- **المتوسط : 50 – 70** .
- **البسيط: 70** [11].

ويضيف التناول البيداغوجي الذي استعمل مصطلح الضعف **débiles** نفسها الصعوبات العقلية **Déficients Intellectuels** [12]. أن **سيمون و بنيه** يستعملان التأخر العقلي **retard mental أما perron** يؤكد أن الضعف العقلي

débile بصفة عامة متخلف **Arriéré** وهو الشخص الذي يعاني من نقص (قصور) عقلي**déficit mental**.[13] استعملت أيضا مفاهيم و مصطلحات أخرى مثل: **handicapé, handicap** فهل تكافئ مصطلح الإعاقة ؟

إن أصل كلمة **handicap** هي: كلمة إنجليزية تستعمل أكثر في المجال الرياضي:"وهي انحراف في مجال القدرة العقلية أو السمعية أو الصدرية أو الحركية أو التعليمية أو اللغوية"[14].

و يعرفها **محمد مقداد** " أنها الانحراف أو القصور أو النقص العضوي أو النفسي أو الطبي الذي يصيب عضو أو حاسة أو جهازا من أجهزة البدن المختلفة"[15].

أما حسب القانون الفرنسي**23/ 14/ 1957** مصطلح **handicapé** أعتبر العامل **handicapé** كل شخص له القدرة على اكتساب أو الاحتفاظ بالعمل ونشاطه ينقص نتيجة عجز أو نقص في القدرات الجسمية أو العقلية"[16].

. رغم أن هذا القانون ربط المصطلح بالعمل ويبقى غير محدد أكثر، لكن عند ما ظهر **handicap** تحت شكله النوعي" **handicapé**" فنقول أنهم "**handicapes**"[17].أستعمل مصطلح **Handicap** إذن للتفريق بينه وبين مصطلحات أخرى مثل**Inadapté Déficient** .

Etre Handicapé "الشخص الذي يعاني من النقص الجسمي نتيجة مرض دائم، صعوبة حسية، حركية أو عقلية"[18].وكل بلد يفضل استعمال مصطلح معين، فإنجلترا وفرنسا يفضلان **Handicap** أما الأمريكان يفضلون **Retard**، إن هذه المصطلحات نفسها = **Handicap = Débile = Arriéré = Déficience** . فقط - الأبله **Imbécile**

- المعتوه **Idiot**

- المرون **Moron** هي درجات و تقسيمات راجعة إلى كل باحث.

أيضا الباحثين العرب من **بينهم فاروق الروسان، ماجدة السيد عبيد، أمل معوض الهرجسي** استخدموا مصطلح الإعاقة العقلية، التخلف العقلي، الضعف، فهي مصطلحات تدل على نفس المفهوم و المعنى.

- **تعريف الإعاقة Handicap:** فهي" الضرر أو الدونية مصدرها المناخ المعايش".
- **المعوق ذهني Handicapé Mental :** طرحت عدة تساؤلات هل هو :
  - ✓ صعوبة عقلية، عدم القدرة على الاكتساب الكافي لكي يكون شخص مستقل في المجتمع؟
  - ✓ ذهاني، متعلق بعالمه الخاص ولا علاقة له بالخارج ؟
  - ✓ شخص مصاب باختلال وعائي **démence vasculaire**؟
  - ✓ عصبي تام، عدم القدرة الوظيفية يعيش في مجتمع نشط ؟

غير متكيف، غير مستقر وله الرفض الدائم وعدم تقبل الواقع الاجتماعي؟ المعوق الذهني **handicapé mental** إذن هو حالة تعاني من مشكل مرضي**pathologique**، لديه عدم القدرة الوظيفية على الاندماج في الحلقة الاجتماعية اليومية[19].

- **الإعاقة العقلية:**" ليست مرضا **Maladie** مثل **السيدا** و إنما حالة نقص في القدرة العقلية وانخفاض في درجة الذكاء والأداء العقلي وهذا راجع إلى حالة عدم اكتمال أو توقف أو تأخر نمو العقلي لأسباب تحدث في المراحل الأولى نتيجة العوامل الوراثية أو البيئية تؤثر على ج.ع مما يؤدي إلى نقص القدرة على التعلم و التكيف[20].

تعريف ساجان Seguin 1907:"إن طاقة العقل للنمو تكون متساوية لدى جميع الأطفال حديثي الولادة ولكن المنقل للرسائل الحسية إلى المخ يكون به نقص أو غير كافي لدى بعض الأفراد و من ثم تمنع الخبرات من أن تنتقل بصورة فعالة"[21].

أما تعريف دول 1941 Doll : يعرف الشخص المعوق بأنه:" شخص غير كفء اجتماعيا و لا يستطيع أن يسير أموره و حده وهو أقل من الأسوياء في القدرة العقلية و أن تخلفه يحدث منذ الولادة أو في سن مبكرة[22].

وتعرف وزارة الصحة البريطالية 1959:الضعف العقلي فهو: " حالة تشمل على انخفاض الذكاء و ذات طبيعة أو درجة تستلزم أو تكون قابلة للعلاج الطبي أو غيره من الرعاية الخاصة أو التدريب للمريض[23].

في حين عرف أسكوويرول1845 Esquirol: عرف العته **idiot** على أنه:" ليس مرضا، حالته الذهنية لم ترقى بصورة كافية لتمكينه من اكتساب المعلومات التي بمثل سنه".

كما تعرف **اللجنة الرئاسية للتخلف العقلي (كيندي USA)1962** :المتخلفون عقليا :"يكون لديهم قصور جوهري في مقدرتهم على التعلم و التكيف لمطالب المجتمع" .

فحسب التعريفات السلوكية فهي تهتم بالسلوكيات الخاصة بالأشخاص المتخلفين ذهنيا وعلاقة القدرة العقلية بالتكيف الاجتماعي وما هي المهارات التي يمكن أن يكتسبها و يمارسها.

تعريف سبتز1963 Spitz:التخلف العقلي هو :"حالة من النمو العقلي المتأخر يحدد بنسبة ذ كاء أدنى من **70** على إخبار فردي مقنن للذكاء"[24].

إذن التعريفات السكوميترية أيضا تضع في الحسبان فقط ما تقيسه الاختبارات المقننة لكن هل فعلا تقيس كل القدرات المعرفية.أعاد **Grosman** تعريف يشير التخلف إلى أداء ذهني عام منخفض عن المتوسط بدرجة دالة يوجد متلازما مع العيوب في السلوك التكيفي ويظهر أثناء فترة النمو.لكن جاء **كلاوزين Clausen** و **ميرسير Mercer** لنقده و أنه يمكن أن يقاس السلوك التكفي بالنسبة للتخلف العقلي المتوسط و الشديد و العميق لكن أن تكون هناك مقاييس دقيقة بالنسبة للتخلف العقلي البسيط و أقترح استعمال الأداء الذهني.

بعد ذلك **جاء تعريف (AAMD) الذي يعتمد على**:الأداء الوظيفي: دون المتوسط، القصور: قبل **18** سنة والذي يعتبر أحدث تعريف سنة **1993** وفي **1994** جاء تعريف الجمعية الأمريكية للطب النفسي[25].

رغم اختلاف وجهات دراسة موضوع الإعاقة الذهنية من الناحية الطبية و الاجتماعية و التربوية و السلوكية إلا انه تبقي جل التعاريف تركز أن الإعاقة الذهنية هي إصابة على مستوى الجهاز العصبي مما يؤثر ذلك على النمو المعرفي و التربوي والاجتماعي للطفل.

3.تصنيف حالات الإعاقة العقلية:

1.3 التصنيف حسب الشدة(السيكولوجي)

ضمن التصنيف السيكولوجي فالعديد من الباحثين يستعملون مصطلحات ومفاهيم عديدة ففي **1905 بنيه وسيمون** استخدما نسب الذكاء كمعيار للمستوى الوظيفي للقدرة العامة وحددا فئات المعاقين كما هو موضح في **(الجدول 1):**

المستوى العقلي(AM) 3 سنوات	المعتوه	idiotie
– 3إلى5سنوات المستوى العقلي(AM) - 5إلى7سنوات	- الأبله - العميق - البسيط	-imbécillité -profonde - légère
-7 إلى9سنوات المستوى العقلي(AM) - 9إلى10سنوات	-الضعف - العميق -البسيط	-Débilité - profonde - légère

الجدول 1 : فئات التخلف العقلي حسب بنيه و سيمون(JEAN SIMON ,1964 :12)

فيما بعد استخدم تصنيف قياس يشمل معامل الذكاء، العمر العقلي و هو موضح في (الجدول2)

معامل الذكاء	الفئة	العمر العقلي
70-50	مرون moron	7 سنوات فأكثر
50-25	أبله imbécile	3 سنوات-7سنوات
أقل من25	معتوه Idiot	أقل من 3سنوات

الجدول 2 : مستويات التخلف حسب معامل الذكاء و العمر العقلي (مواهب إبراهيم عباد وآخرون، 1995: 10).

أن التقسيم الأول اعتمد على الفئات وما يقابلها من مستوى عقلي بالسنوات وهو غير واضح كفاية، و بعد تلك التقسيمات جاء تقسيم **هيبر و جروسمان**، وفي **1958** أضاف **ويكسلر** مقياس الذكاء، الذي اعتبر أحسن الاختبارات الفردية[26].

أما البحوث العربية استعملت مصطلحات أخرى على مستوى كل الدرجات التخلف البسيط، المتوسط، الشديد ومن بينهم **ماجدة السيد عبيد، فاروق الروسان،** حتى التسميات الغربية أصبحت أكثر وضوحا من المصطلحات القديمة كالأبله والمعتوه وأصبحت تستخدم المستويات بدرجات حسب المستوى العقلي:

- مثل:**Arriération, Retard (Légère- moyenne- profonde).**

2.3. التصنيف حسب الأسباب (الطبي) :حسب **تردجولد Tredgold** فقد صنف الأسباب كما يلي : - أسباب وراثية ⟸ تخلف بسيط

- أسباب بيئية ⟸ تخلف ثانوي

- أسباب وراثية بيئية ⟸ تخلف مختلط

إن هذا التصنيف ركز وحدد الأسباب الحقيقية لفئات ثلاث لكن هل هي نفسها بالنسبة للفئات الأخرى من التخلف العقلي؟أما **سيتراوس ولتينين Strauss & lehtinen 1947** قسم **الأسباب إلى نوعين** :- النمط الداخلي **Endogènes**، النمط الخارجي **Exogènes**

وهناك من يحدد الأسباب حسب الشكل الخارجي كحالات **داون** ، استسقاء الدماغ ، أيضا **محمد علي كامل** صنف الأسباب حسب مصدر الإعاقة والمظاهر السلوكية لهذه الحالات[27].

3.3 التصنيف حسب الشكل (الخارجي):إن البحوث تستعمل مصطلح الشكل أو التصنيف الإكلينيكي و أيضا المظهر الجسمي لكن رغم ذلك فهناك اشتراك في التقسيم ومن أهم هذه الحالات

1- **حالات المنغولية (زملة (عرض) داو Mongolisme – Down's Syndrome**

2- **حالات كبر الدماغ Macrocephaly 3 – حالات صغر الدماغ Microcephaly**

4-**حالات القصاع (القماءة) Crétinisme 4– حالات العامل الرز يس R H + -**

5- **حالات تاي ساكس[28]. Tay – Sachs 6. حالات الفنيلكيتون يوريا P K U**

4.3 التصنيف التعليمي (التربوي): إن هذا التقسيم يعتمد على تحديد الفئات تبعا للقدرة على التعلم، فهذا يساعد الأخصائيين في وضع البرامج التربوية و ذلك بالاعتماد على نسب الذكاء الموضحة في **(الجدول 3)**

الفئة مع التسميات الأولى	نسبة الذكاء
1- بطيء التعلم (S – L)	75 أو 80 – 90
2-القابلون للتعليم (E M R) المأفقون (المرون) 6 – 9 سنوات أو 10سنوات	50 – 70 أو 80
3- القابلون للتدريب (T M R) الأبله (3 – 6) سنوات	50 – 25
4- الاعتمادي (SMR)المعتوه 3 سنوات	25 فما دون
الجدول 3: فئات التخلف العقلي حسب التصنيف البيداغوجي (محمد إبراهيم عبد الحميد، 1999: 36)(ماجدة السيد عبيد، 2000 : 117)	

3-5. التصنيف الاجتماعي(النفسي الاجتماعي): يطلق عليه أيضا مصطلح تصنيف الجمعية الأمريكية للتخلف العقلي، التصنيف النفسي الاجتماعي ،أيضا يتفق مع الجمعية الأمريكية للمتخلفين عقليا في (الجدول 4)

مستويات التخلف	الدرجة
1. تخلف عقلي بسيط	69 – 55
2. تخلف عقلي متوسط	54 – 40
3. تخلف عقلي شديد	39 – 35

4. تخلف عقلي حاد	25 فما دون

الجدول 4:مستويات التخلف العقلي للجمعية الأمريكية

(ماجدة السيد عبيد، 2000:107)(سعيد حسني العزة، 2001:58)

3-6. التصنيف متعدد الأبعاد: هذا الجدول يوافق تقريبا التقسيم العالمي في(الجدول 5) أدناه.

الفئـــة	نسبة الذكـاء
1- تخلف عقلي بسيط retard mental légère	50 – 70 درجة
2- تخلف عقلي متوسط retard mental moyen	35 – 49 درجة
3- تخلف عقلي شديد retard mental grave	20 – 34 درجة
4- تخلف عقلي عميق retard mental profonde	أقل من 20

الجدول 5: التقسيم العالمي لمستويات التخلف العقلي

(ANTOINE. GALLAND & JANINE.GALLAND, 1993 : 42)

4.العوامل المسببة للإعاقة العقلية :

تبين **دراسة P. A. Haper 1962** أن حوالي **5-25** حالة من بين **30** مؤسسة للأطفال المعاقين ذهنيا مجهولة الأسباب، أما دراسة **Hallahan & Kauffman 1985** أن حوالي **(80- 94)** ٪ غير معروفة في سببها العضوي[29]. أيضا هناك حالات غير معروفة الأسباب يطلق عليها التخلف الثقافي لكن لحد

الآن الأدلة غير كاملة أو دراسات تؤكد ذلك، أما **قروسمان1977** يشير أنه يمكن تقسيم أسباب التخلف من حيث التسلسل الزمني.

1.4 عوامل ما قبل الولادة :

أ. عوامل جينية:

- **عوامل جينية مباشرة:**

أن اضطراب الكروموزومات لعامل من العوامل تنتج حالات منها :

* **تناذر داون Syndrome de down's** ⟸ **اضطراب في العدد**

* **صرخة القط Syndrome cri de chat** ⟸ **اضطراب في البناء**

* **تورنر Syndrome de Turner** ⟸ **اضطراب في كروم وزوم الجنسي**[30].

- **عوامل جينية غير مباشرة:**

ومن بين هذه العوامل: * العيوب المخية * اضطراب تكوين الخلايا .

* اضطرابات التمثيل الغذائي منها:حالات **PKU** اكتشفها **Folling** عام 1934 أن هناك إفراز غير طبيعي لحمض فنيل بيرو فيك في البول.و حالات **Rh** حسب Berg عام **1974** أن **1.4%** يسبب التخلف العقلي[31].

ب. عوامل غير جينية :

* الأشعة **L'irradiation**

* الحصبة الألمانية (الحميراء) * طوكسوبلازموز: **toxoplasmose**

* الزهري الولادي **syphilis** * تعاطي الأدوية و العقاقير.

* الأمراض المزمنة * الولادة قبل الأوان * ا لإجهاد العاطفي
* التلوث البيئي و حوادث التسمم * سوء التغذية للأم * نقص اليود

2.4 العوامل أثناء الولادة:

- ✓ الولادة المبسترة.
- ✓ الاختناق (**الآسفكسيا**): **Asphyxia**
- ✓ نقص02 **Anoxia**
- ✓ صدمات جسدية
- ✓ سوء استخدام الأدوات كالملاقط أثناء الولادة .
- ✓ الولادة القيصرية.
- ✓ النزيف الداخلي للطفل.
- ✓ نقص السكر: هيبوجلسيميا **Hypoglycémie**

3.4 العوامل بعد الولادة:

الحالات اللاتي يتأخر ظهورها إلى ما بعد الولادة هي:

سوء التغذية:يؤكد **تمبكنز Tompkinis** وجود علاقة موجبة بين الوجبات الفقيرة وحالات الإجهاض والولادة المبسترة.

الصدمات، العدوى، المواد الكيميائية، المعادن[32].

4.4 الأسباب الاجتماعية الثقافية

أن معظم البحوث ركزت على العوامل المسببة لحدوث الإعاقة إما قبل أو بعد الولادة، أيضا لا ننسى أو نتجاهل الظروف المعايشة سواء أكانت اقتصادية سياسية، نمط الحياة المعايش من جوانب نفسية، التغذية الاصطناعية، الوازع الديني.

إذن فباختلاف الأسباب والعوامل المؤدية الى الإعاقة الذهنية فهي تبقى تؤثر على الطفل على المستوى المعرفي والجسمي والنفسي الاجتماعي،و تشكل خطرا جسيما على حياة الأطفال والشباب والمجتمع ككل.

ثانيا : الإرشاد الأسري للأطفال ذوي الإعاقة العقلية

1.تعريف الإرشاد:

يعد الإرشاد حسب **أستيورت (1993)** "عملية تعلم ترتكز على النمو الشخصي للأباء الذين يتعلمون الاكتساب الاتجاهات والمهارات الضرورية وتطويرها واستخدامها لحل مشكلاتهم وهمومهم حيث تتم مساعدة الآباء ليصبحوا أفرادا يعملون على أكمل وجه لمساعدة أطفالهم والاهتمام بالتوافق الأسري الجيد"[33].

2.تعريف الإرشاد الأسري:

- **تعريف كفافي (1999)**: إلى أن الإرشاد " هو المدخل الإرشادي الذي يتخذ من الأسرة نقطة انطلاقة ومحور ارتكازه، وليس الفرد الذي حدد كمريض فقط بل أن الأسرة ككل تحتاج إلى الرعاية بعد تشخيصها جيدا .
- **تعريف زهران (1998)**: أن خدمات الإرشاد الأسري في مجال التربية الخاصة تبدأ منذ مجيء الطفل المعوق بحيث يحدث تقبل الحالة والتسليم بالأمر والواقع وتعديل اتجاهات أعضاء الأسرة تجاه الطفل وتجنب الحماية الزائدة له والخوف غير العادي عليه، وتخلص الوالدين من مشاعر الذنب والأسى بخصوصه ،وذلك بما يحقق للطفل المعوق أقصى إمكانات النمو العادي.
- **تعريف القرطبي (1998)**: الإرشاد الأسري لأباء الطفل المعاق عقليا وأسرته إلى " تلك العملية التي يستخدم من خلالها المرشد خبراته وكفاءاته المهنية في مساعدة أباء وإخوة الطفل على الوعي بمشاعرهم نحوه وتفهم حالته وتقبلها وتطوير واستثمار اكبر قدر مما لديهم من إمكانيات للنمو

والتعلم والتحيز في اكتساب المهارات اللازمة لمواجهة المشكلات والضغوط الناتجة عن وجوده بالأسرة، والمشاركة بفاعلية في دمجه وتعليمه وتدريبه والتعاون المثمر مع مصادر تقديم الخدمات بما يحقق له أقصى إمكانات النمو والتوافق[34].

- إذن يعد الإرشاد الأسري بالنسبة للأطفال المعوقين ذهنيا هو مساعدتهم في مواجهة الظروف والمشاكل التي تفرضها مرحلة التكيف التي يمرون بها ابتداء من مرحلة إدراك حقيقة اختلاف الطفل عن غيره، وقبول التشخيص الذي يؤكد إعاقة الطفل وانتهاء بقبول الحقيقة وإدراك حدود الطفل ووعيه والعمل على تدريبه المهارات الأساسية التي يحتاج إليها الطفل والوصول به إلى الاستقلالية الاجتماعية.

3.أهداف الإرشاد الأسري للأطفال المعاقين عقليا:

- مساعدتهم على تقبل الإعاقة والطفل المعاق عقليا.
- مساعدتهم على إدراك طفلهم بأنه طفل أولا وان لديه درجة من الإعاقة تتطلب العناية والدعم.
- مساعدتهم على فهم الحقائق والنتائج المرتبطة بإعاقة الطفل وكيفية مساعدته بشكل بناء.
- مساعدتهم على فهم مشاعرهم وتبني أفكار عقلانية نحو الإعاقة والطفل المعوق عقليا
- مساعدتهم على مواصلة تطوير تحقيق ذواتهم الخاصة[35].
- هذه الأهداف سوف تساعد الأسر لحل الصراعات والتخفيف من مشاعر القلق، الحيرة، وبالتالي تقبلهم داخل الأسرة وإكسابهم سلوكات ومعارف تهمهم في حياتهم المعايشة.

4.ردود أفعال الوالدين نحو الطفل المعاق عقليا:

1.4 الصدمة: تختلف الصدمة من أسرة إلى أخرى، بحيث يشعران أنهما عاجزان تماما عن مواجهة الواقع، وتظهر الصدمة على شكل تساؤلات استنكارية مثل: أليس هذا ظلما ؟ كيف يعقل مثل هذا الوضع؟ .

2.4 النكران: يتخذ عدة أنماط فقد ينكر الوالدين نتائج التشخيص، وقد يكون النكران بوجود هذا الطفل وذلك للحفاظ على المكانة الاجتماعية، أو أن تقوم الأسرة بإخفاء حالة الإعاقة بإرساله إلى المراكز الإقامة الدائمة.

3.4 الغضب والشعور بالذنب وقد يكون موجه إما إلى الزوجة أو الزوج أو نحو المعاق ذهنيا، وتتم معاقبة الذات بطرح عدة تساؤلات يلوم فيها نفسه مما يؤدي في بعض الأحيان إلى الإصابة بالحزن والكآبة.

4.4 الحزن والكآبة : أول تأثير يكون على والدة الطفل في حد ذاته أكثر من تأثيره والد الطفل لاعتقادها الخاطئ أنها السبب في كل ما حصل لها ولطفلها.

5.4 الرفض: الذي يتمثل في الإهمال وعدم تقبله والاستياء من وجوده وقد يكون العكس، فتكون الحماية الزائدة والاهتمام الغير مألوف.

6.4 التمايز في المعاملة : تميز بعض اسر الأطفال المعاقين ذهنيا في المعاملة بين أطفالهم الأسوياء والمعاقين ذهنيا الأمر الذي يترك أثار سلبية على حياتهم التكيفية في محيط الأسرة والمجتمع[36].

إذن عند ولادة طفل معاق لأسرة تختلف ردود أفعالها باختلاف درجة الإعاقة وشخصية الأبوين والنمط الأسري الثقافي الاجتماعي من أسرة لأخرى لذلك هذا الحدث يتطلب من الوالدين وباقي أفراد الأسرة جهدا وذلك من أجل التعامل مع هذا الطفل داخل الأسرة.ويلاحظ أيضا أن الأم تتأثر وبصورة واضحة أكثر من باقي أفراد العائلة في حالة ولادة طفل معاق ويقع عليها العبء والقسط الأكبر في تحمل المسؤولية ولكن تبقى مشكلة عناء الوالدين والأخوة في حالة وجوده أمر يفرض عليهم أن يلعبوا دورا مهما في تقبله.

5. حاجات أسر الأطفال المعاقين ذهنيا:

1.5 الحاجات الأساسية:

1.1.5حاجات متعلقة بالتغلب على ردود فعل الوالدين المصاحبة للإعاقة الطفل وحسب **Dean(1975) والشناوي (1997) والحديدي (1997)** أن الحاجات الو الدية تتمثل في :

- ✓ الحاجة إلى معرفة أن اللوم سواء لوم الطفل نفسه لا يجدي في حالة وجوده .
- ✓ الحاجة إلى المساعدة من طرف الأقارب الأصدقاء، المختصين.
- ✓ الحاجة إلى المساعدة للتخطيط لنمط أو أسلوب الحياة مع طفلهم المعوق.
- ✓ الحاجة إلى المساندة الانفعالية.
- ✓ الحاجة إلى المعلومات حول التشريعات الخاصة بالأطفال المعاقين .
- ✓ الحاجة إلى الجهات المهنية التي تقدم الخدمات لكي تشارك الأسرة بفعالية في إجراءات الخطة الفردية.وهذا ما توصلت إليها دراسة **سومرز وآخرون**Summers .

في ضوء ما سبق يتضح أن حاجات الأباء تتعلق بالتغلب على ردود الأفعال السلبية التي يترتب عليها ضغوط نفسية ،وحاجات ذات أهمية من اجل التوجيه والإرشاد الوالدي حول كيفية التعامل مع الطفل المعوق ذهنيا وبالتالي يتم التعايش مع مشكلاتهم

2.1.5 حاجات والديه متعلقة بالمعوق الذهني: حسب **السر طاوي** فان نوع من هذه الحاجات تتمثل فيما يلي:

- ✓ الحاجة الى معرفة حالة الطفل.
- ✓ الحاجة إلى معرفة طرف التكفل من طرف المختصين.
- ✓ الحاجة إلى معرفة كيفية التعامل معه داخل المنزل.
- ✓ الحاجة إلى معرفة مستقبل الطفل.

- ✓ الحاجة إلى هل هناك دواء خاص بحالة طفلهم .

3.1.5 حاجات والديه تتعلق بمعرفة المصادر المتاحة في المجتمع :

من خلال **دراسة السر طاوي (1998)** ضمن أبعاد مقياس الاحتياجات **وهنلي (2006)**

- ✓ الحاجة إلى توفير المراكز والجمعيات التي تقدم الخدمات الخاصة بالأطفال المعاقين ذهنيا.
- ✓ الحاجة إلى مراكز المعلومات التي تزود الإباء بمعلومات حول آخر التطورات في البحوث وتعليم أطفالهم المعاقين ذهنيا .
- ✓ الحاجة إلى خدمات الدعم .

2.5 حاجات إخوة الطفل المعاق ذهنيا: حسب دراسة **هويدي (2003) ودراسة وازرمان (1983)** فان حاجاتهم تتمثل في:

- ✓ الحاجة إلى المعلومات حول طبيعة الإعاقة الذهنية ومراحل نمو أخوهم، وتفسير سلوكاته الشاذة الصادرة منه.
- ✓ الحاجة لتفهم وبط ردود الفعل الانفعالية من الخوف، القلق، الشعور بالذنب، إلى جانب الشعور بالحب والود والتعاطف معه.
- ✓ الحاجة لتشكيل الهوية الذاتية وتحديد الدور لكي لا يتم نمذجة سلوكاته الصادرة عن ابنهم المعاق ذهنيا.

الحاجة لتعلم استراتجيات فعالة لتعامل معه مع مواقف الحياة المعايشة، لأنه في بعض الأحيان يمكن أن يبتعدون عنه، ويتفاعلون معه بسلبية، مما لهم من مشاعر سلبية اتجاهه[37].

يتضح مما سبق أن حاجات الأباء أو الإخوة تحتاج إلى الدعم النفسي من طرف المراكز المتخصصة وأيضا المشرفين والمختصين النفسانيين لتفسير طبيعة إعاقة ابنهم وتوجيههم التوجيه الصحيح بالإضافة إلى الخدمات التي تكون فعالة إذا قدمت لهم بشكل منتظم.

6.طرق الإرشاد الأسري: تتمثل بعض طرق الإرشاد في إكسابهم المهارات الأساسية التي يجب على الأسرة تقديمها له وهي:

1.6عملية تناول الطعام والشراب: هذه العملية يتوقف عليها نمو والتطور الجسدي الصحيح والسليم وهي التي تؤدي إلى تطور الجوانب الأساسية منها العقلية والانفعالية والاجتماعية، فالطفل العادي يتعلم بدافع الغريزة وإشباع الحاجات الفسيولوجية والنفسية، وكذا عن طريق المراقبة وتقليد ما يفعله الآخرون.

لذلك يجب على الأولياء تدريبه على تناول الطفل المعاق ذهنيا وجباته في البيت مع الكبار أيضا فرؤية ما يفعله الأخرون في جميع الأوقات يساعده إلى أن يصل إلى الاستقلالية الذاتية وحتى يحس انه لا يختلف عن الآخرين، ويجب تكرار سلوك التعلم الصحيح في الطريقة والكيفية.

- **استعمال المرحاض وقضاء الحاجة الشخصية**: إن هذه العملية الأساسية وذات الأهمية الكبيرة ولها التأثير الصحي أو النفسي الذي قد يسبب الأمراض الجسدية أو النفسية في المراحل الأولى من حياة الطفل لذلك فان الطفل المعاق ذهنيا بحاجة لوجود الأسرة وقيامها بتدريبهم على التحكم في هذه العملية والقيام بها بصورة صحيحة، وفي هذا المجال تمارس الأم دورا مهما خاصة في حياة أطفالها مما يتطلب وجودها معه في معظم الأوقات حتى تساعده على طريقة وكيفية قضاء الحاجة لذلك تهدف الى:
- أن يعرف الطفل متى يحتاج إلى استعماله، أي يكون مدركا لما يحدث له من تغيرات داخلية تحتاج إلى استجابة.
- أن يذهب بنفسه إلى المرحاض عندما يحتاج إلى ذلك.
- أن يكون قادرا على استعمال المرحاض بالشكل الذي يحافظ فيه على نظافته الشخصية والمكان، ويدرب من قبل الأم؛ حيث في البداية تدريبه عليه إخبارها عن حاجته للمرحاض، ويمكن أن يكون قد بلل نفسه، ولا يجب أن تغضب بل تقوم بتنظيفه وتبديل ثيابه بهدوء، لكي يكتسب

بسرعة عكس ذلك يؤدي إلى تأخير عملية الاكتساب ،و أيضا يجب أن يكون تمثيل لكيفية استعمال المرحاض أمامه من طرف إخوته .

- أن تقوم بمراقبة ما يحدث معه عن قرب لفترة زمنية معينة ويجب عدم ترك الطفل أكثر من 15 د في المرحاض وبعد الخروج يتم مكافأته لكونه بقي نظيفا .
- تعليمهم من خلال اللعب بالدمى، وإدخالها إلى المرحاض المكون على شكل لعبته
- الاعتناء بالذات والاستحمام، فهذه العملية تؤدي به إلى أن يظهر بمظهر لائق ومقبول حتى يمتلك مهارات وقدرات القيام بالاهتمام والاعتناء بنفسه وذلك:
  - ✓ مساعدة الآخرين له أيضا أن تشجعه الأم على عمل ذلك بإعطاء التعزيز المناسب
  - ✓ تجزيء هذه المهارة إلى خطوات.
  - ✓ استخدام الدمى لكيفية القيام بعمله غسل الأجزاء المختلفة من الجسم.

الذين لديهم قدرات عقلية فيتم تعليمهم كيفية غسل وتنشيف شعورهم[38].

3.6 مهارات اللبس:

- تدريبه على مستوى الجانب الحركي.
- إنزال السروال الداخلي أو رفعه.
- تنويع اللباس حسب الوقت والظروف الاجتماعية وحسب أوقات النهار والليل.
- استعمال الألبسة السهلة مثل السروال ذو حزام مطاطي بدلا من الجلدي.
- تدريبه على الارتداء الملابس من خلال اللعب بالدمى بالارتداء والخلع والمكافئة والتعزيز[39].

4.6 الخروج والتجوال: هذه العملية تمكنه وتجعله يتعرف ويتفاعل مع المحيط المعايش وذلك:

- تمكنه من اكتساب معلومات من العالم الخارجي وتعديل سلوكاته.
- إن رفض بعض الأسر اصطحاب الطفل المعاق ذهنيا معها للخارج وإظهاره في المجتمع وحبسه في البيت مما يؤدي إلى ابتعاد الجميع عنها في علاقاتهم الاجتماعية.
- إتاحة له الفرصة الخروج ؛يعني الوصل به إلى الاهتمام والعناية بنفسه في معظم الحالات وتقليص الحاجة إلى الآخرين ومساعدتهم.
- تدريب الطفل المعاق ذهنيا على الظهور والخروج إلى المجتمع والقيام بقضاء حاجاتهم مثل الذهاب إلى السوق والتسوق ومعرفة كيفية القيام بهذه المهمة عن طريق الخروج المتكررة مع الأهل، واستعمال وسائل النقل.
- تدريبه على كيفية السير على الطريق وقطعها بصورة صحيحة وبعيدة عن الإخطار ويمكن أن تبدأ الأم بتعليمه عن طريق اللعب وبعدها الخروج معه إلى كل مواقف الاتصال.

5.6 مهارات أخرى :

- تدريبه على استعمال الأدوات و الأجهزة مثل الهاتف، التلفاز، الراديو التي تؤدي به إلى الاستقلالية.
- تعليمهم بوجود الشرطة وطبيعة العمل.
- تعليمهم رفض الشذوذ الجنسي.
- تعليمهم على التعامل مع الغرباء وعلى الجنس الأخر.
- تدريبه على القيام بالإعمال المنزلية.
- تدريبه على الاعتناء بالمحيط.
- تدريبه كيفية مواجهة المشاكل الصحية.

- تدريبه على تحمل مسؤوليات الأعمال البسيطة مثل: إغلاق الأبواب، إطفاء النور.تدريبه على تعلم حرفة معينة وان يساعده على ذلك الأب، كنوع من تعويده على الإتكالية [40].

إذن كل طفل معاق ذهني في الأسرة بحاجة إلى إدراك العالم من حوله، والتفاعل والمشاركة مع عناصر مختلفة مثل الأطفال الطبيعيين، بالرغم إعاقتهم العقلية مما يفقدهم القدرة على التعرف على العناصر المتوفرة في البيئة نتيجة لهذه الإعاقة.

لذلك له كل الحق في توفير جميع احتياجاته من طرف أسرته من خلال الأهمية القصوى لتعليمه وإكسابه المهارات الحياتية .لأنها إذا أنجزت بشكل صحيح فتؤدي به إلى استقلاليته في مهارة تحمل المسئولية، التواصل الاجتماعي، العناية بالذات التي تعينه على ممارسة حياته بشكل طبيعي، حيث لا يستطيع الطفل أن يعيش في عزلة عن الآخرين، وكذلك لا يستطيع أن يعيش دون تعامل مع من حوله، ومن هنا يأتي دور أيضا المختصين في الميدان في توجيه وإرشاد الأولياء لتعديل سلوك هؤلاء الأطفال، وإعادة تكوين شخصيتهم، ويتمكن من استخدام جميع إمكانياته وقدراته استخداما سليما، فيؤدي به إلى الاستقلالية الذاتية والاجتماعية والمهنية وبصورة إيجابية في المجتمع.

الخاتمة:

إن مشاركة أسر الأطفال المعاقين ذهنيا وذويهم في برامج الإرشاد والتدريب الخاصة يعطي لهم القدرة على الاتصال والتوافق مع البيئة المعايشة ابتداء من الأسرة إلى جماعة الرفاق، و كل من له علاقة به ويتمكن من استقلالية العناية بالذات والمشاركة في الأنشطة الاجتماعية المختلفة، وحسن التصرف في المواقف المعايشة عن طريق التقليد و الدعم، فيؤدي به إلى الاندماج الاجتماعي والمهني.

❖ هوامش البحث

(1) أمل معوض الهرجسى: **تربية الأطفال المعاقين عقليا**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1423هـ، 2002 ، ص77.

(2) ماجدة السيد عبيد.: **تعليم الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة**، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، 1420 هـ 2000، ص13.

(3) محمد محروس الشناوي.:**التخلف العقلي الأسباب- التشخيص- البرامج**، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1417هـ 1997م، ص18.

(4) أمل معوض الهرجسى: مرجع سبق ذكره، ص 81.

(5) ماجدة السيد عبيد: مرجع سبق ذكره، ص 14.

(6) محمد محروس الشناوي: مرجع سبق ذكره، ص ص 19-20 .

(7) J. DE AJURIAGUERRA : **Manuel De Psychiatrie De L'enfant** , Masson, Paris, 1979,2eme Edition ,p:545.

(8) JEAN SIMON .: **La Débilité Mentale Chez L'enfant**, Edouard Privat, Editeur, Paris, 1964, 2emeEdition,p :9.

(9) MAUD MANNONI : **L'enfant Arriéré et Sa Mère**" Etude psychanalytique" Editions Du Seuil, Paris , 1964,p:134.

(10) CLAUDE KOHLER .: **Les Déficiences Intellectuelles Chez L'enfant**, Presses Universitaires De France, Paris, 3eme Edition,1968,p:119 .

(11) CLAUDE LEVY. **: Les Jeunes Handicapés Mentaux**, Travaux et Documents, Cahier N°57, Presses Universitaires de France paris, 1970,p : 9-10.

(12) ANDRE' I NIZAN & ROGER TASTAYRE .: **Les Enfant Dits Débiles**, "Approches Psychopédagogiques", Paris ,1980, 2eme Edition, Les Editions ESF ,p : 24.

(13) JEAN – MARIE GILLIG: **Intégrer L'enfant Handicapé à L'ecole**, Dunod, Paris ,1999, 2eme Edition,p : 16- 42 .

(14) فاروق الروسان: **قضايا ومشكلات في التربية الخاصة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان- الأردن، 1418هـ 1998، ص 199.

(15) لحسن بوعبدالله: **رعاية وتأهيل ذوي الاحتياجات الخاصة**، مجلة تنمية الموارد البشرية، العدد 3، الملتقى الدولي 4، مخبر تنمية الموارد البشرية، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية،جامعة فرحات عباس سطيف، 2006م، ج1، ص 36 .

(16) **Encyclopeadia Universalise**, S. A, France, 1999. p1.

(17)CHRISTINE PHILIP.: **Handicaps et Inadaptations**, Les Cahiers du C.T.N.E.R.H.I, Revue Trimestrielle, Paris, 1985, N°32, p : 14.

(18) M. BOUCEBCI: **Maladie Mentale et Handicap Mentale**, Entreprise Nationale Du Livre, Alger ,1984,p :157.

(19) ROMAIN LIBEREMAN. : **Handicap et Maladie Mentale**, Presses Universitaires, Paris, 1991,2eme Edition ,p : 36-41.

(20) علا عبد الباقي إبراهيم.: **الإعاقة العقلية " التعرف عليها وعلاجها باستخدام برامج التدريب للأطفال المعاقين عقليا**" عالم الكتب، القاهرة، 1421هـ2000 م، ب ط، ص:34.

(21) محمد محروس الشناوي: مرجع سبق ذكره، ص 34.

(22) علا عبد الباقي إبراهيم: مرجع سبق ذكره، ص 28.

(23) محمد محروس الشناوي: مرجع سبق ذكره، ص 36 .

(24) محمد محروس الشناوي: مرجع سبق ذكره، ص ص 39-40 .

(25)محمد السيد حلاوة.: **التخلف العقلي في محيط الأسرة**، المكتب العلمي للنشر والتوزيع الإسكندرية، 1998، ص ص20-22.

(26) ANTOINE GALLAND & JANINE GALLAND: **L'enfant Handicapé Mental**, Editions Nathan, Paris, France, 1993,p :32.

(27) محمد علي كامل.: **التدريبات العملية للقائمين على رعاية ذوي الإعاقات الذهنية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1999، ج1،ص 21.

(28) محمد محروس الشناوي: مرجع سبق ذكره، ص 64.

(29) C- CHAGAS .: **Débilité Mentale**, Version Française Editeé Par J. Lejeune Masson, Paris ,1983,p :29 .

(30) محمد أحمد النابلسي.: **ذكاء الجنين**، دار النهضة العربية بيروت، 1408هـ 1988م ، **سلسلة علم النفس الطفل** (1)، ص:62-71 .

(31) JEAN – LUC LAMBERT. : **Introduction à L'arriération Mentale**, Pierre Mardaga, Editeur, Bruxelles, 1986 ,2eme Edition,p : 41 .

(32)محمد محروس الشناوي: مرجع سبق ذكره، ص ص 116-119.

(33) احمد وادي:.**الإعاقة العقلية أسباب تشخيص،تأهيل** "دار أسامة للنشر والتوزيع ،عمان – الأردن، 2008،ص 319 .

(34) علي عبد النبي محمد حنفي: **العمل مع اسر ذوي الاحتياجات الخاصة**،دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع دسوق ،الرياض ،المملكة السعودية، 2007، ص 200-201.

(35) على عبد النبي محمد حنفي: مرجع سبق ذكره، **ص ص:** 116-119.

(36) سعيد عبد العزيز: **إرشاد ذوي الاحتياجات الخاصة**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان-الأردن ،2008، ص207.

(37) على عبد النبي محمد حنفي: مرجع سبق ذكره، ص 207.

(38) عمر عبد الرحيم نصر الله:.**الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة وتأثيرهم على الأسرة و المجتمع**، دار وئل للنشر،عمان –الأردن،2008، ط 2، ص ص233-236.

(39) سميرة ابو زيد نجدي : **برامج وطرق تربية الطفل المعوقين قبل المدرسة**،مكتبة زهراء الشرق، القاهرة ، مصر،1998، ص ص62-63 .

(40) عمر عبد الرحيم نصر الله: مرجع سبق ذكره، ص: 240- 244.

الدراسات باللغة الأجنبية

Revue des Sciences de l'homme et de la Société

Périodique international à comité de lecture Publié par la Faculté des Sciences Humaines et Sociales

Université Biskra- Algérie

ISSN 2253-0347

Dépôt Légal 1695-12

Mars 2014

N°9

Représentations des langues en présence chez les enseignantsalgériens : « contact » ou « conflit » ?

Moustiri zineb

Université biskra, Algrie.

Résumé :

Dans le but de déceler les représentations linguistiques et les images attribuées à la langue française et aux différentes langues cœxistantes sur le territoire algérien, nous avons effectué une étude micro sociolinguistique par le biais d'un questionnaire diffusé à dix-huit enseignants du primaire. Après avoir obtenu les réponses de nos informateurs, nous avons procédé à leur analyse en faisant appel à *BENVENISTE (1)* et *SEARLE (2)* Notre analyse à entrée lexicale, nous a permis de dépasser la surface de notre corpus et de saisir les contenus explicites et implicites des données recueillies.

الملخص:

من أجل استظهار الصور والدلالات التى يوليها معلمو الطور الابتدائى للغة الفرنسية واللغات المتواجدة على التراب الجزائري قمنا بدراسة سوسيو لسانية عن طريق استجواب تم توزيعه على مجموعة من المعلمين(18معلما) وبعد الحصول على إجاباتهم قمنا بتحليلها مستعينين بدراسات بنفونيست وسارل.تحليلنا هذا مكننا من تجاوز المعنى اللفظى والغوص في المعنى الدلالي.

Introduction

La langue est définie par *CALVET J.L (3).* comme un ensemble de pratiques et de représentations, ce qui veut dire qu'elle ne sera importante ni présente sur terrain que grâce aux locuteurs, ces acteurs de l'actualisation des représentations qu'elle véhicule.

Dans une tentative de connaître les représentations et les images attribuées au français dans la société algérienne, nous avons mené une enquête de terrain auprès d'un groupe d'enseignants du primaire. Notons ici que le choix de ces informateurs n'est pas gratuit ; nous les avons choisis car ils sont *« à la fois locuteurs sujets de discours et acteurs : leur rôle ou leur position sociale les conduit à transmettre de la langue, à agir sur les productions linguistiques et sur la construction des représentations linguistiques d'autres sujets locuteurs (4).*Ils transmettent et développent la compétence linguistique et communicative chez leurs apprenants, en un mot ils sont *« les médiateurs de langue »* selon *MORSLY D.*

Pour atteindre notre objectif, nous avons diffusé un questionnaire dont son thème principal est la valeur de la langue française et sa relation avec les langues cœxistantes sur le territoire algérien. Il comprend des questions d'opinion centrées, dans un premier lieu, sur ce que représente le français et sa culture pour chacun de nos informateurs, dans un second lieu, il vise à déceler les diverses relations existantes entre cette langue et les autres langues du répertoire linguistique de nos enquêtés. Les questions utilisées sont

des questions ouvertes qui invite l'informateur à répondre librement sans l'entraver. Quant à l'analyse, elle portera sur les idées déterminant la valeur de la langue française d'une façon générale, en suivant les différents axes jugés pertinents. Commençons alors par une présentation de nos informateurs.

1 PRESENTATION DES INFORMATEURS

Les informateurs constituant notre échantillon d'étude sont au premier chef les agents de la diffusion de la langue française. Ils sont un groupe d'enseignants du primaire, qui à notre avis, constitue un groupe homogène dans la mesure où ils partagent une appartenance sociale commune (enseignants) ainsi que le même lieu de résidence (Biskra). Cette double appartenance commune va développer chez eux certaines habitudes linguistiques et sociales.

Il nous semble utile aussi de signaler la variable âge ; cinq informateurs sont considérés comme des anciens enseignants issus de l'école francophone ; les autres sont issus de l'école fondamentale. Ce qui précède ne veut pas dire que notre étude est une étude comparative mais tout simplement pour dire que les représentations obtenues soit du premier groupe soit du second valorisent la langue française.

2 ANALYSE DES DISCOURS REPRESENTATIONNELS

L'approche choisie pour cette analyse est une approche à entrée lexicale. Dans les discours représentationnels portant sur la langue française, toutes les réponses sont formées à partir d'une structure de base et à travers les divers axes jugés pertinents. Alors, le

seul mot entrée qui est retenu est "la langue française" soit à travers le syntagme substantif + adjectif, équivalents sémantiques ou des substituts grammaticaux.

Avant de procéder à l'analyse des désignants de la langue française, nous passons en revue le procédé de la substitution mis à notre disposition pour éviter l'excès de répétition.

En effet, la substitution est un procédé offert par la langue, il assure une des règles de la cohérence textuelle, qui est la continuité ; autrement dit, on utilise des différents substituts renvoyant au mot départ pour éviter la répétition, nous parlons dans ce cas de la référence interne.

Les substituts que nous avons relevés dans notre corpus selon la place qu'ils occupent dans la phrase sont : les démonstratifs " cette langue ","C", des équivalents sémantiques "le français", " la langue enseignée", les pronoms personnels "elle", l'article défini objet "l", le pronom personnel objet indirect "lui", les possessifs "son", "ses".

Après ce bref aperçu, sur les substituts du référent "la langue française" revenons à notre analyse. Notre approche lexicale a pour but d'analyser le comportement de ce mot entré et nous n'avons négligé aucun élément porteur de signification.

Dans notre analyse, nous nous sommes inspirée de différentes théories traitant l'analyse de corpus écrit (discours politiques). Nous citons comme exemple MARCELLESI, cela à côté des théories de, B. MAURER, H. BOYER.

Nous avons alors analysé le comportement de l'unité principale "langue française" par rapport à d'autres unités, telles que : la langue arabe ou amazigh, la colonisation, la valeur de cette langue, sa culture, son enseignement … etc. C'est à l'intérieur de ces champs sémantiques que se sont faites nos interprétations.

Dans notre analyse, qui n'exclut pas le contenu, nous avons insisté sur le sens, cet élément nécessaire longtemps exclu des analyses formelles. Cela ne veut pas dire que nous avons exclu la forme, porteuse de sens et prise par certains linguistes comme le seul garant de la scientificité.

Nous avons tenté aussi, de combiner entre les différents éléments formant la signification des énoncés et des textes : sens, forme, contexte historique, contexte d'énonciation, contexte socio-historique (dans la mesure du possible). Mais, nous signalons que l'analyse a porté d'abord sur les réponses elles-mêmes et ce n'est qu'au niveau de l'interprétation que nous avons intervenu les autres.

2.1 Analyse des désignants de la langue française

Dans notre corpus, nous avons remarqué que toutes les désignations de la langue française sont neutres. Il n'y a aucun substitut avec appréciafs ou spécifique renvoyant à cette langue, alors que les questions de notre questionnaire avaient comme mot clef "la langue française". Les désignants relevés "la langue enseignée", "cette","le français" présentent la langue française comme une langue

étrangère. Nos informateurs ont choisi ces désignants neutres pour donner un caractère d'objectivité à ce qu'ils disent.

2.1.1 Contextualisation de la langue française

Nous remarquons une grande et forte référence contextuelle de la langue française qui apparaît sous différentes formes, soit implicitement ou explicitement.Explicitement par le biais de corpus suivant :

"Dans notre société " (7)

" ….. pendant la colonisation de notre pays " (6)

"Le switching est un de nos attributs, nous algériens" (8)

"Selon notre société algérienne …" (6)

"Le français reste à nos yeux un acquis révolutionnaire" (2)

"Nous l'avons hérité du colonisateur …" (3)

"Pour nous adultes …" (1)

Implicitement dans le corpus :

"On l'utilise dans ……."

"Le français a des racines très profonds dans l'histoire"

"On se trouve à chaque fois obligé de recourir à cette langue " (5)

"Le français est le moyen contemporain de tous les moyens économiques et technologiques" (10)

"C'est une langue qui a une valeur sociale considérable (usage dans l'administration) " (9)

"C'est une langue qui jouit d'un statut social appréciable …." (4)

"Il doit leur permettre l'épanouissement qui forgera leur personnalité future et l'enrichissement d'une culture qui n'est pas la leur. Ce qui leur permettra d'accumuler un certain nombre d'atouts qui les hissera même au dessus des tenants de cette langue" (1)

En effet, la majorité de nos informateurs définissent la langue à un état présent en référence au contexte algérien, sauf dans le corpus (4) et (3) où les deux informateurs la situent à un état passé en rapport avec le contexte algérien. Ce contexte est alors, présent dans tout le corpus, soit à travers l'usage des expressions "notre pays", "notre société " ou à travers l'évocation des citoyens algériens " nous ","on". Aussi, tous les informateurs présentent la langue française comme "une langue étrangère", "la langue de l'autre".

2.2 Rapport langue française / langue arabe classique

2.2.1 Rapport de dominance

Malgré que la langue arabe soit la langue officielle et nationale du pays, son utilisation se restreint à des situations dites formelles. Elle est utilisée dans l'administration, dans la presse et l'enseignement mais toujours envahie par des mots français qu'elle a empruntés.

Cette idée est exprimée dans le corpus suivant :

"Le français reste toujours dominant par rapport aux autres langues" (7).

"Elle domine généralement ces langues "(4), (12), (13)

"Chez l'apprenant, il y a une relation de divergence, on est appelé à amener l'élève à penser français et parler français et non le contraire. De plus l'élève doit apprendre un nouveau sens de pagination : aller de la gauche vers la droite … " (1).

"Elle entretient une relation valeureuse avec toutes les langues pratiquées" (2).

L'informateur (1) qui avance l'idée soulevée dans le corpus (7), (4), (12), (13), suggère une autre idée très importante, celle des nouvelles techniques enseignées à l'élève, ces dernières années,"aller de la gauche à la droite" sans oublier l'introduction de quelques mots français pendant l'apprentissage de l'arabe. Cela ne signifie t-il pas une nouvelle revalorisation de la langue française par rapport à l'arabe ? L'idée de la grande valeur du français est exprimée aussi dans le corpus (2).

2.2.2 Rapport de complémentarité

Le recours au français, à chaque fois dans nos communications écrites, le voient quelques informateurs comme une relation de complémentarité soit implicitement ou explicitement :

" À côté de l'arabe, c'est une langue d'apprentissage et de formation …" (5)

"Parallélisme entre la langue française et la langue arabe"(8)

"Le français et l'arabe sont des langues de formation et d'apprentissage "(10)

L'emploi de la locution " à côté de" et l'expression "parallélisme" qui vont dans le même sens, signifient la cœxistence des deux langues "l'arabe et le français" dans les mêmes domaines et les mêmes contextes côte à côte. La présence de la langue française à côté de la langue arabe est une richesse à cette dernière, l'apprentissage et la formation ne se complètent que par ces deux langues.

Cette même idée est exprimée dans le corpus (10) par l'utilisation de la conjonction de coordination "et", qui signifie l'addition en renforçant l'idée de la coexistence des deux langues. Alors, il ne s'agit pas d'une proximité "neutre" mais "avantageuse", on parle de la langue française associée à la langue arabe et non pas de la langue française indépendamment de la langue arabe, on parle d'un rapport pacifique sur le plan éducatif et formatif. Tout ce qui précède nous rappelle que, dans l'enseignement et jusqu'aujourd'hui, certaines matières techniques et scientifiques sont encore dispensées en français et que cette langue connaît encore une extension importante dans les milieux intellectuels et elle n'a pas perdu totalement son prestige malgré la politique d'arabiser l'école menée pendant quelques années. Cette même idée se révèle clairement chez les informateurs (14), (15), et (16).

2.2.3 Langue française et colonisation :

Parmi nos informateurs, il y en a qui lient la naissance de la langue française, en Algérie, à la période coloniale et ils trouvent que la diffusion de cette langue imposée à la population arabo berbère est un prolongement logique dû à une longue période de la colonisation. Autrement dit ; si nos langues pratiquées aujourd'hui sont envahies par plusieurs mots français, la cause sera la présence des français sur le territoire algérien et le contact entre les deux peuples algérien et français, pendant une longue durée.

Nous remarquons que ces informateurs insistent sur l'aspect historique du phénomène « La langue française en Algérie » et l'influence du discours idéologique sur leur imaginaire, ce discours qui n'a pas cessé de relier les deux phénomènes langue française/colonisation. Pour ces mêmes informateurs :

Corpus (3) :"Le français est une langue que nous avons hérité du colonisateur donc les propos français entrent directement ou indirectement dans le langage".

Corpus (6) :"…à cause des facteurs historiques, nos langues pratiquées dans la vie quotidienne restent envahies par des termes français qu'on utilise spontanément"

La relation entre les deux langues est une relation de cause à effet. Les français, pendant leur existence ont enraciné leur langue et ont planté les premiers germes de sa résistance et si elle persiste

aujourd'hui, cela n'est que le fruit direct et logique d'une longue durée d'une politique d'assimilation.

Si on évoque la langue française en Algérie, personne ne peut nier le côté historique du phénomène.

Autre remarque que nous trouvons nécessaire à signaler dans ce corpus, même celui analysé précédemment, la langue française même si elle est le résultat d'une période douloureuse n'est pas rejetée. Tous nos informateurs insistent sur son utilisation et son utilité.

2.2.4 Rapport langues/cultures : un espace d'interculturalité

Le contact des langues et surtout s'il s'agit de deux langues qui ont vécu côte à côte, pendant une longue durée, a donné naissance à l'interculturalité et au besoin de diversité. Ce désir de connaître l'autre a créé chez l'Algérien, une envie d'apprendre la langue de l'autre, cette envie qui est devenue une fin et le moyen pour y parvenir reste sa langue maternelle. C'est ce que nous lisons dans le corpus (11) : "L'unique relation existante entre les deux langues est le réfèrent culturel. En parlant cette langue, nous pensons toujours en langue d'origine mais cela n'évite pas l'influence du français sur notre langue".

La lecture de ce corpus donnerait à penser aussi au rapport langue/culture, cette relation étroite qu'entretient chaque langue avec la culture qu'elle véhicule. Ceci nous rappelle l'idée de SAPIR qui voit que chaque langue est une vision du monde mais une vision

partielle. Le monde objectif existe en soi mais l'accès à ce monde n'est possible à l'être humain, qu'à travers les structures que lui offre sa langue. Il pense aussi qu'il existe autant de *« "visions du monde", autant de cultures qu'il existe de langues. » (5)*

Mais dans la deuxième proposition du corpus, nous lisons les craintes de certains pays à l'égard des langues étrangères les plus puissantes qui menacent leurs langues locales sur leurs propres territoires. Cette crainte est exprimée clairement chez les informateurs (17) et (18).

2.2.5 Rapport de conflit

Il existe seulement deux énoncés où le rapport de force ou de conflit est exprimé clairement, « vu son utilité, l'Algérien doit maîtriser le français mais sans oublier ses racines. » (15). Dans cet énoncé, l'informateur avoue l'importance de la langue étrangère sur un terrain qui n'est pas le sien. Cette importance nécessite son bon usage en visant sa maîtrise comme un objectif et un devoir des citoyens algériens.

Cependant, cette expression est suivie d'un « mais »jouant le rôle d'un modérateur au sens de « Le français, oui mais… ». Cet énoncé n'exprime t-il pas une forme de culpabilité linguistique ? N'exprime t-il pas la honte de défendre ouvertement la langue de l'autre ? La honte d'avouer la dominance de cette langue et son utilité dans une société qui n'est plus la sienne.

Cette culpabilité est accentuée par la surdésignation de la langue arabe au sein de l'énoncé : « Même si la langue arabe est la langue officielle des Algériens, le français jouit jusqu'aujourd'hui d'une place importante. Alors, nous devons maîtriser le français sans oublier notre langue nationale. » (16). Le désignant de la langue arabe doublé par « langue officielle », « langue nationale » présente l'arabe comme élément porteur de l'identité nationale qui doit être préservé et protégé de la présence du français présenté comme un danger, comme comportant quelque danger.

Ces deux informateurs trouvent que la langue française même valorisée, porte en elle-même la trace de la soumission à l'ex-colonisateur. Cette position semble porter une certaine forme de déchirement, de culpabilité linguistique. Ces deux enquêtés semblent aussi gênés d'exprimer ouvertement une position en faveur de la langue française comme si c'était un acte de trahison à la langue qui véhicule leur identité.

2.3 Rapport langue française/dialectes algériens :

2. 3.1 Rapport d'interaction

L'Algérien dans ses communications quotidiennes, utilise l'arabe dialectal, le chawi ou le kabyle, cela dépend de sa langue maternelle mais des mots de la langue française s'infiltrent toujours dans ces langues. Cette influence exercée sur ces langues maternelles remonte à l'époque coloniale où le locuteur algérien était en contact avec l'interlocuteur français. Le phénomène concernant l'interaction

qui veut dire *"tout échange linguistique entre deux locuteurs" (6).*a donné naissance à l'apparition d'une langue véhiculaire due à ce mélange des différents codes. En effet l'appellation "mélange" a une signification très vague, car elle désigne le passage d'une langue à une autre, d'une façon vague, toute alternance ou « le code switching ». Pour notre cas, nous parlons de code switching conversationnel car les langues dont nous parlons accaparent l'espace de la communication orale.

Le code traduit le changement et les modifications qui se manifestent à l'intérieur d'une même conversation, d'une façon moins consciente et plus spontanée comme le montre les réponses obtenues. Tous nos informateurs ont parlé de cette relation d'interaction, de ce glissement des mots français au cours de leurs échanges linguistiques, ils ont tous affirmé que cela ne revient pas à l'incompétence linguistique, mais à l'habitude qui est une deuxième nature .

Un seul de nos informateurs qui a avancé l'insécurité linguistique comme cause de ce mélange, le corpus (9). Tout ce qui précède alors illustre que le français est infligé et « enraciné dans notre vie sociale » (12), il est présent, dans des situations formelles et informelles et « il jouit d'une place très importante dans la société algérienne » (12), autrement dit ; dans l'espace de l'oralité, le français et les autres langues locales interpénètrent et s'imbriquent.

2.4 Valorisation de la langue française

Il s'agit ici d'un point assez nécessaire dans notre enquête, il signifie dans le langage courant, une quête d'informateurs, une collecte de témoignage pour savoir quelque chose, de déterminer avec précision la valeur que chacun de nos informateurs attribue à la langue qu'il choisie pour la transmettre aux générations futures. En effet, nous avons remarqués que cette valeur ne réside pas dans un seul point mais elle se manifeste sous plusieurs et diverses formes et plans que nous tentons de présenter.

2.4. 1 Le français perçu comme le seul moyen du développement

Attribuer une grande valeur à une langue c'est mettre l'accent, en premier lieu, sur son utilité qui est *"liée aux poids économique des pays où cette langue est parlée (7).*en second lieu, c'est mettre le doigt sur le prestige dont jouit cette langue qui est *"le résultat de la richesse culturelle attachée à cette langue, de ce qu'on sait de son histoire et aussi de la considération qu'on a pour ses locuteurs (8).*

Sur le plan national, la langue française jouit d'un statut considérable et joue un rôle principal dans le progrès et ce à plusieurs niveaux (administratif, scientifique, technologique, politique et culturel) : "C'est une langue qui jouit d'un statut social appréciable vu son utilité dans les domaines : administratif, scientifique, et politique et surtout culturel". (4) (12). Comme nous voyons, il s'agit d'un énoncé assertif, affirmatif mais l'informateur marque sa subjectivité

par le biais de l'adjectif qualificatif à valeur très positive "appréciable", associé au statut social de la langue française.

Quand au développement, il est sous entendu, il apparaît par l'utilité de cette langue dans les divers domaines.Administratif : Le français est souvent utilisé dans les administrations privées et publiques mais aussi dans la correspondance administrative.

Scientifique et politique : Dans un premier lieu, le français à l'université et jusqu'aujourd'hui, est le seul moyen d'accès au savoir, toutes les branches scientifiques sont mises à la condition de bien connaître cette langue pour la bonne formation. Dans un second temps, les personnes possédant une culture de langue française sont elles qui bénéficient des emploies les plus privilégiés.

Culturel : ce paramètre sur lequel insiste notre informateur " … et surtout culturel", la conjonction de coordination ici prend la valeur de "mais" qui atténue la valeur des premiers paramètres cités précédemment par rapport au dernier. L'emploi de "et surtout" offre au culturel une valeur intense ; le français est le seul outil mis à notre disposition pour l'ouverture sur l'autre, sur les autres cultures et civilisations universelles car " c'est la deuxième langue parlée au monde après l'anglais" (5), (13). C'est cette langue qui va assurer le contact entre notre pays et le reste du monde.

La lexie du développement apparaît aussi dans les phrases suivantes : " elle représente alors, un outil d'épanouissement et

d'ouverture de l'esprit de l'apprenant " (4)." C'est une langue qui ouvre des horizons pour l'apprenant "(9), (12)

" C'est une langue du savoir et du technologie"(9)Ces énoncés assertifs, affirmatifs sont plus objectifs que les premières, nous remarquons l'absence des indices de la personne et les termes évolutifs. Dans les deux premiers énoncés, nos informateurs insistent sur le chemin du développement désigné par "le savoir","l'épanouissement" et" l'ouverture de l'esprit". Ces trois éléments sont nécessaires pour ouvrir les différents horizons et améliorer les conditions de l'existence dont le seul moyen est la langue française véhicule de la pensée et de l'enseignement scientifique.

Dans le troisième énoncé, l'informateur a parlé de la technologie qu'on ne peut pas la séparer du savoir et de science, trois éléments constituent la base du progrès et de l'autonomie de la créativité. N'oublions pas le plan économique :" elle est le moyen contemporain de tous les progrès économiques et technologiques". A la tête de notre informateur, le français est le moyen de relation et contact avec les entreprises étrangères car l'anglais chez nous est peu utilisé.

A partir de tous que nous avons dit, nous pouvons conclure en disant que, d'après nos informateurs, le français dans la société algérienne bénéficie d'une place privilégiée car il est très riche et « comble les vides qu'engendre la langue arabe dans les domaines

scientifiques » (13). Mais, notre langue serait-elle vraiment pauvre et inapte à véhiculer la modernité et le développement ?

Si la langue arabe a prouvé à un certain temps sa capacité éblouissante à l'assimilation des sciences, sa faiblesse aujourd'hui dépend du monde arabe entier qui n'a pas manifesté un vouloir d'assimiler la technologie moderne et n'a pas cherché des remèdes efficaces à ses problèmes.

2.4.2 Le français perçu comme moyen de communication :

Vu son usage dans la société algérienne, dans toutes les institutions et les établissements, le français est perçu comme moyen de communication permettant le contact non seulement entre les Algériens, mais aussi avec l'autre, avec l'étranger :"C'est la deuxième langue parlée au monde après l'anglais" (5). Ceci lui donne le caractère d'une langue internationale permettant la communication intercommunautaire.

Quant à l'anglais, langue hypercentrale, elle est peu usée chez nous malgré qu'un de nos informateurs la classe en premier rang :"J'enseigne le français et je le classe en deuxième position après l'anglais et avant l'arabe". (7) L'arabe classique chez nos informateurs est situé en troisième rang, vu son utilisation limité aux communications formelles.

Alors, le français est considéré comme langue véhiculaire, utilisée dans des contextes précis, entre le citoyen algérien et l'autre tant qu'"elle est maîtrisée plus que les autres langues étrangères " (8).

De plus, elle est "comme toutes les autres langues, elle véhicule un système de valeurs" (11), elle est le reflet d'une société différente de la nôtre, elle comporte d'autres valeurs et pour les bien connaître, la langue en est le seul moyen.

2.4.3 Valorisation liée à l'aspect culturel

L'aspect culturel, comme nous le savons tous, est indissociable de la langue, cette dernière qui nous permet d'appréhender et interpréter les données d'un autre monde matériel et social différent de notre, *« l'interrelation de la langue et de la culture est depuis longtemps reconnue par les ethnologues comme un point d'ancrage de l'enseignement de toute langue vivante (...) le culturel sous-entend le linguistique et réciproquement (9).*

Le français est chez nos informateurs est le moyen qui nous aide à ne pas être prisonnier des structures de notre langue :"J'enseigne le français pour apprendre et faire savoir aux élèves une langue étrangère c'est-à-dire une valeur culturelle" (6) Le terme culture est riche de signification, qui dit culture, dit langue, vision du monde, un ensemble de phénomènes sociaux. La culture contient la littérature qui est le reflet de la société et qu'on considère couramment comme une communication savante marquée par deux préoccupations l'une est esthétique, l'autre humaine : « Le français est riche de valeurs humaines par le biais de sa littérature "les romans" » (9).

Alors, c'est cet étranger qui va faciliter « l'ouverture sur les autres cultures » (17) et enrichir la notre car une culture qui ne s'enrichit pas des autres disparaîtra.

2.4. 4 Le français perçu comme un acquis révolutionnaire :

Le français en tant que langue vivante reste le moyen à aboutir à nos buts :"Le français langue vivante reste à nos yeux un acquis révolutionnaire qu'il faudra revaloriser pour répondre aux attentes des masses prometteuses " (2).

Dans cet énoncé, l'informateur marque sa présence et atténue le caractère d'objectivité par l'usage de l'expression « à nos yeux », mais nous pouvons la considérer comme une contextualisation de la langue française, dans le contexte algérien. L'informateur relie la présence du français, sur un territoire qui n'est pas le sien, à la colonisation et présente la langue comme un héritage de ce dernier mais non comme une langue haie et rejetée. Tous les informateurs l'ont valorisée et approuvé sa récupération et son utilisation.

Le français est considéré comme un élément modificateur, comme un élément principal qui a bouleversé notre société. Aujourd'hui, il est utilisé massivement et presque dans tous les domaines et toute personne cherchant l'épanouissement, le savoir et le progrès, cette langue est l'outil qui répond à ses attentes.

Conclusion:

Grâce à l'analyse des réponses obtenues, après l'enquête de terrain que nous avons menée, nous avons constaté que la plupart de nos informateurs trouvent que la langue française qui était enracinée en Algérie par la force, sa présence actuelle sur le territoire algérien est par besoin et nécessité et, même si nos enquêtés valorisent cette langue, certains parmi eux la présentent comme un danger pour la langue arabe et la culture arabo musulmane. Notons aussi que nos informateurs sont conscients de la place primordiale qu'occupe le français chez nous tant qu'il reste le seul moyen permettant l'accès au monde de l'autre, tant qu'il demeure le seul moyen de réussite sociale et économique.

REFERENCES BIBLIOGRAPHIQUES

(1) BENVENISTE E. : « *Problèmes de linguistique générale* ». 1996. T.1-2. Paris : Gallimard. 1996.

(2) SEARLE J. : « *Les actes de langage* » 1972. Paris. Hermann.

(3) CALVET L.J. : « *Pour une écologie des langues du monde* ». 1999. Plon. Paris.

(4) MORSLY D.« Des instituteurs et leurs langues, Représentations linguistiques ».1999. Dans *La place des formes d'expressions populaires dans la définition d'une culture nationale*, 20-22 novembre 1999. Université Mouloud Mammeri, Tizi Ouzou, p.107-115.

(5) SHARF F. : « *Langages et connaissance* ». 1969. Paris : Antropos, p.66 – 67.

(6) CALVET L. J. « *Interaction commerciales en situation plurilingue* ».

L'interaction, Buscila. 1989. p. 147

(7) DABENE L. : « *Repères sociolinguistiques pour l'enseignement des langues* ».Hachette. Paris.1994. P.51.

(8) Ibid, p.51-53.

(9) MARTINE ABDELLAH-PRETCEILLE, *La perception de l'autre : point d'appui de l'approche interculturelle*, in *Le français dans le monde*, n°, 181, Paris : Larousse, p.40.

étude titrologique de « À quoi rêvent les loups » de Yasmina Khadra Pour une

Aziza Benzid

Université Biskra, Algrie.

Résumé :

Le roman de l'écrivain algérien Yasmina Khadra «À quoi rêvent les loups», est accompagné d'un certain nombre d'éléments titrologiques, qui le révèlent au lecteur. Ils se présentent comme un outil indispensable pour cerner la signification de l'œuvre littéraire et livrer les clés de sa compréhension. Comme ils participent aussi à l'édification d'un lieu d'échange entre l'auteur et le lecteur, en établissant « un pacte de lecture », qui vise à orienter le processus de la réception du roman dès le départ.

Cette œuvre contenant ces données essentiellement paratextetuelles, tel que le titre et tout ce qui l'entoure : les intertitres qui annoncent ses différentes parties, en plus, de la réserve des titres, vont donc contribuer à éclairer notre étude et d'en faire des points d'ancrage, susceptibles d'interpeller l'imagination du lecteur, ses compétences linguistiques et littéraires, mais surtout sa connaissance du contexte socio-politique de la production de ce roman, afin de le mieux comprendre.

الملخص:

إن رواية الكاتب الجزائري ياسمينة خضراء مصحوبة بعدد من العناصر ذات صلة بالعنوان ، حيث أنها تساهم بقد كبير في تسهيل مهمة القارئ في فهم معنى هذا النص الأدبي و تأويله .مما يؤدي إلى إرساء علاقة تحاور بين الكاتب و القارئ و ذالك منذ البداية .إذن العنوان ، العناوين الجزئية أو العناوين التناصية لهم تأثير كبير في دراسة هذه الرواية ، من خلال تسليط الضوء عليها ، مع مراعاة الدور المحوري الذي يلعبه القارئ ، معتمدا على مهاراته اللغوية و الأدبية ، و خاصة معرفته بالمحيط الاجتماعي و السياسي ، الذي كتب فيه هذا النص و ذالك من أجل استيعاب أفضل لمعناه.

Introduction :

Le roman de l'écrivain algérien Yasmina Khadra « À quoi rêvent les loups »(1), vint rejoindre en 1999 de nombreuses œuvres de la littérature algérienne d'expression française, mobilisées autour du drame algérien de cette décennie. C'est une littérature marquée par le sceau de la violence et la terreur: le lot quotidien du vécu algérien, qu'elle essaye de prendre en charge, à travers une écriture révélatrice des événements tragiques des années noires.

Dans cette optique, «À quoi rêvent les loups» pose un regard réel sur le drame algérien. C'est un roman porteur de réflexions profondes et d'observations critiques sur tout ce qui s'est passé en Algérie ces dernières années. Il se présente comme un pur témoignage sur une société en proie à la violence. Il aborde les questions épineuses de l'intégrisme à travers la narration de l'itinéraire de Nafa Walid ; le personnage principal du roman, invitant le lecteur à s'approcher de plus prés de l'histoire de l'Algérie contemporaine. En fait, le roman de l'écrivain algérien raconte l'histoire d'un jeune algérois, qui rêvant des feux de la rampe et de gloire mondiale, se trouve à la suite d'une scène humiliante, détruit à l'intérieur, désespéré et fragile.

Sans repères ni ressources, il monte au maquis terroriste et y adopte son discours idéologique. Dés lors, c'est une nouvelle personne qui naît, accueillie au sein d'une autre famille (les groupes islamistes armés), qui va lui assimiler son propre système de croyance.

La présente étude veut montrer, comment Yasmina Khadra a mis le titre de son œuvre, les intertitres, et même au delà du titre : la réserve des titres, au service de la trame romanesque, en les ancrant dans le contexte politique, social et idéologique des années 90.

1. Le titre et sa symbolique

«À quoi rêvent les loups » est un titre qui attire immédiatement l'attention du lecteur. Phrase interrogative qui exprime une demande d'information, il constitue une question qui interpelle une réponse. Le lecteur dérouté et intrigué par cette forme interrogative du titre, à la fois poétique et énigmatique, n'accède à la réponse que vers la fin du roman, qui éclaircit l'énigme posée par le titre et qui le situe dans le contexte socio – politique de sa production.

« À quoi rêvent les loups » est un titre métaphorique qui reflète une certaine esthétique qui attire immédiatement l'attention du lecteur dans une visée intentionnelle de la part de l'auteur, car la métaphorisation des textes romanesques provoque un effet fictionnel et littéraire qui les différencie des textes de langage ordinaire. L'image qui se présente dans la conscience du lecteur en face de ce titre, est celle de deux mondes qui ne peuvent se joindre ; celui des « rêves » et celui des « loups ». Deux univers qui s'opposent et se retrouvent d'emblée dans une «confusion lexicale », de ce qui se rapporte à l'homme ou à l'animal. Au fait, ce rapport homme/animal a toujours été une révélation sur les civilisations antérieures : *« Mise à distance on assimilation de la bête à l'homme, exploitation de l'animal par*

l'homme, divination, attrait on rejet s'accompagnent de rituels qui établissent une communication entre les hommes et le règne anima» (2).

Croire à la « métamorphose » et à la « métempsycose » a donc favorisé l'assimilation de l'homme à un « double » de l'animal, ce qui a donné naissance au mythe de l'incarnation des hommes dans les peaux d'animaux ainsi que leurs âmes et esprits, en acquérant une force démoniaque et un esprit néfaste. Ce qui confirme la nature inquiétante et la représentation de la mort dévorante des animaux. Et n'est- ce pas précisément cette dévoration, cette terreur animale alimentant le quotidien algérien des années 90, qui a conduit Yasmina Khadra à opter pour un titre où l'animalité est représentée par *«* les loups *»* ?

Ces derniers, considérés dans l'imaginaire populaire comme des animaux féroces qui n'hésitent pas à user de leurs forces contre des êtres plus faibles qu'eux comme il est cité dans les contes et les fables pendant des siècles; tel que, le fameux conte de Perrault *«* Le petit chaperon rouge *»* et la fable de La Fontaine *«* Le loup et l'agneau *»* : *«* L'agneau *»* qui symbolise la bonté et la bienveillance, et « le loup » qui incarne la méchanceté, la force brutale et sauvage qui s'oppose toujours à la bonté, au droit et à la justice. Cependant, « le loup », par le fait de sa lourdeur et de sa sottise, tombe fréquemment dans les pièges tendus par des bêtes plus intelligentes et plus rusées que lui, comme le montre généralement la fin des contes et des fables. C'est ce

qui arrive finalement à Nafa Walid, l'héros du roman et ses compagnons de sang vers la fin du roman. En faisant confiance à un sympathisant de leur idéologie, qui les a dénoncés à l'armée algérienne, ils sont tombés dans leur propre piège et se sont fait avoir *« comme des rat»(3).*

Le choix de Yasmina Khadra pour le mot « loups » comme stéréotype de la dévoration, a été guidé par les images quotidiennes d'« égorgement », et d' « ensanglantement» dans le vécu algérien. Ce qui a conduit Yasmina Khadra à déclarer : *« les écrivains sont (...) des sauveurs de l'espèce humaine. Ils n'interprètent pas le monde, ils l'humanisent. J'ai toujours voulu être au service de ce dernier bastion contre l'animalité »* [(4)].

Les propos de l'auteur se trouvent confirmés dans sa production littéraire, notamment «Les agneaux du Seigneur » paru en 1998 et « À quoi rêvent les loups » paru en 1999 (objet de notre étude) qui racontent tous les deux l'histoire terrible de l'Algérie contemporaine : celle des années 90. En fait, le syntagme nominal « loups » est cité trois fois dans le roman, une première fait dans la première partie intitulée « *Le Grand Alger »* et deux fois dans la troisième et dernière partie du roman qui porte pour titre : «*L'abîme* ».

C'est l'imam Younes, un des personnages principaux du roman, qui a évoqué pour la première fois le mot « loups » après que Nafa Walid, lui a raconté son histoire avec « les Raja », la grande famille bourgeoise algéroise, dont il était le chauffeur, ainsi que le

drame dont il était témoin dans la forêt de Baïnem. (L'assassinat d'une jeune fille par le garde de corps de cette famille). L'allusion aux « loups » par l'imam Younes, était pour représenter ce qu'il a appelé *« les grosses fortunes »* [(5)]. Il parlait d'eux comme : «*…des gens immondes, sans pitié et sans scrupules. Ils s'invitent pour ne pas se perdre* des *yeux, se délestent cordialement. Un peu comme* ***les loups*** [(6)]***,*** *ils opèrent en groupes pour se donner de l'entretien et n'hésitent pas un instant à dévorer cru un congénère qui trébuche »* [(7)] .

Cette représentation des « loups » (hommes riches) reflète une prise de position vis à vis de la classe bourgeoise, qui dénote une certaine situation conflictuelle au sein de la société algéroise, pour s'étendre à la société algérienne en générale: celle des « pauvres » qui habite les quartiers populaires et celle des « riches », qui réside dans les « beaux quartiers ». Cette représentation des « loups » semble être celle des « islamistes », que l'imam Younes se présente comme un de leurs portes paroles dans le roman.

L'évocation du mot « loups » pour la seconde fois ne désigne pas la même représentation que la première fois. Le mot « loups » est cité par «le muphti » de ce qu'on appelait « l'AIS » (Armée Islamique du Salut) la branche armée du parti politique FIS (Front Islamique du Salut), dissous à l'insu de l'arrêt du processus électoral en Algérie en 1992. Selon le muphti : *« ce ne sont que des opportunistes déguisés en bon samaritains, des* ***loups*** *sous des toisons de brebis , des diseurs de bonne aventure dont la vocation consiste à endormi les misérables sur*

des orties en leur faisant croire que le miracle éclôt dans les rêves. » (8).

C'est une représentation qui exprime un certain malentendu, voire un conflit entre les profanes de l'action armée, lors des moments ensanglantés des années 90. Chacun de ses groupes voulait s'approprier la sympathie du peuple algérien et l'adhérer à son idéologie.

L'image des « loups » se dessine pour la troisième et dernière fois dans la conscience de Nafa Walid, le personnage narrateur du roman. Après une escapade sanglante dans un hameau misérable enfoui dans le fin fond d'une forêt, qui n'épargna ni les « bêtes » ni les « avortons », eut la réflexion suivante:

« .... Et là, en écoutant le taillis frémir au cliquetis de nos lames , je m'étais demandé à quoi rêvaient les ***loups*** *, au fond de leur tanière , lorsque , entre deux grondements repus , leur langue frétille dans le sang frais de leur proie accroché à leur gueule nauséabonde comme s'accrochaient à nos basques , le fantôme de nos victime »* (9).

Par cette réflexion, le narrateur attribue à ces personnages des caractéristiques primitives et sous -entend sa propre transformation, ainsi que celle des hommes sous son commandement en des « hommes- loups », qui dans la croyance populaire sont considéré comme de : *« redoutable créatures mi-hommes mi-bêtes qui hantent les nuits des paysans. Symboles d'une solitude antisociale, en proie à une possession démoniaque, ils sont issu de la terreur nocturne.»(10).*

Les actes de saccage et de violence, commis par Nafa Walid, ont définitivement marqué son basculement dans le monde de «l'inhumain».

« À quoi rêvent les loups » est un titre qui assume aussi une fonction séductrice par l'attrait qu'exerce « le rêve » sur le lecteur, car il laisse libre cours aux débordements les plus incontrôlables de son imagination, car le rêve par : *« son expression la plus intime, la plus secrète, la plus impudique, la plus spontanée de l'individu ... échappe, à sa volonté et à son contrôle. Indispensable à l'équilibre biologique et mental de l'homme, il transmet à chacun sa « Zone d'ombre »* (11).

Le rêve considéré, comme un médiateur entre l'homme et son inconscient, est envahi par des images interprétées comme des *« prophéties à déchiffrer »* (12). avant l'avènement de la psychanalyse à cause de leur nature troublante et intrigante.

Le rêve « propre à l'homme », se trouve associé à l'animal (les loups), car la frontière est affranchie entre ces deux mondes par les actes de violence et de barbarie qui ont transformé des êtres humains en des bêtes féroces, assoiffées de sang et de vengeance. Ils ne sont plus des « hommes », ils sont devenus des « loups ». Le titre du récit khadraën est donc une interrogation sur les raisons de la violence que l'Algérie a connue pendant les années 90. Le lecteur tout au long de la lecture du roman va chercher la réponse à cette question à travers des indices socio–culturels, politiques, historiques qui jalonnent le récit de Yasmina Khadra.

Ce titre est aussi accompagné d'autres titres qui intitulent les trois partis du roman. Ces intertitres jouent le rôle de morcellement du titre général, afin de mieux l'expliquer et l'interpréter. Le lecteur aura ainsi l'occasion de saisir le sens du titre et du texte qui l'accompagne d'une manière claire et détaillée.

2. L'étoilement du titre : les intertitres

L'intertitre, ou le titre intérieur d'une partie ou d'un chapitre d'un roman entretient avec le texte qui le suit, les mêmes types de rapports que le titre. Il peut être entièrement repris par le texte, comme il peut l'être partiellement ou indirectement.« À quoi rêvent les loups » est un roman qui semble, a priori tisser sa trame romanesque autour des intertitres, qui le constitue pour orienter la lecture, car l'intertitre permet au lecteur un contact plus proche du texte. Le titre global donne une idée brève et générale du contenu de roman, il laisse le lecteur deviner l'histoire au fur et à mesure de sa lecture du texte, l'intertitre, quant à lui, prépare l'accès direct du lecteur aux événements narratifs.

Le titre intérieur, peut donc, être considéré comme un véritable titre qui fonctionne ,en tant que démultiplication du titre, conçu comme « un programme ». A ce propos, Gérard Genette déclare que l'intertitre : *« est une occasion ou une respiration du texte narratif et apparaît dans la plus part des romans où il figure comme une démultiplication du titre »* (13) .

L'intertitre annonce les actions majeures et trace leurs itinéraires, permettant au lecteur une meilleure compréhension du titre ainsi que du roman.

Les intertitres peuvent être considérés comme des passerelles entre le titre et le lecteur. Ils sont utilisés par un auteur comme des « facilitateurs », qui indiquent et facilitent la lecture du texte, du même que l'orientation de la réception se trouve d'emblée située, à partir de la démultiplication du titre. Dans le roman de Yasmina Khadra « À quoi rêvent les loups », on distingue trois intertitres pour les trois parties constituants le roman :

La première partie : *I – Le grand Alger.*

La seconde partie : *II – La Casbah.*

La troisième partie : III – *L'abîme.*

L'utilisation de ces intertitres pour les parties, fournit des indices sur le contenu de la partie et permet de guider, dans la mesure du possible, le lecteur lors de sa lecture du roman. On va voir que ces différents intertitres désignent les chemins, que le héros a empruntés au cours de son histoire tumultueuse.

La première partie de roman, a donc pour titre intérieur *Le grand Alger.* Cet intertitre accroche l'attention du lecteur et éveille sa curiosité, quant à l'interprétation qu'il doit lui donner. S'agit- il du « grand gouvernorat » d'Alger la capitale ? Ou « le grand Alger » qui évoque un monde mondain, une vie sociale sous sa forme la plus

voluptueuse ? Au fur et à mesure de sa lecture de cette partie, le lecteur découvre peu à peu que, *le grand Alger* désigne essentiellement un type de vie luxuriante, propre à une classe sociale bourgeoise qui jouit de certains pouvoirs privilégiés.

Cette découverte se fait à travers le récit de Nafa Walid, le jeune algérois d'origine très modeste, qui vient de la Casbah et devient le chauffeur de l'une des plus prestigieuses familles d'Alger (la famille Raja). Cette famille riche, qui vit dans un milieu huppé, semble ignorer la misère qui règne au dessous des hauteurs d'Alger, où elle réside. *Le grand Alger* ou *Alger mondain* devient donc, le symbole de la richesse, la modernité et la montée d'une bourgeoisie conquérante.

Le sentiment de ne point appartenir à la même ville qui préserve ses privilèges à la classe opulente et puissante, a fait éclater cet espace et Alger devient donc le théâtre de la tragédie algérienne actuelle, elle sombre dans la violence et c'est toute l'Algérie qui sombre avec elle dans le chaos.

Yasmina Khadra semble intituler la première partie *Le grand Alger* intentionnellement : cet intertitre résonne comme une entrée pour la deuxième partie qui porte pour titre : *La Casbah.*Le passage de l'intertitre *le grand Alger,* au titre intérieur *« la Casbah »* marque la grande différence qui existe entre ces deux mondes différents au sein d'une même ville, (Alger la capitale). Le premier intertitre représente le visage mondain, prestigieux et opulent et le deuxième,

désigne la Casbah, la veille ville d'Alger avec ses rites et ses traditions, mais aussi peuplée par une classe sociale démunie, qui semble nourrir des griefs contre la vie confortable, menée par les grandes familles algéroises riches.

La Casbah est un « titre espace » qui situe le récit dans un espace géographique déterminé. Il donne un bref aperçu de l'action et offre au lecteur la possibilité de déduire le contenu de la partie et s'attendre à des évènements, qui se déroulent à la Casbah. Effectivement, désillusionné et déçu par *le grand Alger*, Nafa se refuge dans *La Casbah*, son lieu de naissance et de protection. Cependant, cette veille ville d'Alger n'est plus cette mère protectrice, elle bout intérieurement, elle veut dévaster sa haine et prendre sa revanche sur ceux qui l'ont tenu à l'écart de leur richesse et souillé son nom dans la misère et la pauvreté.

La Casbah tombe dans *l'abîme* et Nafa avec. La Casbah, qui va se trouver en plein pied dans les bouleversements sociopolitiques de la décennie 90, devient un lieu de prédilection pour le recrutement dans les groupes armés, des hommes déchus par leur quotidien misérable. *L'abîme*, l'intertitre de la troisième et dernière partie du roman, trouve sa pleine signification au cours de la lecture du roman. *Abîme* du grec «abussos », veut dire « sans fond ». *L'abîme* est employé comme un titre annonciateur de bousculement des évènements où le personnage principal Nafa Walid, se trouve entraîné malgré lui. *L'abîme* représente le chemin de la violence qu'emprunte

Nafa vers la fin du roman. En devenant *émir,* il sombre dans la voie de la mort, du sang et de la terreur.

Ce titre marque la fin de rêve, que Nafa Walid portait en lui et à travers lui, c'est la fin des rêves d'une génération de jeunes algériens, qui espéraient après les émeutes d'Octobre 1988 à une vie décente et à un avenir meilleur que leur présent. Au lieu de ça, ils assistent, voire participent à l'écriture d'une nouvelle histoire de l'Algérie contemporaine, pétrie de sang et de violence.

Les trois intertitres désignent clairement le parcours suivi par Nafa et les étapes de son ascension et de sa chute tout au long du roman. Ils assument une fonction de complémentarité entre eux. Ils annoncent et résument le contenu de chaque partie. En ce sens, ils sont d'une grande importance dans la compréhension générale du titre de roman et laissent le lecteur se familiariser avec le texte, à le préparer à suivre l'itinéraire parcouru par le héros khadraïen.

En somme, les intertitres sont des outils non- négligeables dans la lecture du roman et l'interprétation de son sens. L'auteur semble offrir une sorte de fil conducteur au lecteur, en le mettant en état d'imprégnation avec le texte et le préparant à mieux le recevoir. Néanmoins, pour comprendre le roman de Yasmina Khadra, dans le contexte sociopolitique et culturel des années 90, il faudrait aller au delà du titre « À quoi rêvent les loups », pour cerner sa relation avec d'autres titres des écrits romanesques algériens de la même époque,

notamment ceux de l'écrivaine algérienne Malika Mokkadem et de Yasmina Khadra lui-même.

3. Au delà du titre : la réserve des titres

Pour Henri Mitterand : *« Le titre, enchaîné à son texte, est également corrélé aux autres titres du même écrivain, du même genre, de la même époque, avec lesquels il constitue un paradigme plus ou moins extensif »* (14) .

Ces propos viennent étayer ce que Claude Duchet appelle « l'intertexte des titres » ou la « réserve des titres ». La compréhension d'un titre particulier, repose sur l'étude systématique des titres d'une époque déterminée, la relation qu'entretient le titre avec les autres titres des auteurs appartenant à la même période ou de l'ensemble lui-même, c'est à dire examiner sa situation dans l'ensemble des titres qui lui sont contemporains ou antérieurs. Ce qui engendre des « modèles hérités », générés par des règles et de stéréotypes propres à une époque précise et qui se reflètent dans l'appareil titrologique.

Le titre du roman « À quoi rêvent les loups » se trouve pleinement interpellé dans « l'intertextualité des titres ». Il fait écho à d'autres titres de la même époque (les années 90), cette décennie qui voit abonder sur la scène littéraire algérienne des écrits sur ce moment tragique de l'histoire de l'Algériei.Cette production littéraire est marquée par le sceau de la violence et de la terreur qui se manifestent dans certains titres d'auteurs algériens, tel que le titre de roman de Malika Mokkadam « Des rêves et des assassins » (15).

paru en 1995. C'est un roman qui raconte l'histoire d'une jeune femme née en France, mais qui passe son enfance, son adolescence et ses études universitaires en Algérie. Au sommet de sa réussite professionnelle et son ascension sociale, elle se trouve menacée par la montée de la violence et l'agression, qui envahit l'Algérie pendant les années 90. Elle repart pour la France, puis au Canada emportant avec elle ses rêves assassinés.

« À quoi rêvent les loups », « Des rêves et des assassins » : deux titres de deux romans, qui ont un syntagme commun « le rêve », le rêve de toute une génération d'écrivains, qui après les évènements d'Octobre 1988, fondaient beaucoup d'espoir sur une Algérie démocrate, libre qui assume pleinement sa modernité et sa maturité politique : « *les intégristes voudraient assassiner l'âme de ce peuple et son identité plurielle. Et nous, et nous qui voulions une démocratie ! Les nôtres sont égorgés comme des moutons de Laïd.* » (16).

Les rêves, les espérances de toute une classe érudite, l'élite de la société se trouvent, malgré eux, brisés dans la marée sanglante, où s'enfonçait l'Algérie après l'arrêt du processus électoral en 1992.

Ce phénomène d'intertexte des titres existe même au cœur des textes romanesques de Yasmina Khadra. Son roman « Les agneaux du Seigneur » (17).

écrit en 1998, raconte lui aussi les évènements terribles, qui ont secoué l'Algérie pendant les années 90.C'est le récit d'une

paisible bourgade algérienne « Ghachimate », qui assiste à l'éclatement de la crise politique, suite à l'arrêt du processus électoral en 1992 et le déclenchement de l'action armée par les enfants du pays. Le titre «Les agneaux du Seigneur» désigne l'irréversible métamorphose de doux agneaux (les jeunes de Ghachimate) en monstres sanguinaires ; des hommes – monstres :

« Le règne de la terreur a commencé. La vallée entre dans un monde parallèle, jalonné d'atrocités. Le soleil en rut ne débarrassera pas les jours de l'obscurité ambiante. Quand vient la nuit, ogresse foubre et boulimique, elle traque les gents et les bruits et tout le monde se terre et se tait. » (18).

«Les agneaux du Seigneur » écrit une année plus tôt que « À quoi rêvent les loups », n'instaure-t-il pas une tradition titrologique dans le profil de titres de Yasmina Khadra ? L'animalité est très présente dans les deux titres : *«* agneaux » dans « les agneaux de Seigneur*»,* innocentes créatures, qui évoquent les victimes de l'horreur quotidienne et la dévoration sanglante, « loups » dans « À quoi rêvent les loups » symbolise des hommes, partisans de l'action armée qui sèment la mort suffocante dans leur sillage.

Ces deux titres semblent constituer un seul titre pour une œuvre à deux parties, ou « un roman à propos d'un autre roman ». Ils forment une continuité romanesque sur les mêmes événements de la décennie noire. Ils constituent donc « les deux revers d'une seule médaille».

Ainsi, « Des rêves et des assassins » ne rejoint il pas lui aussi le corpus des titres de Yasmina Khadra «les agneaux du Seigneur » et « À quoi rêvent les loups » ? Ne contiennent ils pas le même discours sur la réalité désenchantée du quotidien social et politique algérien ? Cette trilogie de titres s'imprègne du même désespoir, d'amertume et de perte d'illusions devant une actualité dramatique, monopolisant les attentions et les attentes de cette troisième génération d'écrivains. Ces auteurs contemporains voulaient transmettre dans leurs écrits, leurs rêves confisqués, leurs espoirs déchus, noyés dans les bouleversements sociopolitiques, qui ont déchiré l'Algérie pendant une partie de son histoire.

Conclusion :

Les éléments titrologiques du roman de Yasmina Khadra, « À quoi rêvent les loups » ont donné au récit une dimension humaine qui interpelle l'esprit et le cœur du lecteur, et au-delà de lui l'homme, pour le sensibiliser au sort des êtres humains victimes de la violence terroriste.

Cette dernière que l'auteur devait lui mettre fin en l'assiégeant de toute part (Nafa et ses hommes ont été mis en siège vers la fin du roman) pour qu'elle ne déborde pas une fois encore sur las années à venir, c'est-à-dire, l'ère du nouveau siècle, qui se pointe comme un nouvel pan de l'histoire de l'Algérie contemporaine où l'homme algérien est appelé, plus que jamais, à prendre son destin en main, à renouveler sa propre vision du monde, à prendre en charge les défis nouveaux de sa société et assumer pleinement sa responsabilité historique envers son pays.

Yasmina Khadra a adopté le réel de la décennie noire pour raconter son pays, décrire ses lieux de souffrance et animer ses lueurs d'espoir. L'auteur en mettant fin à l'histoire ensanglantée de Nafa Walid, a voulu donner un espoir pour le lecteur, ébranlé par les événements de ces dernières années, le rassurer sur le devenir de l'Algérie qui s'avère paisible et plus généreux.

❖ Notes & Bibliographie

(1) KHADRA, Yasmina, *À quoi rêvent les loups*, Julliard, Paris, 1999, Pocket, 2000.

(2) PONT- HUMBERT, Catherine. *Dictionnaire des symboles, des rites et des croyances*, Jean Claude Lattès, Paris, 1995, p.57.

(3) KHADRA, Yasmina, *À quoi rêvent les loups*, ibid. p 274.

(4) Ibid. p.47.

(5) Ibid. p 85.

(6) Les mots en gras sont soulignés par nous.

(7) KHADRA, Yasmina. Ibid. p 85.

(8) Ibid. p 227.

(9) Ibid. p 264.

(10) PONT -HUMBERT, C, ibid. p. 255.

(11) Ibid.

(12) Ibid, p.355

(13) GENETTE, Gérard. *Seuils.* Seuil, Paris, 1987. p.281.

(14) MITTERAND , Henri . *Les titres des romans de Guy De Cars* in *Sociocritique*, Nathan, Paris, 1979, p.92.

(13) MOKEDDEM, Malika. *Des rêves et des assassins*, Grasset Fasquelle, Paris, 1995.

(14) Ibid., p.35.

(15) KHADRA, Yasmina. *Les agneaux du Seigneur*, Julliard, Paris, 1998, Pocket, 1999.

(16) Ibid., pp.129-130.